واكيم برنز

بابوات يهود

من غيتو روما

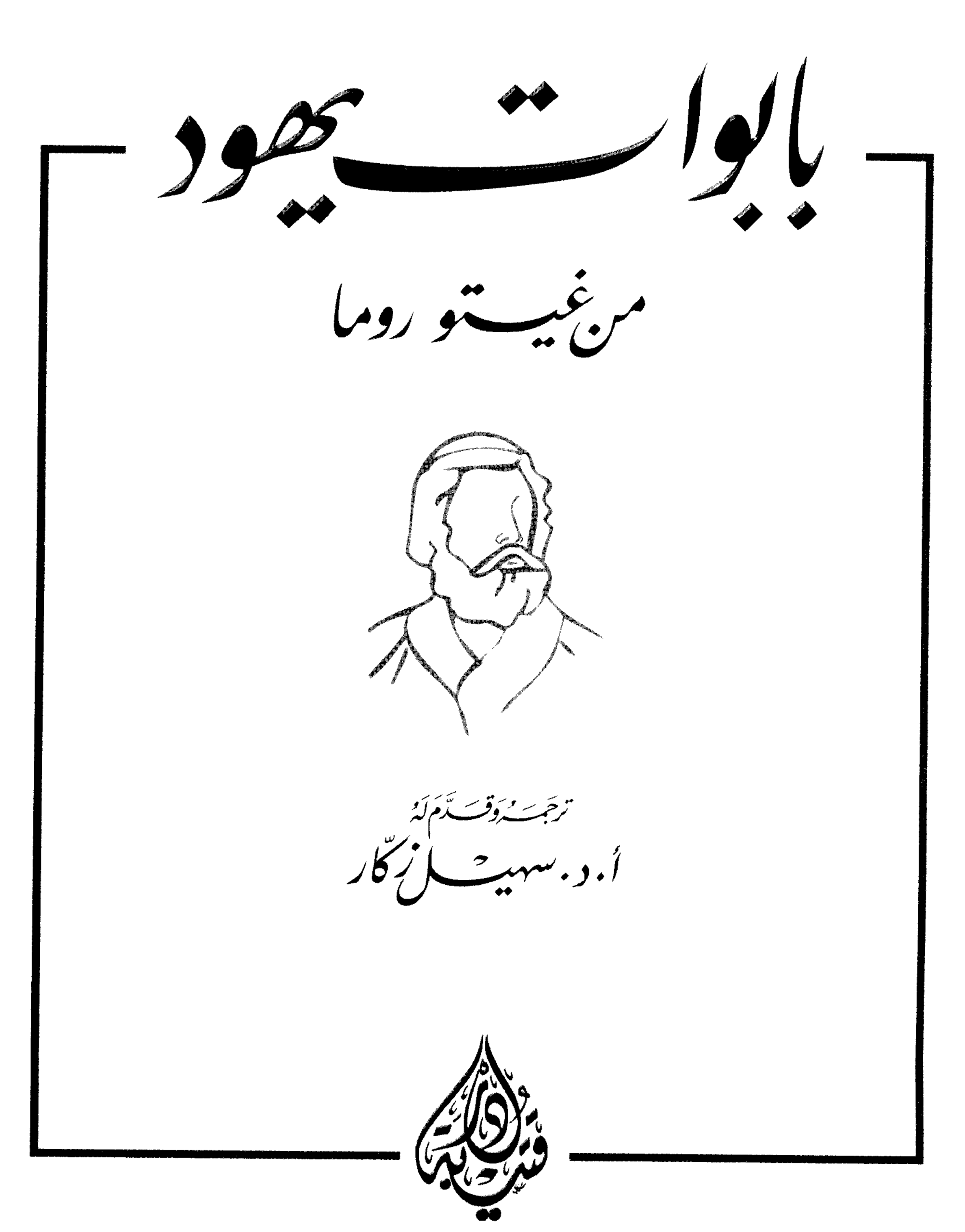
ترجمه وقدم له

أ. د. سهيل زكّار

واكيم برنز

بابوات يهود

من غيتو روما



ترجمه وقدّم له

أ. د. سهيل زكّار

الترجمة الكاملة لكتاب

Popes From the Ghetto
By
Joachim Prins

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يعد القديس أوغسطين (353 – 430م) على رأس آباء الكنيسة الكاثوليكية الأوائل، وبين أهم المفكرين الكاثوليك الذين أسهموا في صنع العصور الوسطى، أو عصور الظلام في أوربا الغربية، العصور التي استبدت بها الكنيسة الكاثوليكية بجميع مناحي الحياة الدينية والاجتماعية والفكرية والتعليمية، وحاولت أيضاً بسط سيطرتها السياسية على أوربا كلها، لا بل على العالم أجمع بزعامة البابوية، ولهذا دخل البابوات في نزاعات دموية مريرة مع الحكام الزمنيين وعلى رأسهم الأباطرة الغربيين، واستخدم البابوات جميع الأسلحة من دينية وسياسية وعسكرية واقتصادية في الصراعات، ولم يتورعوا عن اللجوء إلى وسيلة من الوسائل مهما كان لونها ومهما كانت قسوتها ووحشيتها وبعدٍ عما بشر به السيد المسيح.

وتاريخ البابوات مهم جداً، يحتاج إلى أكثر من كتاب منفرد، وقد أُقْدم على التأليف في هذا الميدان الخطير إن شاء الله وأعان، ولعله يكفيني الآن العودة إلى القديس أوغسطين، لأذكر أنه كتب عدة كتب من أهمها كتاب حمل اسم «مدينة الرب» أراد أن يقول فيه بعد عرض طويل بأن روما حاضرة الإمبراطور الشيطان كانت قبل أن تسقط هي وإمبراطوريتها، كانت مدينة الشيطان، يحكمها الإمبراطور الشيطان، لكن بعدما سقطت وصارت مسيحية باتت مدينة الرب، يحكمها البابا نائب الرب على الأرض، فهل كان هذا ما حدث، وهل كان البابوات ممثلين للرب في حكمهم وإدارتهم وتصرفاتهم، أم أنهم كانوا أسوأ من الشيطان نفسه، وأكثر شراً ودموية ووحشية؟

وندع الإجابة على هذا السؤال إلى المدونات التاريخية الصحيحة، وهي كثيرة جداً، كتب جلُّها في العصور الوسطى، إن لم نقل كلها من قبل رجال لاهوت، كانوا من أتباع الكنيسة

الكاثوليكية ودانوا بالطاعة للبابا ، ويكفي أن أشير هنا إلى كتابَيْ ورود التاريخ ، والتاريخ الكبير لمتى باريس ، وقد ترجمتهما وطبعتهما في كتابي الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية .

ونظراً لأهمية المنصب البابوي تنافس عليه الكثيرون ، وتمكن أكثر من أربعين رجلاً من الحصول على هذا المنصب عن طريق الشراء ، وفي الكتاب الذي أقدم له حكاية أسرة يهودية تجارية ، كانت من أبرز أسر روما ، استطاعت أن تستحوذ على العرش البابوي لوقت طويل بعدما تظاهرت بالتحول إلى المسيحية ، لأن اليهودي عندما يتعمّد ، أو يعلن عن دخوله بديانة أخرى ، يقوم بتجديد إيمانه بيهوديته ، وكنت منذ وقت قريب نشرت كتاباً عن يهود قاموا بإسهامات كبيرة في تاريخ بعض الدول الإسلامية ، خاصة الفاطمية والايلخانية ، وأتقدم اليوم بهذا الكتاب مبيناً أن اليهودي هو الأقدر على التكيف وإبطان ما لا يظهره ، وأننا عندما نقرأ أخبار السيرة النبوية ، كانت المواجهة في المرحلة المكية بين المسلمين والمشركين ، من دون فئة وسطى بينهما ، لكن جاء إلى الوجود في المرحلة المدنية فئة وسيطة ، هي فئة المنافقين ، وعانى الإسلام طويلاً من النفاق ومازال يعاني .

وفي الكتاب الذي أقدم له الكثير الكثير من المعلومات الثمينة ، وهو من تأليف رجل كان حاخاماً لمدينة نيويورك ، ومع المعلومات التي أودعها في كتابه سوف أذكر بعض المعلومات الإضافية الكثيرة الأهمية زيادة للتوضيح ، وتأكيداً لما قاله الله في كتابه العزيز : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ [سورة المائدة : 82] ، وقوله جل من قائل : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة : 120] وكذلك قوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة : 51] .

وقبل تقديم بعض المعلومات ، قد يقول قائل في هذه الأيام : ولماذا البحث في تاريخ الأديان والعقائد ، إن ذلك قد يثير التوتر والحساسية ، والجواب على هذا : لماذا البحث في التاريخ ، وهل يمكن الاستغناء عنه؟ ثم الجواب بداية : لا يمكن ، إذ لا يوجد في التاريخ مناطق محظورة وأخرى مفتوحة ، ولا فارق أن يبحث الإنسان التاريخ السياسي والتاريخ الديني ، لا بل لم يوجد في التاريخ حدث سياسي محض ، من دون جوانب دينية عميقة ، ومحرضات عقائدية عميقة ، ففي نشيد رولاندو أوصى شارلمان جنوده : لا تقبلوا من المسلمين إلا السيف أو العماد ، وفي عام 1095م أعلن البابا أوربان الثاني الحروب الصليبية ضد الإسلام والمسلمين ،

وفي أيامنا هذه استخدم الرئيس بوش لدى حديثه عن غزو العراق كلمة صليبية عدة مرات، والذين أنجحوه في انتخابات الرئاسة هم أتباع الكنيسة التي ينتمي إليها، وهي كنيسة المتطهرين الجدد، أو الذين ولدوا بالعماد من جديد، وقد قيل بأن عددهم يقدر بسبعين مليون إنسان، وسمعت مؤخراً من إذاعة لندن وهي تنقل عن مراسلها في واشنطن وهو يصف مرشحة الرئيس بوش لوزارة الخارجية بأنها مثله متحمسة تؤمن بالتبشير بالمسيحية.

علاوة على هذا كثرت في أيامنا الكثير من الأبحاث حول صراع الحضارات، أو بالحري الصراع بين الإسلام والتراث الغربي الممثل للحضارة الكلاسيكية اليهودية المسيحية، ولهذا كثرت في هذه الأيام الكتب والمقالات في تاريخ الديانات، بالدرجة الأولى حول المسيحية، ثم الأدنى حول اليهودية علماً بأن الدراسات ضد المسيحية هي بالمقام الأول لصالح اليهودية، ولهذا توصف الآن أعداد كبيرة جداً من مسيحيي الغرب، خاصة في الولايات المتحدة بأنها «يهودية - مسيحية»، ونظراً لتماسك العقيدة الإسلامية وقوتها ووثائقية القرآن الكريم، ولإتّسام التاريخ الإسلامي بشكل عام بالأخلاق والإنسانية، أراد الغرب الآن اتهام الإسلام بالإرهاب، ومهاجمة النبي صلى الله عليه وسلم واتهامه بالشبق، ناسين أن الغرب هو الذي شن الحروب الصليبية، وأن الذين هاجروا من الغرب إلى أمريكا الشمالية، كان عدد الهنود الحمر الذين قتلوهم حتى عام 1900، لا يقل عن مائة وسبعة عشر مليوناً، وما من أحد ينسى الأعداد الهائلة من البشر الذين قتلوا في الحربين العالميتين الأولى والثانية، ثم إن السجل التاريخي للولايات المتحدة الأمريكية هو الأكثر دموية ووحشية، من هيروشيما، إلى كوريا الشمالية، إلى فيتنام، ثم أفغانستان فالعراق، نضيف إلى هذا أن الكيان الصهيوني قتل وشرد، ومازال يقتل ويشرد الآلاف من العرب الفلسطينيين بالسلاح الأمريكي والنفقات الأمريكية.

يتوجب على المؤرخ المنصف أن يذكر الأمور بأسمائها بكل وضوح ومن دون مواربة وهكذا عليه تبيان نأي الإسلام عن الإرهاب، وتحريمه لسفك الدماء، وتكفي هنا الإحالة إلى خطبة الوداع، وإلى ما نشر حديثاً حول تاريخ الحركات المعاصرة التي سموها إسلامية ثم إرهابية، حيث سنجد أن المؤسس لها والراعي وكالة المخابرات الأمريكية المركزية، أما ما يتعلق بالجنس والشبق، فقد جاء بالأمثال: رمتني بدائها وانسلت، وبالفعل الانهيار

الأخلاقي والانحرافات وقانونية اللواطة والزواج بين الرجال، والإباحة الجنسية ليست موجودة بين العرب ولا بين المسلمين، والكل - عن طريق الفضائيات ووسائل الإعلام الأخرى - يعرف أين هي، ومن أين انتشر مرض الإيدز وغيره، والذين يتهمونه صلى الله عليه وسلم عليهم أن يتذكروا أنه اكتفى بزوجة واحدة من سن الخامسة والعشرين حتى ما بعد الخمسين، وكانت هذه الزوجة أسن منه بخمس عشرة سنة وأنه قبل البعثة كان يمضي الأيام الطوال، شهراً أو أربعين يوماً، متحنثاً لوحده في غار حراء، وما زيجات المرحلة المدنية إلا كانت لأسباب اجتماعية وسياسية محضة.

وعقد مقارنة بين قيام الإسلام، وانتشاره القائم على مبدأ لا إكراه في الدين، وبين انتشار الكاثوليكية في أوربا، نجد أن الإسلام حرص كل الحرص على العلم والمعرفة، وفتح جميع الآفاق أمام ذلك، فكانت المحصلة قيام الحضارة العربية الإسلامية الإنسانية العظيمة، وبالمقابل كان للكنيسة الكاثوليكية أثرها المدمر على الثقافة الكلاسيكية، فبعد تسلمها القيادة توقفت جميع النشاطات في ميادين الطب والتقنيات، والعلوم، والتعليم، والتاريخ والفن، والتجارة، والفلسفة والشعر والآداب والنحو، وهكذا دخلت أوروبا الغربية عصور الظلام، جمعت خلالها الكنيسة ثروات هائلة، لكن بالمقابل اختفى كل ما يتعلق بالحضارة.

واختلف الحال كثيراً في أوربا الشرقية والأقاليم المسيحية الأخرى، وعندما عانت البلدان الأوربية الغربية من كثير من الأوبئة والطواعين، لم يكن هناك لا دواء ولا أطباء، إلا رجال اللاهوت، الذين لجأوا إلى بتر الأعضاء المصابة بكل وحشية قاتلة، أو اعتمدوا وسائل الفصد، لذلك حصدت الأمراض أعداداً هائلة من السكان وساعد على انتشار الأوبئة تشجيع الكنيسة على عدم الاغتسال وإلغاء المراحيض والحمامات.

وأحرقت الكنيسة بتوجيه من البابوات كميات هائلة من الكتب، فالمسيحيون هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية، وظلوا يحرقون من دون توقف، حتى أنه جرى إحراق عدة ملايين من المخطوطات العربية في غرناطة بعد سقوطها.

وحين شهدت أوربا الغربية في القرن الحادي عشر ميلادي بداية تحركات اجتماعية واقتصادية جديدة، ولأن البابوية عجزت عن مسايرة التطورات، ولأنها لم تكن راضية عنها، لهذا ولأسباب أخرى أعلن البابا أوربان الثاني عام 1095م عن قيام الحروب الصليبية.

وشغل أوربا والأوروبيين لأكثر من قرنين في استنزاف طاقاتها البشرية والاقتصادية في سبيل قتل العرب والمسلمين، وعندما أخفقت الحروب الصليبية إخفاقاً كبيراً، تحالفت البابوية مع المغول، ثم بعد إخفاقها مع المغول، بفضل الوحدة ما بين سورية ومصر كلفت مارينو سانوتو بوضع خطة لعزل مصر عن الشام وعن العرب والمسلمين، وفعلاً وضع كتاب الأسرار، وليس مدهشاً إذا قلت أن مشروع سانوتو قد جرى تنفيذه في كامب ديفيد، وكنت قد ترجمت هذا الكتاب وطبعته في الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية.

ومع القرن الرابع عشر للميلاد، أي بعد انتهاء الاحتلال الصليبي لعكا وما تبقى من بلاد الشام، ازدهرت في أوربا الروح القومية في وجه النزعة الإمبراطورية والمسكونية التي مثلتها البابوية، وأخذت أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية تتبدل وظهرت الطبقة البرجوازية، وازدادت أهمية المدن الكبرى، وانبعث من جديد - بفضل التأثير العربي - الأفكار الفلسفية، وتشكلت بعض الجامعات، وكانت ردات فعل البابوية تجاه هذا كله عنيفة جداً، حيث قضت أوامرها في عام 1210م وعام 1215م بمنع تعليم الفلسفة وتحريمها، والإصرار فقط على تعليم اللاهوت الذي أرادوه، وبالوقت نفسه كانت هناك حملة شديدة ضد الشعر والشعراء، وقرن الشعراء بالسحرة، لذلك استحقوا اللعنة والحرمان الكنسي.

وتعاظمت ثروات الكنيسة الكاثوليكية ومع ذلك ازداد نهمها، ولم تعد تعترف بالوصايا العشرة، بل أحلت محلها وصية واحدة جديدة هي «اجمع المال وأجلبه إلى هاهنا» ولذلك حرمت الكنيسة الزواج حتى لا تنتقل الأموال بالوراثة، ومع ذلك كان لكل أسقف أو سواه أكثر من خليلة مع أولاد غير شرعيين، وأمام هذا الحال أبدى كثير من الناس أراء جديدة قالت بعدم الحاجة إلى الكنيسة وأن الإنسان يمكنه تعبد ربه من دون بابا ورجال لاهوت.

وللسيطرة على تيارات التمرد هذه عمدت البابوية إلى تطوير قوانين خاصة بالكنيسة الكاثوليكية، وأبدعت محاكم التفتيش، وجاء ذلك عوضاً عن محاولات الإصلاح والاستجابة للمطالب الشعبية، وادعت الكنيسة الآن أن لها الحق القضائي على جميع المسائل الإنسانية، وأنه لا يجوز محاكمة رجال اللاهوت إلا من قبل البابوية نفسها أو من قبل من تفوضه، وسوغ البابوات هذا الادعاء بأنهم خلفاء القديس بطرس، وأن بطرس الرسول هذا كان أمير الحواريين، أعلمه السيد المسيح بأن ما يعقده على الأرض معقود في السماء، وأن ما

يحله على الأرض محلول في السماء، لذلك صار البابا يمنح الغفرانات من مختلف الذنوب، أي مما تقدم منها ومما تأخر، ومع الغفرانات بات قادراً على طرد أي شخص مهما كانت مرتبته من الكنيسة والمسيحية، وتكفيره وحرمانه كنسياً، وفي علاقات البابوية مع الإمبراطور فردريك الثاني أمثلة موضحة، وبينات موثقة، وأقدم أيضاً أكثر من بابا على حرمان مدن وأقاليم بأسرها كنسياً، وكان من بين المدن التي حرمت كنسياً مدينة القدس بعد تحريرها من الصليبيين.

ولم يكتف البابوات بإعلان الحروب الصليبية ضد المسلمين بل أعلنوها ضد المسيحيين الأرثوذكس، وغيرهم، وهكذا قامت الحملة الصليبية الرابعة في مطلع القرن الثالث عشر بالاستيلاء على القسطنطينية ونهبها وإحراقها، وعندما اشتكى الإمبراطور الإغريقي إلى البابوية بسبب ما حدث، رد عليه البابا قائلاً: «نحن نعتقد بأن الإغريق قد عوقبوا من خلال (الصليبين) بموجب حكم عادل صادر عن الرب، لأن هؤلاء الإغريق ناضلوا جاهدين في سبيل تمزيق رداء يسوع المسيح الذي لا نظير له. . . . إنهم الذين رفضوا الالتحاق بنوح في سفينته، فهلكوا باليم بشكل عادل، وهؤلاء هم الذين تألموا بشكل عادل من المجاعة، وعانوا من الجوع، لأنهم رفضوا استقبال بطرس المبارك، أمير الحواريين ليكون راعياً لهم».

ومعروف أن العرب بعدما فتحوا الأندلس فتحوا جنوب فرنسا، وكان لهم ولإسلامهم تأثير بالغ على السكان، ولا سيما على إقليم لاندوك Langedoc، حيث تطور في هذا الإقليم عقيدة عرفت باسم الكاثارية Cathars، ومع أن القديس برنارد الباريسي أثنى على أخلاق وسلوك الكاثارايين، أعلنت البابوية حرباً صليبية ضدهم، مثل الحرب ضد مسلمي الأندلس، ومنذ عام 1139، أخذت البابوية تجرد الجيوش ضد الكاثاريين، وفي مطلع القرن الثالث عشر عندما كانت جحافل الصليبيين تنهب القسطنطينية، كانت جحافل أخرى تعمل على إبادة الكاثاريين، حيث قتلت ما يقارب المليون منهم ومن سواهم، ودمرت بلادهم تدميراً كاملاً، وكان الكاثاريون يتمتعون بشعبية كبيرة بين جيرانهم الكاثوليك، ولذلك وقف بعض الكاثوليك إلى جانبهم وكان في هذا بعض الإحراج إلى جنود الصليبيين، ولذلك سألوا قائدهم النائب البابوي أرنود Arnaud: كيف يمكننا تمييز الكاثوليكي عن الكاثاري؟ فأجابهم: «اقتلوهم جميعاً، لأن الرب يعرف جماعته»، وفي الإطار الزمني الذي تعرض فيه الكاثاريون وسواهم إلى

الإبادة، كان هناك نائب بابوي آخر يقود الحملة الصليبية الخامسة، التي قتلت في دمياط وحدها ما لا يقل عن سبعين ألف مسلم.

إن التاريخ الدموي للبابوية طويل جداً، امتد ما يزيد على ستة عشر قرناً من الزمان، ووصل ذروة وحشيته وإجرامه في محاكم التفتيش التي استهدفت بالأصل منع الإنسان من التفكير حول الله والخلق، ولذلك أعلن البابا أنوسنت الثالث: «إن أي إنسان سوف يحاول بناء رأي شخصي عن الرب، يتعارض مع عقيدة الكنيسة ينبغي حرقه من دون شفقة»، وتصرفت محاكم التفتيش وفق قاعدة قضائية هي «المتهم مدان حتى يثبت براءته»، وعبر قرون عجز أي متهم عن إثبات براءته فكان نصيبه الحرق، وبناء عليه أعلن الراهب برنارد ديليسي Delicieux «لو أن القديس بطرس، والقديس بولص اتهما بعبادة هرطقية، وجرى تعذيبهما وقمعهما وفقاً لمذهب محكمة التفتيش وطريقتها سوف لن يكون مفتوحاً أمامهما سبيل للدفاع».

ولقد مارس قضاة محاكم التفتيش الإشراف شخصياً على التعذيب ثم محاكمة المتهمين، واخترعوا وسائل للتعذيب لا تخطر حتى على بال الشيطان نفسه، منها: كان أحدهم يأتي بوعاء مليء بالفئران، ثم يكبه على المعدة العارية لمتهم، ثم يأتي بالنار فيضعها على ظهر الوعاء، فتتحرك الفئران، وتمضي إلى داخل جسد المتهم، وكانوا أيضاً يجردون المتهم ـ أو المتهمة ـ من الثياب، ويدلكون جسده ـ أو جسدها ـ بشرائح من شحم الخنزير، ثم يأخذون بشيِّه على نار بطيئة، واستولى قضاة محاكم التفتيش على أموال المتهمين وممتلكاتهم وكثيراً ما حاكموا أناساً مضى على موتهم سبعين عاماً، حيث نبشوا قبورهم، وأخرجوا عظامهم وحاكموها ثم أحرقوها، وقام البابوات بتحليل قضاة محاكم التفتيش من جميع الآثام والجرائم التي اقترفوها، ومنحهم سلطة تحليل أعوانهم ومساعديهم.

لقد بثت محاكم التفتيش الرعب في قلوب الأوربيين جميعاً، وعانى منها المسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة حتى القرن التاسع عشر، بشكل لم يعرف التاريخ له نظيراً، وانتقلت محاكم التفتيش إلى العالم الجديد، وسارت في ركاب بعثات التبشير، فكان لها آثارها المدمرة حتى في الصين واليابان، أما في العالم الجديد، فقد أبادت العديد من سكان بيرو وسواهم، وأعلنت البابوية أنه يحق للغربيين قتل سكان العالم الجديد واسترقاقهم:

«تماماً كما فعل يوشع باستبعاد سكان بلاد كنعان» وقتلهم، وأدى هذا إلى شبه إبادة كاملة للهنود الحمر، وتستخدم الصهيونية الآن هذه القاعدة تجاه الفلسطينيين أبناء الكنعانيين القدماء.

ومن جديد أعاود التأكيد أن السجل البابوي طافح بالجرائم ضد الإنسانية، ولا يمكن مقارنة هذا السجل ـ لطوله وديمومته ـ بسجل جنكيز خان، وهولاكو، وتيمورلنك، وأن الكشف عنه علمياً ووثائقياً بات ضرورياً، ولا سيما في وجه الحملة اللاأخلاقية ضد الإسلام عقيدة وتاريخاً وحضارة، والكشف التاريخي لا يتضمن ـ بحكم حيادية البحث التاريخي ـ أية إثارة للضغائن أو دعوة للانتقام ـ لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ـ بل التأكيد أن طريق الخلاص متوفر فقط في الإسلام، الذي لم يعرف الكهنوت ولم يعترف بالطبقية اللاهوتية، وأقر الوحدانية النقية، ونفى الشرك، وحصر الإدانة والغفران بيد الله وحده، حيث لا سلطة لإنسان على إنسان، وحيث السبل كلها مفتوحة أمام العبد للوصول إلى عبادة الله ورضاه جل وعلا.

ومن الضرورة بمكان أن يتسلح الدعاة من المسلمين بالمعرفة التاريخية للإسلام ولغير الإسلام، وكذلك المعرفة الدينية العقائدية، وأن يبتعدوا كل البعد عن سفك الدماء أو التفكير بذلك، لأن واجبهم الهداية، ولا يمكن للهداية أن تأتي عن طريق القتل والانتقام والاغتصاب، بل عن طريق المحبة والإخوة الإنسانية.

أرجو الله تعالى أن يفيد هذا الكتاب، مع كتب أمثاله سوف تأتي ـ إن شاء الله وأعان ـ بأن علينا التعلم من دروس الماضي، لصنع حاضر إنساني أفضل، ومستقبل تدار به البشرية بشريعة الله الموجودة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، فقد كفانا استبداد الإنسان بالإنسان، باسم التفويض من بطرس الرسول، أو من واحد من الأقانيم الثلاثة.

والحمد لله أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، المصطفى عبد الله ورسوله الأمين، الذي جاء بالنظرية من عند الله، وتولى التطبيق تحت رعاية الله وإشرافه، لأنه كان لا ينطق عن الهوى، فكان فرداً، مثلما الدين عند الله الإسلام.

دمشق 21 / ذي القعدة

1/ 1/ 2005م

سهيل زكار

تمهيد

بدأت بالتفكير بكتابة هذا الكتاب، قبل أكثر من ثلاثين عاماً، خلال حقبة مأساوية من الزمن، إذ حالما استلم هتلر السلطة، في ألمانيا بدأ اليهود، الذين ظلوا متمسكين بديانتهم لعدة قرون، يتعرضون للضغط والاضطهاد، والظلم والتهديد بالموت، مع أنه كان من الصعب على اليهود الحقيقيين أن يفهموا سبب فرز طائفة عاشت في ألمانيا أكثر من ألف وستمائة عام، وتعرضها للاضطهاد بلا رحمة، وكانت القضية أكثر صعوبة وإرباكاً لأولئك الذين اعتنق آباؤهم وأجدادهم الديانة المسيحية، والذين تربوا وترعرعوا في كنف الديانة المسيحية، فإذا هم بين عشية وضحاها يجدون أنفسهم وقد أصبحوا يتقاسمون القدر نفسه مع اليهود الحقيقيين، الذين لم يتحولوا إلى المسيحية، وذلك لأن هتلر لم يعترف بتحول أي يهودي إلى الديانة المسيحية، إذ أن انتماء أي طفل لجدة يهودية، سواء تحولت أم لم تتحول، كان كافياً في نظره، لإفساد دم الطفل، وجعله - ما دام أن الدماء الآرية لا تجري في عروقه - غير قادر، أو مؤهل لخدمة الدولة ولا لممارسة أية مهنة، ولا حتى الحق في الحياة الكريمة.

وبطريقة ما أصبح هؤلاء غير الآريين، الذين لا هم مسيحيون، ولا هم يهود، يحسدون أولئك اليهود الذين ظلوا متمسكين بيهوديتهم، وتحملوا الحمل الجديد، بإباء مدركين أن العذاب قدر هذه العشيرة منذ الأزل، وعندها بدأ اليهودي المتحول إلى المسيحية يفكر بعبث وعدم جدوى هذا التحول فقد حاول أن ينجو بالهرب من نفسه، والتنكر ليهوديته، وتغيير اسمه اليهودي، وخان ديانته، وتبادل العلاقات الزوجية مع المسيحيين، كل ذلك دون جدوى، لقد وجد نفسه الآن في فخ هائل فالحرف (ي) المختوم على جواز سفره، يدل بوضوح أنه يهودي، ولسوف يبقى يهودياً، ولو ذهب إلى أقاصي المعمورة، لهذا بدأ اليهودي يسأل نفسه: «ألا يستطيع أن ينجو من قدره حتى في القرن العشرين؟» وخطر ببالي، أن أذهب وأتكلم مع كثيرين من أولئك الناس المشوشي الأفكار، حالما تقاطروا وبشكل فجائي للالتحاق بالخدمات الدينية اليهودية،

والاجتماعات، أملاً في إرضاء فضولهم حول أنفسهم بعد أن علموا ألا مناص ولا أمل بالخروج من الوضع الراهن، فقد عاد وجودهم، واقترن بأولئك الذين كانوا يصرحون بأصلهم اليهودي بكل بساطة.

بدأت في ذلك الوقت أفكر بمشكلة تورط اليهود، وقد تأثرت بما جرى لهرتش هاين (Heirich Heine) وهو شاعر ألماني يهودي اعتنق المسيحية في شبابه، لكنه عاش في أواخر حياته حالة ضبابية بين اليهودية والمسيحية، ولم يرتبط بأي منهما بشكل قاطع، وقد استمر في الكتابة بشكل مراوغ، والانتقاص أحياناً من شأن اليهود والديانة اليهودية، وبهذا لم يعد يستطيع الرجوع إلى اليهودية، ولكن بالوقت نفسه لم يكن قادراً على الخروج من جلده، وأخيراً وهو على فراش الموت بعد أن أصيب بالشلل، وهجره أصدقاؤه وأصبحت حالته تعيسة مزرية، طلب أن يحضر أحد المرتلين الدينيين اليهود إلى جانب فراشه، وأن يرتل له تراتيل شعبي الصحراوية، وبعد موته عمد أحد نحاتي التماثيل إلى صنع قناع يمثل وجه ذلك الرجل العظيم المأساوي، ولقد رأيت ذلك الوجه أيام حكم هتلر، فبدا لي وجه رجل يهودي، عجوز، مريض، ملتح، فهذا الرجل الذي رفض أن يرجع إلى بني جلدته، وهو على قيد الحياة، هاهو الآن قد عاد إليهم بعد مماته، ذكرت قصة هاين لأولئك المتشككين بأنفسهم، فليس هنالك من جدوى للهرب، فهم سيظلون يهود على الرغم من أنفسهم وعلى الرغم من معتقداتهم، وحتى على الرغم من دينهم.

عثرت في تلك الآونة على كتاب صغير بقلم جيرتورد فون لي فورت، (Gertrud Von Le Fort) وهي كاتبة ألمانية، تحولت من البروتستانتية إلى الكاثوليكية وهذا الكتاب خيالي يعتمد على وثائق تاريخية مكتوبة بأسلوب سرد التاريخ في العصور الوسطى، وهو يعالج مشكلة عائلة يهودية تحولت إلى الديانة المسيحية، وأصبح أحد أفرادها البابا أناكلت الثاني Anaclet. II واسم هذه العائلة هو بيرليوني Pierleoni، وهو اسم عثرت عليه من قبل، وقد ورد ذكره في دراسة سريعة خاطفة لتاريخ اليهود في روما، والحقيقة أن قصة شخص يهودي أصبح (بابا) في روما، قد استهوتني خصوصاً وإنها تمدنا بتثبيت تاريخي للخرافة القديمة التي انتشرت في العصور الوسطى عن وجود (بابا)

يهودي، وهناك مشهد في الكتاب لن أنساه أبداً، ذلك أنه يدعم نظريتي حول عدم قدرة اليهود على الإفلات والنجاة، وفي هذا المشهد بطرس ليونس (Petrus Leonis) وهو عميد عائلة بيرليوني، وهو مضطجع على فراش الموت في القاعة الكبيرة في قلعته الرومانية، وقد جلس أبناؤه صامتين حول فراشه، ولكن أحدهم وهو بطرس (بيتر)، لم يكن قد عاد من باريس، حيث كان يقوم بوظيفة كاردينال، وكان من الواضح أن هذا الرجل يناضل الموت حتى تكتحل عيناه برؤية أحب أبنائه إليه، وأخيراً وصل الكاردينال، وهو يرتدي الشعارات الفخمة الدالة على وظيفته ومقامه الرفيع، فالصليب الذهبي المرصع بالحجارة الكريمة، والجواهر، يتدلى من سلسلة ذهبية، وعلى رأسه تاج الأسقف المهيب، وأسرع الكاردينال إلى حيث كان والده، ونظر الرجل المحتضر بفخر واعتزاز إلى ابنه الذي حقق أحلامه، وقال له: «اركع يا بني لأني أريد أن أباركك!».

وحالما ركع الكاردينال أمام والده، رفع العجوز يده المرتجفة ومسح على رأس ابنه فسقط التاج على الفراش، ثم إلى أرض القاعة الفسيفسائية، حيث استقر كعلبة فارغة، ثم بدأ الأب بطرس ليونس يلفظ كلماته بقوة استمدها من الضعف، ويقول: «أباركك يا ولدي بركات آبائنا الأولين، إبراهيم واسحق، ويعقوب!».

وبعد أن تفوه بهذه الكلمات، أسلم الروح، وهكذا وفي ساعة موته لفظ الأب بركات أجداده، ووهبها لولده: ذلك الولد الذي هو أحد رجالات الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

بالطبع إن هذا المشهد هو من نسيج خيال أحد الروائيين، أما بالنسبة إليّ فإن فحواه أصدق من التاريخ، وأكبر قيمة من أية وثيقة، فهذا الكاتب الكاثوليكي قد فهم مشكلة التورط عند اليهود، التي استطعت أن أجدها حول عائلة بيرليوني هذه، وسرعان ما اكتشفت أن عدة مؤرخين أقدر مني قد تصدوا لهذه المشكلة، هذا وقد حصلت حولها اكتشافات مذهلة على يد باحثين اختصاصيين من: إيطاليا، وإنكلترا، وأمريكا، وكل هذه الاكتشافات موثوقة وموثقة أيضاً، ومنها اتضح لي أنه لم يخرج البابا (أناكلت) الثاني من أسرة بيرليوني لوحده فحسب، بل إن اثنين من الغريغوريين، وهما: البابا غريغوري السادس، والبابا غريغوري السابع، ذلك العملاق في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى، والمدافع عن الكنيسة، والمطالب باستقلالها، ذلك الرجل الذي عرف

عنه أنه أهم وأقدر بابا في التاريخ، والذي يعد قديساً من قديسي الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، ما هو إلا أحد أفراد أسرة يهودية تحولت إلى المسيحية في روما وهي أسرة (بيرليوني) تلك، ولاشك أن مجادلات حامية قد نجمت عن هذا الاكتشاف، وخصوصاً بين مؤرخي العصور الوسطى الألمان، ولكن أخيراً تبقى الحقيقة الراهنة وهي أنه سواء أكانت قرابته لهذه الأسرة بالدم أم بالزواج والمصاهرة، فإن غريغوري العظيم كما تصفه تواريخ بيجوا Pegua هو (Avun culuc Pierleoni) وهي عبارة ترجمتها: إما عم أو ابن الأخ لأسرة بيرليوني.

وشعرت أن قصة هذه الأسرة الكبيرة الغريبة يجب ألا يسمح لها أن تظل مدفونة في زوايا النسيان، دون أن يطلع عليها معظم القراء، لهذا قررت تدوينها هنا، بأحسن ما عندي من حديث وأسلوب، ولسوف يظهر منها بوضوح التورط اليهودي، حيث إنه بعد أن اعتنقت عائلة بيرليوني المسيحية بحوالي مئة عام هوجم أناكلت، وهو آخر بابا من عائلة بيرليوني بوصفه ذلك اليهودي المتربع على عرش بطرس.

أسطورة البابا اليهودي كما رواها ميشا بن غوريون

لقد انتشرت القصة القديمة عن وجود بابا يهودي بشكل واسع في أوروبا خلال العصور الوسطى، ووصلت إلينا في أربع روايات على الأقل، وتقول إحدى هذه الروايات: إن البابا عندما رجع إلى وطنه وإلى جماعته وشعبه عمد إلى الانتحار، وذلك بقذف نفسه في وسط النيران المستعمرة، وفي الرواية الإسبانية يدعى البابا (أندرياس)، ولاشك أن هذا يشير إلى البابا (أناكلت) الثاني Anaclet II والرواية التي أقدمها في هذا الكتاب مأخوذة من كتاب Der Bornjudas - أي بئر يهودا - تأليف ميشا بن غوريون:

فيما مضى من الأزمان، وفي مدينة ماينس Mayence الواقعة على نهر الراين، عاش معلم تقي شهير اسمه الرباني شمعون، وكان في بيته ثلاث مرايا، وباستطاعة كل شخص أن يرى في هذه المرايا كل ما حدث في العالم الماضي، وما سيحدث في المستقبل، وعندما مات الرباني شمعون انبثق بئر من قبره، وعدّ هذا البئر معجزة كبرى، وذلك لأن ماء ذلك البئر احتوى قوى شافية من الأمراض.

وكان للرباني شمعون ولد يدعى (ايلشانا)، وعندما كان هذا الولد طفلاً صغيراً، ذهب أبوه وأمه إلى بيت العبادة، وتركاه تحت رعاية فتاة شابة (وصيفة)، وكان من عادة إحدى السيدات من الجيران، أن تأتي لتحضير المدفأة وإشعال النار لهذه العائلة، وعندما حضرت هذه السيدة في هذه المرة، أخذت الطفل من مهده، ووضعته بين ذراعيها، ثم تركت المكان، ولم تُعر الفتاة أي اهتمام لما حدث، فقد فكرت أن السيدة قد خرجت بالطفل لتلاعبه، وأنها سرعان ما ستعود به، ومع ذلك لم تعد هذه السيدة بل أخذت الطفل إلى مكان بعيد، وسلمته إلى الكهنة، وعندما عاد الرباني شمعون وزوجته لم يجدا، لا الطفل، ولا الفتاة الشابة، لأنها كانت قد خرجت من البيت للتفتيش عن السيدة والطفل، وعندما لم تجدهما، عادت إلى البيت وهي تبكي، وأخبرت الوالدين بما حدث، عندها أجهش الوالدان بالبكاء، والنحيب بشكل يقطع الأكباد، ثم أعلن الرباني شمعون الصيام، وبدأ يعاني بجسده ليلاً ونهاراً، والصلاة إلى الرب، والتوسل إليه لإرجاع طفله له، ولكن صلواته وتوسلاته لم تستجب، ورفض الرب أن يكشف اسم المكان الذي كان الطفل به.

وفي أثناء ذلك كبر الطفل (ايلشانا) ونما وترعرع بين الكهنة، وبدأت الحكمة والمعرفة تتسربان إلى نفسه، فقد ورث عن والده عقلاً نيراً متفتحاً، وهكذا انتقل من جامعة إلى جامعة حتى ذاع صيته بين الخاص والعام، وأخيراً ألقت به عصا الترحال في روما، وهناك تعلم لغات أخرى، عدا عن اللغات التي كان يعرفها واكتسب شهرة عظيمة في العلم والمعرفة، وأخيراً ارتقى إلى منصب كاردينال، وذاعت شهرته في جميع أنحاء العالم، فقد كان رجلاً وسيماً، وعالماً علامة.

وحدث أن توفي الحبر الأعظم في روما في ذلك الوقت، ولم يكن هنالك أي شخص يستحق أن يخلفه سوى هذا الكاردينال وهكذا أصبح ابن الرباني شمعون، بابا في روما.

لم يكن هنالك من شك أن البابا الجديد كان يعرف أصله اليهودي ويعرف أيضاً أن أباه هو الرباني العظيم شمعون، الذي عاش في مدينة ماينس الواقعة على نهر الراين، ولكن شهرته ومنصبه الرفيع أجبراه على التريث، وكبت حنينه لشعبه، ورغبته في

الرجوع إلى دينه ، إنما بعد أن استلم منصب البابوية ، زاد حنينه وشوقه لرؤية والده وجهاً لوجه ، وهكذا قرر أن يلجأ إلى الحيلة لجلب والده إلى روما ، فأرسل مرسوماً بابوياً إلى أسقفماينس طلب به أن يخبر جميع اليهود في المدينة ، أنه ابتداء من ذلك اليوم لن يسمح للنساء باتباع تقاليد الطهارة التي كان اليهود يحافظون عليها ، وهدف البابا الجديد من هذا المرسوم أن يبادر اليهود عند تبلغهم محتواه إلى إرسال وفد من الرجال المهمين للاجتماع به ، والطلب منه بوصفه بابا ، أن يلغي هذا المرسوم ولم يكن لديه من شك أن هذا الوفد سوف يكون برئاسة والده ، وهذا فعلاً هو ما حدث ، فقد حل الفزع باليهود عندما قرأ لهم الأسقف المرسوم البابوي ، فتوسلوا إليه أن يجنبهم هذا الشر ، لكنه أخبرهم أن لا حول له ولا قوة ، ونصحهم أن يذهبوا ويقابلوا البابا ، وبدأ اليهود بعمل الكفارات والصيام والصلاة ، وبعدها انتخبوا اثنين من العلماء يرافقان الرباني شمعون في مهمته إلى روما .

عندما وصل المبعوثون الثلاثة إلى روما ، وذهبوا إلى الحي اليهودي وأخبروا إخوانهم عن الغرض الذي حدا بهم للمجيء إلى روما ، وفي أول الأمر لم يصدق يهود روما هذا الخبر ، فقد كانوا يعلمون أن البابا صديق لليهود ، وعندما أظهر لهم الرباني شمعون المرسوم البابوي ، قال يهود روما : «الويل لنا ، فالرب قد غضب عليكم» ثم دعوا إلى يوم صيام ، وصلوا لأجل إخوانهم في ماينس ، وبعد ذلك توجه اليهود إلى واحد من الكرادلة ، وكان يرى البابا يومياً ، وأخبروه بما أتوا من أجله ، فنصحهم الكاردينال أن يقدموا شكواهم كتابة ، وبعدها يقدم هو هذه الشكوى إلى البابا ، وحالما وصل الكتاب إلى البابا نظر إلى التواقيع ، فاكتشف اسم والده الرباني شمعون وأنه كان من بين المبعوثين ، وعندها دعاهم للحضور إلى القصر البابوي ، وسرعان ما وقف الرباني شمعون وجهاً لوجه أمام الحبر الأعظم للكنيسة الرومانية ، فسارع إلى السجود أمامه ، ولكن البابا طلب منه أن ينهض ويجلس على كرسي أمامه ، وبعدها طلب منه أن يتقدم بطلباته ، وكان الرباني شمعون في غاية الانفعال ، ولم يستطع أن يفصح عما أراد أن يقوله ، بسبب الدموع المنهمرة من عينيه ، والعبرات التي كادت تخنق صوته ، إلا أنه استطاع أخيراً أن يتكلم بحرية عن المرسوم البابوي الذي كان يهدد طائفته ، ولكن البابا لم يستجب بسرعة ، بل بدأ

بالحديث مع الرباني الشمعون في قضايا ومفارقات علمية ، مما أدهش الرباني شمعون ، لثقافة الحبر الأعظم وعلمه ، ولما كان البابا يعلم أن الرباني من لاعبي الشطرنج المهرة ، دعاه أن يلعب معه ، ولشدة عجب الرباني غلبه البابا بشكل لطيف بارع بعد بضع حركات ، وعندها وصل البابا إلى درجة لم يستطع بعدها أن يقاوم نفسه ، فطلب من الحضور أن يتركوهما لوحدهما وعندها أخبر الرباني شمعون أنه ابنه ، وشرح أن هذا المرسوم ما كان إلا حيلة لاستقدامه إلى روما ، ثم أعطاه رسالة بابوية ألغى بها مرسومه الماضي ، ثم ودعه وسمح له بالعودة إلى ماينس بسلام .

وبعد مضي عدة سنوات ، اختفى هذا البابا من روما ، ورجع سراً إلى ماينس .

والحقيقة أنه لم يكتف بالعودة إلى مسقط رأسه فحسب بل رجع إلى رب آبائه الأولين ، ويقال أنه كتب قبل مغادرته روما ، كتاباً فند به حقائق الديانة المسيحية ، وترك هذا الكتاب في الحجرات البابوية ، حتى يستطيع خلفاؤه أن يقرأوه ، وهنالك مزمور ينشد في اليوم الثاني لعيد السنة اليهودية الجديدة ، وقد كتب هذا المزمور الرباني شمعون يصف به قصة البابا اليهودي ، وهي قصة حقيقية لا ينبغي لأحد أن يشك بصحة وقوعها .



الفصل الأول

الانبثاق من الحي اليهودي

يعد القرن الحادي عشر للميلاد أكثر القرون إثارة وأهمية، بالنسبة لجميع العصور المسيحية، فحالما بدأ هذا القرن، وتخطى عقده الثالث تولت عائلتان دور الزعامة على مسرح التاريخ الروماني وهما: عائلة بيرليوني Berlioni وعائلة فرانجيباني Frangipani وقد انحدرت هاتان العائلتان من طبقة من النبلاء القدماء أصحاب الأملاك الشاسعة، في روما وما حولها، وسيطرتا على المدينة منذ أيام القياصرة، وكان هؤلاء الأرستقراطيون العريقون الذين يعرضون التماثيل النصفية في قلاعهم وما حولها، كشاهد على عراقتهم وقدمهم، شديدي الفخر لانتمائهم إلى أصول وثنية، ترجع إلى ما قبل المسيحية، ولكن ظهر بعض الخلاف بين هاتين العائلتين، فقد كانتا تمثلان طبقة الأغنياء الجدد، في تلك المدة تلك الأرستقراطية الثرية بأموالها والتي برزت حديثاً نتيجة لتطور الحضارة في المدن في ذلك القرن، وكانت عائلة فرانجيباني تستطيع أن تدعي سابقة التقدم لبضعة أجيال في مضمار النبالة، حتى أن أفرادها كانوا يقتنون الرنوك، أما عائلة بيرليوني فقد احتاجت إلى وقت أطول حتى حصلت على درع عليه شارة (رنك) النبالة العائلية، وإذا فحصنا هذه الشارة اليوم كما أعيد نسخها في تواريخ القرن السابع عشر، نجد أنها تمثل شكلاً مرتجلاً متأخراً في زمنه، وهي تصور أسداً ذهبياً وحقلاً أرجوانياً، وربما كان هذا الأسد هو أسد يهوذا، لأن عائلة بيرليوني قد أتت من الحي اليهودي (الغيتو).

كم من الزمن مضى على هذه العائلة في روما؟ ومن أين أتت قبل ذلك يا ترى؟ ما من أحد يعلم الجواب، إذ عبثاً يفتش الباحث عن أسمائهم في المقابر اليهودية الست تحت الأرض في تلك القاعات المظلمة، حيث زينت الأضرحة بالرمز اليهودي القديم، وهو الشمعدان ذو السبعة أغصان، وحيث تجد بين أسماء الموتى المكتوبة باللغة اليونانية واللاتينية كلمة (شالوم)، والتفسير الأكثر احتمالاً هو أن عظام موتى (بيرليوني) ترقد في مقابر أقدم من هذه وهي مقابر مونتيفيدر Monteveder وهي تقع على بعد نحو ثلاثين

قدماً تحت فيلا تورلونيا Torlonia ، وفـي فيلا تورلونيا هـذه قضى موسوليني عدداً من السنين، يعقد حفلاته المتعة، الساحرة الفاتنة، ومغامراته الغرامية، ويرتب مؤامراته الخاصة، وقد تساءل المؤرخ (هاري ليون): «ألم يدرك موسوليني عند إصداره أول قوانينه اللاسامية ضد يهود إيطاليا، الذين عدّهم أجانب، أن تحت هـذه الحدائق التي كان تخطر بالمشي فيها، تمتد الخطوط الباهتة، لسراديب مقبرة يهودية قديمة؟».

ربما أدرك موسوليني ذلك، ولكن معرفته هذه لم تعق عمله، ذلك أن اليهود كانوا بالنسبة للديكتاتور مجرد «أجانب» على الرغم من أن طائفة اليهود في روما، هي أقدم الطوائف من نوعها في أوروبا، فمنذ القرن الأول قبل الميلاد، عندما كان هنالك حوالي ثمانية ملايين يهودي[1] تحت الحكم الروماني، عاش كثير منهم ومن مهاجريهم في العاصمة العظيمة، وقد دفنوا موتاهم في هذه السراديب العظيمة تحت الأرض.

ويمكننا أن نفترض أنه في الوقت الذي تبدأ به قصتنا ، أي في حوالي عام 1030م، كانت عائلة بيرليوني تعيش في روما، منذ عدة أجيال، إن لم نقل منذ عدة قرون، ذلك أن روما كانت مدينة تفخر بماضيها، وتكره الأجانب بشدة إلى درجة أنه كان من النادر أن يتمكن أي غرباء، حتى من إيطاليا نفسها، من الاستقرار في روما بأمان، قبل مضي عدة أجيال، وبالنسبة لأسرة بيرليوني من المؤكد أنها كانت مستقرة تماماً في روما في ذلك الوقت، وكان عميد هذه العائلة الذي يدعى «باروخ» رجلاً غنياً جداً، يملك مصرفاً ولاشك أن ثروته قد تأسست قبل ذلك، في زمن أجداده، ولكن من هم هؤلاء الأجداد؟ إننا لن نستطيع أن نتعرف عليهم بفحص الأسماء في السراديب والمقابر تحت الأرض، لأن هذه العائلة لم يكن قد أطلق عليها اسم بيرليوني الإيطالي في ذلك العصر السحيق، فنحن لا نعرف حتى هوية والد باروخ نفسه.

نحن نعرف أن هذه العائلة قد عاشت في تراستفيري Trastevere وهو حي من أحياء روما، وعلى الضفة اليمنى لنهر التيبر عبر الفوريوم[2] الروماني القديم،

---

(1) كذا يورد المؤلف هذه العبارة كمسلمة من المسلمات، دون أن يذكر المصدر أو يأتي بالدليل، أو يبين مواطن عيش هؤلاء الملايين، ومن المرجع أن العدد كان دون واحد على عشرة آلاف من هذا الرقم.

(2) الفوريوم: هو السوق، أو الساحة العامة، في أية مدينة رومانية.

فالتراستفيري لم يكن غيتو بالمعنى المعروف للكلمة، ذلك أن كلمة الغيتو صنعت في البندقية في القرن السادس عشر حيث أقيم الحي اليهودي على مقربة من المكان المدعو (غيتو نوفو) أي مصنع المدافع، ومع أن هذا الاصطلاح لم يكن موجوداً في روما في القرن الحادي عشر، إلا أن معظم يهود روما كانوا يعيشون في حي واحد، وهو التراستفيري فيما عدا أسر عاشت في مخيم (حي) مارتيوس.

لقد كان التراستفيري حياً يهودياً، منذ القرن الأول قبل الميلاد، ففي أيام الإمبراطورية الرومانية، عندما عاش في روما حوالي خمسين ألف يهودي، كان هنالك سبعة من الأحد عشر كنيساً معروفاً، موجودة في التراستفيري، وقد بنيت كنيسة سانتا ماريا هناك أيضاً، وهي أقدم كنيسة رومانية في تراستفيري، شيدت في القرن الرابع في موقع تدفق منه النفط، وبدلاً من بناء برج معدني بنى الناس كنيسة، وقد كانت رائحة البترول تفوح في المنطقة بأكملها، مع أن هذه الرائحة ربما كانت أقل الروائح كراهية وإثارة للاشمئزاز، لأن تلك المنطقة لم تكن من المناطق النظيفة، أو المستملحة الجوار، فقد كانت كما وصفها أحد مؤرخي روما القدماء: «منطقة تتسم بالشوارع الضيقة، وهي مزدحمة بالسكان، وفيها بيوت ومساكن متراكمة بعضها فوق بعض، وهي تعج بالسكان، ويشير الكتاب القدماء إلى السمعة اللاأخلاقية للبقعة، فقد كان فيها الحواة والمشعوذين، والسحرة والبصارين الذين يخبرون بالمستقبل، وبائعو الملح الكثيرو الضجة، وبائعو السمك، والحمص المسلوق، والنقانق الساخنة، والباعة المتجولون، وصغار الكسبة المتجمعون في الشوارع، وهنا كانت البقاع البائسة للفقراء والمهاجرين غير المتجانسين، الذين يسكنون بشكل تعيس في مساكن موجودة في أبنية تزدحم بسكانها، بحيث يستوعب البناء الواحد المئات من السكان، كما هو الحال في روما، ونابلي، حتى في هذه الأيام، وخصوصاً في الأحياء الفقيرة، إذ هم معرضون لأخطار الحرائق، وانهيار المنازل عند فيضان نهر التيبر، تلك الحوادث التي لم تكن قليلة، ولا نادرة، ومع هذا ففي وسط هذه اللوحة البائسة، اندفعت قصور النبلاء الفاخرة الشامخة.».

وتغيرت في بداية القرن الحادي عشر الميلادي حالة روما، بشكل جذري واختلفت عن تلك الأيام التي كانت خلالها عاصمة الإمبراطورية الرومانية الزاهية،

التي كانت تعج بالسكان والحركة، وأصبحت الآن (القرن الحادي عشر) مدينة الخرائب والأطلال، ولم يبق منها ما ينبض بالحياة سوى مقر البابا، ولقد عانت الجماعة اليهودية من المحنة نفسها، فتضاءلت في العدد، فانخفض عدد السكان اليهود من خمسين ألف نسمة إلى ألف نسمة فقط، ولكنها أصبحت مركزاً من مراكز الفكر والثقافة اليهودية، ولقد كان للقرون المتعاقبة أكبر الأثر في تشكيل الجماعة اليهودية، لأن اليهود قد تقاطروا إلى روما من جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية منذ حوالي ألف عام، وحافظوا على كنسهم كجزء من وجودهم الذاتي داخل المجتمع اليهودي، وكان أقدم هذه الكنس كنيس (فيرنا كلاسيان)، حيث كان يصلي اليهود المولودون في روما، وجميع الملل الأخرى مثل الأجريبانيين Aggrippan، والتريبولتانيين Tripolitans والعبرانيين، وغيرهم، ولكن بمرور الزمن أصبح اليهود يؤدون صلواتهم باللغة اليونانية، ونسوا اللغة العبرية، كما أنهم أصبحوا يطلقون على أنفسهم أسماء يونانية أو لاتينية، وقلما استعملوا الأسماء التوراتية مثل: أبرهام، واسحق، ويعقوب، وقد هجروا المقابر والسراديب تحت الأرض التي كانوا يستعملونها مثل مقبرة مونتيفيدري Montevedre الموجودة وسط تراستفيري، وأصبح الشعب اليهودي شعباً فقيراً، جاهلاً، ولم يكن بين صفوفه إلا قليل من المتعلمين.

وهكذا فقد كان أمراً لا يخلو من غرابة أن شهد القرن الحادي عشر ازدهاراً وتفتحاً في التفكير والرخاء اليهودي، فقد بدأ بعض أفرادهم يغادرون الحي اليهودي (الغيتو) في تراستفيري، وشيدت كنس جديدة في ريون ديلا ريجولا Rione Della Regola، على مقربة من كنيسة القديس توما، على ضفة نهر التيبر، وبدأت جماعة أخرى من اليهود تستوطن خلف مسرح مارسيللوس Marcrllus (وحيهم هذا موجود حتى اليوم) وقد أصبح الربانيون اليهود معروفين، حتى أن باريس كانت ترسل الرسل إلى روما للاستنارة بآرائهم في المسائل القانونية، وظهر كتاب يدعى «التعليقات الرومانية»، وهو عمل أضيف إلى التلمود، وأصبح واسع الانتشار واعتمد مرشداً لطلاب العلم، وهذا قد ظهر بعض الأشخاص مثل: موسى بن ناسي، وأبراهام بن يعقوب في بداية القرن الحادي عشر، ثم أتى بعدهم يعقوب غؤون، وسباتاي موسى، وكانوا من الزعماء الروحانيين البارزين في

المجتمع ، وألف ناثان بن يشي ايل قاموساً في تفسير التلمود ، يعد مرجعاً قديماً في هذا المضمار ، وهو كتاب روش الشهير.

وبمرور الزمن نرى أن معظم الجماعات اليهودية قد تركت الغيتو القديم وتخلت عن قذارته ، واستقرت على الضفة الغربية من نهر التيبر ، ولكن عائلة (بيرليوني) لم تفعل ذلك ، بل بقيت في مكانها ، ولم يكن قراراها هذا بالبقاء وليد الانفعالات النفسية ، والتأثر بالعاطفة ، ولكنه كان جزءاً من خطة مرسومة ، ظلت هذه العائلة تتابع تنفيذها بصبر وأناة ، واستهدفت بإصرار الوصول إلى مركز البابوية .

ليس لدينا أية وثائق أو مذكرات تخبرنا عن الوقت الذي قررت به هذه العائلة التحول إلى الديانة المسيحية ، أو من الذي أصدر هذا القرار ، ولكننا بحكم الظروف نجد أنفسنا مضطرين أن نبدأ قصتنا من المدعو باروخ ، فقد كان باروخ هذا رجلاً يهودياً ، ثرياً صاحب مصرف ، وملاك أراضي واسعة ، ويتمتع بسلطة عظيمة ، واحترام كبير ، ومن المحتمل أنه كان يتقلد عدة وظائف سامية بين يهود روما ، وعلى كل حال فقد كان هو المسؤول عن الشؤون الكنسية في بيت العبادة الخاص الذي بنته أسرته في الجزيرة التي كانت تمتلكها تلك الأسرة في نهر التيبر (ستغدو هذه الجزيرة معقل الكنيسة الكاثوليكية في معاركها في المستقبل كما سنرى) .

وفي زمن باروخ هذا لم يكن هنالك طائفة يهودية متميزة بمعنى الكلمة الحديث ، ولم تكن هنالك حكومة مركزية تعنى بالشؤون اليهودية ، ولكن رؤساء الكنس الذين كانوا ينتخبون أحدهم لمنصب الرباني الأعظم ، وهؤلاء الرؤساء كانوا يجتمعون في عدة مناسبات ، ومن المؤكد أن باروخ كان أحد زعماء الوفود اليهودية ، التي كانت توفد لمقابلة البابوات ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، ولم يكن هنالك أي شخص يهودي يتمتع بالحظوة بين رجال السلطة مثل باروخ ، ونظراً لثروته وأهميته ، ولاشك أيضاً أنه كان يحضر الاحتفالات الهامة والمواجهات والمجابهات الطقوسية مع البابا نفسه .

عند انتخاب بابا جديد ، كانت السكولا Scholae في روما ، وهي الهيئة التي تمثل المجموعات العرقية والوطنية في المدينة ، تجتمع بعد أن يرتدي أفرادها ملابس الأعياد ، لتقديم فروض الطاعة والولاء لحاكم الكنيسة الجديد ، وكان اليهود يحتلون مركزهم

المخصص لهم على طريق مرور موكب البابا، وأحياناً أمام قلعة القديس أنجلو (ومن المفارقات التي تدعو للسخرية، أن نجد هذه القلعة الضخمة، تتحول إلى واحد من معاقل عائلة بيرليوني)، وهناك كان اليهود يقفون وفي مقدمتهم الرباني العظيم، ومعه أعيان اليهود ورؤساء الكنس ومسني الأسباط، كل منهم ينتظر تلك اللحظة العظيمة التي يتاح له بها مقابلة ذلك الرجل الذي سيصبح ولي نعمته، وكان الرباني الأعظم يحمل درج الكتابات المقدسة التي تحتوي على التوراة، وكانت هذه الدرج تزين بهذه المناسبة كالعروس، بالحرير والمخمل وغيرها من وسائل الزينة، ومن تيجان الذهب والحلي المرصعة بالحجارة الكريمة، وهي عبارة عن هدايا سخية، أهداها رجال أثرياء، ولاشك أن باروخ كان أحدهم، وأخيراً يصل الموكب البابوي، وبعد أن يترجل البابا من المحفة البابوية المحمولة على أكتاف رجال البلاط البابوي، يتقدم الرباني الأعظم ومعه درج الكتابات المقدسة ويقبل خاتم البابا، ويتعهد بولاء الطائفة اليهودية، وتأييدها، ويتسلم البابا الدرج المقدس ثم يخاطب جمهور اليهود.

أما الكلمات التي كان يستعملها البابا زمن باروخ فلا نعرف عنها شيئاً، ولكن يمكننا أن نرسم صورة موثوقة عن الخطاب الذي أدخله البابا كاليلستوس الثاني في الكتاب البابوي المدعو (الولاء) ويفتتح الخطاب بقوله: «إننا نمدح الشريعة المقدسة ونحترمها تلك التي أنزلها الرب القدير على آبائكم عن طريق موسى، ولكننا نستنكر أعمالكم الدينية وكذلك تفسيراتكم الخاطئة للشريعة، وذلك لأن المخلص الذي لازلتم تنظرونه عبثاً منذ عهد طويل، قد ظهر بشخص سيدنا يسوع المسيح وذلك طبقاً لتعاليم رسلنا ودينا، وهو الذي يقيم مع الأب والروح القدس، ويحكم كإله من جيل إلى جيل، إنني أعترف بكل هذا، ولكن لا أقركم على ما تعتقدون».

فإذا ما أرجع البابا الدرج بابتسامة رضا، فهذا يدل على الحماية المستمرة لليهود في المدينة المقدسة، عند ذلك يتنفس اليهود الصعداء، فهم لا ينتظرون أكثر من ذلك، فليس هنا مكان للمناظرات اللاهوتية، على الرغم من أن المناظرات المسيحية اليهودية كانت سائدة في لذلك الوقت، وكانت هذه المناظرات تستقطب الجماهير الغفيرة كما هي الحال في مصارعة الثيران، حيث كان يظهر تماماً أن رجال الأكليرس المسيحيين، لم يكونوا دوماً

على مستوى الكفاءة التي كان يتحلى بها الرباني الأعظم، وقد ذكر هيرنج هاين فيما بعد أن كلا الفريقين كانا يصابان بالوهن ويلفظان الهراء.

ولكن هنا لا يطلب ولا يسمح أن يجيب، فقد سلم اليهود للبابا درج أسفار موسى الخمسة، واشتركوا في سير الموكب حسب التقاليد الرومانية، وكان هذا كل ما ينتظر منهم، والحقيقة أن هذه الاحتفالات لم تكن دوماً خالية من المشاكل، ففي بعض الأحيان كان البابا يرمي الدرج المقدسة في الوحل، كدليل على احتقاره لذلك الشعب الذي يقدس هذا الدرج، وعندها كانت جموع الشعب تضج بالضحك والصراخ، بينما يقف اليهود لا حول لهم ولا طول، ولا يستطيعون أن يتفوهوا بأية كلمة أو أن يقوموا بأي عمل، بل تراهم يرتجفون توجساً لما ينتظرهم من أيام سوداء على يد هذا البابا، إلا أن الشعب لم يكن يستعمل معهم أي عنف ولا أي هجوم بل إن مجرد الهزء والسخرية من قبل هؤلاء الرعاع الجهلة والوحوش غير المختونة يثير الأشجان والآلام في نفوس اليهود، أليست هذه اللحظات الحرجة كافية لتجعل باروخ اليهودي من تراستفيري يبدأ بالتفكير والتمني لحياة أفضل، حياة كان يصلي في كنيسه الخاص لنيلها، فقد كان يقول بمناسبة احتفال اليهود بقدوم الشهر الجديد: «أتمنى حياة خالية من العار والتهكم والتأنيب»، فما دام أن هذا الرجل أحد أفراد الأقلية المحتقرة التي صار لا هم لها ولا رجاء إلا الحصول على الحماية فهو يسير على صراط من الفزع الدائم، ويشعر أن الجميع يحتملونه أكثر مما يتقبلونه، وهكذا أصبحت حياته حقاً حياة العار والتهكم والتأنيب، وهنا ألا يمكننا أن نستنتج أن باروخ بدأ من تلك اللحظة يخطط من أجل أسرته، فإذا بدأنا نعيد النظر في تلك الحقبة وهي مدة المائة والثماني سنوات التي انقضت ما بين عام 1030، وهو عام تحول عائلة بيرليوني إلى المسيحية حتى عام موت البابا أناكلت الثاني، لا يسعنا عندها إلا أن نضع نصب أعيننا تلك الخطة الرائعة المحكمة الحبك! إن تحول عائلة بيرليوني إلى الديانة المسيحية لم يكن مجرد مناورة للحظوة والقبول لدى المجتمع الروماني، إذ عندما يصبح اليهودي العادي مسيحياً، فهو يعد

كالآخرين ، ولكن أفراد عائلة بيرليوني لا يعدون كالآخرين ، ومن الممتع أن نذكر أن بعض المؤرخين قد دعوا هذه العائلة عائلة (روتشيلد القرون الوسطى) وبالطبع فإن عائلة روتشيلد لم تتحول إلى الديانة المسيحية ، بل أفرادها لا يزالون يهوداً عريقين في اليهودية في إنكلترا وفرنسا ، وقد بقيت قبور موتاهم تحتفظ بتقاليد العائلة ، وكان لعائلة روتشيلد هذه خططها الخاصة وهي من نتاج تفكير (امشيل روتشيلد) الذي كان يلبس فوق رأسه الطاقية الصغيرة ، ويدخل قصور العظماء ، كما كان يرتدي الشول الصغير في الحي اليهودي في فرانكفورت ، ولكن الفرق بين العائلتين هو أن رجال عائلة روتشيلد القرون الوسطى ، أي آل بيرليوني قد عقدوا العزم على أن يشتركوا في الحكم مع الحكام ، ويؤمنوا مع المؤمنين ، وأن يحاربوا مع الشرفاء الشجعان ، لقد أصبح التراستفيري وهو الغيتو القديم قاعدة العمليات لدى عائلة بيرليوني ، وكما لمحنا من قبل لم يخل هذا الاختيار من سبب وجيه ، فقد كانت التراستفيري بوابة روما وكل من يسيطر عليها يصبح وصوله إلى المدينة أمراً سهلاً للغاية ، وفي السنوات القادمة نجد أنه قد حدث مراراً أن فتح التراستفيري على يد هذه العائلة للسماح للبابا بدخول روما واستلام المراكز الإستراتيجية فيها ، في الوقت الذي كانت فيه القوى المعادية تسيطر عليها ، وفوق ذلك فقد وجد في جزيرتهم على نهر التيبر حيث بنوا كنيساً لهم ، موقع جسر يؤدي إلى الأملاك البابوية (وقد دعي هذا الجسر ، جسر اليهود ، لأنه كان يصل الضفة اليسرى من نهر التيبر بالحي اليهودي ، ودعي الشارع الممتد منه إلى الحي اليهودي باسم شارع اليهود ، وكان موقع هذه الجزيرة إستراتيجياً ، وكذلك جسرها ، وقد شيدت عائلة بيرليوني عدداً من الأبراج الحصينة في جواره لحماية نفسها ، هذا وقد اشترت مسرح مارسيلوس الحصين ، على الضفة اليسرى ، مقابل الجسر بقصد جعله قلعة محصنة ، وقد ظل هذا المسرح لمدة طويلة يدعى قلعة بيرليوني) أما الآن فأصبح مأوى لعدد من العائلات الفقيرة في الحجر الكبيرة ، الفاخرة نفسها التي كانت في الماضي مسكناً لهذه الأسرة ، ولقد شاهد غريغوريوس وهو واحد من مؤرخي روما في العصور الوسطى ،

تلك الأبراج في أواسط القرن التاسع عشر، ووصفها بأسلوبه اللاسامي المعتدل الظريف، فقال: «إن أبراج بيرليوني عبارة عن حجر ومساكن حيث يخزن اليهود الثياب المستعملة، وفي الطابق الأرضي هنالك المسلخ المستعمل لذبح القرابين الحيوانية لأغراض طقوسية، وهكذا فقد تدهور ذلك المكان الذي عاش به أفراد عائلة بيرليوني الأمجاد من شيوخ في مجلس الشيوخ وقناصل عظماء.

انحط مقام ذلك المكان وعاد إلى أصوله اليهودية القذرة، ففي هذا المكان نفسه حيث مات البابا أوربان الثاني المحرك الأول للحروب الصليبية، وحيث قدم آل بيرليوني بابا جديداً من لدنهم، نرى اليهود في هذه الأيام يبيعون الملابس المستعملة كما كان يفعل أجداد البابا أناكلت الثاني».

وبعد أن برمجت وأعدت عائلة بيرليوني تلك الخطة العسكرية المحكمة، التي تدل على بعد النظر، عمدت هذه العائلة إلى شراء وتحصين تلك المنطقة، الواقعة على الضفة اليسرى للنهر والتي تؤدي إلى المدينة البابوية، والآن بدأوا يحشدون رجال المليشيات فيها، وكانوا يزودونهم في أوقات الحاجة بجنود من المرتزقة، الذين كانوا مستعدين لخدمة أية جهة تستطيع أن تدفع أكثر، ولاشك أن عائلة بيرليوني كانت تستطيع أن تدفع بسخاء، لأنها كانت من العائلات المالية الثرية.

لقد كان رجال المال هؤلاء مخولين ولديهم صلاحية ضرب النقود في القرون الوسطى، وكانوا بهذا التقدير يتمتعون بمركز ليس له نظير في هذه الأيام، فلم يكونوا مجرد مهنيين محترفين، ولكنهم كانوا يؤلفون طائفة ذات مرتبة عالية لها أهمية تفوق أهمية مرتبة النبلاء، وفي الوقت الذي لم يكن فيه ضرب النقود مقصوراً على الأباطرة فحسب، بل كان يشاركهم فيه الدوقات والبارونات، لا بل حتى الأساقفة الذين كان كل منهم يضرب نقوده الخاصة به، وعندما كانت قيمة المعادن الثمينة تختلف بين مدينة وأخرى، وبين دولة وثانية، وعندما لم يكن هناك أية تنظيمات وطنية، أو عالمية لسوق النقود، كان ضاربو النقود يتمتعون بأهمية خاصة، وكثيراً ما كانوا يشرفون على عمليات التعدين في مناجم الذهب والفضة

فضلاً عن ضرب النقود، وعندما كان أي ملك يستلم زمام السلطة في بلد من البلدان كان يجد نفسه بحاجة إلى ضارب نقود يشرف على هذا العمل بقدر حاجته إلى مشرف على الغابات أو المزارع الملكية، وكان اختيار ضارب نقود يتم بعناية فائقة، وكانوا يوثقون العقود مع أولئك الأشخاص، إلا في حالات خاصة كأن يكون الرجل غنياً جداً وموثوقاً به بحيث تصبح سمعته، وأخلاقه ضمانة كافية، ولما كان اليهود هم المشتغلون بالذهب والجواهر منذ مئات السنين، تلك المهنة التي كانت تتطلب ثقة المشتري بالبائع، لذا نجد كثيراً من الدوقات والملوك، يلجأون إلى التعامل مع عائلات يهودية خاصة بهم جيلاً بعد جيل، وهكذا أصبح من الطبيعي أن يشتهر كثير من اليهود كممولين وضاربي نقود.

ففي القرن السادس الميلاد، عرف عن اليهودي برسكوس أنه كان ضارب النقود لتشالون Chalon، وكان اليهودي جدعون ضارب نقود في ميلانو في القرن العاشر، وكان هنالك ثلاثة ضاربي نقود يهود في ونشستر Winchester عام 1181م، وفي لندن لا يزالون يذكرون اسم داود، وفي يورك اسم (اسحق)، وفي كانتربري (وجد فيها مجمع يهودي لا بأس به في القرن الثاني عشر) كان هنالك اسم سيمون وسلمان، وكان أوتو أسقف ويرزبرغ في بافاريا في بداية القرن الثالث يثق بالممول اليهودي ييشيل Yechiel، أما ليوبولد الخامس ملك النمسا فكان اليهودي شلوم يقوم بخدمته، وكان هنالك ضاربو نقود حتى في بولندا، وكان العصر الذهبي لضاربي النقود اليهود في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وقد عمد الملك فريدريك الأكبر ملك بروسيا، إلى التعامل مع فيتيل هاين أفرايم اليهودي، على الرغم من أن هذا الملك كان ضد السامية وضد اليهود، وإلا أنه عهد إلى هاين هذا بالإشراف على تنظيم جميع بيوت ضرب النقود في بروسيا وسكسونيا، وقد كان قصر أفرايم الشهير، الذي دمر أثناء حصار برلين في الحرب العالمية الثانية، يعد أثراً من الآثار الهندسية المعمارية، عندما تقلد هتلر السلطة، هذا وإن الارتفاع وسمو الدرجة التي وصل إليها جوزف سويس أوبن هيمر، أقوى ضاربي النقود، ثم سقوطه وانتهاء حياته على المشنقة لتؤلف حقاً قصة من القصص المثيرة!.

ويجب أن نشير إلى أننا قد انتقينا أسماء ضاربي النقود هؤلاء وأتينا على ذكرها، وذلك بسبب ارتباط أسمائهم هذه بروايتنا الراهنة، ومع هذا فإن أكثرية ضاربي النقود، وأصحاب البنوك، ومقرضو الأموال كانوا مسيحيين وإن شارع لومبارد في لندن حيث اعتاد أن يجتمع الصيارفة وأصحاب البنوك للتداول، ليذكرنا باللومبارديين الإيطاليين الذين كانوا صيارفة النقود الكلاسيكيين في العصور الوسطى، ثم على الرغم من القوانين الصارمة خصوصاً في القرون المتأخرة، نرى أنه حتى الكنائس والأديرة كانت متورطة في أعمال الصيرفة، ومع ذلك فلا يمكن استثناء اليهود من هذه الأعمال، حتى في الأوقات التي كانت بها اللاسامية على أشدها، وعندما نجحت الدولة والكنيسة في التشديد على نشاطات اليهود التجارية، بل إنه على العكس ارتفعت قيمة ضاربي النقود اليهود، حتى أصبحوا في مركز رجال البلاط، وكان يحق لهم الاتصال بالحكام بحرية تفوق حرية معظم النبلاء، ومع أنهم كانوا يعيشون في (الغيتو) إلا أن أبواب القصور كانت مفتوحة دوماً في وجوههم، وعدوا من مقتنيات الحكم الثمينة جداً، إذ كانوا هم المسؤولون عن تامين وجلب التحف الفنية الرائعة إلى القصور، وغالباً ما كان هؤلاء اليهود في أيام المحن والكوارث، أبرع الناس في الدفاع عنهم وأفصحهم، وأشدهم إقناعاً، وعندما ظهر آل بيرليوني على مسرح الأحداث في تاريخ روما، كانوا يشتغلون بالصيرفة، ولكن هنالك شك فيما إذا كانوا قد جمعوا أموالهم الهائلة من الصيرفة أو اشتغلوا بالصيرفة فقط، فالصيرفي كان في ذلك الوقت كما هو في هذه الأيام، مقرضاً للنقود أيضاً، وكان هذا العمل هام ومربح، فمع أن الصيرفة كان ربحها لا يزيد عن 33.8٪ إلا أن أعمال الأسلاف كانت تعطي مردوداً أكبر، فنسب الفوائد على القروض في القرون الوسطى اختلفت من بلد إلى بلد حسب ظروف ووضع المستقرض، ومستلم النقود، فأمير كانت تقع تحت تصرفه أملاك وموارد كثيرة ضخمة كان يدفع 33٪ سنوياً، بينما كانت دور الرهن تتقاضى ما يصل حتى 300٪، وكانت هذه الأسعار رسمية، وضعتها السلطات ولا تعد ربا فاحشاً، ولا يجوز أن يتطرق الشك إلى أذهاننا كما لاحظنا أن الثروات الخيالية لآل بيرليوني قد تجمعت في عهود وأجيال متطاولة، وليس

في وقت قصير، فباروخ الصيرفي لابد أنه كان رجلاً عبقرياً في ميدان عمله، ونعلم أن علاقاته كانت ممتازة، ولكن يبدو أنه من المستحيل أن تكون ثروة عائلة واحدة قد انحصرت كلها في رجل واحد.

وبما أنه من المعروف عن اليهود أنهم قد شغلوا أدواراً هامة في اقتصاد المجتمعات في القرون الوسطى لذلك يمكننا أن نعد أن مصدر وأصل ثروة باروخ لم تأت عن طريق الصيرفة، لكن عن شكل من أشكال التجارة، إننا نقرأ في كتاب ابن خرداذبه وهو أحد المسؤولين عن البريد في الإمبراطورية الفارسية[1] في القرن التاسع عن دور التجار اليهود المدعوين بالراذانية الذين كانوا يتولون أعمالاً تجارية ضخمة، في عالم البحر المتوسط في ذلك الزمن، وكان هؤلاء التجار يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والأفرنجية والأندلسية والصقلية، وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق، براً وبحراً «يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان، والديباج وجلود الخز والفراء والسمور، والسيوف، ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم (السويس) وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار وجدة ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود، والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي[2]، وربما أخذوا خلف رومية، في بلاد الصقالبة ثم إلى خليج مدينة الخزر».

---

(1) كذا في الأصل، والصحيح الخلافة العباسية، وابن خرداذبه (205 ـ 280هـ/ 820 ـ 893م) هو عبيد الله بن أحمد بن خرداذبه، أبو القاسم مؤرخ، جغرافي، فارسي الأصل، من أهل بغداد، كان جده خرداذبه مجوسياً، أسلم على يد البرامكة، فاتصل عبيد الله بالمعتمد العباسي، فولاه البريد، والخبر بنواحي الجبل وجعله من ندمائه، له تصانيف أهمها «المسالك والممالك».

(2) يلاحظ أن المؤلف مزج هنا بين الأخبار ودلسها، فنسب إلى الراذانية دورهم الذي كانوا يقومون به مع دور التجار الروس، انظر المسالك والممالك لابن خرداذبه ط، ليدن 1889 ص153 ـ 155، هذا ولابد من وقفة عند ما أورده ابن خرزداذبه فاسم هذه الفئة من التجار وثائقياً «الرهادره» كما يرى بعض الباحثين في تونس، وقد وجد بالقيروان سوق مخصص لهذه الفئة من التجار، كما وعثر على قبور بعضهم في مقبرة القيروان ويشير هذا إلى أنهم لم يكونوا من اليهود فقط، بل كان فيهم المسلم وربما غير المسلم، وإلى اليوم نجد في الدارجة في تونس (الرهدار) وفي المغرب «الرهطاني» هو الرجل المتلون محب المال.

وعلى الرغم من صياغتها المختصرة ، فإننا نجد هذه الوثيقة تنقل إلينا صورة معبرة عن نشاط تجار اليهود ، ومع أنه من الخطأ أن نفكر بالامتيازات اليهودية طبقاً لمصطلحات الاقتصاد في أوائل العصور الوسطى ، كذلك من الخطأ أيضاً أن نفكر باليهود في القرن الحادي عشر طبقاً لمصطلحات التعذيب والغيتو والانفصال عن العالم المسيحي ، إذ أن كل هذه الأشياء وإن ظهرت مبكرة فإنها لم تتبلور قبل الحملة الصليبية الأولى (1095)، وإلى ذلك الحين كانت منحصرة في مناطق معينة .

وفي القرن الحادي عشر ، لم يكن هنالك تفريق بين اليهود والمسيحيين سوى في القضايا الدينية ، فقد تكلم اليهود لغة المسيحيين ، وعاشوا في أحيائهم نفسها ، وأحياناً في بيتوهم نفسها ، وقد شجعت الاختلافات التي ظهرت على إيجاد علاقات ثقافية متبادلة ، فقد علم اليهود المسيحيين اللغة العبرية ، التي كانوا يستعملونها في الطقوس الدينية ، وغالباً ما استعملوها في آدابهم ، بينما في المقابل علم المسيحيون اليهود اللغة اللاتينية ، وكان المسيحيون يدخلون الكنس اليهودية ليسمعوا صلوات الربانيين ، بينما كان اليهود يساعدون أحياناً في القداس المسيحي ، وكانت جماعات التجار اليهود وزبائنهم من المسيحيين يتشاركون مع بعضهم في احتفالاتهم العائلية .

والحقيقة أن بعض المدن في أوائل العصور الوسطى كانت تتلهف لوجود اليهود بين ظهرانيها ، والوثيقة المعبرة حول هذا المعنى هي الدعوة الشهيرة التي قدمت لليهود للإقامة في مدينة سبير على حوض الراين ، ففي أيلول عام 1084م قرر الأسقف روديجار هوزمان أن أهمية المدينة سوف تزيد إذا دعا اليهود للعيش فيها ، ولكي يوافقوا على دعوته ، عرض عليهم بعض الامتيازات ، فبالإضافة إلى الحرية التامة بالتجارة في المدينة و مينائها ، فقد سمح لهم بامتلاك الأراضي والأبنية والحدائق والكروم والمزارع ، وقد سمح لهم باقتناء العبيد (خلافاً للمرسوم البابوي) وسمح لهم باستئجار الأيدي العاملة في المزارع والمسيحيين والمسيحيات ، وقد سمح لهم أن يتقاضوا أمام قضاة من بني جلدتهم مع الحرية الذاتية في الشؤون الاجتماعية والثقافية ، وكان رئيس الكنيس اليهودي يتمتع بالدرجة

نفسها من النفوذ الذي يتمتع به السيد الإقطاعي، كما سمح لهم أن يبيعوا للمسيحيين اللحم الذي لا يجوز لليهود أكله، وفي سبيل سلامتهم وأمنهم، خصصت لهم أحياء معينة في المدينة لها أسوار، بغية حماية اليهود من الغوغاء، ولقاء هذه الامتيازات كانوا يدفعون ضريبة سنوية مقدارها ثلاثة أرطال ونصف الرطل من الذهب، وقد أيد هذا القرار الإمبراطور هنري الرابع.

ومنذ فتح العرب المسلمين لإسبانيا عام 711م تجمعت أكثرية اليهود في تلك البلاد، وقد عاشوا سعداء، وفي رخاء من العيش، وفي أعداد كبيرة، وكانت بعض المدن الإسبانية تحتوي على أكثرية يهودية، وكانت غرناطة تعرف باسم مدينة اليهود، وكان سكان اليسانا كلهم تقريباً من اليهود، وأما طركونه فكانت تسمى مدينة اليهود، وكان يعيش في برشلونة أكثر من ألف عائلة يهودية، ومع أننا لا نملك إحصائيات دقيقة بالنسبة لعدد اليهود في: فرنسا، وإنكلترا، وإيطاليا، إلا أن المؤرخ سالو بارون Salo Baron، يذكر أنه عاش حوالي عشرون ألف يهودي في إنكلترا، عاش أكثرهم في مدينة يورك ولنكولن، وبرستول، وكمبردج، واكسفورد، وطبعاً لندن، وأما في إيطاليا فكانت الجماعة اليهودية أقل عدداً، ولكن الإحصاءات العددية، والأرقام تعطينا فكرة عن نفوذ اليهود التجاري والاجتماعي والثقافي، ولم تكن الأحياء اليهودية في أوائل العصور الوسطى دائماً حسبما شهدت فيما بعد من القذارة والرطوبة، وذلك عندما أحيط اليهود بالأسوار، وحصروا في منطقة معينة، بغض النظر عن التزايد السكاني، ولم يسمح لهم بالخروج بعد حلول الظلام، وغالباً ما كانوا يتمركزون وسط المدينة قرب القاعة العامة أو القلعة، وقرب الطرق التجارية الرومانية القديمة، وكانوا دائماً معرضين للحسد أكثر من الكراهية، ويصف وليم، وهو كاهن نيوبره في إنكلترا المجتمع اليهودي في مدينة يورك بقوله: «لقد بنى اليهود بيوتهم في منتصف المدينة، وأسرفوا في تزيينها وزخرفتها، وكانت ذات أحجام كبيرة لا يضاهيها إلا قصور النبلاء، لذلك بدأ كثير من الناس يتآمرون عليهم خصوصاً من الطبقات الفقيرة التي لم يرضها أن يتمتع هؤلاء اليهود بالغنى والثروة، بينما هم أنفسهم في حالة فقر وعوز».

وشمل نشاط اليهود في ذلك الزمن كل وجه من أوجه الاقتصاد، ففي سكسونيا كانوا يملكون الملاحات (أمكنة استخراج الملح) وزرعوا الكروم في فرنسا، وباعوا النبيذ، وكانوا يتمتعون بالاحترام الزائد، حتى أن بعضهم كان يحظى بالرعاية والحماية في أسواق الراين، وأسواق فرنسا، ولم تكن بعض الأسواق تعقد في أيام السبت، وذلك احتراماً لليهود وسبتهم، وكان منهم الحاكة، والدباغون في صقلية، وصائدو اللؤلؤ والتجارة في إيران، ونافخو الزجاج، وكانت آنيتهم الزجاجية مرغوبة وتعرف باسم الزجاج اليهودي، كذلك صناعة المنسوجات والصباغ في مدينة برنديزي، ومصر وسورية، وتجار الحرير بين الصين وبلاد الغرب، وكان هنالك صانعو الورق في بلنسية والمدن الأندلسية الأخرى، وكان منهم تجار لتوريد البضائع وللتصدير، تمتعوا بسمعة لا بأس بها، وكان التجار اليهود يحملون العطور والحرير والجواهر والمنسوجات النادرة من البلاد البعيدة، ويجلبونها إلى قلاع وقصور الأباطرة والبابوات، والأساقفة والنبلاء، وكانت أرباحهم طائلة ولكنها لا تقاس بالأخطار التي كانوا يتعرضون لها على يد القراصنة في البحار، وقطاع الطرق في البر، وقد قيل مثلاً إنه بإمكانك أن تثق بالتاجر اليهودي لنقل سبيكة من الذهب، من القسطنطينية إلى السويد، وذلك أن بيوت التجار اليهود المحصنة كانت مبنية على محاذاة الطرق التجارية، والحقيقة إننا لا يمكن أن نجزم أن اليهود كانوا التجار الوحيدين في المنطقة دون أي منافس، ولكن لا ينكر أن شهرتهم ونجاحهم كتجار دوليين سببها أن اليهود عاشوا في جميع الأقطار، من إسبانيا غرباً حتى الهند والصين شرقاً (حيث لا تزال هنالك جماعات يهودية حتى الآن).

ووصلوا حتى كوريا أيضاً، وقام هذا التفاهم على الشريعة اليهودية وعلى قاعدة رباط الإخوة، وكانت لغة التفاهم بين هذه الجماعات هي اللغة العبرية، ولم يكن هؤلاء التجار اليهود مجرّد تجار يبغون الربح والفائدة، بل كانوا يقرؤون الكتب ويحملونها، وكانوا في الحقيقة يمثلون الحضارة التي تعدّ الثقافة والعلم من متطلبات التقوى والدين الأساسية، ففي المدن وبخاصة المدن الجامعية، خدم جماعة اليهود في أعمال الترجمة والنقل، وكان اليهودي اسحق هو الذي اشتغل مترجماً لسفير شارلمان في مهمته الشهيرة

لدى الخليفة (الفارسي)[1] هارون الرشيد، وقد هيأت إسبانيا المسلمة، مكة الثقافة في العصور الوسطى، الأجواء لبعث الحضارتين اليونانية واللاتينية، وقد ساهم اليهود الأسبان في نقل الآداب الكلاسيكية إلى الغرب، ولا نستطيع أن نتجاهل قيمة هذه المعلومات والمعارف بالنسبة لتقدم الطب والرياضيات والعلوم في العصور الوسطى، ففي القرن الثاني عشر، الذي غالباً ما يدعى أوائل عصر النهضة، قام اليهود بتأدية دور هام في جامعات باريس واكسفورد، ولا شك أن هذه التحركات في العالم التجاري، والحياة الثقافية في المدن قد حالت دون نشوء أية حواجز اجتماعية ذات شأن بين اليهود والمسيحيين، لا بل حتى فيما بعد في العصور الوسطى، لم تكن هنالك أي اختلافات ذات بال، وذلك لأن اسمك أسوار أي غينو، لم تكن ذات قوة كافية لإعاقة أو منع إقامة العلاقات الثقافية في ذلك الزمن.

ومن الجانب اللغوي نجد أن اللغة اليهودية الألمانية (التي لا تزال موجودة في اللغة اليدية[2] Yidish) ليست بعيدة جداً عن اللغة الألمانية في العصور الوسطى، وكذلك اللادينو لغة اليهود الإسبان ما هي إلا اللغة الإسبانية القشتالية، وقد استعمل راشي Rashi الشارح اليهودي للتوراة في العصور الوسطى [بالمناسبة كان يمتلك كروماً كبيرة في فرنسا]. اللغة الفرنسية في العصور الوسطى لتوضيح بعض النقاط في شروحه العبرية، وأما في فن العمارة، فقد كانت أبنية الأحياء اليهودية تشاد طبقاً لأساليب العصر المعمارية، فكنس طليطلة، وبراغ، وورمس هي أمثلة رائعة لأساليب الفن الإسباني والرومانسي والقوطي، بالتوالي، وكان هنالك واحد من شعراء التروبادور على الأقل في ألمانية وهو منشنجير

---

(1) كذا في الأصل، والصحيح «العباسي» ثم أين هذه الشهرة؟ حيث لم يشر واحد من المصادر العربية إلى وصول رسل شارلمان إلى بغداد، أو إرسال الرشيد أو غيره من الخلفاء العباسيين أية رسل أو سوى ذلك إلى بلاط (اكس لا شبيل) «آخن»، والإشارات التي وردت في الكتب اللاتينية مثل كتاب حياة شارلمان لإنهارد، أوردت في معرض التفاخر، وهي موجزة جداً وليس لها مكانة وثائقية.

(2) Yedish : اليدية: لهجة من لهجات اللغة الألمانية تكثر فيها الكلمات العبرية والسلافية، وينطق بها اليهود في الاتحاد السوفييتي المنهار، وبلدان أوروبة الوسطى، وهي تكتب بحروف عبرية.

سوسكند فون ترمبرغ، ولربما كان هناك غيره، وعلى العموم، كان الاتصال بين المسيحيين واليهود شخصياً وسريعاً، وغالباً ما كان حميماً.

وإن موقف الكنيسة الأخيرة في القرن الثالث عشر الميلادي الذي أوجب الحظر الصارم على اليهود، وإجبارهم على السكن في الغيتو، وارتداء ملابس مميزة خاصة، ما هو إلاَّ دليل وشاهد على وجود اختلاط واتصال متبادل بين المسيحيين واليهود، وكانت العلاقات الجنسية شائعة لدرجة أن علماء اليهود في القرن الخامس عشر، فسروا سبب طرد اليهود من إسبانيا عام (1492م) بقولهم: «إن اليهود الإسبان أخذوا النساء من الأمم إلى بيوتهم وتسببوا في حملهنّ، وهكذا أصبح أطفالهم من أمم، ثم أصبحوا فيما بعد قتلة مجرمين اشتركوا في قتل آبائهم»، وهذا التفسير بسيط جداً، ولكن مشكلة وجود علاقات من هذا النوع بين اليهود وغير اليهود، لا شك واردة وتؤيدها التحذيرات الصادرة عن كل من اليهود والمسيحيين لأتباعهم كل على حدة.

وإذا عددنا الدور الاقتصادي والاجتماعي لليهود، نجد أنه لأمر مدهش ألا نلاحظ أي تحول اختياري بالجملة للديانة المسيحية، فمعظم التحول كان نتيجة الإجبار والإكراه، لا بل حتى في هذه الحالة يُشك في جدوى وفعالية هذا الإجبار، فنحن نجد أن أولئك المتحولين إلى المسيحية، كانوا يستمرون في مراعاة واتباع عقائدهم وأساليبهم اليهودية في العبادة، سراً على الرغم من تظاهرهم بالتمسك بالديانة الجديدة (المسيحية).

وقد أصبح هذا النوع الباطني المرائي من اليهودية مشكلة كبرى بالنسبة للمسيحية بعد طرد اليهود من إسبانيا، فالمارانو Maranos، في إسبانيا وهم يهود تحولوا إلى المسيحية، يحتفظون بيهوديتهم حتى يومنا هذا، ويعيش أبناء هؤلاء المتحولين في مجتمعهم الخاص في جزيرة ميورقة من جزر (البليار) ويبدون كما لو أنهم طردوا من إسبانيا البارحة، فزواج فتاة من الشاولا Chuela أي من بنات هؤلاء المتحولين الأثرياء من يهود القرن الخامس عشر، كان يعد تحالفاً مشبوهاً، والمارانو في البرتغال لا يزالون يستعملون الصلوات اليهودية في عبادتهم، والسيدات الكاثوليكيات الثريات في البرازيل والأرجنتين ما زلن يتذكرن أجدادهن اليهود في إسبانيا فيشعلن الشموع مساء السبت،

وتعد السلطات الكاثوليكية الرسمية تحول اليهود إلى المسيحية أمراً يدعو للشك، وفي كاتدرائية (ريمس) هنالك صورة مجسمة لخنزيرة، تدعى الخنزيرة اليهودية [وقد أصبحت نموذجاً يحتذى به انتشر في العصور الوسطى، ويشاهد في كثير من الكنائس الألمانية والسويسرية] وتحت هذا الرسم هنالك شرح تفسيري يقول: «كما أن الفأر لا يمكن أن يأكل السنور، كذلك لا يمكن لأي يهودي أن يصبح مسيحياً حقاً».

وهذه الفكرة تلخص الرأي الشائع الذي أورده، ووثقه بطرس براو وهو أحد الرجال اليسوعيين الألمان، في كتاب نشره تحت إشراف الفاتيكان يقول فيه: «إنه لن تحدث سوى تحولات قليلة في أوائل العصور الوسطى، وخصوصاً التحولات المؤسسة على الاعتقادات العميقة، إذ أن هذه كانت نادرة»، ثم يستطرد فيقول: «كان اليهود عادة يتحولون عندما تبرز أمامهم فوائد ووعود مادية، أو عند شعورهم بالتهديد، وليس هنالك أي دليل مقبول على إخلاصهم حتى «ولو أحرزوا مناصب اكليروسية رفيعة» فهنالك «إسحق المتحول» الذي خدم مستشاراً للبابا أورسينوس، وكتب عدة مؤلفات، ثم عاد ورجع إلى الديانة اليهودية مرة ثانية، وخلال مذبحة حدثت في (ورمس) وطبقاً لما ذكره الراهب بيرنولد أوف سانت بلاسيان فقد وعد الأسقف فيها بإيواء اليهود وحمايتهم إذا تحولوا إلى المسيحية، عند ذلك طلبوا أن يعطيهم الأسقف وقتاً ليبحثوا هذه القضية لوحدهم، وعندما رجع الأسقف، وجد أنهم قد انتحروا جميعهم «بعدما ساقهم إلى هذا العمل عنادهم ووسوسة الشيطان»، هذا وقد عُمّد يهود متز عام 1096م أثناء الحملة الصليبية الأولى، ولكن عندما زال التهديد بالخطر رجع جميع اليهود إلى ديانة إسرائيل، وفيما بين عامي 1125 و1152م لم يحدث سوى حادثتين من التحول في كولون، وعندما خُيّر يهود إنكلترا عام 1290م بين التحول أو الطرد من البلاد، لم يتحول أي واحد منهم، وكان عددهم عشرين ألفاً، وفي النمسا تحول بعض اليهود عام 1349م ولكن لم يبق أي واحد منهم مسيحياً، وفي مدينة طليطلة حيث تحولت مئات من الأسر اليهودية أثناء الاحتفال بعيد شفيع الكنيسة فيها، بعد حمامات الدم التي حدثت في إشبيلية عام 1391م، قام بعد هذا الراهب الفرنسيسكاني الإسباني ألفونسو لوبيز، بالبحث

والاستقصاء عن مواقف هؤلاء اليهود وعاداتهم فيما بعد، فوجد أنهم لا يزالون يقومون بختان أطفالهم، ويتقيدون بالسبت ويشتغلون يوم الأحد، ونبذوا دين ومذهب القديسة (مريم)، وسموها الخاطئة، وعندما كانوا يؤشرون بعلامة الصليب على صدورهم استعملوا نصف العلامة فقط، وحافظوا على العادات اليهودية بخصوص دفن الموتى، وثقفوا أولادهم حسب تعاليم الدين اليهودي، وفي أوقات الشدة كان واحدهم يهتف «يا أدوناي ساعدني» ومن الإنصاف أن نلاحظ أن كل بابا منذ أيام غريغوري الأول (590 - 604) كان يصدر تحذيرات شديدة اللهجة ضد استعمال القوة، للتحول إلى الديانة المسيحية، ولكن هذه التحذيرات لم تكن ذات جدوى، إذ أنه كثيراً ما استعملت القوة، وأصبح عدد المتحولين بسبب الضغط والتهديد كبيراً، وقد كانت التحولات في إسبانيا، بعد حوالي مئة عام، حتى أننا نجد أن الذين عاشوا في إسبانيا عند إصدار مرسوم الطرد لا يتجاوزون الـ/ 000 . 250/ نسمة، وقد كانت مشكلة النيوفيتي Neo fiti (المؤمنين الجدد) في جنوب إيطاليا تقابل مشكلة المسيحيين الجدد في إسبانيا، وعندما حدث أن قُدم لكل متحول يهودي مكافأة مالية من ذهب في مدينة تراني Trani عام 1297م، تحول حوالي 310 من اليهود حالاً، ولا أحد يعلم كم كانت تدوم فوائد هذا التحول بالنسبة للمعتقدات المسيحية الحقيقية.

ويدعي سالو بارون في بحثه عن العوامل اليهودية والمؤثرات اليهودية في حضارة العصور الوسطى، أن القيم اليهودية والأفكار اليهودية قد تقلبت خلال هذه التحولات، حتى أن بعض المسيحيين المتحمسين عبروا عن سخطهم لتدفق هذه الأيديولوجيات الأجنبية، وغزوها، ولكن من الصعب تحقيق هذه الأمور، وتبقى الحقيقة الناصعة وهي أن التحولات بالجملة حدثت فقط عندما كانت القضية تصبح قضية حياة أو موت، أو عندما كان يحدث تهديد بالطرد، أو عندما يصبح التحول أمراً محتوماً لا مناص منه، وبالتأكيد إن الإجراءات الوحشية التي قام بها القياصرة في روسيا في القرن التاسع عشر (مرسوم الاستيطان) والمذابح الدموية، لم تكن نتيجتها أي تحول جماعي، وإن مدة الاستيعاب التي تلت الثورة الفرنسية، لم ينتج عنها إلاّ إضافة عدد ضئيل من المتحولين، وإذا سألنا: لماذا

ثبت أن القوة نجحت إلى حد كبير في هذا المضمار فـي إسبانيا في عصر القـوط الغربيـين، وبعد إعادة السيطرة المسيحية؟ نجد أن الجواب على هذا السؤال هو من المسائل التي لم تحـل في التاريخ اليهودي، بعد هذا يمكننا أن نستطرد فنقول: إن تحول آل بيرليوني إلـى المسيحية كان من الأحداث النادرة في روما فـي القرن الحـادي عشر، ولـم يصـل إلينـا أن أيـة أسـرة أخرى بارزة لا في روما ولا في أي مكان آخر قد تحولت بشكل جماعي مثل هـذه الأسـرة، ولم يحدث في جميع العصور التاريخية، أن كان لتحول أسرة بأجمعها مثـل هـذه الأسـرة النتائج البعيدة المدى التي تلـت تحولـها، وإذا أخذنـا بعـين التقديـر الـولاء والإخـلاص التـام الذي أظهرته هذه العائلة للكنيسـة، عندهـا يصبـح أمـراً طبيعيـاً وسـهلاً أن نفـترض أن هـذا التحول قد حدث عن قناعة وتبصر في الموضوع، ولهذا فإن هذا السبب يعـدّ مـن الأسـباب الجوهرية التي تجعل التغير من دين إلى دين أمراً مفهوماً ومستساغاً، ولكن لما لم يكـن لدينـا أي مرجع موثوق بـه نعتمـد عليـه فـي مثـل هـذه الاسـتنتاجات، عندهـا علينـا أن نلجـأ إلـى تخمين الأسباب التي أدت إلى هذه الخطوة الهامة.

في الأسبوع الذي تقدم على عيد الفصح في عـام 1030 اجتمـع آل بـيرليوني لتنفيـذ أول خطوة، في عملية التحول المعقدة، وهي عملية طقوس التفحص وإنعام النظـر، ذلـك لأن الكاهن الفاحص الذي أنيطت به مهمة التحويل، كان من واجبه أن يتأكد أن المرشـحين للتحول على تمام الوعي والعلم بالدين الجديد الـذي سـوف يعتنقونـه، وبحضـور عرابيـهم (من المحتمل أن يكون هؤلاء من أسرة فرانيباني) أعلن كل منـهم رجـالاً ونسـاءً عـن إيمانـه، وبدأوا يستمعون للمواعظ المتعلقة بمذهب الكنيسة، وبعدها قبلـوا رسـمياً للتعميـد، وبـهذا اجتاز المتقدمون أول فحص، وبعد يومين مـن هـذا القبـول رؤي علـى بـاب كـل كنيسـة فـي روما، إعلان يصرح: «إن باروخ وعائلته سوف يحضـرون إلـى كنيسـة القديسـة مريـم فـي تراستفيري حيث سيقضون على روح الشـر ويـهزمون الشـيطان بعـون أسـرار العلـم الخفـي لروح القدس، وبهذا سوف تنفتح أبواب الجنة لهم على مصراعيها».

إن التعميـد لا يـزال حتـى اليـوم ظـاهرة طقوسـية، فالشـيطان الـذي يسـكن داخـل الشخص الكافر، يجب أن يطرد قبل عملية التعميد، وبمـا أن التعميـد يعـد ميـلاداً جديـداً،

لذلك يعطى للمتحول اسم جديد، وهذا هو ما حدث في كنيسة القديسة مريم، فعندما سئل باروخ عن اسمه أعلن بصوت رزين مهيب أنه إذا قبل في الدين القويم، فإنه يرغب أن يعرف باسم بندكتوس، وهذه ترجمة دقيقة لكلمة باروخ، أي المبارك (أصبح منذ ذلك الحين يدعى في الوثائق باسم بندكتوس كريسيانوس - أي بندكت المسيحي). وبعدها أعلن كل فرد من أفراد العائلة عن نبذه اسمه العبري، كما نبذ دينه العبري وعندها سجلت الأسماء الجديدة، وبعدها طلب من المرشحين أن يصطفوا في صفين الرجال إلى اليمين والنساء إلى اليسار، فتقدم الكاهن من كل منهم ونفخ في وجه كل منهم كما نفخ المسيح روح القدس في حوارييه، ثم عمل كل واحد منهم إشارة الصليب على جبهته وكتفيه، ثم تليت صلاة القربان المقدس، ويشرح الشماس هذه العملية بقوله: «إن النفخ غايته إعلام الروح الشريرة أنها سوف تطرد على يد روح القدس، وأنها يجب أن تستعد لاستقبال ربنا يسوع المسيح، وكل شخص غير معمد يصبح جسمه مكاناً لسكن الشيطان، وهكذا يجب أن يصبح الآن مسكناً للمخلص، ولهذا يكفي الروح الشريرة نفخة واحدة دون زيادة، ما دام أنه (الشيطان) أصبح محكوماً ومداناً دينونة كبرى» وبعد انتهاء مراسم النفخ وضع الملح في أفواه المتحولين «فالملح هو الواسطة الطبيعية لإملاح طعم اللحم» ولهذا فنحن نصلح ونلطف روح معتنق الدين الجديد، بملح الحكمة المقدس، وبتعاليم الرب وكلمته، حتى يستطيع هذا المعتنق الجديد أن يكتسب المناعة والقوة التي تساعده على مقاومة تسرب الفساد إلى الروح البشرية الفانية»، ولدى اختتام هذه الصلاة، بدأ قداس «إنعام النظر» ثم تليت صلوات خاصة بالمتحولين، وبعدها أزفت اللحظة الحاسمة، فنادى الشماس «فليتقدم المتقربون إلينا»، عندها نهض باروخ وتقدم أمام جميع أفراد عائلته متجهاً نحو منصة المذبح، حيث جلس الكاهن طارد الأرواح الشريرة، وصاح الشماس: «أرجوكم أيها المختارون أن تحنوا ركبكم وتركعوا»، ولأول مرة في حياتهم ركع آل بيرليوني في كنيسة، ففي كنيسهم في الجزيرة الواقعة على نهر التيبر، كانوا يركعون في يوم الغفران، ليصلوا صلوات الاستغفار والتسبيح، باسم الرب السرمدي الخالد، «وهكذا نركع لنعبد

ونقدم آيات الشكر والامتنان لملك الملوك الرب المقدس تبارك اسمه، هو ربنا لا إله إلا هو»، هذا ما كانوا يصرحون به مع جماعة المصلين اليهود، ولكن اليوم تحول الوضع، فالكنيس أصبح شيئاً ماضياً، وأصبحت الكنيسة التي يركعون بها الآن، وهي التي كانوا يمرون بجانبها كل يوم، كنيسة القديسة مريم في تراستفيري كنيستهم، لقد حل البخور والتراتيل والأغاني الدينية المسيحية والصلوات باللغة اللاتينية محل الشازان (وهي من التراتيل العبرية القديمة) ومحل صوت الشوفار SHofar، وهكذا ركعوا وبدأوا في الصلاة، وعندها سمعوا صوت الشماس للمرة الثانية: «انهضوا وأتموا صلاتكم بانسجام، وقولوا: آمين» ونهض باروخ وأقاربه، وأتموا صلواتهم بانسجام، وقالوا: آمين، ثم رسموا إشارة الصليب على جباههم، وللمرة الثانية أمر الشيطان ألا يدخل في المستقبل في شؤون عبيد الرب الذين عزموا بنية صادقة أن يولوا ظهورهم للشيطان ولمملكته ويتوجهوا نحو المخلص، مخلص هذا العالم، فليسدد الرب، رب الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين الشهداء، خطوات هؤلاء المتحولين، إلى نعمة التعميد»، وبعد أن استعدوا لمغادرة صحن الكنيسة قدم لهم عرابهم الخبز والخمر على المذبح، ثم قرأت أسماء العرابين، ثم أسماء المتحولين، وبعدها أنجز القداس، ثم تناول العشاء الرباني المقدس.

ولكن لم يزل أمام هؤلاء المتحولين عقبات كأداء، فالجزء الأصعب والأدق من عملية التحول لم يأت بعد، فأي شخص ضعيف العزيمة سوف يتراجع حقاً إزاء مثل هذه العقبات، ولكن آل بيرليوني صمدوا، فقرارهم لم يكن قراراً مرتجلاً فقد جلس آل بيرليوني حول موائدهم وتداولوا بين بعضهم البعض ملياً حول هذا الأمر، أفلم يكف هؤلاء اليهود أنهم قد تبؤوا مراكز النفوذ والثروة والاحترام في مدينة روما العظيمة، أو لم يكونوا يستطيعون أن يقابلوا البابا أو الأسقف أو أي موظف كبير، أو أي عضو من أعضاء مجلس الشيوخ دون خوف أو وجل، أفلا يكفيهم أنهم امتلكوا المنازل المختارة والقصور الفخمة، والقلاع الراسخة التي أضحت في حوزتهم من أجيال وأجيال، أفلم يكفهم أن وضعهم كأعضاء في الأرستقراطية المالية جعلهم يتمتعون بمراكز بارونات في الثروة والأملاك؟، الحقيقة إن كل هذا لم يكفهم، فالأملاك قد مهدت لهم السبيل للوصول إلى

المراكز العالية الرفيعة الشأن في البنية الاجتماعية، ولكن نبالة الدم لا يمكن أن تتم لهم إلا بالانخراط في الإخوة المسيحية، وهذا ما أرادته هذه الأسرة، بل كان طموحها يتعدى ذلك، فقد كان باروخ يأمل أن يتبوأ أحد أفراد أسرته في يوم من الأيام عرش القديس بطرس، لقد ركع آل بيرليوني في الكنيسة، وقاموا بأداء صلواتهم الجديدة بعد تحولهم، ولكن ظل اسم (جماعة اليهود في تراستفيري) ملتصقاً بهم لمدة ثلاثة أجيال بعد تحولهم، غير أن أملهم الذي لم يتحولوا عنه كان أن يأتي ذلك اليوم الذي سوف يستلم أحد أفرادهم منصب البابا المسؤول عن جميع كنائس العالم المسيحي.

تليت عليهم آيات الإنجيل من متى (الرجل) ومرقس (الأسد) ولوقا (الثور) وأخيراً يوحنا (النسر)، وبعد ذلك طلب من المتحولين الجدد أن يختاروا اللغة التي يرغبون أن يثبتوا إيمانهم الجديد بها، فقال باروخ، بحزم ودون تردد: «اللغة اللاتينية»، إذ أنه مادام أن لغة اليهود في روما هي اللغة اليونانية، التي كان آل بيرليوني يتحدثون بها دون شك في مجالسهم الخاصة، لذا فإن اختيارهم اللغة اللاتينية له دلالته على نيتهم الصادقة في التحول.

وفي اليوم الذي تقدم على عيد الفصح تمت آخر حلقة من حلقات هذه القصة المثيرة للتحول، فقد وقف كل متحول من آل بيرليوني أمام الكاهن الذي مسح بشكل رمزي صدورهم وظهورهم بالزيت المقدس، ولمس شفاههم العليا وعيونهم بإصبعه المبلل بالزيت، في حين كان المنشدون يرتلون صلاة بيفيا «افتح لي سبيل الجمال» وبعدها خلع القوم أحذيتهم وساروا وهم عراة الرؤوس باتجاه المذبح، حيث وجه لهم هذا السؤال: ألا ترفض الشيطان وجميع أعماله، وجميع أبهته وخيلائه؟ فأجابوا جميعاً «بلى إني أرفضه».

وفي الظروف العادية، كانت طقوس التحويل هذه تنتهي عند هذا الحد، وقد ابتدعت هذه الطقوس زمن الإمبراطور قسطنطين، عندما أصبحت المسيحية الدين الرسمي للدولة، وأصبحت تحولات الوثنيين إلى المسيحية تتم بصورة جماعية شاملة، لذا أصبحت هذه الاحتفالات بداهة أمراً مفروضاً، ذلك أنها تسبب نوعاً من الإثارة والاهتمام لدى الكنيسة الرومانية، والمجتمع المسيحي بأكمله، أما بالنسبة لهذه القضية بالذات فالأمور

تختلف، فلم يكن المتحولون من عائلة بارزة، ومن أقرباء النبلاء (الفرانيباني) فحسب، بل كانوا يهوداً، فتحول اليهود كان مناسبة نادرة في روما، ولو صدف أن حدث، فقد كان يشمل أشخاصاً مغمورين فقراء غير ذوي شأن، وقلما استدعى المطارنة والرهبان المتفقهين لسؤالهم عن الأساليب المتبعة في مثل هذه الاحتفالات ليقوموا بمثل هذه المراسم، التي كانت صورة طبق الأصل للإجراءات والمراسم التي كانت متبعة في إسبانيا زمن القوط الغربيين، حيث حدثت تحولات جماعية ليهود، تحت طائلة التهديدات من نوع بشكل لا يخطر على بال إنسان.

ففي هذه الطقوس، وهي إحدى الطقوس الكنسية القديمة نجد تعبيراً يفيض بالحياة عن العلاقات الفريدة بين الديانة المسيحية واليهودية، فاعتقاد الكنيسة حول الفداء والتخليص من الخطيئة هو رأي يحتل به اليهود مركزاً خاصاً يمكن أن نصفه بالغموض إذا أردنا أن لا نغالي فيه، إذ أن اليهود مسؤولون كشاهد حي عن حياة وموت المسيح، (لكن هذا الوضع قد تعدل على يد البابا بولس السادس في إعلانه عن العلاقات بين الكنيسة من جهة، وبين الجهات غير المسيحية من جهة أخرى - مؤتمر الفاتيكان الثاني سنة 1965).

هذا وإن الكنيسة لا تزال تأمل أن يعود اليهود إلى وعيهم في يوم من الأيام، ويهتدوا إلى النور الحق، ويتحولوا إلى الدين الصحيح، وهو دين الفداء، الدين المسيحي، وإن هشاشة هذه الآمال بالوجود اليهودي المستمر، واستمرار تحول اليهود إلى المسيحية جعل الأمر أكثر تعقيداً، وتعذر أيضاً وجود أي وضع من التسوية أو التوفيق، ربما لأن الأمل بالهداية أصبح بعيد التحقيق، لا بل حتى غير واقعي أبداً فلم يعد هنالك أي حاجة عملية للتسوية، ولقد رأينا أن حصيلة تلك التحولات كانت ضئيلة جداً بشكل يدعو للرثاء، وهنالك شواهد إضافية كثيرة، في أثناء حكم البابا غريغوريوس الأول لم يتحول إلى المسيحية سوى الأرامل، وفي صقلية وعد الفلاحون اليهود الذين منعوا من اقتناء العبيد أنهم إذا هم اعتنقوا الديانة المسيحية سيعفون من تطبيق القانون عليهم، وعلى الرغم من الفوائد المادية، لم يعتنق المسيحية سوى القلة من اليهود، ففي فرنسا أخبر اليهود أنه في كل سبت سوف يقوم الرهبان والمبشرون المسيحيون بالتبشير بشريعة الرب في الكنس اليهودية، ولكن

دون جدوى أو فائدة، أما في ليون فقد اضطر أجوبارد الذي أمضى معظم حياته في محاولة تحويل اليهود في المدينة إلى المسيحية، أن يتوقف ويعدل عن هذه المحاولات، وهو يهتف بيأس: «مع كل الوسائل الإنسانية، والنية الحسنة التي استعملتها بالنسبة لكم لم أنجح في هداية شخص واحد فقط منكم إلى المجتمع الروحاني المنشود»، وكان هنالك بعض الشواذ طبعاً، ففي كلير مونت مثلاً نجح رئيس الأساقفة هناك في تحويل خمسمائة شخص من السكان اليهود، وفي مساء إعلان تحويل هؤلاء ساروا يحملون المشاعل خلال المدينة بينما انسحب اليهود غير المتحولين بهدوء دون جلبة أو إزعاج إلى مارسيليا، ولكن مثل هذه الحوادث كانت نادرة الحصول وهنالك بعض الملاحظات الحدسية حول عقلية المتحولين، وقد صدف أن بقيت هذه الملاحظات بشكل وثائق غريبة.

لقد كانت هنالك صلوات وأدعية خاصة لليهود، كانت الصلوات كلها أمل بمجيء ذلك اليوم الذي سيتوحد الكنيس اليهودي فيه مع الكنيسة المسيحية، تماماً كما عانق عيسو أخاه إسرائيل، وكما رجع بنو إسرائيل من السبي البابلي، فالتحول هو الخلاص والفداء بالوقت نفسه لأن الكنيسة تقول: «مع أن اليهود يستحقون الموت إلا أن الرب حفظهم لغرض واحد، وهو تحولهم إلى المسيحية آخر المطاف».

كان القديس أوغسطين يصلي ويقول: «إنه يتمنى لو رأى اليهود نور الحقيقة حتى يقبلوا سر التجسد» أي اتحاد اللاهوت بالناسوت، وبالطبع هنالك الصلاة الشهيرة التي كانت تقام في يوم الجمعة العظيمة لأجل اليهود «الغادرين الخونة»، ولكن البابا يوحنا الثالث والعشرون أمر بحذف كلمة (الغادرين الخونة) من تلك الصلاة وذلك ليس لأنها تعد كلمة لا سامية فحسب، بل لأن صغار الكهنة والرعاع قد فسروها بهذا التفسير، حتى كانت هذه الصلاة تعد في الماضي تمهيداً واستهلالاً لبعض أعمال الشغب الدموية في الحي اليهودي في العصور الوسطى، ولمذابح في روسيا القيصرية، وتبدأ تلك الصلاة بهذا الشكل: «أيها الرب العزيز القدير الخالد الذي وسعت رحمته حتى الكفرة والملحدين من اليهود، اسمع صلواتنا لصالح ذلك الشعب الأعمى، واجعلهم يهتدون إلى نور الحق الذي هو المسيح، دعونا نصل لمصلحة أولئك الناس من غير المؤمنين (من الغادرين الخونة)

اليهود، وندعو لسيدنا، ومخلصنا يسوع أن يرفع الحجاب عن قلوبهم، حتى يعترفوا بربنا ومخلصنا يسوع المسيح».

حقاً إن اليهود «كانوا أبناء عم سيدنا ومخلصنا يسوع المسيح،» وذلك حسب ما عبر مارتن بهذا الصدد، فقد كانوا من لحم المسيح ودمه، أفلم يجر الختان للمسيح في اليوم الثامن من ولادته، أفلم يتكلم المسيح عن التوراة وشريعة داود؟ تلك الشريعة التي احترمها وتعايش معها، كل هذا صحيح وحقيقي، ولكن المسيح لم يكن مجرد رجل يهودي، بل قد رفع اسمه وقدره، وذلك حسب فلسفة القديس بولس، والإيمان المسيحي، ليصبح ابن الرب الوحيد، وبحيث يجب تقديسه بشكل مواز لتقديس الرب، ولقد صلب بعلم ومساعدة وموافقة اليهود، وهم اليهود أنفسهم الذين يعيشون في روما، لا بل حتى في تراستفيري، كما أن آل بيرليوني هم يهود أيضاً، وقد رفضوا الإيمان بالمسيح من قبل وتحالفوا مع الشيطان، في اتفاق خبيث، وقد رفضوا التبعية أو الإجلال، أو الخضوع للمسيح، وانتظروا بكل عناد مجيء المسيح المنتظر، وقد عميت أبصارهم، فلم يروا أن هذا هو المسيح المنتظر وهاهو المسيح المنتظر قد حضر بجلاله وفخامته، المسيح المدهون بالزيت، المسيح الحقيقي، هاهو قد قدم ولكن ظهر أخيراً أن هذه العائلة قد تبينت أخيراً طريق الحق والنور، إنما هل كان رجالها مخلصين في أقوالهم هذه حقيقة يا ترى من يدري ربما هم يقبلون المسيح في أفواههم ويرفضونه في قلوبهم؟ وبذلك يستمرون سراً بالاعتقاد بإلههم اليهودي البغيض، ذلك الإله الذي ليس له ولد، لأن جميع أطفال الناس هم أولاده.

أفليس من المحتمل أن يظلوا محافظين على عاداتهم وتقاليدهم سراً، تلك التقاليد التي ابتدعها الشيطان نفسه في إجراء الختان لأطفالهم ومراعاة السبت.

لذلك ومن قبيل الاحتياط ضد هذه الاحتمالات عمدت الكنيسة لإقامة بعض الطقوس الخاصة لحفلة التحويل خصوصاً عند تحويل اليهود، وهكذا طلب من آل بيرليوني أن يخضعوا لهذه المحنة المؤلمة التي لا تطلب إلا من اليهود، وبدأ الكاهن بقراءة القسم

المهيب، وكان يتوقف بعد تلاوة كل بضعة كلمات حتى يستطيع أفراد العائلة تكرار الكلمات بانسجام:

«أقسم قسماً مغلظاً أنني اعتقد بأن الضحايا المسجلة في العهد القديم، ما هي إلا بشائر للتضحية المقدسة الكبرى للمسيح، كما عاناها على الصليب.

أقسم أن قضية خلاص الإنسان من خلال المسيح، قد أعلن عنها الرب في وعوده لإبراهيم والرسل الآخرين، وأن هذا الأمر لم يعره الإسرائيليون أي اهتمام، بل على العكس صلبوا المخلص المنتظر وهو المسيح نفسه.

أقسم أنـي إن انحـزت أو تزحزحـت عـن هـذا الإيمـان الحقيقـي، وهـو إيمـان الكنيسـة الكاثوليكية، بأني أستحق الموت.

أقسم أني عن طيبة خاطر، وبشكل طوعي ومن كل قلبي وروحـي، وقدرتـي أقبل شريعة المسيح، وأرفض كل شريعة عداها وإنه طبقاً لديني القديـم الـذي وضـع فـي العـهد القديـم يلزم شاهدان أو ثلاثة لإقرار الحق، وإزهاق الباطل، ولكن حقيقة المسيح قد أثبتها اثنا عشر شاهداً، وهم حواريو المسيح الإثنا عشر.

أقسم أنه مع أن شعبي وأنا قد رفضنا المسيح من قبل إلا أننا الآن قد قبلناه في مجده وعلاه.

أقسم أنني أعتقد الآن أن مجيء المسيح قد ثبت بشهادة التوراة والأنبياء.

أقسم أنني أرفض شرائع ومبادئ اليهود، وسوف لن أرفض تناول الأطعمة التي حرمتها الشريعة اليهودية، ما لم يكن تجنبها أمراً طبيعياً غير صادر عن الخرافات والأساطير القديمة.

أقسم أنني من الآن فصاعداً، سوف أمتنع عن الاتصال باليهود الذين لم يتحولوا بعد.

اقسم بأن أسلم إلى السلطات اللاهوتية المسيحية جميع الكتب التي بحوزتي بما فيها الأبوكريفا (المحذوف من التوراة) حتى أتجنب الوقوع في أي اشتباه أو شك في إخلاصي وولائي للدين الجديد.

أقسم أنني سوف لا أقترب من الكنيس اليهودي، وبالتأكيد ألا أدخل أي بيت يهودي للعبادة، بل أوجه خطواتي نحو طريق آخر حتى لا أمر ببيت العبادة ذاك.

أقسم أن كل ما قلته في هذا القسم صحيح بالنسبة لنفسي وبالنسبة لأفراد عائلتي».

كانت لهجة هذا القسم قاسية ، وكل إنسان يعرف أن أي انتهاك للقسم يقتضي العقاب الصارم ، فإذا عاد المتحول واشترك في عيد الفصح اليهودي ، كان يعاقب بالجلد ـ مئة جلدة بالسوط ـ مع مصادرة أملاكه وربما نفي ، أما الختان ، وهو من الانتهاكات كثيرة الوقوع ، كان عقابه خصي والد الطفل المختون ، وفي إسبانيا القديمة كانت أنوف الآباء تجدع ، وأثناء حكم القوط الغربيين في إسبانيا عاش المتحولون اليهود في مدة اختبار ، وعهد بهم إلى أحد الأساقفة فإذا سافروا فعليهم أن يخطروا الأسقف في تلك المدينة ، تماماً كما كان يفعل السجين المحجوز بإخطار موظف المحكمة ، وفي أيام السبت وأيام الأعياد اليهودية كان عليهم أيضاً أن يظهروا أمام الأسقف وذلك لكيلا يكون بإمكانهم ـ لا سمح الله ـ الرجوع إلى ممارسة سالف عاداتهم وتقاليدهم القديمة ، كما أنه لم يسمح لهم بمغادرة المدينة ، أما النساء اليهوديات اللائي تحولن إلى المسيحية ، فكان يعهد بهن إلى نساء مسيحيات تقيات ، لاشك أنهن كن أشد صرامة من الأساقفة ، ربما لأنهن عرفن أن هنالك عقوبة مالية يدفعها الشخص المسيحي العلماني ، إذا تلكأ أو أهمل مراقبة اليهود المتحولين ، هذا وكان المتحولون يبقون ثلاثة أجيال تحت المراقبة الرسمية ، وبعدها فقط كانوا يدعون المتحولين المخلصين ، ويمكننا فهم أسباب هذه الصرامة في نظم المراقبة في إسبانيا ، إذا علمنا أن التحول إلى الديانة المسيحية زمن القوط الغربيين نادراً ما كان تحولاً اختيارياً ، ولكننا الآن لسنا في إسبانيا بل في روما ، هذا التحول الذي نحن بصدده لم يكن تحولاً إجبارياً ، بل تحولاً اختيارياً قامت به أسرة يهودية محترمة بمحض إرادتها ، ففي روما كان الجميع يذكرون تماماً ويتقيدونّ بدقة بالمرسوم البابوي الذي أصدره غريغوري الأول العظيم بمنع استعمال أي تهديد أو إكراه ، وكان على كنيسة روما أن تكون دقيقة جداً في التقيد بالقوانين والمراسيم ، ولكن هنا التدقيق يقضي بألا يعامل آل بيرليوني معاملة خاصة على الرغم من سمعتهم الطيبة ، وعلى الرغم من خدماتهم للكنيسة (الأمر الذي كان يعود عليهم بالفائدة) وعلى الرغم من علاقاتهم الحميمة بأسرة كاثوليكية محترمة ، ولذا فقد طلب من أسرة بيرليوني أن تستمع إلى قراءة وثيقة تدعى البلاسيتوم Placitum ، ثم بعد ذلك توقيعها ، وهذا هو منطوق الوثيقة :

«إنني لن أدنس أو أهجر الدين المسيحي المقدس، الذي قد قبلته من خلال ماء التعميد، وسوف لن أخالفه لا بالأقوال ولا بالأفعال، ولن أسبب أية إهانة أو إساءة علنية أو سرية، ولن أزوغ عن التعميد الحقيقي، لا بالهرب ولا بالاختباء، ولن أفكر في حياتي بالرجوع إلى الأخطاء الماضية، وسوف لن أحاول أن أتملص من الالتزامات التي أتعهد بإنجازها بإخلاص، وأثبتها بتوقيعي الخاص في أسفل هذا التصريح «Placitum» وسوف لن أحاول إخفاء أي شخص يتورط في عمل المحرمات الممنوعة وفي العادات والتقاليد اليهودية الشيطانية، وأعد أن أسلم هذا الشخص إلى السلطات الكنسية، وأن أعلم وأخطر هذه السلطات عن أية إشاعة تشير إلى مكان اختباء هذا الشخص، وإني على تمام العلم أن أي خرق أو تدنيس لهذه الالتزامات التي تعهدت بها أستحق عليه عقوبة الموت، وسوف لن أحتفل بعيد الفصح اليهودي، ولا أي عيد يهودي آخر، ولن أتزوج أية امرأة يهودية غير معمدة، ولن أمتنع عن تناول أي طعام، أو ألتزم بأي نوع من المآكل عدا المآكل والأطعمة المسيحية».

ووقعت الأسرة هذا التصريح، وكان أول الموقعين باروخ وتلاه صف طويل من أسماء أفراد هذه الأسرة، أسرة بيرليوني العظيمة، أولئك اليهود من تراستفيري، وقد أعلموا الكاهن أن أبناءهم وصغارهم ملزمون بتواقيع الآباء هذه.

وأخيراً غادرت هذه الأسرة الكنيسة القديمة، وقد تحولت جميعها إلى المسيحية وأصبحت مقبولة لدى أرفع أسر المجتمع في روما، وحالما مرت بالبوابات القديمة، لاشك أن حوادث الماضي قد وجدت طريقها إلى ذاكرتها، وتجسدت في معان جديدة لها دلالتها في أعين أفرادها وأعين إخوانهم الماضين من اليهود الذين تجمعوا خارج الكنيسة بانتظارهم، ومن المحتمل أن يكونوا قد سمعوا كلمات التوبيخ، وشاهدوا نظرات الكراهية الظاهرة الممتزجة بالشفقة ورجاء المغفرة لهم، مع شيء من الأنفة والكبرياء، هذا ومن الممكن أن تكون كل هذه الأمور مجتمعة قد حصلت في تلك المقابلة الغريبة على بوابة تلك الكنيسة البسيطة، في ذلك اليوم المشهود قبل عيد الفصح عام 1030م، وإن كنيسة القديسة

مريم في تراستفيري لم يعد لها وجود اليوم ، فقد هدمت بعد موت آخر بابا من آل بيرليوني عام 1138م ، ولكن لا تزال بعض الأعمدة القديمة ترى في الكنيسة الجديدة ، ترى هل وقف بندكتوس كريستيانوس الذي كان يحمل اسم باروخ اليهودي ، في حالة تأمل في لحظة من تلك اللحظات ، واتكأ على واحد من هذه الأعمدة وهو مثقل بالأفكار والتأملات؟ إنه لو كان فعل ذلك ، ترى بماذا كان يفكر؟ .

لم يدر في خلد أي إنسان آنذاك أن هذه الأسرة من المتحولين ، قد قدر لها أن تقوم بذلك الدور الهام في أدق اللحظات التاريخية الحاسمة في ذلك القرن الذي شهد الصراع المرير بين البابوية والإمبراطورية الألمانية ، وخلال زمن لا يتجاوز المائة عام ، نجد أن هذه الأسرة التي احتقرها الناس الذين لم ينسوا أصلها اليهودي ، وازدراها رجال الاكليروس الذين كانوا لا يزالون يذكرون ذلك اليهودي باروخ ، واستخدموا تلك الذكرى عندما كانت تخدم أغراضهم ومآربهم ، أسهمت في إخراج ثلاثة بابوات ، وهم أيونوس جراتيانوس ، وجون جرايتين الذي سمي فيما بعد غريغوري السادس (1045 ـ 1046) وهيلد براند الذي أصبح يدعى غريغوري السابع (1073 ـ 1085) ، وبطرس بيرليوني الذي اتخذ اسم أناكلت الثاني عندما أصبح بابا (1130 ـ 1138) ، وكانت حياة البابوات صاخبة وصعبة ، ولكن الحقيقة أن كلاً منهم قد أسهم في نمو الكنيسة ، وتطور وضع البابوية نحو الأحسن ، فأما غريغوري السادس الذي قارع أعتى الحكام الفاسدين في التاريخ ، فقد مات في الأسر ، وأما غريغوري السابع فكان أعظم الثلاثة ، فقد دافع عن سيادة البابا ، الأمر الذي جعله ينال لقب قديس ، فيما بعد ، وقد مات أيضاً في الأسر (ونقرأ في اللوائح الكاثوليكية الرسمية المحتوية أسماء القديسين تحت تاريخ 25 أيار «هو يوم ذكرى القديس غريغوري» في الكنائس الكاثوليكية : إن أسرة هذا البابا لم تكن أسرة نبيلة ، ومن المحتمل أنها من أصل يهودي) وأما أناكلت الثاني وهو التلميذ المخلص اللامع لأبيلارد العظيم ، فقد قضى معظم حياته كبابا مشغول في النضال ضد ذلك الزاهد الناسك برنارد راعي دير كليرفو ، الذي ثار على المبدأ الذي يقول : يحق لليهودي أن يحتل عرش بطرس .

ومن الغرابة بمكان أنه على الرغم من أن أسرة بيرليوني قد اختلطت بالزواج والمصاهرة مع بقية الأسر المسيحية (يظن أن باروخ قد تزوج من إحدى سيدات آل فرانجيباني) إلا أن أفراد أسرة بيرليوني ظلوا محتفظين بالسحنة اليهودية، فكانوا أشد شبهاً باليهود أو المشارقة، منهم بالمسيحيين الغربيين ويتحدث: جميع المؤرخين في العصور الوسطى في تواريخهم حول هذه الظاهرة حتى بما يتعلق بغريغوري السابع، الذي كانت علاقته بآل بيرليوني لا تتعدى المصاهرة، ولكن الأغلب أن تكون هذه العلاقة دموية، ويقول بيترو فيديل، وهو مؤرخ إيطالي من مؤرخي القرون الوسطى أوقف حياته على دراسة آل بيرليوني: لاشك أن أم هيلد براند كانت من آل بيرليوني، وذلك إذا وثقنا بتواريخ بيجوا التي تقول إن غريغوري السابع هو ابن أخت بطرس دي ليون (حفيد باروخ)، ولكن حتى لو ثبت عدم صحة هذه التصريحات في تلك التواريخ، إلا أن لها وزنها في تأكيداتنا أن هيلد براند كان ذا روابط أسروية حميمة مع آل بيرليوني ويبدو أن والدة هيلد براند هي برثا، وأخوها هو رئيس الرهبان في دير سانتا على الأفانتاين، ونحن نعلم أن هيلد براند عاش مع عمه رئيس الرهبان أيام طفولته وشبابه، حيث تربى وترعرع في نظام الأديرة، وكانت العلاقة بين غريغوري السادس (جون جرايتن) وهيلد براند معروفة تماماً، وعندما تعرض غريغوري السادس للنفي تبعه هيلد براند، ولو كان بعد تردد إلى المنفى في ألمانيا، وبعد موت غريغوري ورث ثروته وكان يشعر تجاهه شعور الشكر والامتنان، فهو كان سيده وحاميه، حتى أنه اتخذ لقب غريغوري لنفسه، عندما أصبح بابا، ولهذا ليس هنالك من سبب معقول جدير بالتصديق لتلك العلاقة الحميمة بين هيلد براند والكاهن الأعظم، سوى أنهما كانا قريبين بعضهما لبعض وأنهما كانا من آل بيرليوني وهذا ما أهَّل هيلد براند لوراثة ثروة جون جرايتن، وهذا هو السبب نفسه الذي حدا بوالدي هيلد براند لإلحاقه بجون جرايتن، ومن ثم اللحاق به إلى المنفى في عام 1046م.

لقد تعرض كل من البابوات الثلاثة من آل بيرليوني لهجمات وافتراءات قصد بها تشويه سمعتهم بسبب تحدرهم من أصل يهودي ومع أنه لم يحدث قبل الحروب الصليبية (بدأت عام 1095م) أن ذكر أي شيء عن أصلهم اليهودي إلا أنه لم يخل الأمر من

تلميحات وتعريضات قصد بها الغمز من قناتهم مثلاً ذكر (الأموال المكتسبة بطريقة غير مشروعة وبالربا) وهذه الاتهامات كانت موجهة ضد الغريغوريين الأولين، وأما البابا أناكلت فقد وجد تشهيراً بأصله اليهودي علانية دون خجل في خمس وثائق على الأقل كتبت في العصور الوسطى، وقد لمح ولهلم بيرناردي، وهو من العلماء الألمان البارزين في القرن الماضي، بقوله: «إذا عددنا كم كان اليهود محتقرين في تلك الأيام، عندها نستطيع أن ندرك مدى الاتهام الذي وجه إلى أناكلت الثاني والذي كان فحواه الجوهري، أنه كان يهودياً ذكياً نجح في الوصول إلى مركز البابوية بأمواله، لا بل حتى أولئك الذين خجلوا من التصريح علانية بهذه الأقوال انتابتهم الهواجس داخلياً بسبب تحيزهم اللاسامي، وهكذا أصبحوا يصدقون كل ما يقال من الاتهامات والقدح دون أن يطالبوا أي برهان، أو إثبات على صحتها، وهكذا صاروا يكيلون له الاتهامات سواء كانت صحيحة أو كاذبة، بقصد إسقاطه والقضاء عليه، وكان كل ما يبغي أعداؤه عمله أن يلمحوا إلى تلك الحقيقة، وهي أن أنا سولت كان يهودياً، وعندها يفهم كل إنسان كل شيء دون إضافة أي كلمة، طبعاً، كان هناك فريق من الناس يبتهجون ويفرحون بتحول أي يهودي للديانة لمسيحية، ولكن إنه لأمر فظيع أن يجلس أحد هؤلاء المتحولين على عرش القديس بطرس، وهو أمر لا يمكن لأي إنسان أن يتقبله أو يغفره أو يصفح عنه».

هذا وقد خدم اليهود كمستشارين ماليين لكثير من البابوات، ومن خلال تاريخ الكنيسة، كان اليهود (أحياناً متحولين وأحياناً غير متحولين) هم الأطباء الشخصيون لبعض البابوات، وخازنو مكتباتهم، وعلماء طلبت الكوريا[1] منهم إسداء النصح، وإبداء الرأي في أمور كثيرة، وإنما لم يحدث أن اشترك اليهود بنشاط ملحوظ في الشؤون الكنسية، كما فعل آل بيرليوني، ويعترف (ديمتريوس ب ـ زلما) وهو أستاذ جيزويتي في جامعة فوردهام، بنشاطهم الحميم، وقد لاحظ أن أسرة بيرليوني كانت من الأسر الثرية للغاية، وأن (جون جرايتن) كان يتمتع بهذه الصفة من حيث الثروة والمقدرة على التمويل،

---

(1) هي الإدارة البابوية، وتشتمل على البابا، وكبار أعوانه من الكرادلة، بصفتهم السلطة الحاكمة في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

وإن هيلد براند كانت له علاقات وثيقة (بجون جرايتن) وهو سميه في منصب البابوية، ومن المعروف أن هيلد براند هذا كان ذا علاقات مادية مع كثير من البيوت المالية، وبما أنه كان يشرف على حسابات الخزينة البابوية، وكان الممول لكل من دير القديس بولس، والكوريا (الإدارة البابوية) لهذه الأسباب أصبحت علاقاته مع البيوتات المالية أكثر رسوخاً، ولكن فوق كل تلك الاعتبارات، هنالك الحقيقة التي تدعمها شواهد كثيرة وهي أنه خلال مدة أزمة الإصلاح البابوي في روما، وقف آل بيرليوني بثبات وحزم مع البابوات المصلحين، وقدموا لهم المأوى والرجال والمال، وقد شكلوا دوماً هالة من القوة والنفوذ الإيجابي، ضد الأرستقراطية الرومانية والحزب الألماني المعارض، أثناء الصراع بين البابوات الرسميين والبابوات الأدعياء.

وهكذا حتى ولو لم يقدم آل بيرليوني ثلاثة بابوات، فإن دورهم كممولين ومستشارين ماليين للكوريا، وكمؤيدين صامدين أوفياء للبابوات المصلحين، يكفيهم لتسجيل أسمائهم على صفحات التاريخ، ولا عجب أن تظهر أسماؤهم في عدة وثائق رومانية خلال قرن كامل من التاريخ الروماني في القرون الوسطى، فبينما زالت واختفت أسماء عدة أسر رومانية قديمة، وقبعت في زوايا النسيان، استمر آل بيرليوني موجودين في إيطاليا الحديثة، ولا يزالون يعملون بنشاط، كأساقفة أو كتاب أو تجار.

لقد عاش آل بيرليوني في زمن تأزمت به العلاقات بين الكنيسة والدولة وبدأ الصراع مريراً بينهما، وإنه لمن قبيل المصادفات الغريبة أن يكون (ايونيس جراتياتوس بيرليوني) وهو يهودي متحول، هو الذي أدار دفة ذلك النزاع والصراع الحاسم في تاريخ الكنيسة، كذلك حركة الإصلاح العظيمة التي اشترك بها، وأيدها ثلاثة من آل بيرليوني، وبهذا البابا يبدأ فصل جديد من فصول تاريخ الكنيسة، فقد كان الفساد والتفسخ في الكنيسة والبابوية قد بلغ أوجه، ولهذا فقد أصبح الوضع يقتضي بإلحاح وجود شخص حازم يستلم الزمام، ويؤمن للكنيسة إحساساً جديداً بالحشمة واللياقة الأخلاقية، وأن تصدي هذا الرجل ذو الأصل اليهودي ليكون أول تلك السلسلة المتتابعة من الأحبار ذوي الوتيرة العالية من الأخلاق الممتازة، كل ذلك ما هو إلا شاهد ممتع على غرابة تلك الأطوار والنزوات التي كثير حدوثها في التاريخ، ولا يستطيع المرء إدراك كنهها.

إن فكرة وجود بابا يهودي لا تبدو فكرة غريبة بالنسبة لأولئك الذين هم على اتصال تام بتطور الكنيسة ، أفلم يكن القديس بطرس وهو مؤسس البابوية يهودياً؟ .

إنما يظهر أن الأصول اليهودية للديانة المسيحية ، لا تبدو مفهومة تماماً ولا مقبولة بشكل عام ، وليست هناك سوى القلة من المسيحيين الذين يتفهمون الأسلوب المرير ، والطريق الوعرة التي سلكتها المسيحية الأولى ، حتى تخلصت من الرواسب اليهودية ، فقد كان يسوع اليهودي الناصري ، وبولس اليهودي الطرسوسي ، هما الأبوان المؤسسان للإيمان المسيحي ، وهما مهندسا هيكل الكنيسة ، ولهذا فإذا ما أردنا أن نستأنف قصتنا فعلينا أن نكشف في الفصل القادم عن هذه الأصول ونتفحص التقاليد اليهودية المسيحية للكنيسة .

وإذا فعلنا ذلك ، فإننا نكون قد اقتفينا الأصول المثيرة لنمو البابوية نفسها ، وعندها نصل إلى النقاط الفاصلة الرئيسة التي تقودنا إلى المعالم الرئيسة في تاريخ العصور الوسطى ، ولقد أصبحت البابوية مؤسسة مسلم بوجودها في هذه الأيام ، وطويت تلك الاضطرابات والتشويشات التي صادفت البابوات الأوائل وأسدل عليها ستار من النسيان ، ومع أن الحبر الأعظم لا يزال يحتفظ ببعض النفوذ السياسي ، إلا أنه لم يعد له أي علاقة أو تحالف مع أي من القوى العظمى ، إنه يحتفظ بمجرد دور قطب من أقطاب الضمير الأخلاقي العالمي ، يقوم بنصحه وإرشاده ، لكن لم يعد يمارس أي سلطة ، فلقد ذهبت إلى غير رجعة تلك الأيام التي كان البابا يتمتع بها بحق تتويج الأباطرة ، وكل من لا يتوجه لا يمكن أن يعد نفسه الحاكم الشرعي لبلاده ، وذهبت إلى غير رجعة تلك الأيام التي كان البابوات يخوضون بها المعارك الدامية على رأس الجيوش البابوية ، التي سببت لهم إحراز النفوذ السياسي ، الذي لم يحلم به أي حاكم علماني ، ومن الصعب أن نتصور في هذه الأيام درجة التفسخ والفساد الأخلاقي في البابوية الأمر الذي سبب انحدارها وانحدار المسيحية معها إلى حافة الهاوية ، ولا درجة الأمية والجهل التي كانت بين صفوة الاكليرس ، والانحطاط الخلقي بين صفوفهم الذي بقي دون رادع ردحاً طويلاً من الزمن ، إن عصر السيادة الدينية المسيحية قد ولى إلى الأبد ، ولقد أسدل ستار من النسيان على تلك الحقب الحاسمة في العصور الوسطى ، التي سببت انقسام العالم إلى معسكرات متعادية ، أدت إلى سفك كثير من الدماء ، وإلى التعاسة البشرية ، كل هذا زال .

وأما قصة النزاع على تقليد المناصب والوظائف التي سببت تلك المواجهة المثيرة والتي غالباً ما كانت مأساوية، بين البابا والإمبراطور فقد نسيت ولم يعد يعلمها إلا القليل، ومع ذلك فإن البابوات الثلاثة من الغيتو الذين نحن بصددهم، وسنذكر قصتهم، قد تورطوا في ذلك الصراع والحرب بين الأفكار، ومع ذلك فلا يمكننا أن نلم إلماماً تاماً، أو أن نفهم فهماً عميقاً مصائر وأقدار هؤلاء المتحولين، دون أن نلقي نظرة على تطور الكنيسة، من أوائل تاريخها حتى زمن اعتلاء غريغوري السادس الكرسي البابوي، وهو أول بابا من آل بيرليوني.



الفصل الثاني

غريغوري السادس والسنوات الألف الأولى

لم يكن يشوعا بن يوسف النجار[1] بحاجة إلى التحول، إذ لم يكن هنالك من شيء يطمح إليه، فقد ولد يهودياً، وأجري له الختان في اليوم الثامن من مولده طبقاً للعادات اليهودية القديمة، ومات على الدين اليهودي[2] وقد أعلن على الورقة التي ثبتت على الصليب الروماني الذي صلب عليه في الجلجلة[3] للعالم الفلسطيني الصغير بهزء وازدراء، أن الشخص المصلوب والموجود بين اثنين من اللصوص يدعى يسوع الناصري، وهو رجل تخيل نفسه ملك اليهود، ولم تكن هنالك أية كنيسة ترتل الأناشيد الجنائزية الحزينة، وقد مات ببطء على الصليب ينشد المزمور العبري حسب النص الآرامي، ويقول: «إلهي إلهي لماذا تخليت عني؟»، وفي حياته القصيرة التي قضاها بالوعظ والإرشاد، أنذر تلاميذه وحذرهم من خطر تحول الوثنيين، فقد وجه عظاته بصورة خاصة «إلى الخراف الضالة من بني إسرائيل»، ولم يستطع أحد أن يتجاسر بترك تلك البلاد والمغامرة بالدخول إلى العالم الهلنستي المنهار، لهذا ظل تلاميذه وأتباعه يتجولون بأعداد صغيرة حول شواطئ طبرية الجميلة، وقد أوقفوا أنفسهم على خدمة المرضى والمحرومين من

---

(1) كذا بكل وقاحة وصلف، فالمسيح ليس ابناً ليوسف النجار، ويوسف النجار ـ إن وجد ـ لم يتزوج السيدة العذراء لا قبل ولادتها للسيد المسيح ولا بعد ذلك، وهذه مسألة أجمعت عليها الكتابات والأبحاث المنصفة والموثقة.

(2) الموقف الإسلامي والمسيحي، من قضية موته معروفة، ثم من المجمع عليه أنه جاء برسالة سماوية جديدة استهدفت إصلاح، وإكمال رسالة النبي موسى عليه السلام، فهكذا الأنبياء عليهم السلام، فموسى لم يكن أول نبي، ولا صاحب أول رسالة، يضاف إلى هذا أن اليهودية الحالية شيء وما جاء به موسى شيء آخر تماماً، والفارق الزمني بين موسى وأقدم نسخة مدونة من التوراة تصل في بعض التقديرات إلى ألفي عام فقط.

(3) الجلجلة: هي الجمجمة أو أكرا، المكان الذي قالوا تمت فيه حادثة الصلب، والجلجلة المكان دون الذي وقف فيه المصلوب قبل صلبه، حيث استراح، وحيث حمل الصليب إلى الذروة، أي الجمجمة وثبت هناك في صدع في الصخر.

الإسرائيليين الذين فقدوا الأمل في خلاصهم وخلاص شعبهم من نير الحكم الروماني العسكري، ومن جباة الضرائب الرومان، ولم يفكر هؤلاء الأتباع والتلاميذ بتشييد أية كنيسة منفصلة، فالكنس اليهودية كانت كافية وجيدة، ولم يكن من الضروري نبذ أو طرح الشريعة اليهودية المدونة في التوراة والتي فسرها الربانييون اليهود، وقد اعترف يسوع بها، واحترم كل صغيرة وكبيرة في تلك الشريعة، واعتقد أيضاً أن نهاية هذه البشرية أصبحت وشيكة وأن حكم روما، وحكم الربانيين سوف ينتهي وتحل محله مملكة الرب، وقد تقبل أتباعه الذين أجريت لهم عملية الختان في أجسادهم وقلوبهم أيضاً، جميع المصاعب التي نتجت عن هذه الرسالة الجديدة بكل سرور، أما الآخرون الذين لم يختتنوا فلم يتصد لهم أحد، ولهذا فقد توفي المسيح دون أن يؤسس أي دين جديد، إنه لا جدوى من الافتراض أن الجماعة الصغيرة التي تبعت يسوع كان بمكنتها أبداً أن تبطل التقاليد اليهودية الرسمية في فلسطين وتنسخها، لأن هنالك سبباً وجيهاً يجعلنا نشك في هذا الأمر، فهاهنا مجتمع يهودي منظم تنظيماً حسناً يعود في تاريخ أنبيائه وشريعته إلى عصر إبراهيم وموسى، لا بل حتى إلى بداية خلق هذا العالم، وهو يعتقد أنه شعب الله المختار، على أفراده أن يحبوا جيرانهم كما يحبون أنفسهم[1]، ويجب أن يمشوا بتواضع في طريق الرب ويخدموه بمراعاة أصول العدالة والحشمة واللياقة، أما الجماعات التي التفت حول يسوع فكان أفرادها فقراء قليلي العدد يتمركزون بصورة رئيسة حول بحيرة طبرية، وهو المكان الذي تركز به نشاط المسيح، واستمروا حتى بعد وفاة المسيح في التبشير في الكنس اليهودية للفريسيين ولم يقلبوا ظهر المجن لليهود أبداً، فقد استبدت بهم فكرة رسالة المسيح، وأن مملكة الرب

---

(1) في هذا تدليس واضح وتناقض متعمد، فكيف يمكن التوفيق بين فكرة التساوي مع الجيران والآخرين، وفكرة الشعب المختار، وهذه مسألة كان موقف التراث اليهودي منها واضحاً إلى درجة لا نظير لها لدى جميع المخلوقات من بشر وحيوانات، جميع المخلوقات مارست سياسة الاحتفاظ بالنوع، وقهر القوى الأخرى المستغلة والمسيطرة إلا الشريعة اليهودية فقد طلبت من أتباعها إفناء الخصوم جميعاً بلا استثناء كما حدث لمدينة أريحا حسب قولهم حين دخلها يشوع، وكما نرى في أيامنا هذه وينسجم مثل هذا السلوك، مع فكرة الشعب المختار، فكل من ليس من هذا الشعب عدو له ينبغي إزالته من الوجود.

سرعان ما ستظهر، ولكن مفهوم تلك الرسالة لم تبعد المفاهيم التوراتية والتنبؤات الموجودة في العهد القديم، وإن الافتقار إلى التنظيم الذي ميز المسيحية الأولى في فلسطين، ما هو إلا انعكاس للرسالة الروحية للمسيح نفسه، فالأمل الذي وعد به هو أمل الفداء، أو التخليص من الخطيئة، وهذا الخلاص ليس خلاصاً دنيوياً فما هي قيمة الظلم والاحتلال الروماني عندما أصبح ظاهراً للعيان، إن العالم الدنيوي سرعان ما سينتهي أمره ويزول، لذلك فإن كل الدلائل كانت تشير إلى أن عصراً جديداً يوشك أن يطل، ولكن ليس على هذا العالم الدنيوي، ولهذا يجب أن يطمس ويمحى النظام القديم، إذا ما نشأ وتأسس المجتمع الجديد، ولاشك أننا يجب أن نتأكد أن هذه الأفكار قد تركزت في عقيدة يسوع الناصري على أساس توقعات يومية حقيقية لنهاية هذا العالم ونهاية التاريخ البشري، وأن الحياة التي عاشها يسوع المسيح، والتي اجتذبت الفقراء والمساكين والمسحوقين والذين لا أمل لهم في هذه الدنيا، كل هذا كان من الواجب أن ينتهي، فعملية الصلب بحد ذاتها إذا أخذناها من هذا المنطلق لم تعد حادثة مؤسفة أو كارثة، بل أصبحت هدفاً روحانياً من الواجب حدوثه، وفيما بعد أصبح الصلب ركن من أركان الإيمان المسيحي، ومن أركان علم اللاهوت المسيحي، فبدون الصلب تفرغ العقيدة المسيحية من محتواها الأساسي وبالطبع ليس هذا المحتوى داخلاً ضمن نظام القديس بولص الثوري، مادام أن بولص هو المؤسس الحقيقي للكنيسة المسيحية ومهندس وباني علم اللاهوت المسيحي، إن المسيحية الأولى التي علينا أن ندعوها اليسوعية من حيث إنها لا تزال مرتبطة ارتباطاً حميماً بيسوع الناصري، وليست مرتبطة بأية كنيسة أو بأية مجموعة من العقائد - إن هذه المسيحية الأولى عبارة عن دين يبشر بانتهاء هذا العالم، وفي مثل تلك الأيام القريبة من نهاية الأيام (وهذا اصطلاح توراتي) وهو ما ذكرته التوراة عن الزمن القديم، كل هذه الأمور لم يعد لها أي وزن أو أية أهمية وينعكس هذا في نصوص نصائح المسيح والوصايا التي تقول: «لقد سمعتم ما قيل في الزمن القديم: لاتزنوا، ولكن الحق أقول لكم: إنه من ينظر إلى امرأة نظرة شهوانية فقد زنى في قلبه»، وأحياناً أخرى تقول بشكل صارم شديد وغير عملي:

«وإذا خانتك عينك فأقلعها وارمها بعيداً عنك! وذلك لأنه من الأفضل أن يهلك جزء من جسمك على أن يهلك جسمك كله، ويرمى به إلى الجحيم»، وتقول مرة أخرى: «من صفعك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر، وإذا ما أخذ لك رجل معطفك فدعه يأخذ سترتك أيضاً، باركوا لاعنيكم، وأحبوا أعداءكم، لا تفكروا بالغد لأن الغد له أفكاره الخاصة به»، فهل هنالك من مجتمع في هذا العالم يا ترى يستطيع أن يتقبل هذه الأفكار ويجعلها مبادئ مقبولة للسلوك البشري؟ لكن هذا الإشكال لم يكن وارداً بالنسبة ليسوع وتلاميذه، فلم يكن تفكيرهم على مستوى المجتمع لأن المجتمع سرعان ما سوف يزول ولن يدوم هنالك أي مجتمع، فتلك الغيوم السوداء التي نراها تحيط بالصليب وبالجمجمة في صورة (الصليب) الشهيرة لآل جريكو سرعان ما سوف تغلف هذه الأرض، وسوف تتحول البشرية إلى الإيمان، وهذا هو معنى الرسالة التي أتت من تلك التلال المتماوجة حول طبرية، ومن كنيس كفرناحوم، لا بل حتى بعد وفاة المسيح كان أتباعه على تمام الإيمان أنه سوف يعود مرة ثانية لأنه قد ظهر في اليوم الثالث، فقد وجدوا القبر فارغاً والصخرة الثقيلة التي وضعت فوقه قد زالت.

في هذا الجو للوجود المسيحي اليهودي المبكر في فلسطين، حيث كان المعتقد الجديد يحمل طابع الأسرة الطائفية، وحيث كان قائد مؤسس هذه الطائفة لا يزال حياً، وحوله شهود عيان يعيشون معه، في هذا الجو وهذا المناخ لم يكن هنالك من حاجة للكنيسة أو أية منظمة رسمية فالمشاركة في الطعام، وتقسيم الخبز والثواب الإلهي للفقراء والمرضى، والمشاركة بحياة بسيطة لا تخلو من تناقضات تتجسد في الوقار الجديد يقابلها اللامبالاة والخلو من الهموم، فلقد كانت هذه المظاهر المثيرة أهم بكثير من بناء الطبقات الكهنوتية، فالصلوات كانت صلوات يهودية، والشريعة هي شريعة موسى[1]، وفي هذا الصدد يقول يسوع: «لا تظنوا أني قد أتيت لتدمير شريعة الأنبياء، بل أنا أتيت لتطبيقها وإنجاز

---

(1) كذا وشتان ما بين شريعة موسى، وما كان عليه يهود القرن الأول، فقد كان هنالك إجماع، بأن شريعة موسى هجرت وحرفت، لهذا وجدت الحاجة للعودة إلى المسلك القديم، ولهذه الأسباب قامت حركات مثل حركة جماعات قمران على البحر الميت والمسيحية ذاتها وسواها من الحركات.

وعودها»، وبعد وفاته لاشك أنه كان هناك أناس يتذكرون ويعرفون أن المسيح المصلوب غدا أقوى نفوذاً مما كان عليه المسيح الحي، فلقد كان المسيح الميت والذي سيبعث حياً، وليس المسيح الحي الذي أثر على (شاول) الأمي وهداه ويبدأ العصر المسيحي الجديد ببولص (وهو الاسم الذي اتخذه شاول لنفسه بعد هداه)، وهذا العصر الجديد استهل بالسيطرة على العالم اليوناني الروماني وبانضمام بولص تحررت المسيحية من الأفق الفلسطيني الضيق، ومن القيود التي وضعها المسيح ضد التبشير بين الوثنيين، فلقد كان بولص من طرسوس[1] وهي حاضرة رفيعة للثقافة الهلنستية لمنطقة كيليكية، وكان هذا الرجل ملماً بكثير من اللغات ومجيداً لها وأمياً كالمدينة نفسها، فقد درس في فلسطين تحت رعاية (الرباني حاماليل) ولكنه لم يصبح فلسطينياً في ذهنه وعقليته، بل على العكس بقي حيادياً غير متحيز إلى أية فئة، وكان متعدد النشاطات له طاقات هائلة وهذا ما يحتاج إليه في مثل هذه الأعمال، وكانت طرسوس تشبه أثينا وتعد كأنها أثينا الصغيرة، وبها جامعة ومكتبات، وفي طرسوس نزلت كليوباترة في يختها المذهب ذي المجاديف الفضية لكي تقابل أنطونيوس، وتستولي على عقله، وهي تقع جنوب غربي تركيا، وتعد بوابة آسية الصغرى، وبداية الطريق إلى الشرق الأقصى، فلم يكن من قبيل المصادفة أن بولص الذي كان يتكلم العبرية واليونانية والسريانية قد فهم فكرة المسيحية الجديدة واستوعبها، وهي التي سوف تزف عالم الطائفة اليهودية التي تزعمه المسيح إلى العالم الوثني في الإمبراطورية الرومانية، فقد أصبح أول مبشر ينقل المسيحية ويخرجها من نطاق فلسطين، إذ كادت أورشليم تزوي وتذبل بعد المصادمات العنيفة بين اليهود والجيش الروماني المحتل، وهذا ما أدى إلى تدمير المدينة نهائياً عام 70م، وهكذا أصبح من الصعب، الاحتفاظ بالكنيسة الأصلية للمسيح، حتى المسيح نفسه لم يكن ليعارض هذه الفكرة الانتقالية الجديدة، لأن عظة الموت والبعث كانت ما تزال تبشر في الكنس فقط، وفي الوقت الذي بدأ فيه بولص مهمته كان هنالك كثير من اليهود يعيشون حوالي البحر المتوسط، وكانوا

---

(1) هي الآن في تركية وقد نالت شهرة واسعة في التاريخ الإسلامي، وكانت قاعدة الثغور الشامية.

منتشرين في كل مدينة وبلدة، وهذا ما شكا منه الجغرافي (سترابون) وقد تمتعوا بحرية العبادة لكونهم مواطنين في الإمبراطورية الرومانية، وفوق ذلك فقد كانت كنسهم لا تجتذب اليهود فحسب بل اجتذبت كثيراً من اليونانيين والرومان، الذين وجدوا أن الاعتقاد بإله واحد أفضل بكثير من الوثنية، وهكذا تحولوا إلى اليهودية، ومنذ القرن الأول قبل الميلاد حصل تبادل تجاري واسع بين روما والقدس، وكذلك في العلاقات الثقافية فقد اتخذ أبناء ملوك اليهود وأفراد النبلاء روما محجاً لدراستهم ومكاناً للهوهم، وكان آخر الملوك اليهود رومانياً أكثر منه يهودياً، وكانت زوجة الإمبراطور (نيرون) يهودية متحولة، وقد دفنت طبقاً للطقوس اليهودية، وكان اكويلا Aquila الذي ترجم الكتاب المقدس إلى اليونانية وثنياً يونانياً، قبل أن يصبح يهودياً، كما كانت هنالك أيضاً جماعة (الخائفين من الرب) الذين رفضوا طقوس الختان اليهودية (وهذا واحد من الأمور التي اهتم بها بولص في كتاباته) ومع ذلك فقد كانوا يحضرون الصلوات في الكنس دون اعتناق اليهودية رسمياً، ولقد انحصر تبشير بولص بين هؤلاء الناس ذوي اللغات المتعددة، والخواص، والعناصر المتباينة، وبقي واعظاً (للخراف الضالة من بني إسرائيل) في الوقت نفسه الذي بدأ به رحلاته في أرجاء الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف وفي طريقه إلى إسبانيا التي كان فيها جماعة قديمة من اليهود، توقف بولص في روما حيث كانت هنالك مستعمرة من اليهود (الذين يعيشون جنباً إلى جنب مع السوريين وغيرهم من الأجانب) في تلك المنطقة فيما وراء نهر التيبر والتي تدعى (تراستفيري)، وفي روما نفسها التقى بأحد الحواريين الاثني عشر، ذلك الذي اصطفاه السيد المسيح وهو بطرس الذي تجسد حياته وموته حياة الكنيسة حتى يومنا هذا، وإن بطرس صياد السمك الذي امتلأت شباكه الفارغة بالسمك بقدرة قادر في معجزة (السمك) على بحيرة طبرية، ترك قواربه وشباكه وأسماكه، لا بل حتى زوجته ليصبح أبرز رجل بين الرسل، وهكذا أصبح صياد رجال.

ونأتي الآن على ذكر بطرس، فهو يعد الأسقف الأول في روما حسب قائمة البابوات الرسمية، وقد كتب عنه ما يلي في كتاب البابوات الذي دوّن في القرن الرابع:

بطرس الأنطاكي الرسول عليه السلام، رئيس الحواريين، ابن يوحنا من منطقة طبرية، من مدينة بيت صيدا، أخو أندراوس، شغل في أول حياته منصب أسقف أنطاكية لمدة سبع سنوات، دخل روما عندما كان نيرون قيصراً، وهنالك شغل منصب الأسقف مدة خمسة وعشرين عاماً وشهراً واحداً وثمانية أيام، كان أسقفاً في عصر القياصرة: تايبرياس، وجايوس، وتايبريوس، ونيرون، كتب رسالتين إنجيليتين تدعيان «كاثوليك» كما كتب إنجيل مرقس، لأن مرقس كان تلميذه وابنه بالتعميد، وتوصف نهايته بهذه الكلمات: «لقد نال تاج الشهادة مع بولص عام 38 لآلام المسيح، ودفن أيضاً في (فيلا أويليا) في معبد أبوللو قرب المكان الذي صلب فيه إلى جانب قصر نيرون في الفاتيكان على مقربة من منطقة قوس النصر، في التاسع والعشرين من حزيران، وهكذا شيد في الفاتيكان (جبل الفاتيكان القديم) فوق ضريحي بطرس وبولس الكنيسة العظمى، ومن ثم يبدأ تاريخ البابوية، وكان بطرس يدعى شمعون وهو اسم يهودي قديم، لكن تحوله ومنصبه الجديد استدعى تسميته باسم جديد، وقد رأينا من قبل أن الطفل عندما يعمد يعطى له اسم جديد، حتى في التقاليد اليهودية يعد الاسم مقدساً، فهو يشكل ويوضح مصير الشخص واتجاهه، وهكذا أصبح يعقوب يسمى إسرائيل لأنه تصارع مع الملائكة والرجال، وأبرام أصبح أبرهام لأن حرف الهاء المضاف هو حرف مقدس إلهي، وهكذا أصبح شمعون يدعى سيفاس سفا (صفا)، وهي عبارة آرامية تعني الصخرة، وعليه ترجم اسمه إلى اللاتينية والإغريقية، باسم (بيترا) أي الصخرة، وطبقاً لإنجيل مرقس نرى أنه عندما اعترف شمعون بن يوحنا بيسوع الناصري وآمن به بأنه المسيح ابن الرب الحي، التفت إليه يسوع وقال: «إنك أنت بطرس (الصخرة) على هذه الصخرة سوف أبني كنيستي، وسوف لا تفتح عليها أو ضدها أبواب الجحيم، ولسوف أعطيك مفاتيح السموات، وكل ما تعقد في الأرض سوف يعقد في السموات، وكل ما تحله في الأرض سوف يحل في السموات».

وهكذا شيدت أسس البابوية: الصخرة، الكنيسة، مفاتيح السموات، القدرة على الحل والربط، وأما الباقي فهو عبارة عن تعليقات، وربما شروح طويلة ومثيرة، ومن المؤكد

أنها شروح لانتصارات درامية، ولانحرافات وضلالات مأساوية، وأعمال حرب دامية، وحماقات بشرية، وحكمة رقيقة، وقوة وحشية وجمال وسحر وبهاء مع كثير من الظروف والحوادث، تلك الشروح التي لا تزال تكتب، إنما هي شروحات ليس إلا وذلك، لأن وظائف البابوية ومهامها قد وضحت وجددت منذ البداية وعلى تلك الأسس بنيت أعظم مؤسسة ثابتة باقية خلال التاريخ الإنساني، ولم يصدف أن كتب البقاء والاستمرارية لأية ملكية، أو أية أسرة نبيلة، أو أي نظام حكم في العالم، كما استمرت وبقيت هذه المؤسسة، مؤسسة وظيفة البابا، أسقف روما.

وهنالك نقطة صغيرة تجعلنا نثير الشك حول صحة كتاب البابوات الرسمي ودقته، عندما يسجل اسم بطرس وخلفائه المباشرين في قائمة البابوات، فمن الطبيعي أنه خلال القرون الثلاثة الأولى كانت البابوية - إذا جاز لنا أن نطلق هذا الاصطلاح على زعامة الكنيسة المسيحية في ذلك الزمن - تختلف عما أصبحت عليه في القرنين الرابع والخامس، وعلى أية حال، فالطائفة المسيحية الأولى كانت في أول الأمر عبارة عن طائفة يهودية مسيحية بجميع أفرادها تقريباً، ثم أصبحت بعد ذلك تتألف من المتحولين الوثنيين إلى المسيحية، ولم تكن هذه الطائفة سوى طائفة غير شرعية، عاش أفرادها وعملوا ومارسوا طقوسهم الدينية في الخفاء، وتحت الأرض، فلم يكونوا كاليهود الذين عاشوا قروناً طويلة في الإمبراطورية الرومانية، فأصبحوا يتمتعون بالحريات الممنوحة لدين معترف به رسمياً، على الرغم من أنهم لم يشتركوا بالمعتقدات الرومانية الوثنية التي كانت تعد القيصر إلهاً، ولقد لخص القيصر كاليجولا، وهو الإمبراطور الغريب الأطوار والكثير النزوات موقف الدولة الرسمي تجاه اليهود، عندما سمح للوفد الشهير من يهود الإسكندرية الذي كان يرأسه الفيلسوف فيلو، بمقابلته، فقد أظهر هذا الإمبراطور الاحتقار الصريح لذلك الشعب الذي وصفه بأنه لم يكن شيئاً بقدر ما هو فاقد العقل، وذلك لأنه لا يعلم أني أنا كاليجولا رباً، ومع ذلك فقد تمتع اليهود بحرية العبادة والمواطنة الرومانية الكاملة، حتى بولص استطاع أن ينجو ويحصل على حريته بعدما اعتقلته السلطات الرومانية، وذلك بادعائه أنه

يهودي، وكونه بالتالي مواطناً، أما أفراد الطائفة المسيحية فلم يتمتعوا بهذه الصفة، لذلك كانوا يقضون أوقات العبادة في السراديب والمقابر تحت الأرض، فبدلاً من أن تحميهم السلطات والدولة، كانوا يشعرون أنهم مهددون دوماً، وتحت طائلة الموت، لهذا لم يكن زعم مثل هذه المجموعات يحوز على ذلك السحر والبهاء الذي تمتع به البابوات المتأخرون، فكان يشبه نزيلاً موقراً في سجن، وهكذا عندما نذكر أن بطرس كان أول بابا، أو بالحري أول بابا يهودي فلا يعني ذلك أن هذا اللقب كان له تلك الأبهة والعظمة التي اتسمت بها البابوية في المستقبل، عندما تحسن وضع البابوية وأصبحت في موقع القوة والعظمة.

ويدعى بطرس، البابا الأول لأنه كان أول رئيس لكنيسة روما وبالطبع هنالك كنائس أخرى في الإمبراطورية الرومانية، في أزمير وإفسوس في آسيا الصغرى مثلاً، وفي أنطاكية في سورية، وفي الإسكندرية في مصر (أما القدس فقد أصبحت غير ذات أهمية كما رأينا من قبل).

وفي أيام قسطنطين الكبير وهو أول إمبراطور مسيحي أصبحت القسطنطينية وهي روما الجديدة أداة تهديد لسيادة روما، ولكن روما بقيت صامدة ولم تستسلم، وقد كان هذا الموقف عاملاً له أهميته، فقد وجد أساقفة كثيرون ورؤساء أساقفة عند الجماعات المتزايدة العدد، وفي الكنائس المسيحية، إلا أن أسقف روما ظل أسقف الأساقفة، فقد كان هو البابا، وهذا أمر لا يخلو من الغرابة، لكنه ليس غير عادي عند النظر إلى تطور المذاهب والأديان، والأسباب ليست مجرد أسباب تاريخية أو جغرافية، مع اعترافنا بأهميتها، إن السبب الرئيس الذي جعل كنيسة روما هي الكنيسة الموثوقة والمعتمد عليها، يرسو في حقيقة أن مؤسسي هذه الكنيسة هما بطرس وبولص، وبصورة خاصة بطرس الذي وصل إلى روما قبل بولص، وهو الصخرة التي اختارها المسيح بنفسه لتبنى عليها الكنيسة، وبهذا التعيين أصبح بطرس هو الكنيسة، هكذا نشأ ذلك التقليد الرسولي الذي يعطي كامل الثقة بكنيسة روما، ويجعل أسقفها في مرتبة الزعيم الشرعي للكنيسة وليس مستشار الكنيسة فحسب، وقد احتفظت روما بهذه الصفة ليس بسبب الإصرار والتمسك بالعقائد المتصلة

بالمشاكل اللاهوتية، التي طالما سببت انقسام الكنيسة، في ذلك النزاع الطويل الأمد حول طبيعة الألوهية والصفات الشخصية لروح القدس، ولكن أيضاً بخصوص أعمال ذات طبيعة[1] أممية (كاثوليكية) هذه الأعمال التي أصبحت مختصة بالكرسي الأسقفي في روما، ولم تعد للكنيسة أي علاقة بها ككل، وبين هذه المسائل العملية التي نوهنا عنها: إعتاق العبيد المسيحيين، وإطلاق سراح الأسرى، وهدايا المحسنين للكنائس المنكوبة، والنشاطات الأخرى التي لم تراع المسافات والفروق العرقية، وهكذا فقد أوكلت جميع هذه المسؤوليات إلى أسقف روما، ابتداء من أقدم الأزمنة التي بدأت بها تطورات البابوية.

وإن وضع روما كعاصمة للإمبراطورية الرومانية قد كان له أثره في تفوق هذه المدينة، التي أصبحت أكبر وأشهر وألمع مدينة في العالم، والحقيقة أن هذه المنزلة والصفات كانت أكثر خطراً منها منفعة بالنسبة للمسيحيين الأولين، لقد عاش هؤلاء تحت سيطرة البلاط الإمبراطوري، ولهذا فقد كان وجودهم مهدداً دوماً بالحرمان والسجن، والتمييز، وغالباً الموت صلباً، وبينما كانت هذه الأخطار والسرية التي أحيطت بها المسيحية في أول عهدها عبارة عن دوافع جاذبة للألوف من الناس رجالاً ونساء، ومع هذا لم يكن من السهل أن يكون الإنسان جزءاً من أخوة تعيش تحت الأرض، لا تستطيع أن تصرح بأسماء أعضائها، وهي معرضة دوماً للخيانة والابتزاز، ومضطرة لدفن الموالين لها ونصرائها في السراديب تحت الأرض، ولكن بعد أن تبنى قسطنطين[2] تلك الديانة المسيحية التي كانت

---

(1) كانت المسيحية في تاريخ الديانات ـ أول ديانة حاولت أن تقدم شريعة أممية، وقد ساعد الكاثوليكية على الوصول إلى هذا التصور، كونها ورثت تراث الإمبراطورية الرومانية، وأرادت أن تكون روما مدينة الله بدلاً من مدينة الشيطان حسب قول القديس أوغسطين، والمعوق الأساسي الذي حال بين الكنيسة وتحقيق الوصول إلى الفكرة الأممية هو الإخفاق في تحقيق فكرة الوحدانية، والبقاء في حلبة التثليث، مما سبب الصراعات المستمرة، وحوّل الديانة المسيحية من ديانة إلى ديانات.

(2) في سنة 313م أصدر قسطنطين الكبير مرسوم ميلانو الشهير معطياً المسيحية حرية المعتقد، وبعد هذا زاد من تحالفه مع هذه الديانة، وتحوم الشكوك حول اعتناق هذا الإمبراطور للمسيحية على الرغم من كل ما بذله يوسبيوس مؤرخ الكنيسة الأول لتأكيد ذلك، إن مسألة إعلان مرسوم ميلانو ومراعاة قسطنطين لهذه الديانة محور أبحاث مستفيضة في تاريخ أوروبا في أوائل العصور الوسطى.

مكروهة ومحتقرة، وأعلنها ديناً رسمياً للدولة، وقفت كنيسة روما وقفة واضحة في كنف تلك الأشعة الباهرة الخيرة، التي سطعت من لدن عرش الإمبراطور، ولقد تمتعت الكنيسة بوضع خاص من البهاء والاعتراف، بعد أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية التي يتزعمها الإمبراطور القائد الزمني، ولهذا أصبحت كنيسة روما بشكل طبيعي زعيمة الكنائس وذلك بسبب التقاليد الرسولية التي أمنت لها الثقة، وأمنت استمرار سلطتها الروحية فضلاً عن مركزها الجغرافي والسياسي كعاصمة، وهكذا أصبح أسقف روما زعيم الاكليروس في جميع أنحاء العالم، ولم تستطع القسطنطينية ولا ميلانو أو رافنا في الأزمنة الأخيرة، أن تحتفظ بأكثر من صفتها منافسات مؤقتة لروما ما لبثت أن زالت بمرور الزمن.

وفي حوالي نهاية القرن الأول تبين أنه لم تقم القيامة، ولم ينته العالم بعد، والحقيقة أنه لم يحدث أي حادث فريد من أي نوع يشهد على صحة رسالة المسيح، حقاً لقد ظهر دين جديد إلى هذا الوجود، وهاهي الكنائس تبنى وأقوال المسيح قد كتبت وفسرت على يد الآباء الأولين، ولكن هذه الكنيسة لا تشبه إلا لماماً ذلك الطيف السماوي الذي يدعى ملكوت الرب، الذي حلم به يسوع، وأصبح من الواضح أيضاً أن ليس هنالك من أحد في الكنيسة يستطيع أن يجاري تلك الآمال التي احتوتها عظة الجبل، تلك الرسالة الفصيحة التي عبرت عن أزمة الجنس البشري المسببة عن توقع النهاية، ولكن النهاية لم تأت، فها هو العالم لا يزال كما هو عالم قديم، عجوز، بكل ما فيه من حاجيات قديمة من يأس، وإحباط وأمل، وهذه كلها أمور دنيوية لا علاقة لها بالآخرة، إنما جميعها ضرورية لتلبية حاجات الدين الجديد، ولاشك أن هذا استلزم وجود التنظيم.

لقد بدا أن التنظيم غير ضروري بل في غير محله في أوائل تاريخ الكنيسة، فالمجتمعات المسيحية كانت في ذلك الوقت صغيرة جداً، والروابط التي ربطت أفرادها ببعضهم البعض كانت روابط حميمة وطبيعية في حد ذاتها، فإذا فرض و أحدث تنظيم رسمي فهذا كان يسبب نتائج سلبية ربما أطاحت بتلك الروابط التي جمعت بين أولئك

الأفراد، من معتقدات راسخة، ومخاوف وآلام وآمال، حتى في القرن الثاني نجد أن أغناطيوس الأسقف الثاني للكنيسة السريانية في أنطاكية استطاع أن يكتب إلى زميله في أزمير: «لقد قربت الساعة والقيامة ونهاية هذا الكون، ولهذا دعونا نقف بذل وخشوع أمام حلم وأناة الرب، لئلا تظهر إدانتنا، ولهذا دعونا إما أن نذوب فرقاً من الغضب الإلهي القادم، أو أن نشكر الرب على النعمة التي نحن فيها ـ هذا أو ذاك»، ولقد كان الزعماء الأوائل للكنيسة رجالاً موهوبين، ولم يكونوا مجرد موظفين منتخبين، فقد حكموا، ولكن بالمحبة والإحسان، دون أن يكونوا بيروقراطيين، وبالإيمان دون أن يلهثوا وراء الأصوات الانتخابية، ومع أنهم كانوا يدعون أنفسهم أساقفة حتى في تلك الأيام المبكرة، إلا أنه لم يكن هنالك مراتب كهنوت، فكان الأسقف من أقرب الناس إلى الشعب، فالزمان الذي أتى على رجال الاكليروس، حين صاروا يجلسون على عروش عظيمة فخمة في أقبية الكاتدرائيات القوطية بعيد جداً عن جماعة المصلين، الذين كانوا يركعون أمام الأساقفة في الفضاء الرحب أمامهم، لقد بدأت في روما تلك التنظيمات الكنسية التي تطورت عبر القرون، ولاشك أنها قد تأثرت في تفاصيلها بالبنية السياسية للإمبراطور فالتمييز الذي وضح في الفترة ما بين العهدين القديم والجديد التوراتي، فيما بين الكهنة اليهود واللاويين، لاشك أن له أثراً قديماً يدخل في هذا المضمار، ولكن سرعان ما استأصلت هذه الأفكار لتحل محلها التجارب اليومية الملحة المستقاة من الحياة اليومية الرومانية المدنية، فالتعاليم الأولى للرسل الاثني عشر كانت هي المرشد المعول عليه في الأيام الأولى، وتقول هذه التعاليم: «لذلك عيِّنوا لأنفسكم أساقفة وشمامسة أكفاء أمام الرب، رجالاً معتدلين حليمين، لا يسعون وراء المال، صادقين محبوبين ينجزون لكم ومن خلالكم أعمال الرسل والمعلمين، لهذا عليكم ألا تحتقروهم، لأنهم رجال شرفاء مرتبتهم في مصاف الرسل والمعلمين».

طبعاً إن مجرد وجود هذه العظة وهذا التحذير والنصح ما هو إلا برهان وإثبات أن الأساقفة لم يكونوا قد كونوا لأنفسهم مؤسسة رسمية قائمة بذاتها، فالكنيسة الأولى كانت

لا تزال هيئة ديمقراطية فضفاضة، ومؤسسة، شعبية ولكونها كذلك فقد تعرضت للسقطات التي تتعرض لها أية مؤسسة شعبية، وقد كانت زعاماتها من الرسل والمبشرين بالإنجيل يتصرفون بشكل عفوي، بناء على اجتهادات شخصية، الأمر الذي أوصلهم أخيراً إلى تلك النتيجة المحتومة، وهي تفشي الفوضى في الطقوس الدينية والمذاهب والتفاسير ولو استمر الحال على هذا المنوال لوصلت الكنيسة حتماً إلى حالة عنقودية من المِلل والنحل غير المنظمة، والتي لا تخلو من العواطف والانفعالات فضلاً عن المفاسد، وهكذا أصبح التنظيم ضرورياً، وبمرور الزمن حل نظام ملكي محل الديمقراطية الآنفة الذكر، وطبقاً للنظام الجديد أصبحت كل أبرشية أو طائفة تنتخب رجلاً بناء على أكثرية في التصويت ويدعى ايبيسكوبس أي الأسقف، وبعد الانتخاب كان هذا الأسقف يسام أسقفاً على يد ثلاثة أساقفة من كنائس مجاورة، وكانوا يضعون أيديهم على رأس الأسقف المنتخب وهي الطقوس اليهودية نفسها لسيامة الربانيين وتثبيتهم رسمياً، ولم يكن هنالك أية تدريبات أو أي تثقيف لاهوتي لهؤلاء الأساقفة، فالرجل الذي كان ينصب أسقفاً افترض أن يكون حسن الاطلاع، ذكياً لبيباً نقياً في أخلاقه واقفاً نفسه على العقيدة، ويكون عادة متزوجاً وكان هذا الشرط الأخير يؤلف مشكلة، وذلك لأن خدمة المذبح تعد حسب الاصطلاحات التوراتية أمراً يقتضي التضحية، والامتناع عن ممارسة الجنس، فالزواج بالنسبة للمسيحيين الأوائل كان يعد واسطة للإرضاء الجنسي، أكثر من أي شيء آخر، وشراً لا بد منه، هذا وقد حدث أن نذر كثير من العلمانيين أنفسهم للامتناع عن أي اتصال جنسي، أو على الأقل التقليل منه، ولهذا كان من المستحيل أن يصبح الأسقف أسقفاً وهو أقل ورعاً من هؤلاء الأتقياء من رعيته، ولهذا كان من المتوقع أن يبدو معتدلاً على الأقل أثناء مدة خدمته الكهنوتية على المذبح، وإذا حدث ولم يكن متزوجاً حين انتخابه كان من الأفضل أن يظل عازباً، وهنا بدأت جذور مبدأ العزوبية عند الرهبان، التي سوف يكون لها دور هام في القرون القادمة، كجزء من نهج التقشف الاكليروسي الذي سوف يظهر في كنف إخوانيات الرهبنات الدينية في المستقبل.

ولقد كانت أشكال الوظائف الكهنوتية خصوصاً في روما، تقليداً للخدمات المدنية الرومانية، فقد كان الأسقف يحيط نفسه ببطانة من القساوسة والشمامسة، والخوارنة وجميع الرتب الاكليروسية الدنيا، وكانت هذه الوظائف تبدأ بالقندلفت، فالمراسل ثم قارئ الكتاب المقدس، الذي تطورت أعماله فأصبح يقوم بوظيفة المبشر، وكانت هنالك إمكانات للترقية في الوظيفة الاكليروسية، فالقندلفت، والقارئ تهيأت أمامهما فرص الوصول إلى مرتبة الشماس، في يوم من الأيام، أو أن يصبح الواحد منهما قسيساً أو حتى أسقفاً، وبما أنه لم يكن هنالك تدريب لاهوتي، لذلك انحصر نشاطهم في المهارات الإدارية، وبالإخلاص والتفاني للمبدأ الذي كرسوا أنفسهم لخدمته بجدارة، وتربع فوق قمة هذه البنية الكنسية أسقف روما، ومع أن عدد الأساقفة في آسيا وأفريقيا كان أكثر من عددهم في روما، مما سبب بعض أعال التذمر والمعارضة، حتى في هذه المرحلة المبكرة (كما حدث فيما بعد في القرون الوسطى) إلا أن الاعتراف بوضع أسقف روما الممتاز، كان مدهشاً في توقيته المبكر، ويجب أن نضيف أن هذه الاعترافات لم تضف أي صفة تشريعية، يتمتع بها أسقف روما فوق رجال الاكليروس المحليين، فهؤلاء كانوا تحت سيطرة أساقفتهم الموكلين بهم، ولكن كان يكفي إنما ليس أقل من ذلك، لا بل حتى قبل استعمال لقب (بابا - وهو مشتق من كلمة بابا اللاتينية، ومعناها الأب) كان هنالك بعض الوظائف التي لم يكن لها علاقة بالشؤون الإدارية أصبحت مقبولة كامتيازات خاصة بروما ومقصورة عليها فقط، امتيازات هي التي ستوصل بعد قرون عام (1807م) إلى الاعتقاد بعصمة البابا، ولقد اتفق الأساقفة (اتفاقاً ضمنياً، وليس بشكل رسمي) أن تحديد المذهب الكنسي لا يجوز أن يتم إلا عن طريق البابا فقط.

والحقيقة أن أهمية هذه السلطة لا يستطيع شعب القرن الحادي والعشرين أن يستسيغها بسهولة، وذلك لعدم اهتمام هذا الشعب بالشؤون الإدارية في الوقت الحاضر، ولكن شعوب القرون الوسطى كانوا يتقاتلون قتالاً مريراً حول تفسير واحد بسيط للعقائد الدينية، وأحياناً حول كلمة واحدة، وقد نشبت حروب كثيرة بسبب الاختلافات الدينية

الأمر الـذي سبب مـوت الكثيرين ، وأدى إلـى تشـتت العديـد مـن الأسـر عـدا عـن ظـهور اختلافات دينية جديدة وفرق وطوائف لـم تكـن موجـودة ، وهكـذا غـدت وحـدة الكنيسـة وظلت مهددة منذ القرون الأولى لإنشائها ، لا بل حتى ما بعد عصر الإصـلاح الدينـي ، إلا أن حق تقرير من هو صـاحب السـلطة العليـا ، ومـا هـو المذهـب الوحيـد المقبـول ، لـم يكـن امتيازاً بابوياً فحسب بل كان بداية صعود نجم البابا ، وازدياد سلطته .

أما الامتياز الثاني الذي تمتع به البابـا فـي رومـا فـهو قدرتـه علـى حرمـان أي أسـقف وطرده من الحظيرة الكنسـية ، وخصوصـاً أولئـك الذيـن كـانوا لا يتفقـون معـه فـي أحكامـه البابوية أو في المسلمات الدينية ، وكان هذا توسعاً منطقياً فـي سـلطة البابـا كحـاكم مطلـق ، في شؤون العقيدة المسيحية ، فما دام أن البابا قد خطط الخطوط الرئيسـة للعقيـدة ، وقـرر أن تكون هـذه الخطـوط هـي المعتقـد المقبـول الوحيـد ، عندهـا أصبـح مـن الواجـب إزاحـة كـل أسـقف يرفـض أن يعـترف بـهذا الوضـع ، وكـانت هـذه الإزاحـة تتـم أحيانـاً دون لباقـة ، واستعملت أحيانـاً لغـة تخلـو مـن الأدب أو التـهذيب ، فنحـن نقـرأ فـي رسـالة أرسـلها بابـا دامسكوس (دمشـق) الأول (366 ـ 384م) إلـى الأسـاقفة الشـرقيين الذيـن ثـاروا باسـتمرار على السلطة المخولة لبابا روما ، والذين انفصلت كنائسهم نهائياً فيما بعد عن رومـا ، كتـب إليهم ما يلي : «فليكن معلوماً لديكم جميعاً أننا منذ زمن قد حكمنا بإدانة المدعو (تيموثـي) التلميذ المنحط لأبوليناريوس Apollenarius الهرطقي المنشق في عقيدتـه الملعونـة ، ونحـن نعتقد أن كل ما بقي منه لا يستحق أي اعتبار من أي نوع كـان ، مـن الآن فصـاعداً ، ولكـن إذا أراد ذلـك الثعبـان العجـوز الـذي يستحق الضـرب مـراراً وتكـراراً ، أن يجـدد إسـاءاته ويستمر في السعي للاتصال بـالكفرة ونفـث سـمومه فعليكـم أن تتجنبـوه كمـا تتجنبـون أي وباء ، وألا تسمحوا لرجال الدين عندكـم ولا للعلمـانيين أن يصغـوا لأقوالـه ، ولا لتأملاتـه السـخيفة ، فـهنا وبنـاء علـى قـرار الكرسـي الرسـولي وبحضـور بطـرس أسـقف مدينـة الإسكندرية تقرر الحكم على هذا الرجل بالإدانة ، هو وأستاذه أبوليناريوس ، الـذي سـوف يتحمل ما يستحق من العقاب والعذاب ، يوم القيامة ، ولكن إذا استمر يعمل مثل إنسان فيه

أمل حيث يضل بعض الأشخاص غير المتزنين فإنه بهذه الأعمال لا يدمر عقيدته فحسب بل يدمر كل أمل له بالمسيح، وآنئذ يهلك معه كما هلك كل من تسول له نفسه أن يقاوم أحكام الكنيسة، ليحفظكم الرب أبنائي المبجلين».

ويلاحظ أن هذه الرسالة تحتوي على تلك اللعنة، وهي السلاح الرهيب الخطر الذي كان بيد البابا، وهو سلاح الحرمان، ومع أن هذا السلاح كان يستعمل ضد الأساقفة في أيام دامسكوس إلا أنه أصبح يستعمل فيما بعد ضد الأمراء والأباطرة، لا بل حتى ضد أدعياء البابوية، ولم يكن هنالك أي سلاح مرهوب الجانب، أمضى وأشد وقعاً من هذا السلاح، وذلك لأنه كان يبعد ضحيته ليس عن الكنيسة فحسب، بل عن الحياة الاجتماعية برمتها.

إن سلطة البابا التي كانت ستقوم بدور عظيم في شؤون السياسة العالمية، وخصوصاً في أيام النزاع حول السلطة البابوية أثناء العصور الوسطى، هذه السلطة قد منيت بالتعتيم والإقلال من شأنها على يد الأباطرة الرومان، ولم يبدأ فصل جديد من العلاقات بين الكنيسة والدولة إلا في مستهل القرن الرابع الميلادي.

واعتنق الإمبراطور الروماني فلافيوس فاليروس قسنطينوس الديانة المسيحية بعد معركة دارت رحاها على جسر ملافيان عام 312م، وبعد عام فقط صدر مرسوم ميلانو الذي أرجعت بموجبه جميع أراضي الكنيسة وأملاكها المصادرة، وأعلنت الحرية لجميع الأديان بما فيها الديانة المسيحية المضطهدة، ولم يثبت لدينا بالضبط فيما إذا كان قسطنطين نفسه قد تحول إلى الديانة المسيحية، فهو قد أجل تعميده حتى بضعة أشهر قبل وفاته عام 377م، ولا يعلم فيما إذا كان قد تخلى عن معتقداته القديمة أثناء حياته، أو فيما إذا كان قد فهم العقيدة المسيحية نفسها، فلقد كانت دوافعه على الأغلب دوافع سياسية، وذلك لأنه قد ثبت أن الديانة الوثنية لم تعد قادرة على توحيد شعوب الإمبراطورية المختلفة، بينما شقت المسيحية لنفسها في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي طريقاً واسعاً خلال الجماهير العريضة، وبدأ واضحاً أن هذه الديانة تمتلك العناصر الموحدة التي من الممكن أن تشمل العالم الروماني بأكمله في الشرق والغرب بما فيه أوروبا وآسيا وأفريقيا، وقد كانت أمنية قسطنطين أن يوحد الشر ق

والغرب تحت حكمه في إمبراطورية واحدة، وإمبراطور واحد، وكنيسة رسمية واحدة، إلا أن المسيحية لم تصبح في الحال الدين الرسمي للدولة، إنما نصب تمثال في إحدى ساحات روما العظيمة يظهر الإمبراطور وهو يحمل الشعارات المسيحية وهذا الأمر كان كافياً وجيداً، وهو لم يجعل الديانة المسيحية مقبولة فحسب بل أصبح مؤشراً على كونها قد أصبحت هي الطراز الدارج والسائد في ذلك الزمان، ثم أخذ قسطنطين وزوجته (فوستا) يغدقان الهدايا والهبات السخية على الكنيسة الرومانية، وقد سجل سلفستر الأول، وكان هذا أسقف روما (314 ـ 335م) جميع الهبات النقدية والأعمال الفنية، والأملاك في جميع أجزاء الإمبراطورية، (وكانت هذه الهبات أساس ممتلكات الكنيسة، وهي أكبر ممتلكات تخص أية مجموعة منظمة في العالم)، وقد اشتملت هذه الهدايا والهبات على الذهب والفضة، والشمعدانات والثريات والجرار الفخارية والخزفية، والكؤوس والأقداح، والتماثيل، وكل ما يمكن أن يتصوره العقل من أعمال فنية أخرى، وبين قائمة الممتلكات (التي كان ريعها حسب تقديرات سلفستر يقدر بثروات طائلة) نجد قصر لا تيراني على تلة جوبليان، وهو الذي قد أصبح فيما بعد مركز إقامة البابا الرسمي، والكنيسة التي بنيت بجانبه هي كاتدرائية لاتيران الأصلية، ويضيف سلفستر قوله: «في الوقت نفسه بنى قسطنطين الموقر بازيليكا بطرس الرسول عليه السلام في مكان مقبرة أبولو، ووضع هناك تابوتاً به جثمان بطرس المقدس»، وبذلك أصبحت المسيحية ديانة متكاملة، معترف بها رسمياً وتتمتع بالحماية الرسمية وأصبح أساقفة روما بابوات كنيسة لها الصفة العالمية في التوزيع الجغرافي والعقائدي، بحيث استحقت اسم كاثوليك.

لو كان بطرس جاليلي ـ وهو الذي شيدت فوق ضريحه البازليكا ـ حياً لأستغلق عليه فهم هذه التغييرات الجذرية، ففي طرفة عين أصبح أسقف روما مديراً للأعمال والأملاك والثروات والأراضي التي تبلغ في حجمها حداً يتوجب عليه أن يقضي معظم أوقاته في إدارة هذه الشؤون: الدنيوية، والإدارية، والسياسية، والعسكرية، وهنا بدأت مشاكل البابوية التي تفاقمت في المستقبل، عندما تغلبت الشؤون الدنيوية والإدارية والسياسية

والعسكرية على الشؤون الروحانية واللاهوتية، وأصبحت الكنيسة تقترب رويداً رويداً من ذلك الوقت الذي وجب عليها به أن تصبح مديرية أعمال وأشغال بحتة، وهكذا لم يعد يخطر على بال أحد، تلك الأيام التي قام بها يسوع الناصري بطرد المرابين اليهود من الهيكل في القدس، ولم يعد أحد يذكر أن يسوع الناصري لم يكن ليحلم بالأملاك، ولا بأن تكون للكنيسة أملاك شاسعة كهذه.

وعلى الرغم من الثروة الجديدة التي اكتسبتها الكنيسة، وعلى الرغم من نيلها الاعتراف الرسمي إلا أنها كانت تعاني من مشاكل داخلية سببت لها التمزق الفعلي، بما حدث من جدل حول عقائد الدين القويم، وكان قسطنطين يعد هذه الاختلافات سواء بين الشرق والغرب، أو بين المدارس المختلفة، تهديداً أساسياً لوحدة الإمبراطورية، وهكذا أصبحت الدوافع نفسها التي جعلته يتقبل الديانة المسيحية يتخذ الآن دوراً فعالاً جديداً في التدخل في الشؤون الكنسية وهو دور الوسيط الرئيس هذا، ويبدو أن البابا سلفستر الثاني كان رجلاً ضئيل النفوذ على الرغم من مركزه كأسقف روما، وأنه قنع بالثروات الطائلة الجديدة والوضع الجديد الذي جعل الكرسي البابوي أغنى مؤسسة في جميع أنحاء العالم المسيحي، ولهذا قام بدور تافه في تسوية المشاكل اللاهوتية الملحة التي حدثت في زمنه، بينما تصرف قسطنطين وعمل، كما لو أنه هو البابا، ولكي يسوي مشكلة الدوناتوسية وهي إحدى الطوائف المنشقة[1] التي ظهرت في إفريقية، دعا إلى مجمع للأساقفة عقد في

(1) كما نافست قرطاج روما الوثنية على زعامة عالم البحر المتوسط، سعت قرطاج المسيحية إلى منافسة روما المسيحية وقامت في قرطاج والشمال الإفريقي محاولات استقلالية، دعيت بحركات المرتدين، واتهمت بالكفر والخروج على المسيحية، وكان السبب المباشر لقيام حركة الدوناتوسيين، أنه عندما مات منسوريوس أسقف قرطاج انتخب كاسيليانوس كبير الشمامسة ليخلفه، وسيم من قبل ثلاثة قساوسة كانوا لا يتمتعون بتقدير عام، وهنا احتج أهالي نوميديا - في جزائر اليوم - وترأس جاثليق نوميديا مجمعاً عقد في قرطاج تقرر أثناءه، إلغاء انتخاب كاسيليانوس وسيامته، ورفض هذا التنازل عن منصبه، فالتف خصومه حول زعيم هو دوناتوس الأكبر، وهكذا نشأت نحلة الدونا توسيين التي سرعان ما كثر أتباعها، وأيد قسطنطين الكبير كاسيليانوس، وأعلن أن الدوناتوسيين قوم خارجون على القانون، وصدرت الأوامر بطردهم من الكنيسة بالقوة المسلحة، وقد استمرت ملاحقة أتباع هذه النحلة خمس سنوات متواصلة حتى مل قسطنطين نفسه، ودعا الكنيسة الرسمية إلى الاعتدال. انظر تاريخ إفريقيا الشمالية لشارل أندريه جوليان ترجمة عربية ط. تونس 1969، 1/ 259 - 299.

أرليس عام 314م احتوى على جماعات لها وزنها من إسبانيا ودالماشيا، وإيطاليا، وغاليه (فرنسا) وأفريقيا (هذا أول مجمع تبعه مجامع قامت بأدوار هامة في تاريخ الكنيسة) ومع أن الأساقفة كانوا يديرون دفة هذا المجمع، إلا أن الإمبراطور كان هو الشخصية الوحيدة التي بيدها الحل والربط وقد ظهرت سيطرته أيضاً في اجتماع كنسي تال عقد عام 325م[1] في نيقيه التي هي الآن قرية مغمورة من قرى تركيا.

لقد تقرر في مجمع نيقيه ـ وهو أول مجمع مسكوني ـ مستقبل الكنيسة لعدة قرون تالية، وظهر الإمبراطور في المؤتمر وعليه رداء أرجواني جميل، وخاطب الأساقفة باللغة اللاتينية، وقد تصرف كما لو أنه أسقف عام منصَّب من قبل الرب ويقول المؤرخ: يوسيبيوس[2]: إن قسطنطين كان له أسبابه الخاصة عندما بدرت منه ملاحظة وجهها إلى جماعة من الأساقفة، الذين تحدث معهم وأنا أسمعه يقول: «إنكم أنتم أساقفة تحكمون ضمن الكنيسة، أما أنا فأسقف نصبني الرب لأشرف على جميع شؤون الكنيسة الخارجية»، ولم يكن الانقسام الذي حدث فيما بين أتباع الإمبراطور وحزب البابا، حول صلاحيات كل منهما، له شأن يذكر زمن قسطنطين، لكن بعد حوالي مئة وخمسين عاماً ظهر جيلاسيوس الأول (492 ـ 496م)، وهو بابا كان أقوى مراساً من سلفستر، وقد كتب هذا البابا إلى أناستاسيوس إمبراطور الإمبراطورية الشرقية (بيزنطة)، يقول: «هنالك قوتان رئيستان تحكمان في هذا العالم، هما سلطة الأحبار المقدسة، والسلطة الملكية، وفي هذا المقام إن أهمية الكهنة أعظم بكثير من أهمية الملوك، إذ أن عليهم (أي الكهنة) أن يعطوا

---

(1) عقد لفض الخلاف الذي تفجر في الإسكندرية بين إثنين من علماء المسيحية في الإسكندرية وهما أثناسيوس، وآريوس، وذلك حول طبيعة العلاقة بين الأقانيم الثلاثة: الآب ـ الابن ـ روح القدس، وطبيعة السيدة العذراء، وقام الخلاف بينهما أولاً حينما أعلن آريوس أن العقل والمنطق يحتمان وجود الآب قبل الابن، والمسيح الابن المخلوق للأب، فهو على هذا أدنى منزلة، ولا يمكن أن يساويه في المكانة والقدرة، ثم أوضح أن المسيح مخلوق لإله عظيم وحيد متفرد وأن عدم القول بهذا يعني أن المسيحيين لا يؤمنون بعقيدة التوحيد، ويعبدون أكثر من إله، ورد عليه أثناسيوس بقوله: إن فكرة الثالوث المقدس تقتضي أن يكون الابن مساوياً للآب ومن العنصر نفسه تماماً، ودونما خلاف في القدرة والمكانة كل هذا على الرغم من تميزهما عن بعضهما.

(2) مؤرخ من قيسارية فلسطين، عاصر قسطنطين والتحق ببلاطه، كتب حول حياة قسطنطين الكبير، وأرخ للكنيسة، فكان مؤرخها الأول، كتابه مترجم إلى الإنكليزية وربما إلى سواها، وله أيضاً ترجمة عربية.

حساباً عن أعمال الملوك يوم القيامة و«يـوم الدينونـة» ، وبعـد زمـن لـم يعـد الأبـاطرة حتـى راضين عن هذا التعريـف ، فـأصبحوا يتحدثـون عـن دكتاتوريـة البابـا التـي تعـدت الشـؤون الروحانية إلـى الشـؤون الدنيويـة ، والقـول : إن البابـا يخضـع لسـلطة الـرب فقـط ، ومـادام كذلك لا يجوز أن يحاكم بوساطة أي محاكم دنيوية ، ومع هـذا نجـد حتـى ذلـك الزمـن لـم يحدث الصدام ، بل كان دور الإمبراطور لا يزال مقبولاً عن طيبة خاطر وامتنان .

إنه لم يكن أمراً ذا بال أن يدعو قسطنطين لاجتماع مجمع نيقيه ، وهـو لا يـزال غـير معمد ، ذلك أن الأساقفة قد دعوا حينها لمعالجة مشاكل كان لها أثرها الفعـال علـى مسـتقبل الكنيسة ، فالمشكلة الرئيسة التي عرضت أمام المجمع كانت مشكلة الثـالوث المقـدس ، وهـي قضية أنهكت الكنيسة وظلت شـغلها الشـاغل لمـدة طويلـة مـن الزمـن فـي المسـتقبل ، وكـان (آريوس) وهو رجل واسع الثقافة ومبشر له شعبيته في الإسكندرية ، قد أثار هذه المشـكلة ، مؤكـداً أن الشـخص الثـاني فـي الثـالوث المقـدس وهـو المسيح لا يجـوز أن يمتلـك صفـات الألوهية نفسها كالرب الذي هو الآب ، أما المسيح فهو الابن الذي خلقه الرب ، ولـهذا فـهو أدنى منزلة من الخالق ، عندها حدثت أزمة حادة هددت بإزالة وحدة الكنيسة ، وربما القضاء على المسيحية بأسرها ، فكان هذا كله سببه تعـاليم آريـوس التـي سـميت بالآريوسـية لذلـك عمـد جماعـة مـن الأسـاقفة وعددهـم حوالـي / 300/ أسـقف إلـى الاجتمـاع فـي نيقيـه ، فبعضهم حضر بوسائل النقل العادية ، وبعضهم نقلتهم خيول البريد ، ولم يكن هناك سوى ستة أساقفة يمثلون الغرب ، أما أسـقف رومـا فلـم يحضـر ذلـك المجمـع ، وقـد انتـهى المجمع بالتشهير بآريوس ، وأتباعه وعدهم هراقطة كفرة ، وهكذا احتفظوا بوحدة الكنيسة ، وتبنـى القانون بالإيمان المسيحي الذي صدر عن مجمع نيقيه ، وبعد أن حدثت به بعض التعديـلات البسيطة أصبح ولا يزال العقيدة الأساسية للكنيسة ، ومن ثم صار على كـل مؤمـن مسـيحي أن يعترف بالكنيسة الكاثوليكية الرسولية ، ولكن الآريوسية والثالوث المقدس لـم تكـن هـي الأمور الوحيدة التي عرضت في مجمع نيقيه ، فالحقيقة أنه ابتداءً مـن مجمـع نيقيـه ، بـدأت المسيحية تهجر الحظيرة اليهودية ، فقانون الإيمان المسيحي الذي بدأ فـي نيقيـه هـو مظـهر مـن

مظاهر هذا الانفصال، إذ أصبح واجباً على كل مؤمن بـالرب «إيماناً قلبياً راسـخاً» حسب تسمية قسطنطين، أن يقبـل العقيـدة التاليـة كمبـدأ أساسـي: «أومن بإلـه واحـد وهـو الأب القادر، صانع الأرض والسماء وكل شيء ظاهر وغير ظاهر، وأومن برب واحد هو يسـوع المسيح ابن الرب الوحيد، أوجده قبل أن يوجد المخلوقات، رب الأرباب، نـور الأنـوار إلـه الآلهة، الذي وجد ولم يخلق، وهو من طينة الأب نفسها الذي خلق كل الأشياء».

ما من شك أن يسوع المسيح، ولا أي واحد من حواريه كان يقبـل مثـل هـذه الصيغـة الجديدة، فالمسيح لم يفكر أو يتخيل أنه إله، فقد كان يصلي ويقول: «يا إلهي يا إلهي، لماذا تخليت عني»، وذلك في آخر ساعات حياته، ولم يكن بطـرس الأسـقف الأول فـي رومـا ليوافق على أن المسيح قد أوجد قبل أن يخلـق العـالم، فـأولئك الذيـن تبعـوا ذلـك الواعـظ البسـيط فـي منطقـة الجليـل ورأوه عياناً، وتنـاولوا الخبز معـه، وصلـوا فـي الكنيـس معـه، وأصغوا إلى صلوات طقوسه اليهودية، كلهم قد تقبله وآمـن بـه بأنـه المسـيح، واعتقـدوا أن نهاية العالم قد أوشكت على الحدوث وما كانوا ليقبلوه على أنه رب الأربـاب، ولكـن ربمـا أن أكثرية المسيحيين كانوا وثنيـين متحولـين، لـهذا فـإن مسيرة المسيحية نحـو الوثنيـة كـانت تقتضي وتستدعي عدة تسويات، وتنازلات ويظهر أحياناً أن عملية التنصير أو التحويل إلى المسيحية قد حل محلها عملية اعتناق النصرانية، وبالنسـبة لكثـير مـن الوثنيـين عـدت مريـم العذراء اسماً بديلاً جديداً لربة الخصب التي كانوا يعبدونها، فالمجموعة الأولمبية اليونانية من الآلهـة الوثنيـة اتخـذت أسـماء جديـدة بتغيـير بسـيط أو حتـى دون تغيـير فـي قلـوب ونوايـا المؤمنين، هذا ولم يكن العالم المعروف قد سار في هذا الطريق المصطنـع مـن طـرق التحـول إلى المسيحية، ففرنسا، وألمانيا، وبريطانيا، ومنطقة البلقـان، ومعظـم المشرق لـم تكـن قـد تحولت إلى المسيحية بعد، والشعـوب اللومبارديـة والـهون والقـوط الغربيـون والسكسـون، والألمان الذين سوف يسيطرون على معظم أوربا وأفريقيا في المستقبل، لـم يكـن هـؤلاء قـد سمعوا بالعهد الجديد (الإنجيل) وفوق ذلك فقد كانت القضايا العميقة في العقيـدة المسـيحية لا تعني إلا القليل بالنسبة إليهم، وذلك لكونهم غير مثقفـين، وأميـين، لـم يفـهموا مغـاليق

الأمور، وقد ظل النزاع العقائدي محصوراً بالكهنة ووقفاً على رجال الاكليروس ذوي المناصب الرفيعة فقط، أما رجال الاكليروس البسطاء، أكثرية الأسرة اللاهوتية فبالكاد كانوا يستطيعون قراءة الصلوات، فكيف بالولوج إلى مسالك القضايا اللاهوتية؟ وسرعان ما نسيت الأصول اليهودية في مجرى التاريخ المسيحي، ولهذا فإن صور المسيح وأسرته، والحواريين، كما ظهرت في أعمال الفسيفساء، وفي التماثيل البيزنطية والرومانسية والقوطية، كل هذه قد اجتثت منها وأزيلت جميع الآثار اليهودية المحيطة بها، فمجمع نيقيه ما هو إلا بداية لذلك الطريق الطويل والعملية الكبيرة للغربة ولإبعاد المسيحية عن المراسي اليهودية، فاليهودي في الأراضي المسيحية أصبح الآن يعيش وهو في حماية الصليب، وفي ظله وكان ذلك الظل ظلاً طويلاً حقاً، فقد حدثت حوادث في غياهب الظلام ظلام ذلك الظل، كافية لجعل يسوع المسيح يرتعد.

فبعد أن أصدر مجمع نيقيه قانون الإيمان المسيحي شرع في إزالة آخر أثر من آثار البقايا اليهودية في الكنيسة المسيحية، فقد كان من اهتمامات الكنيسة لمدة طويلة أن تحتفل بعيد الفصح عند اليهود، فلم يكن هذا العيد أحد الأعياد اليهودية الهامة فحسب، ولكنه كان عيداً يحتل دوراً مرموقاً في قصة قيام المسيحية الأولى، فقد توفي المسيح يوم عيد الفصح اليهودي، والعشاء الرباني الأخير هو أحد أعياد السيدر Seder اليهودية، فقد بارك يسوع الخبز، ثم قطعه ووزعه بين حوارييه، طبقاً لعادة يهودية قديمة، وقد بارك الخمر أيضاً وذلك طبقاً لاحتفال اليهود بكيدوش Kiddush وهو رمز تقديس الخمر، وقد كان عيد الفصح اليهودي يحل في الرابع عشر من نيسان، وهو أول أشهر الربع عند اليهود، وقد ظل الاحتفاظ بهذا التاريخ عادة من عادات الكنيسة الأولى، وخصوصاً في الكنيسة الشرقية التي كانت تتمسك بهذا العيد، وهو لا يزال يسمى باساه Passah (وفيما بعد أصبح الإنكليز يدعونه الشرقي، لأن آلهة الربيع عند الانجلوسكسونيين تدعى الشرقية) ولم يعد هذا العيد عيد التحرر من ربق العبودية المصرية، ولكنه أصبح عيد حرية القيامة، وقد أزيل الحمل من مائدة السيدر Seder اليهودية، وأصبح المسيح نفسه هو الحمل

والضحية الأبدية الخالدة، وناضل الأساقفة السوريون وأساقفة أنطاكية للإبقاء على هذا التاريخ اليهودي، ولكنهم أخفقوا وتقرر إلغاؤه.

ولخص قسطنطين في خطابه الموجه للكنيسة قضية عيد الفصح اليهودي بهذه الكلمات: «لقد ناقشنا في هذا الاجتماع قضية عيد الفصح المقدس، وتقرر بإجماع كل الحضور أن يبقى هذا العيد وتراعى حرمته لدى الجميع، وفي كل مكان في يوم واحد لأنه ليس لدينا أشرف وأنسب من هذا العيد الذي تؤرخ شروعاً منه آمالنا بالخلود، ولهذا يجب أن يحتفل به الجميع دون انقطاع، طبقاً لنظام موحد وترتيب منسق.

وظهر لنا في البداية أنه لا يليق بنا ونحن نحتفل بهذا العيد ذي التقديس الكلي، أن نتبع عادات اليهود الذين دنسوا أيديهم بكبائر الذنوب، الأمر الذي سبب لهم عمى البصائر، وأصبح باستطاعتنا إذا أردنا أن نعدل عن عاداتهم ونهجرها، أن نحدد أمد الاحتفال بهذا العيد بالنسبة للأجيال القادمة، وذلك باتخاذ ترتيب جديد أكثر صدقاً، حفظناه ابتداء من أول يوم من أيام آلام المسيح حتى وقتنا هذا، وهكذا لم يعد بيننا وبين ذلك الشعب اليهودي المكروه، اللعين أي أمر مشترك، وذلك لأننا قد استلهمنا من حياة مخلصنا طريقة ونهجاً مختلفاً وهو نهج شرعي قانوني وشريف لائق بديننا المقدس ولهذا دعونا أيها الإخوان المبجلين نتبنى هذا النهج بالإجماع، وأن نبادر إلى الانسحاب من كل اشتراك في نذالتهم وحقارتهم، فهم يتباهون ويتفاخرون فيما بينهم وبين أنفسهم، أننا لا نستطيع أن نحتفل بأي عيد دون الحصول على التعليمات الخاصة منهم بالذات، وأخيراً فليحفظكم الرب أيها الإخوة الأحباء».

وكان قسطنطين قد أصدر مرسوماً عام 321م ألغى بموجبه الاحتفال بالسبت اليهودي من الحياة المسيحية، ولكن على الرغم من محاولات الكنيسة لإحياء يوم الأحد وجعله بمثابة ذكرى أسبوعية للقيامة ما زلنا نجد أن كثيراً من المجتمعات المسيحية ما برحت تلتزم بالسبت اليهودي، هذا وكان منطوق المرسوم الإمبراطوري كما يلي: «على جميع القضاة وعامة الشعب في المدينة، والعمال في جميع الحرف أن يخلدوا للراحة يوم الأحد المقدس، أما الذين يعيشون في الريف، فعليهم أن يهتموا بزراعة الحقول بحرية تامة ودونما حرج، مادام

الاعتناء بالحبوب في الحقول والكروم لا يمكن تأجيله من يوم لآخر، وذلك حتى لا تضيع الفوائد التي تمنحها العناية الإلهية في لحظة من اللحظات غير المناسبة»، وأيد مجمع نيقية هذا المرسوم، مع هذا ثبت أن التقاليد اليهودية كانت أقوى من المرسوم بكثير، ولهذا وبعد مرور ربع قرن من الزمان، وفي مجمع لادوكيا، اتخذوا قراراً أشد لهجة استعملت به لغة القوة، إذ يقول بصرامة: «لا يجوز للمسيحيين أن يتهودوا، ويجلسوا كسالى يوم السبت، ولكن عليهم أن يشتغلوا في هذا اليوم، وعليهم أن يحترموا يوم الرب قدر استطاعتهم ما داموا مسيحيين، إنما إذا أصروا أن يظلوا يهوداً عندها يجب أن تحل عليهم لعنة المسيح وحرمانه» وبهذا الحظر ضد المسيحيين الذين يحتفلون بالفصح اليهودي نجد أن المسيحية قد هدمت آخر جسور الاتصال بينها وبين الدين الأم، واستقرت على دينها الخاص.

ولنتحول الآن إلى ذكر تطور آخر لا يستغني عنه كل من يبغي تفهم نمو المسيحية وتطورها، ألا هو ذلك الفيض من القوى المزعجة الخلاقة المعروفة باسم الرهبنة، فدافع الرهبنة الذي بدأ في أوائل القرن الثالث الميلادي اشتدت قوته وعظمت حرارته على يد واحد من عظماء الأقباط المصريين اسمه أنطونيوس، وهو القديس أنطونيوس الشهير بالأغراء، وقد ولد في قرية كوم في مصر الوسطى، وليس من العجب ولا هو من قبيل الصدفة أن تبدأ فكرة الرهبنة في المشرق وليس في روما، فقد وجدت حركات الزهد والتقشف في المشرق منذ أقدم الأزمنة، ولا تزال حتى يومنا هذا، فنكران الذات الذي اشتهر به الرهبان البوذيون والكهنة التيبيتيون، وفقراء الهنود فضلاً عن حب العدالة والصبر والتأمل والتركيز النظامي كل هذه من الصفات النموذجية التي تميز بها الشرق، فاليهودية الأولى كانت على هذا الصعيد ديناً شرقياً، وإن توكيد هذه الديانة على الحياة وإثبات قيمتها يجب ألا يجعلنا نغفل تلك الحقيقة، وهي أن كثيراً من المبتدعات اليهودية قد نتجت من فكرة الرهبنة وحياة الزهد والتقشف، فتاريخ اليهود القديم لا ينحصر في الأراضي التي اغتصبوها واحتلوها، والمناطق التي عمروها وزرعوها، والحياة المدنية المألوفة عندهم، بل في الصحراء، فالحرارة الشديدة، والاجتهاد والجوع والتمرد والتقشف والكفاح للحصول على الخبز والماء، كل هذه الأشياء تعد من الدوافع الخلاقة البطولية التي أثرت في وجود اليهودية، وقد كان هذا تفكير الأنبياء

أيضاً، وهذا التفكير بحد ذاته له خطره ومغزاه، وذلك لأن حركة الأنبياء وهي تلك الحركة الأدبية الفصيحة التي ساهمت في الإبداع الخلاق لليهودية الجديدة التي تختلف عن المؤسسات الدينية والعبادات الكهنوتية، كل هذه الحركات لها أصل واحد يكمن في المثل العليا التقشفية، والأب الروحي لها، كان إيليا الذي كان يجلس لوحده على جدول المياه مهجوراً مشمئزاً من الحياة في العاصمة، ومن الملك والكهنة وجميع المؤسسات الدينية، يتغذى من طعام الغربان، ويواجه الرب، متحدياً رياح الصحراء العنيفة، والمدارس النبوية الأولى عاش بعضها مع بعض في مجموعات، وكانت تطوف في طول البلاد وعرضها، وترقص بنشوة ووجد على أنغام الموسيقا المثيرة، وأصبح موسى يهودي البلاط المصري من رجال الصحراء، (والنار التي رآها في العليقة هي رمز الصحراء) ولم يكن عدم السماح له بدخول الأراضي المزروعة مجرد عقاب، بل كان ترتيلة عظيمة وتسبيحاً لتمجيد الصحراء والزهد والتقشف، فشعب موسى وليس موسى نفسه هم الذين تذمروا من طعام الصحراء واشتاقوا إلى أطباق اللحم في مصر، وإن الميل للرهبنة الذي ساق الأنبياء الكلاسيكيين لترك حقولهم وأسرهم وترك أشجار الجميز الظليلة، ليصبحوا خدماً مطيعين ومبشرين لدين الرب، هذا الميل للتقشف هو جزء أساسي من مظاهر نمو الديانة اليهودية، فيوحنا المعمدان الذي ارتدى ملابس لا تكاد تستر عورته، وعاش حياة العزلة والتجرد على ضفة النهر، لم يكن إلا واحداً من كثيرين من أفراد هذه الطائفة، والايسينيون الذين كانوا يأكلون طعامهم معاً، ويحفرون قبورهم بأيديهم ويرتدون الملابس الخشنة المصنوعة من الشعر ويحرثون الأراضي المشاع، كان هؤلاء يشبهون إلى حد بعيد رهبان العصور الوسطى، فالفقر الطوعي وقواعد الصفاء والنقاوة كانت هي المثل العليا المقبولة، ولا يعلم بالتحديد فيما إذا كان يسوع المسيح واحداً من أفراد طائفة قمران التي كانت أديرتها موجودة على شواطئ البحر الميت، ولكن ذلك لا يهمنا في هذا الصدد، بل الذي يهمنا هو أن هذه الأديرة كانت موجودة، وأن اليهودية دائماً هي الدين العنيف المنشغل بشؤون الحياة، فالحركات الباطنية والسرية التي نشأت منذ أوائل العصور الوسطى حتى زمن طائفة الحسيديم Hassidic هي شاهد على هذا الاتجاه، وقد كتبت بعض الأمثلة الدالة على الخلق والإبداع الديني والتفكير والأغاني

والقصص على يد رجال عاشوا في عزلة وزهد، وقد تفرغوا لخدمة الرب بحماس وضراوة لا تقل عن ضراوة حب الحياة نفسها، لا بل حتى يسوع نفسه يمكن أن نعده راهباً فقد قال: «ليس لي إخوة أو أخوات».

في الحقيقة إنه يجدر بنا أن ننظر إلى حركة الرهبنة في الديانة المسيحية كاستمرار عفوي لتقاليد الزهد في المرحلة ما قبل المسيحية، وأن تطورها المتأخر تجاه التنظيم ووظائفها الكنسية وإدارة أمورها وانتشارها في جميع أنحاء العالم، وعبادتها الرسمية لم تكن إلا انحرافاً عن تعاليم يسوع المسيح وحوارييه، ومن المؤكد أن هذه الاصطلاحات قد استعملت في زمن فارغ تاريخياً، فلو لم تبدأ الكنيسة في البناء والتخطيط، والتملك، والتنظيم، لما استطاعت المسيحية أن تقف على رجليها أبداً، وهكذا كان مصير جميع المثاليات السامية فحالما تصبح هذه حقائق ملموسة إذا بها تسقط وتصبح فريسة للكذب والافتراءات في عملية إدراكها وتحقيقها يبدأ بتعريضها للشبهة، فتتقلص لتصبح ضئيلة ضآلة الإنسان نفسه، أما محاولة التعديل فتعد خيانة.

وهكذا أصبحت الرهبنة معيناً لا ينضب للمسيحية النامية، وإذا ما جاز لنا أن نسلم بالتناقض الظاهري، وهو أن أولئك الذين كانوا يتناولون القليل من الطعام ما هم إلا المغذون للمتخمين بالطعام، وذوي الملابس الأنيقة المغرورين، نجد أن هذه حقيقة واقعة، فلولا التحذيرات والتذكيرات المستمرة القاسية اللهجة التي كانت تصدر عن الرهبان، لهلكت المسيحية في مستنقع التسويات والحلول اليومية الوسيطة، وإن دوافع عشرات الألوف من الرجال والنساء الذين اختاروا حياة الرهبنة تختلف تبعاً لسيرة كل فرد من أفراد هؤلاء الرهبان والراهبات، ولكن ليس هنالك من شك أن هذه الدوافع كانت تتفرع من عملية الذبذبة والجذب غير المحتملة بين المثاليات للحياة النقية الصادقة، وبين رغبات ومتطلبات الجسد والطبيعة البشرية، ولهذا نجد أن المعركة ضد الرغبات الجسدية تحتل مركز الصدارة في كتابات الرهبان فقد كان يسوع المسيح يحتقر الشهوات الجسدية، أما بولص الرسول فقد جعل شتم وتعداد مساوئ الجسد موضوعاً رئيساً لوعظه وتحذيراته في رسائله، لأن في اعتقاده أن حب الرب يتطلب إماتة الجسد، ثم نقرأ ما كتبه أحد مشاهير الرهبان في القرن الحادي عشر، وهو

بطرس دامين: «وهكذا فما عليكم سوى حب الرب، وإماتة أنفسكم، فالرجل العاقل ذو النية الصادقة لتأمين خلاصه يعمل للقضاء على الرذائل ويكبح جماح الشهوات الجنسية، ويلجم الجوارح والأطراف والمعدة بلجام قتل النفس، والقضاء على الشهوات». هذا وطلب الرسول بطرس نبذ الجسد وإهماله إهمالاً تاماً، إذ قال: «تعال الآن أيها الأخ، ما هذا الجسد الذي تغطيه وتلبسه أفخم لباس بأقصى عناية، وتغذيه برفق كما لو أنه من الذرية الصالحة، أليس هذا الجسم كتلة من العفن والفساد؟ أليس هو طعام الدود، وغبار ورماد؟ إن الرجل العاقل لا ينظر إلى الجسد كما هو الآن بل إلى ما سيكون عليه في المستقبل من قيح وقذارة، وعفن وأوساخ الفحش والفساد، وهكذا ترك الرهبان العظام، مؤسسو الإخوانيات، منازلهم وأسرهم وأحياناً ترك أصحاب العروش عروشهم لأنهم لم يستطيعوا أن يتعايشوا مع أنفسهم في مجتمع يؤمن بإرضاء رغبات الجسد، ولهذا في خضم هذا الصراع ولدت فكرة الرهبنة، فقد أصبح أنطونيوس ناسكاً في قريته الصغيرة (كوم) في مصر، وشاركه مئتان وسبعة من أتباعه القرويين في قبول فكرة التقشف، وقد عاشوا أولاً في كهوف، وبعد ذلك اتخذوا من صحراء النطرون وسيتز Setis ذات الرياح الحارة، والشمس المحرقة مقراً لهم وديراً، وقد أسس رجل مصري آخر يدعى باخوم[1] ديراً له قرب درنده وأخميم، كان به أخوية تشبه الإخوانيات التي نشأت في المستقبل، وكانوا يقسمون أوقاتهم بين العمل والعبادة، وكانوا يلبسون ألبسة موحدة متشابهة، ولما كانوا يتكلمون اللغة الآرامية، التي يدعى بها راعي الدير (آبا) أصبحت هذه الكلمة أصل كلمة Abbot، أي راعي الدير، هذا وكان هنالك دير للنساء أيضاً، وقد كان هنالك بعض الزهاد والمتنسكين الذي لم يستطيعوا أن يجاروا الآخرين في يأسهم ووحدتهم، ولم يستطيعوا أن يتقيدوا بالقوانين والأنظمة، ولذلك

---

(1) يبدو أن القديس باخوم كان بالأصل من أهالي الوجه البحري، ولد لأبوين وثنيين، وعمل جندياً في جيش قسطنطين حتى اهتدى إلى المسيحية، فترك الجيش وانسحب إلى الصحراء وشيد أول دير قرب درنده حوالي سنة 315 ـ 320م وتأثر باخوم بنظام الجيش الروماني، لذلك جاء ديره أشبه ما يكون في تصميمه ونظامه بما ساد في مخيمات الجنود الرومان، انظر كتاب: أوروبا في العصور الوسطى لسعيد عبد الفتاح عاشور. ط. القاهرة 1966: 172 ـ 175.

ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فقد طرحوا مستلزمات أجسامهم ورغباتهم الجسدية وفرضوا على أنفسهم الحرمان الكلي من تلك الرغبات، وهكذا نرى سمعان العمودي الذي عاش ثلاثين عاماً طويلة على رأس عمود شرقي أنطاكية، وقد كتب عنه (كرين برنتون) يقول: «لقد عاش في أعلى العمود على علو ستين قدماً، تحت وطأة السماء السورية» (يظهر أن العمود كان يحتوي على سياج)، وكان سمعان يأكل ويشرب وينام، ويتغوط قليلاً، ويعظ الناس عاماً بعد عام، ولكن سرعان ما وضح للزهاد والنساك أنهم إذا عاشوا مجتمعين يؤثر بعضهم ببعض، ويصلون معاً، وكل ذلك يجعل تدريباتهم ذات معنى أكبر من الوحدة والانعزال المضحك فوق عمود، وفي القرن الرابع دعا الراهب باسيل رفاقه الرهبان لأن يشتغلوا معاً في الحقول، وأن يلتزموا ببرامج دقيقة للصلاة أمراً له دلالته وأهميته، وهو دعوة الرهبان للاشتراك في أعمال الإحسان في المجتمع، ولكن لم يمض زمن طويل حتى تغلبت فكرة حياة الزهد الشرقية على الغرب، فأصبحت الرهبنة أعظم حركة في الكنيسة بأسرها مما سبب إنقاذ الكنيسة والبابوية كما سلف وألمعنا، بل إنقاذ المسيحية بأسرها من هوة الإجهاض والتحطم، وقد أسس (مارتن) وهو من (تور) أول دير في فرنسا، وبعد برهة قصيرة طلب يوسيبيوس أسقف فوسيلي في إيطاليا من الاكليروس في كاتدرائيته أن يمارسوا حياة الرهبنة، وأن يكرسوا بعض سنوات من حياتهم على العيش في الأديرة، على أساس أن هذا العمل سيكون ملهماً مجدداً لنشاطهم الروحاني في التعليم والتقوى.

وكتب فصل خطير من فصول الرهبنة في ايرلندا، فقد قابل هناك كولومبان الايرلندي الذي كان يقاسي من وخز الضمير لانغماسه في ملذات الجسد، قابل أحد الرجال المنعزلين عن العالم، الذي وصف له قضية الرهبنة بما يلي: «هل تعتقد أنك تستطيع أن تقاوم غواية النساء زمناً طويلاً وأن تستمع مختاراً لأصواتهن، وهل نسيت قصة آدم الذي هزمته حواء، وشمشون الذي أغوته دليلة، وداود الذي سحره جمال بتشيبا، وسليمان الذي ضل الصراط المستقيم على الرغم من حكمته، وذلك بتعلقه بحب النساء؟ أيها الرجل الشاب، عليك أن تناضل إذا أردت أن تتجنب السقوط!».

لم يدر هذا الرجل المنعزل عن العالم، والمجهول الاسم أن نصيحته هذه كان لها أثرها في نفس كولومان، وهذا ما أدى إلى بداية نشوء رهبنات في بلدان بعيدة، ولهذا فقد أطلق لنفسه عنان الالتزام بالصيام والصلاة، بدلاً من المباهج والمسرات الجسدية ولكنه أخيراً وجد أن العلاج غير كاف، فترك ايرلندا، وتوجه إلى غابات فرنسا حيث اشترك مع إثني عشر رجلاً كلهم على شاكلته، قد رضوا بتعذيب أجسادهم، وكانوا يتغذون بلحاء الأشجار والجذور والتوت البري، وصدف أن سمع ملك برغنديا بقصة هذه العصابة الغريبة من الرجال لكن المخلصين، فوضع تحت تصرفهم قلعة في هوتي ساون، وبدأ هذا الدير البدائي الذي يرأسه كولومان العالم البسيط، يجتذب كثيراً من الناس، حتى أن الملك أضاف لهم قلعتين أخريين وهما قلعة لوكسويل، وفوتنان، وأصبحت لوكسويل تدعى بيت تدريب الرهبان، وكانوا بعد انتهاء أمد تدريبهم هناك يتركون الدير ويصبحون مبشرين، حيث أسسوا أديرة جديدة في بال، ونورماندي، وحوض الراين.

وفي حركة كولومان الرهبانية نجد قاعدة كاملة مبرمجة قوامها: «لندع الراهب يعيش في دير تحت إشراف أب واحد يرافقه الكثيرون ليتعلم التواضع من أحدهم والصبر من الآخرين، ويقتبس من الأول الصمت، ومن الآخر الحلم، يجب ألا يسمح له أن يفعل ما يريده، بل يأكل ما يؤمن بأكله، ولا يجوز له أن يمتلك إلا ما يعطى له، وينبغي أن يتقبل الأوامر التي ربما لا تروق له ويطيعها، ولا يجوز له أن يخلد للنوم إلا بعد أن ينهك جسمه بالتعب والنصب، وإذا ما استسلم للنوم فعليه أن يكون مستعداً للاستيقاظ قبل الاكتفاء من النوم، وإذا أصابه مكروه أن يكون مستعداً بل يلتزم الصمت، ويجدر بنا أن نذكر القارئ أن حركة الرهبنة بدأت على شكل حركة علمانية، لم يشجعها الاكليروس، ولم ترتبط بهم، وقد جاء اشتراك رجال الدين بها فيما بعد، فقد نجح الرجل الايرلندي البسيط في جعل هذه الحركة شعبية، فبعد مئتي سنة تقريباً من جلوس سمعان على قاذوراته فوق عموده قرب أنطاكية، ذلك العمل الذي كان يعد بطولياً، وإن لم يخل من عرض سخيف للتصميم على الزهد، قزم ومشوه الخلقة، نجد أن هذه الحركة قد تطورت وأصبحت مؤسسة مقبولة محترمة.

وخلال السنوات التي كان بها أتباع كولومان يؤسسون أديرتهم شمال جبال الألب، كانت أهم الإخوانيات الرهبانية تلاقي نجاحاً في إيطاليا، ففي عام 529م بني أول دير على جبل كازينو في جنوب شرقي روما، وقد قدر لهذا الدير أن يصبح رائد الأديرة للرهبان البندكتيين، فمؤسسها بندكت، أتى من مدينة نورسيا في أمبريا في إيطاليا، وتتلمذ في روما، لكنه هجر العاصمة العظيمة، ليس لأنه لم يستطع أن يكبح جماح رغباته الجسدية، بل لأنه ارتاع وخاف من حياة مدينة لم تنس أصولها الوثنية، ولم تفهم الكثير من الإيمان المسيحي، وهكذا تطورت المعيشة الرتيبة بها، فأصبح يجدها حياة كريهة، ومذلة، ولهذا اتخذ لنفسه حياة جديدة فسكن أولاً في كهف موحش في جبال سوبياكو شرقي روما، ثم بعد ذلك جبل كازينو، وبمرور الزمن نال التقديس، وهو اليوم يعد واحداً من كبار القديسين في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

وكان بندكت رجلاً موهوباً يتصف بمجموعة من الصفات الحميدة منها: الحماس الشديد لفكرة الرهبنة، والإحساس المرهف بالتنظيم الذي قلما نجده عند الرهبان، وبعد النظر غير العادي، الذي استطاع بوساطته أن يتنبأ بالإمكانيات الكافية لإخوانيات الرهبان في الأخذ بيد الكنيسة وإنمائها وتقدمها، ولهذا بدأ بتنظيم الحياة في دير جبل كازينو، وأسسها على المثل العليا القديمة من الفقر الطوعي الاختياري إلى الطهارة، والنقاء والصفاء التام، وقسم أوقات النهار إلى مدد من العمل الجاد تتخلله حوالي أربع ساعات للصلاة والعبادة، غير أنه أضاف شيئاً لم يكن عادياً كما لم يكن موجوداً وهو مطالعة الكتب، ولهذا أصبح دير جبل كازينو أول مكتبة رهبانية لها أهميتها إذ لم يرض الرهبان البندكتيون بالطاعة العمياء، التي كانت من الأمور المسلم بها بالنسبة للرهبنة، إنهم ارتفعوا عن المستوى البدائي المتخلف لمعظم الأديرة الموجودة فأصبحوا هم الصفوة والنخبة في عصر انتشرت فيه الأمية، وعم فيه التخلف بين معظم رجال الاكليروس والعلمانيين، فأصبحت كتابة وقراءة المخطوطات وفن التزيين ومهارات الترجمة، والتفاسير من أهم وظائف وأعمال هذه الإخوانية التي بدأت تنتشر خلال عدة أجزاء أوروبية، وبصورة خاصة في فرنسا وألمانيا.

واشتركت طبقة النبلاء في حركة الرهبنة ، وقامت بدور فعال فيها ، ففي إنكلترا ظهر أوغسطين (وهذا ليس هو أوغسطين صاحب الاعترافات بل هو شخص آخر ظهر بعد ذاك) وبنى دير كانتربري وقد التحق حوالي ثلاثون ملكاً إنكليزياً من الأسر الملكية القديمة البريطانية الصغيرة التي ظهرت في العصور الوسطى بالرهبنات ، هذا وقد تقاطرت الأسر الألمانية النبيلة ، وهرعت إلى الانتساب إلى الرهبانيات بأعداد كبيرة في فرتزلار ، وفولدا في منطقة الراين ، والألزاس ، وأصبح من العادات السائدة أن يقضي المخفقون والذين كانوا منغمسين بالملذات والفسوق وقتاً في مصحة الدير ، فقد هربت (ماتيلدا) ملكة فرنسا من متاعبها لتقضي الخمسة عشر عاماً الأخيرة من حياتها في دير تشيليز ، وترك (كارلومان) أخو الملك (بين) القصير بحبوبة العيش في ظل عرشه ليصبح راهباً بندكتياً في دير جبل كازينو ، ولم تقتصر الأسر النبيلة والملكية على إرضاء نفوس ورغبات الرهبان ، بوضع القلاع والحصون تحت تصرفهم ، فحسب بل عمد كثير من أفرادها إلى اتباع أساليب التوبة المعروفة في تلك العصور ، والتي كانت تؤلف مظهراً من مظاهر الحياة في العصور الوسطى .

ولقد نجحت المسيحية في نشر الحضارة بين البرابرة ، وهكذا أصبح الفرنجة ، والألمان ، والإنكليز الورثة المتأخرين للتراث والحضارة الإغريقية والرومانية القديمة ، بعد أن كان أول احتكاك لهم بثقافة البحر المتوسط قد تم عن طريق الجيوش الرومانية ، تلك الجيوش التي كانت تمثل حضارة قديمة على وشك الانهيار والزوال ، ومع أنه كان من الواجب ممارسة الضغوط الشديدة لإقناع السكسونيين والسلاف بالتحول إلى الديانة المسيحية ، إلا أن هذه الجهود لم تبذل عبثاً إذ بينما استمر عبيد الأرض والفلاحون بالتمسك بالمعتقدات الوثنية القديمة ، نجد أن طبقة النبلاء المثقفة ما لبثت أن انضمت إلى المسيرة المسيحية ، فالحروب المستمرة وانتشار الأوبئة والأمراض الجارفة ، واللصوص ، وقطاع الطرق وانعدام الأمن والاطمئنان على الحياة كل هذا أدى إلى إيجاد نوع من الشوق والحنين إلى حياة أفضل ، ووجود له معناه ، فغضب الرب ، والمطهر ، وجهنم ، واليوم الآخر ، والثواب والعقاب في الآخرة ، كل هذه الأمور كانت مدعاة للخوف الحقيقي بين

جماهير العصور الوسطى، حتى جرت العادة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر على أن تعمد كل كاتدرائية رومانية قوطية إلى الإنذار بالغضب الإلهي القادم، بوساطة نحت النقوش المخيفة المرعبة، فوق أبواب تلك الكاتدرائيات، ولم تكن النقوش مهذبة، فالأجسام التي نزل بها العذاب في يوم الدينونة، والتي رسمها رجال من كبار الفنانين في العصور الوسطى، من أحفاد النحاتين اليونانيين القدماء، هذه الأجسام وهذا العذاب توحي بإحساس الارتباط العاطفي في نفوس أولئك المتعبدين الأتقياء الخائفين، ذلك الشعور الذي لا يكاد يشعر به أي سائح حديث يأتي إلى ريمس، وتشارترز، وبامبرج، فالرجل في العصور الوسطى عندما كان ينظر إلى الأعلى حال وصوله إلى الكنيسة، فيرى نفسه تهلك في لهيب الجحيم، يذوب إشفاقاً وفرقاً ورجاء بالعفو والغفران بشكل حقيقي، وبالتدريج ارتفع مقام الأديرة، وأصبحت مستودعاً للحياة المسيحية الحقيقية، وهكذا تحولت المسيحية إلى مؤسسة عالمية واسعة الانتشار، على رأسها هيئة الكهنوت من الأساقفة والاكليروس الذين كانت حياتهم لا تختلف كثيراً عن حياة العلمانيين، فالمثل المسيحية العليا التي سادت في عصر الرسل، كادت تضيع وتفقد في سلسلة الخدمات الروتينية الرسمية، وعملية الاعتراف الآلية والغفران، ثم جباية التبرعات للكنيسة، وإدارة أملاك الكنيسة، ولم يعد هناك تقيد تام بالمثل العليا القديمة، بالامتناع عن ممارسة الجنس، فلقد غصت محاكم العصور الوسطى بألوف الدعاوى التي أقامها نساء ادعين أن أبناءهن غير الشرعيين، لهم الفخر بانتسابهم لأساقفة ورجال الاكليروس، فالفسوق والانغماس في الملذات التي تمثلها وتصورها لوحات ورسوم هورتيماس بوش المتأخرة كانت جزءاً من حياة الكهنة الذين بلغ بهم الجهل مبلغاً عظيماً، بحيث فضلوا الحياة الدنيا على الآخرة، وكتب رئيس أساقفة ريجود في شهر شباط عام 1248م ما يلي: «وجدنا أن كاهن روفيل قد اتصل بزوجة أحد النحاتين اتصالاً غير شرعي، وقد قيل إنه أنجب منها طفلاً، ويقال أيضاً إن له أطفالاً كثيرين آخرين، فهو لا يلازم كنيسته، بل يقوم بلعب الكرة، ويركب متجولاً وهو يلبس معطفاً قصيراً من ملابس الرجال العسكريين»، ثم يستمر رئيس

الأساقفة ويذكر قائمة بأسماء خمسة عشر كاهناً كل منهم متهم بأعمال لا تليق بالكاهن، ثم يقول: «إن كاهن ريبوف مثلاً، وهو من رواد الحانات، يشرب حتى الثمالة، وكاهن جوري قد عرف عنه الاتصال بامرأة سيئة السمعة، وإن لورانس، وهو كاهن لونجويل، يحتفظ بزوجة شخص يعيش خارج البلاد، وهي تدعى بياتريس فاليران، وقد أنجب منها طفلاً»، وكان سلوك بعض هؤلاء الكهنة لا يقل خشونة عند أداء القداس الإلهي إذ يقول: «لقد وجدنا أن كهنة الكاتدرائية وهيئة المرتلين يتحدثون ويثرثرون وهم يتوجهون من مقعد إلى آخر في الكنيسة حتى في الوقت الذي يجري به الاحتفال بالقداس الإلهي».

إنه ليس بأمر غريب أن يتفق تقدم نظام الأديرة السريع مع هذا الوضع السيء للكهنة، فالكنائس في المدن لم يكن فيها الراحة النفسية للمؤمنين، فالمبشرون المتحمسون الذين كانوا يتركون الأديرة ويسافرون لنشر تعاليم الإنجيل بين الناس في الكاتدرائيات غالباً ما وجدوا أنفسهم مضطرين للتحدث مع رجال الاكليروس كلاماً، أصبح هؤلاء الاكليروس في مسيس الحاجة إليه، وهكذا أصبحت الفجوة بين الدين المسيحي الرسمي وتطبيق أنظمة الأديرة وقوانينها واسعة لا يمكن وصلها، ولسوف يأتي زمن نرى فيه الأديرة تستسلم للفساد أيضاً، ولكن عندها ستكون إخوانيات جديدة قد ظهرت، والقديمة قد تجددت لا بل حتى البابوية نفسها تنجذب إلى مهاوي الهرم والانحلال وحينها ترتفع الأصوات مطالبة بإصلاح الأنظمة الكهنوتية، وفي ذلك الوقت وهو منتصف القرن الحادي عشر سنرى بشائر أولى ثمرات الجهود الكهنوتية التي تنقلت من تلك البدايات البسيطة للأديرة في مصر وسورية إلى مجهودات القديس بندكت التقية الصافية، فالقديس برنارد من كليرفو، ولكن قبل أن نعالج هذا كله يحسن بنا الرجوع قليلاً إلى الوراء، إلى العقود الأخيرة من حياة الإمبراطورية الرومانية، وإلى البداية الفعلية للبابوية.

بعد موت قسطنطين الكبير، سقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية فريسة لمجموعات من البرابرة الشماليين، الذين اندفعوا جنوباً سعياً وراء امتلاك الأرض والنهب والسلب واغتصاب السكان من أهالي البلاد، فقد أتى الوندال والقوط الغربيون واللومبارديون

والقوط الشرقيون، واستولوا على نصف أوروبا وشمالي أفريقيا، وإن أسماء زعمائهم وأصولهم ونماذج سلوكهم ونجاحهم وإخفاقهم، في فرض أنفسهم وطرق معيشتهم، على السكان الوطنيين كل هذا حدث وكأنه السحر، إن هذا لا يعنينا بحثه في هذا الكتاب، فاهتمامنا بالحقيقة يتركز على مصير المسيحية والبابوية في هذا الخضم الهائج، إن أول مشكلة لاهوتية خلقت إثر هجرة مئات الألوف من هؤلاء الرجال المتوحشين، كانت انتعاش مذهب الآريوسية في شمال إيطاليا وإسبانيا برهة من الزمن، فالمعركة القديمة التي قرر مصيرها مؤتمر نيقيه استعر أوارها من جديد، ففي إيطاليا حيث أصبحت «رافنا» عاصمة القوط الشرقيين الآريوسيين، وبدأت المحاولات للتوفيق بين العقيدة الأثناسيوسية والآريوسية، وصادفت هذه المحاولات درجات مختلفة من النجاح، أما الفرنجة الذين استولوا على بلاد الغال فقد اعتنقوا الكاثوليكية هم وملكهم كلوفيس في ريمس عشية عيد الميلاد عام 496م، ومع أن اعتناق هذا الملك المسيحية كان في حد ذاته عملاً له أهميته وخطره العام، (أشرف على عملية الاعتناق أسقف ريمس نفسه) إلا أن تحول هذا الملك لم يكن له أثر كبير على سلوكه وأخلاقه أو سلوكية أتباعه وأخلاقهم، إذ عند أقل إشارة أو هياج كانوا يعملون سيوفهم في رقاب الأهالي، وكذلك فإنهم لم يمتنعوا عن استعمال تلك العادة السيئة، وهي قلع العين بالإصبع بسبب ذنب بسيط حتى بعد تحولهم إلى المسيحية، ولربما فهم هؤلاء عظة المسيح التي يقول بها: «اقلع العين التي تغضبك». فهماً حرفياً أكثر من اللزوم، ولهذا عمد كلوفيس إلى إرضاء ضميره فأعطى الهبات السخية للكنيسة التي أصبحت مؤسسة غنية وقوية في بلاد الغال، ولكن بالوقت نفسه كان مصراً على أن يكون له الحق بتعيين رجال الاكليروس، وهو ثمن غال دفعته الكنيسة لقاء الثروة والنفوذ.

لقد احتل القوط الشرقيون جزءاً كبيراً من إيطاليا واخترقوا أوروبا حتى القسطنطينية تقريباً، وكانت القسطنطينية لا تزال عاصمة الإمبراطورية الشرقية، ولكنهم لقوا مصيرهم المحتوم بعد حوالي ستين عاماً من ظهورهم وأعمال توسعهم، فقد قام جستنيان بطردهم، في محاولة لإعادة توحيد الإمبراطورية، إنما بدلاً من إعادة روما إلى مركزها القديم

كعاصمة، احتفظ برافنا عاصمة له، وبالطبع لقد كان لهذا العمل نتائجه الكبيرة بالنسبة لروما، التي لم يعد بإمكانها التنافس للحصول على السلطة المدنية، وفوق ذلك فإن القضاء على القوط الشرقيين قد قلل من القيمة العضوية لمدينة روما في خلال العصور الوسطى، وعلى الرغم من الفتنة والسحر التي كانت ترافق الانتخابات البابوية أو تتويج الأباطرة، بقيت روما مهدمة خربة حتى أعيد بناؤها زمن عصر النهضة، وبينما كانت من قبل تتسع لحوالي نصف مليون نسمة، أصبحت الآن مدينة يسكنها حوالي خمسون ألفاً، ومن الغريب أن نجد هذا التطور المؤسف نعمة وبركة بالنسبة للبابوية، أو بالأحرى ما بقي من الإمبراطورية أصبحت روما معروفة بأنها عاصمة البابا، ونحن إذ نقول: عاصمة البابا ليس مقر البابا، نفعل ذلك لأن الكلام هو عن مركز حكومة البابا وسلطته، وليس حول مجرد مقره الشخصي، فقد سلف وذكرنا شيئاً عن البابا جيلاسيوس الأول الذي تربع على عرش البابوية من عام 492 ـ 496م، وأكد على سلطته البابا، وحقه في الحكم، وأوضح أن العالم يحكمه إمبراطوران: واحد للشؤون الدنيوية، وآخر للشؤون الروحية، ولكن صعوبة الإبقاء على سلطة هذين الحاكمين على قدم المساواة بقيت المشكلة الأبدية والدائمة للبابوية، وبهذه المناسبة سوف نخصص بعض الوقت للتحدث عن «رافنا» وجستنيان إمبراطورها اللامع، والعبقري والكبير الأهمية.

لا يمكن لأحد أن يقول إن جستنيان كان من أصل سلافي، خصوصاً عند سماع اسمه الكامل، وهو فلافيوس أبسيوس يوستينانوس، ولكن في الحقيقة إن هذا الملك العظيم ينتسب إلى أسرة بربرية سلافية الأصل، وإن اسمه الحقيقي الأصلي هو يبرودا Uprada، ومعناه «العادل» إذ عندما كان يتكلم اللغة اليونانية، التي أجادها بطلاقة، قيل إنه احتفظ بشيء من اللكنة البربرية، هذا وإن اللجان المختلفة التي عينها جستنيان تحت إشراف ألمع وأبرز رجال القانون في الإمبراطورية، نجحت في جمع وترتيب وتبويب القوانين العامة التي كانت حتى ذلك الوقت مبعثرة هنا وهناك، أو كان الوصول إليها صعباً جداً، ولكن ما يهمنا هنا هو الدور الذي قام به هذا الإمبراطور بالنسبة للشؤون الكنسية.

لما كان جستنيان شرقياً، فقد حصر اهتمامه بالكنيسة الشرقية التي مركزها القسطنطينية وليس بالكنيسة الرومانية اللاتينية، ففي الشرق شغل الإمبراطور واهتم بشكل لم يسبق لأي ملك أن شغل به لا من قبله ولا من بعده، وخاصة بتفاصيل الصراع اللاهوتي (ساعده في جولاته الدينية وقراراته ثيودورا زوجته الشهيرة، التي لم يمنعها ماضيها كراقصة أو ربما مومس كما يقول البعض، من أن تهتم بمتابعة الشؤون اللاهوتية)، وإنه لمن الأهمية بمكان بالنسبة لتاريخ الكنيسة أن عدّ جستنيان نفسه الحبر الأعظم للكنيسة فضلاً عن مركزه كإمبراطور، وبالنسبة إليه فقد عدّ أن هاتين الوظيفتين متلازمتان لا تنفصلان، فكان هو رئيس الدولة والكنيسة بالوقت نفسه، ولما كان البابا، خلال حكم جستنيان رجلاً طاعناً في السن وضعيفاً، لم يواجه جستنيان بأية مقاومة ذات أثر في روما.

لاشك أن جستنيان كان يهدف إلى إعادة بناء الدولة على أسس مسيحية صحيحة، زد على ذلك أنه كان يبغي جاداً صهر الدولة بالكنيسة صهراً تاماً، وليس مجرد حماية الكنيسة وأملاكها، وحقوقها، فمفاهيمه عن الحقوق المدنية، كانت ذات علاقة بالشؤون المسيحية الدينية، ومدونة جستنيان لم تكن مجرد مواد قانونية بل وثائق دينية، وهي أساس دستور الديانة المسيحية أيضاً، وكل شيء صدر عن قناعاته اللاهوتية وإيمانه، فقد ضاق ذرعاً ببقايا الوثنيين، لذلك عمد إلى إقفال جميع المدارس الفلسفية، مع أن هذه المدارس في أثينا كانت في هذه المرحلة أقرب إلى المسيحية الأصيلة من غيرها، حتى من بعض المؤسسات الدينية المسيحية نفسها، أما اليهود فقد أعلن أنه سيعاملهم معاملة إنسانية مادام أنهم من مخلوقات الرب، ومع أن العبودية لم تكن قد ألغيت، إلا أنه أمر بأن يعامل العبيد بهذه الروح نفسها، والمبادئ ذاتها، ولا يزال الكثيرون يذكرون فضل جستنيان وخدماته للكنيسة البيزنطية، وفن العمارة والفنون عامة، وكذلك الأدب، ولا تزال أعمال الفسيفساء في رافنا تشهد بديمومتها على عبقرية ذلك الرجل الذي دعي باستحقاق «العظيم».

لقد كان جستنيان عظيماً حقاً، وعظمته شاملة وعالمية حتى أنه لم يكن من السهل لأي بابا، مهما كان قوياً أن يقاوم سلطته، ولكن نفوذ جستنيان لم يدم بعد موته، فعندما

توفي عام 565م توفيت معه الإمبراطورية الرومانية أيضاً، ولكن الإمبراطورية البيزنطية استمرت في الحياة، هذا ويمكننا أن نقول بشكل تهكمي لا يخلو من سخرية أن البابا أصبح بالحقيقة وريث الإمبراطور الروماني، فقد كان هنالك ضرورة قصوى لوجود رجل قوي مستقل لتأكيد سلطة البابا ومركزه، وتمهيد الطريق لأولئك البابوات الأقوياء في العصور الوسطى، وما بعدها، وقد وجدت الكنيسة ضالتها المنشودة في غريغوري الأول (590 ـ 604م)، وهو رجل ذو مقدرة فوق العادية، وكان ينتمي إلى أسرة رومانية، وحفيد أسقفين، ومما زاد في تأثيره وأهميته كونه واحداً من أقارب بندكت، مؤسس دير جبل كازينو، وقد عرفته الأجيال التالية باسم القديس غريغوري الكبير.

لقد كان انتخاب البابا أمراً بسيطاً في القرن السادس، فقد قرر ثيودريك وهو ملك القوط الشرقيين الآريوسيين، أن يكون الانتخاب بإجماع آراء الاكليروس، وشعب روما، وبعدها بتثبيت الإمبراطور، (وحيث ستشغل مسألة تطور طريقة الانتخاب حيزاً هاماً في بحثنا هذا، فإننا سنعمد فيما بعد لو صف تفاصيل انتخاب البابوات)، وعلى هذا الأساس وبشكل عفوي يخلو من كل أبهة أو تكلف أصبح غريغوري ابن أحد أعضاء مجلس الشيوخ، والذي تمتلك أسرته كثيراً من القرى والإقطاعيات في روما، وصقلية، والذي شغل وظائف هامة في روما الوثنية والمسيحية، أصبح هذا الرجل الحبر الأعظم في روما.

لقد كانت ثقافة غريغوري ثقافة رجل نبيل، وقد ظل رومانياً طيلة حياته، وقد تكلم اللاتينية، ورفض أن يتعلم اللغة اليونانية خلال السنوات الست التي قضاها في القسطنطينية العاصمة الإغريقية، ولهذا فليس من الغريب أن يدعى رجل مثله بخلفياته وبعلاقاته الأسروية المعروفة، وثروته ومقدرته الإدارية المدهشة إلى تولي أرفع منصب في المدينة، ففي سن الثلاثين، نال وظيفة المشرف المدني العام، وهو منصب سام كان أيام روما القديمة قد احتفظ به في العصور الوسطى، وشغل غريغوري هذا المنصب بقامته المؤثرة وجبهته العالية، وعينيه السوداويتين ولحيته الشقراء المسترسلة، وحمل أعباء هذا المنصب بكل جلال وكرامة، وبعد مرور سنة على تعيينه في منصب المشرف، توفي والده، وعندها اعتزل الوظيفة وأصبح

راهباً، ويمكن أن نعزو سبب نزوعه إلى الرهبنة شدة حزنه على والده، وربما التأثير الشخصي لقريبه بندكت، وقد سلم بيته الموروث من أبويه للبندكتيين، ونذر نفسه راهباً في المبنى نفسه، الذي أصبح يدعي دير القديس أندراوس، على التلة الجوليانية، وهناك عاش حياة كلها تقى وصلوات وصيام، وتأمل، وكتابات، ففي هذا الدير صنف كتبه الأولى، وكان أولها حول سفر أيوب، وباقيها حول أسفار من العهد القديم منها نشيد الإنشاد، وبالتدريج بدأ يتخلى عن الأملاك التي ورثها، ووضع جميع أملاكه الكبيرة التي ورثها في صقلية تحت تصرف الإخوة البندكتيين الذين بنوا ستة أديرة هناك على نفقته الخاصة، وبعد أن انتسبت والدته للرهبنة، والتحقت به في دير القديس اندراوس لم يبق لديه أية مسؤوليات عائلية، ولكن القدر لم يتركه بسلام، فعندما عينه البابا بندكت الأول (575 ـ 579م) ليكون واحداً من سبعة شمامسة مسؤولين عن الأقاليم الكنسية في روما، لم يعد لديه أي خيار سوى أن يطيع لأن هدفه في حياته كان: القيام بأية خدمة على الوجه الأكمل (حتى أنه عندما استلم منصب البابوية، رفض الألقاب جميعها واتخذ لنفسه لقب خادم الرب) وقبل مرة ثانية منصب ابو كريزاريوس (منصب يشبه منصب ممثل البابا) في القسطنطينية، وهناك تعرف على الشؤون السياسية للدولة، وقد أفادته هذه المهارات الدبلوماسية التي اكتسبها في العاصمة البيزنطية بشكل جيد في السنوات القادمة، ولدى رجوعه إلى روما سر كثيراً عندما علم أنه قد عين رئيساً لدير القديس اندراوس، فقد فكر أنه قد عاد أخيراً بعد طول الانتظار إلى قواعده كراهب بسيط مرة ثانية.

وفي هذا الوقت كانت روما تعاني من كثير من المشاكل والاضطرابات، فقد كانت مهددة بالغزوات البربرية على الدوام، وزاد الطين بلة فيضانات نهر التيبر التي حولت المنطقة المجاورة إلى مستنقعات، وكذلك الأوبئة والطاعون الذي قضى على الألوف وحدث أنه في أثناء انتشار الطاعون الدبلي[1] أن كان غريغوري يقود موكباً من الرهبان والاكليروس والمواطنين خلال شوارع روما، وهم يتجهون إلى كنيسة سانتا ماريا وأجوريا

(1) الدبل: ورم في الغدة الليمفاوية.

في الحي الرطب قرب النهر، وعندما مروا بجانب الجثث السوداء من ضحايا الطاعون الملقاة في الشوارع إذا بالروائح النتنة التي تحمل الموت تدخل في خياشيم السائرين المؤمنين وأصوات المرضى والمكروبين ترن في آذانهم وشق الموكب طريقه إلى مقبرة هدريانوس المهيبة، وهنالك وصف أسطوري للحادث: قيل ما أن مر الموكب حتى ظهر شبح ملاك، يمكن رؤيته وهو يرفرف فوق العربة البرونزية التي كانت حينذاك تزين قمة النصب، وفي تلك الساعة أغمد الملاك سيفه وهي إشارة فسرت أنه قد لقي عدد كاف من الناس حتفهم وانتهى الأمر، وتقول القصة إن الطاعون قد توقف فجأة بشكل معجزة، ومن ذلك الوقت أصبح النصب يدعى (كاستل سانت آنجيلو) أي قلعة الملاك المقدس، وفي هذه الأيام يمكن رؤية تمثال الملاك على هذا النصب.

لقد كان فلاجيوس من جملة ضحايا الطاعون، وليس بغريب أن انتخب غريغوري خلفاً له بإجماع أصوات الاكليروس والشعب وذلك طبقاً للعادة السائدة، ولكن موافقة الإمبراطور الشرقي على هذا الانتخاب قد أعاقها لا بل حتى أوقفها، التماس غريغوري من الإمبراطور وإصراره على ألا يوافق على هذا الانتخاب، وهذا حادث فريد في تاريخ البابوية، إنما أخيراً أتت الموافقة بعد سبعة أشهر وأصبح غريغوري أسقف روما في 3 أيلول عام 590م.

كان غريغوري في الخمسين من عمره في تلك الآونة، وأصبح ضعيف الجسم، حتى عندما كان راهباً كان يقاسي من مرض لا يعرف سببه في معدته سبب له آلاماً لا تطاق، وقد قضى سنتين من الأربعة عشر عاماً التي قضاها في منصب البابوية في الفراش، ولكن كان لديه أمور أهم بكثير من العناية بصحته، فهو الذي أرسى قواعد البابوية، وهو الذي جعل البابا حاكم روما الفعلي، ووريث حاكم العالم الغربي، وكما كان في يوم من الأيام يشغل منصب المشرف في روما، أصبح الآن المشرف على العالم المسيحي الكاثوليكي بأسره، وكان يصر على اتباع البساطة والتقشف، وبالوقت نفسه كان قاسياً في الإشراف على الحياة الخاصة للاكليروس، والتقيد بمنع

إطلاق العنان للجنس، ولم يرحم أحداً في هذا المجال، ثم أخذ يحد من نفقات رجال الاكليروس وجشعهم، وتبذير الأسقفيات، وكان صدره يضيق لدى أقل إساءة استعمال للوظائف الكنسية، التي كان غيوراً على مصالحها، ولما كان عالماً بشؤون الإدارة المالية من خلال تصرفه بأموال والديه وأملاكهما، أصر على جرد الأملاك والأموال التي كانت تمتلكها كل كنيسة، وكل أسقفية، من كؤوس القربان، إلى الشمعدانات، إلى القرى والأراضي التي ملكتها كل كنيسة، وكانت أكبر ممتلكات الكنيسة في صقلية، ولكن أملاك الكنيسة انتشرت في جميع أنحاء المعمورة، بما فيها أملاك كثيرة في روما وفي أجزاء إيطاليا الأخرى، وفي غاليا وإسبانيا وأفريقيا وقد قدر دخل الكوريا الرومانية بمليوني دولار سنوياً، وهو مبلغ لا يكاد يصدق بالنسبة للقرن السادس، أما غريغوري فكان يعتقد أن النقود الموجودة يجب أن تصرف، وإذا كان هنالك ما ينتقد في إدارته المالية فهو ضخامة المبالغ التي كان يصرفها على البر والإحسان، إذ أصر أن تصرف الأموال لمصلحة الفقراء والمعوزين، فقد شوهدت العربات البابوية في كل أبرشية مسيحية في جميع أنحاء العالم وهي توزع الطعام والكساء على المحتاجين، فالبابا راهب بندكتي، والإحسان قاعدة أساسية في النظام البندكتي، وقد اهتم أيضاً بإنتاج المواد الغذائية في الأملاك البابوية، وكان القمح يشحن بالسفن من صقلية ويخزن بعناية في صوامع الحبوب البابوية للاستعمال في حالة حدوث مجاعات أو أي جائحات أخرى.

ومع أن غريغوري الأول، كان يعد نفسه خادماً بإخلاص لعبيد الرب، إلا أنه كان أيضاً سيد هؤلاء العبيد، وكان موقفه تجاه كرامة مركزه، موقف المناضل الذي لا تلين قناته، إذ عندما حاول بطريرك القسطنطينية أن يطلق على نفسه اسم البطريرك المسكوني، رد غريغوري عليه بحدة فقال: لا يجوز لأحد أن يدعى مسكونياً (أي ذي نفوذ يمتد إلى جميع أنحاء الأرض المسكونة) سوى أسقف روما، وقد ناضل ضد الأساقفة والإمبراطور لقاء كل خرق أو انتهاك لامتيازات البابا، وهكذا لم يكن رئيس

الكنيسة فقط بل أمير الدولة والأقاليم، إذ أجرى المفاوضات مع الصديق والعدو على السواء، وقد أقام معاهدة صلح مع اللومبارديين عندما قرروا نهب روما، ودفع لهم جزية سنوية مقدارها خمسمائة قطعة ذهبية، كانت تدفع من الخزينة البابوية، واستعمل القوة العسكرية عندما كان يرى ذلك مناسباً، وكان أول بابا يتولى منصب الجنرال العسكري، بالإضافة إلى المنظم الإداري، ثم النائب الأول للمسيح، وهذه عبارة عن مجموعة مذهلة من الوظائف، ولقد قيل إنه عندما ترأس دير القديس اندراوس فكر في تنظيم بعثة تبشيرية إلى بريطانيا، حيث كانت المسيحية الايرلندية (المقاومة للرومانية) قد شقت طريقها إلى تلك البلاد، لذلك أرسل أوغسطين ـ وكان هذا قد أصبح رئيس دير القديس اندراوس ـ ومعه جماعة مؤلفة من أربعين راهباً في رحلة جيدة التنظيم إلى بريطانيا، وكان معهم قوة عسكرية لحمايتهم على طول الطريق، وكانت مهمتهم الفوز بتأييد الملك والنبلاء والشعب للكنيسة الرومانية، وفي عام 597 نجحت هذه البعثة، إذ اعتنق الملك ايشيلبرت ومعه عشرة آلاف من أتباعه الدين المسيحي، وهكذا أصبح أوغسطين أول رئيس أساقفة لكانتربري، ثم تلا ذلك تحول مقاطعة ايسكس إلى الدين المسيحي بعد بضع سنوات، وبسبب الاهتمامات الخاصة في هذا الكتاب نجد أنه من الأهمية بمكان أن نذكر أنه على الرغم من أن غريغوري عامل الوثنيين بقسوة شديدة وأعد العدة لصد أي نوع من التدخلات والهجومات الوثنية، إلا أنه كان متسامحاً ولين العريكة مع اليهود، وإن قراراته الشهيرة بالنسبة لليهود كانت حجر الزاوية في السياسة البابوية التي سوف نعالجها في مكان من هذا الكتاب فيما بعد، وعندما بلغه نبأ عزم ملك القوط الغربيين في إسبانيا على إعطاء الخيار لليهود في بلاده إما أن يعتنقوا المذهب الكاثوليكي، أو أن يطردوا من البلاد، عارض البابا ذلك، ففي غاليه وصقلية غالباً ما أجبر اليهود على اعتناق المسيحية، والرسالة التالية التي كان سبب إرسالها الحالة في غاليا (فرنسا) تشرح موقف البابا وميوله: «حزيران 591 من غريغوري إلى فرجيليوس أسقف (أرليس) وإلى ثيودوروس أسقف مارسيليا في بلاد الغال، أقول: إنه على الرغم

من أنني لم أجد حتى الآن الوقت المناسب ولا الشخص المناسب للكتابة لإخوتكم، للرد على ما أرسلتموه من التحيات، والآن إنني أشعر بأنني أستطيع أن أحل نفسي مما هو واجب تجاه الحب والعلاقات الأخوية، وأن أنوه بالشكاوى التي قدمها بعض الأشخاص، والتي وصلت إلى مسامعنا بخصوص الطريقة التي يجب أن يتم بها تخليص أرواح الخاطئين.

إن هنالك كثيرين من الناس من أتباع الديانة اليهودية يسكنون في إقليمكم، ويرحلون من وقت لآخر لقضاء شؤون مختلفة من الأعمال إلى منطقة مرسيليا، وهؤلاء قد أخبرونا أن كثيراً من اليهود المقيمين في تلك الأنحاء قد أجبروا على التعميد بالقوة، وليس بالإقناع والتبشير، والآن إنني أعد أن النوايا في مثل هذه الحالات جديرة بالاهتمام، وأسمح لنفسي بالقول إنها تصدر عن الحب الخالص للرب، ولكني أخشى أن تكون هذه النية، ما لم يرافقها تسويغ مناسب بواسطة فقرة من فقرات الكتاب المقدس، إما أن تخلو من أية مجهودات مثمرة، وإما (لا سمح الله) سوف تكون سبباً في ضياع أرواح نحن حريصون على إنقاذها، لأنه إذا ما جلب أحدهم إلى جرن المعمودية بالقوة، وبدون إقناع بلسان حلو، فإنه سوف يعود إلى وثنيته حتماً، ويموت في حالة أسوأ من الحالة التي ولد فيها».

توفي غريغوري في 12 آذار عام 604م وهو في الرابعة والستين من العمر، ودفن في رواق بازليكا القديس بطرس، وأخيراً نقل جثمانه إلى أسفل مذبح كليمنت الثامن، وقد عُدَّ هو ووالدته من الأبرار الذين سوف ينعمون بالخلود، وذكر اسماءهما في تقويم الكنيسة الكاثوليكية، ذلك أنه كان أول بابا حقيقي، فهو أول من أجبر العالم على الاعتراف بالأملاك البابوية، والنظر إليها على أنها دولة بابوية على رأسها البابا بمثابة ملك لها، وهو الذي حدد الحقوق والواجبات البابوية داخل الكنيسة وخارجها، وكذلك وضع الأسس التي تحدد العلاقات المتبادلة بين البابا والإمبراطور، وأسس أيضاً التقاليد البابوية الأرستقراطية التي ظلت سارية المفعول، وقلما أوقف العمل بها.

وبعد أقل من عقدين من وفاة غريغوري تعرضت المسيحية إلى أقصى نوع من أنواع الاختبار، وفي بادئ الأمر استطاعت الكنيسة أن تعلو الموجة ولكن بعد أن أصيبت بخسائر فادحة في الأراضي والثروات والهيمنة الدينية، وقد تحول التيار لمصلحة الكنيسة بمحض الصدفة، فلولا ذلك الاختراع الجديد للقذائف التي دعيت بالنار الإغريقية التي سببت انسحاب الأسطول العربي الذي كان على وشك الاستيلاء على القسطنطينية[1] لكان من المؤكد أن يصبح العالم الغربي عالماً مسلماً بدلاً من أن يكون مسيحياً.

فبعد وفاة غريغوري لم تعد المسيحية القوة الكافية لمقاومة تلك الهجمات الحماسية التي أتت من مكان لم يتوقعه أحد، وهو شبه جزيرة العرب، الهاجعة المنسية تقريباً، فهناك ظهر في عام 622م رجل مجهول كليّاً، وهو من قبيلة الهاشميين العرب المكيين، وقد هاجر محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يكن معه سوى حفنة من الأتباع، وكان قد احتك بعدد كبير من اليهود المقيمين في الجزيرة العربية، وبعدد قليل من المسيحيين الذين أقنعوه باتباع مذهب التوحيد، أي الإيمان بإله واحد فقط، وسرعان ما بدأ يهدي قومه إلى دينه الجديد المؤسس على المبادئ والعادات والتقاليد اليهودية المسيحية، كالصلاة والصيام، والصدقات، واليوم الآخر والاعتراف ببعض الأنبياء

(1) يشير المؤلف هنا إلى إخفاق العرب في احتلال القسطنطينية، ومعلوم أن هذه العاصمة حاصرها العرب لأول مرة أيام معاوية بن أبي سفيان بجيش قاده يزيد بن معاوية، والمرة الثانية أيام سليمان بن عبد الملك بن مروان، بجيش قاده مسلمة بن عبد الملك ويعزو الإخفاق إلى النار الإغريقية التي سببت دمار بعض قطع الأسطول، والنار الإغريقية: مواد ملتهبة صنعها مهندس من أصل سوري، كانت تستمر بالالتهاب أثناء سقوطها على سطح الماء، ومن المؤكد علمياً أن النار الإغريقية لم تكن السبب الوحيد لإخفاق العرب، بل ينبغي أن يضاف إلى هذا حصانة العاصمة البيزنطية ومتانة أسوارها، وأن العرب حاصروها من الجانب الآسيوي فقط وظلت طليقة من الجانب الأوروبي، وجاء حصار هذه العاصمة والعرب لم يحتلوا بعد آسيا الصغرى، لذلك هددت طرق مواصلات جيوشهم، إلى غير ذلك من أمور، والذي ينبغي التنبه إليه هنا أن مسألة الفتح العسكري شيء، ومسألة اعتناق الإسلام من قبل سكان البلاد المفتوحة يبقى أمر آخر، فهاهم العثمانيون فتحوا أوروبة الشرقية وحكموها لمدة طويلة، لكن سكانها ظلوا على حالهم بشكل عام، والشيء ذاته ينطبق على الهند، والمثير للانتباه أن المؤلف يقدم بعض الأفكار والتفاسير التاريخية البالية، التي باتت أدنى من أن يفكر حتى بقراءتها أو الرد عليها.

والرسل المختارين، مثل إبراهيم، وموسى، وعيسى، وهذا المزيج المختلط والمشوش، والثانوي المكانة الذي لا يصلح لأن يكون علاجاً ولا يكاد يكفي لتغذية طائفة قليلة، شكل على الرغم من ذلك أساساً لدين عالمي هو دين الإسلام، الدين الذي يعترف بوجود الله القادر[1] الذي ليس له إلا رسول واحد وهو محمد رسول الله، وقد تضافرت جهود هذا الدين الجديد البسيط، الذي هيء ليناسب ويلبي حاجات العرب في الصحارى والقرى والمدن، مع النجاحات العسكرية اللامعة التي لا تكاد تصدق، مما جعل الملايين من العرب يتقبلونه عن طيبة خاطر، والحقيقة أنه لم يحرز أي نبي من الأنبياء النجاح الذي أحرزه محمد صلى الله عليه وسلم، ولم تستطع اليهودية ولا المسيحية أن تدعي إنجاز مثل تلك المنجزات التي قام بها الإسلام في ذلك الزمن القصير، فقد خضع بعد أقل من قرن قسم عظيم من العالم لحكم الله، وإن إلقاء نظرة خاطفة على الخارطة في القرن الثامن تجعل الإنسان يفكر بالنتائج الممكنة التي كان الإسلام سوف يؤثر بها على حضارة الغرب، وإذا تفحص الإنسان الدور الذي قام به العرب في تطوير وتحسين الثقافة العالمية، وموقفهم المتسامح المستنير تجاه الأقليات عندها سوف يشعر بالبهجة والسرور.

عندما توفي النبي محمد صلى الله عليه وسلم عام 632م كان دينه قد تأسس على أرض صلبة، فقد قبلت به الجزيرة العربية بشكل إجماعي واحترمته، ففي زمن قصير استولى خلفاؤه على: العراق، وسورية، وما بين النهرين، وإيران، ومصر، وشمال أفريقية، وحولوها جميعاً إلى الإسلام، وبعد سقوط المغرب الأقصى عبر العرب البحر إلى

---

(1) يتشابه هذا العرض حول الإسلام مع كتابات العصور الوسطى، ويتضمن أفكاراً تخلت عنها حتى الفاتيكان، وهذه المعلومات تدل على جهل فاضح، فمن المقرر علمياً أن الإسلام هو أول دين في التاريخ جاء بنظرية أممية كاملة، وأقل ما يمكن قوله أنه لا يحوي النظرة المغلقة والتزييف الواضح في اليهودية، ولم يقع في بؤرة مشاكل التثليث التي مزقت الكنيسة، فيه عبادات ونظام كامل للحياة، ونظرة شمولية راسخة المعالم وواضحة الرؤى، ولا شك أن تعصب المؤلف وعدوانيته واستغباءه للقارئ الأمريكي والأوروبي بشكل عام جعله يكتب ما كتبه هنا حول قيام الإسلام وحياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، عدا عن الأخطاء التاريخية فسنة 622 سنة الهجرة لا سنة البعثة.

إسبانيا حيث قهروا القوط عام 711م، وفتحوا البلاد بأجمعها تقريباً، وقد كادوا يستولون على فرنسا، لولا مقاومة شارل مارتل الذي كسرهم في معركة بواتييه عام 738[1]، وحيث كان هنالك مسيحيون أو يهود في طريقهم، كان المسلمون يسمحون لهم بحرية العبادة بسلام ما داموا يدفعون الجزية المفروضة على غير المؤمنين، إذ أن تحول هؤلاء إلى الإسلام لم يكن أمراً مربحاً أو مفيداً بالنسبة للحكام المسلمين، ولكن السكان الوطنيين الذين كانوا قد طوروا السمة الخاصة للإيمان المسيحي في أفريقيا، هؤلاء السكان استسلموا للإسلام بسرعة، فالإسلام هو دين العرب، وقد وجد لأجل العرب ووفق أمزجتهم الخاصة النوعية، وتلك النزعة من الكبرياء، واحترام النفس فيهم وطريقتهم في النظر إلى الأشياء، فلهذا يجب أن نعد الإسلام دينهم فقط، فالتحول إلى المسيحية كان عملية مصطنعة بالنسبة إليهم لا تزيد عمقاً على بشرة الجلد، أما اعتناق دين العرب فهو سهل جداً، وقد قامت اللغة والعادات القبلية البدوية بدور هام، فالإسلام هو دين الذي ينطق بلغة العرب، والقرآن يتحدث بحماس باللغة العربية، فمنذ اليوم الذي توفي به محمد صلى الله عليه وسلم حتى زمن معركة بواتييه، مضى قرن واحد وست سنوات، ولكن هذه المدة شهدت دون شك أعظم التغييرات الثورية في تاريخ العالم.

لقد كان ظهور الإسلام كارثة بالنسبة للمسيحية، فقد وقع قسم كبير من أملاك الكنيسة تحت قبضة المسلمين غنيمة سائغة، فقد وقعت ثلاثمائة وخمس وتسعون بطركية تحت الحكم الإسلامي، ومنها بطركيات هامة مثل بطركية القدس، وأنطاكية، وقرطاج وإذا قارنا مدى انتشار المسيحية مع مدى الفتوحات العربية نجد أن المسيحية أصبحت أقلية ضئيلة واقعة بين بحر الإسلام اللجب في الجنوب، وبين تلك الشعوب الأوروبية الشمالية الأوروبية غير المثقفة وغير المتحضرة، وفوق كل شيء غير المتحولة إلى الديانة المسيحية،

---

(1) لم يهزم العرب في معركة بواتييه، ولم ينتصروا، والذي حدث أنهم انسحبوا عشية مقتل قائدهم عبد الرحمن الغافقي، ومعركة بواتييه لم تغلق أوروبا الغربية في وجه العرب فهم توغلوا إلى داخلها، واحتلوا جزائر البحر الأبيض المتوسط مثل قبرص، كريت، صقلية، حتى روما نفسها احتلوها لمدة وجيزة، وأعود هنا للتأكيد على مسألة أن الفتح العسكري أمر واعتناق الإسلام أمر آخر، ذلك أن الإسلام لم يجبر أحداً على التحول إليه.

ولما كان العرب ينقصهم التدريب على المهارات الإدارية والحكم، لذلك استخدموا كثيراً من اليهود والمسيحيين لملء المراكز الإدارية في الولايات التي أصبحت الآن ولايات عربية.

في هذه المرحلة المبكرة من حياة القرون الوسطى خلق العرب عصراً من النهضة الثقافية سبقت النهضة الإيطالية حوالي ستمائة عام تقريباً، فمن بغداد حتى قرطبة، ازدهرت العلوم والفنون على مستوى واسع عال، فقد طور العرب حضارة ذات أناقة وكياسة، وصقل في كل من طرق المعيشة والثقافة بعد أن كانوا قد ربوا على قرض الشعر والمواهب الأولية وقص القصص، وهي صفة سائدة من صفات سكان الصحراء، أجادها حداة الإبل والتجار، وقد أسس العرب هؤلاء كثيراً من المدارس العالية (الأكاديميات) والمكتبات في جميع أنحاء إمبراطوريتهم، والحقيقة أن الغرب مدين لهذه المؤسسات العربية التي نقلت له الأدب اليوناني الكلاسيكي من خلال الترجمات العربية، هذا وقد سمح العرب المسلمون لليهود والمسيحيين بالاشتراك في هذه المؤسسات بشكل عرضي، وهذا شجع كتابة عدد كبير من الكتب اليهودية والمسيحية باللغة العربية، وبالعكس حتى وقت متأخر من العصور الوسطى، كان العلماء العرب يقومون بالتدريس في جامعات بافا، وباريس، وأكسفورد المسيحية، ولقد ازدهر فن العمارة في الدولة العربية منذ أول نشوئها، فجامع عمر في القدس وكثير من الأبنية الدينية والعلمانية نافست، لا بل تفوقت على الكنائس البيزنطية والرومانية والقصور، فالدين الذي كان قد أعلن حرباً مقدسة ولم يجد حرجاً في إقحام السيف لنصرة الدعوة، هذا الدين قد تطور الآن وتطور منه مجتمع جديد متحضر لطيف بعكس المجتمع المسيحي الخشن، الفظ، كما كان في العصور الوسطى (وقد استفاد هذا المجتمع كثيراً من التراث الإسلامي)، ولقد كانت الفتوحات العربية- مع ما اتسمت به من إراقة الدماء[1] - لا تقارن بالوحشية التي ظهرت في مذابح الفاندال والقوط الذين اجتاحوا ودمروا وخربوا كثيراً من الأراضي الأوروبية، فلا عجب إذ أن نرى

---

(1) كذا فمع محاولة الظهور بالإنصاف، تحدث عن إراقة دماء، فأية إراقة دماء هذه، والتاريخ لم يعرف فاتحاً أرحم من العرب، كل ما في الأمر أن العرب قاتلوا الجيوش العدوة حتى هزموها، ولم يتعرضوا للشعوب إلا بالخير والإنصاف، لأنهم خرجوا لتحريرها.

البيزنطيين الإغريق في الإمبراطورية الشرقية والمسلمين في إسبانيا وفي بغداد ينظرون نظرة ازدراء واحتقار للمسيحيين اللاتين الذين جعلوا جميع الناس يشمئزون من أساليبهم ومعاملتهم الخشنة الفظة، لقد افتقدت البابوية ذلك الدعم الذي تمتعت به تحت حكم قسطنطين وخلفائه، وهكذا اتسع الخرق بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية قرناً بعد قرن، ولم يظهر أي بابا كفؤ خلال هذه المدة عدا نقولا الأول (858 ـ 867م)، ولهذا بدأت سلطة الأساقفة المحليين تزداد بشكل محتم تبعاً لنقص العائلات النبيلة في روما، التي مارست التسلط على البابوية حتى القرن الثاني عشر، وكان كل ما تحتاجه البابوية رجلاً قوياً جديداً قادراً على إمدادها بالدعم الذي تمتعت به أيام الإمبراطورية الرومانية المتأخرة.

وأخيراً أتت هذه الحماية بشخص شارلمان ملك الفرنجة، فلقد كان إيجاد الإمبراطورية الرومانية المقدسة تحت وصاية شارلمان حدثاً وظاهرة لها أهميتها وخطورتها بالنسبة إلى العرش البابوي في روما، وبالوقت نفسه أصبحت أملاً ومشكلة، وقد قدر لهذه الإمبراطورية الرومانية المقدسة أن تعيش وتستمر حتى القرن التاسع عشر، وابتداء من تتويج شارلمان في روما أصبحت العلاقة بين البابا والإمبراطور الموضوع الرئيس في تاريخ الكنيسة في القرون الوسطى.

وأصبحت إيطاليا الآن تحت قبضة اللومبارديين، الذين كانوا قد أتوا من الشمال واستقروا في أرض أنهكها الطاعون والمجاعات وحروب القوط، وبمرور الزمن اتخذ اللومبارديون اللغة الإيطالية لغة تداولهم، والكاثوليكية الرومانية ديناً لهم، مع أن السكان الوطنيين الذين اعتادوا على الغزوات عدوهم غرباء، وقد كان في إيطاليا ثلاث مدن رئيسة وهي: روما مركز دولة البابا، ورافنا عاصمة البيزنطيين، وبافيا: عاصمة اللومبارديين، نجد البيزنطيين لا يسلمون بهذا ولا يتركون رافنا ولا فينيسيا (البندقية)، ولا نابولي، لهذا لم يهتموا كثيراً ببقية إيطاليا، وكذلك فإن المسيحية البيزنطية ما لبث أن ازدادت بعداً عن إيطاليا، وبعد بضع مئات من السنين حصل الانفصال بين الكنيستين الرومانية والشرقية، وأثناء ذلك نمت القوى العسكرية والسياسية الفتية في شمال أوربا،

وقد أثبتت هذه وجودها في بواتييه ، عندما حالت جيوش شارل مارتل دون احتلال الجيوش العربية لأوروبا ، وكان هذا الانتصار حاسماً بالنسبة لمصير وحضارة أوروبا ، مما سبب نمو وزيادة أهمية الفرنجة كقوة ضاربة يحسب حسابها ، وبعد موت الملك الفرنجي عام 768م ترك الإمبراطورية النامية تحت تصرف ولديه كارلومان ، وشارل وكلاهما كان متزوجاً زواجاً لمصالح سياسية من بنات ديزيديوس ملك اللومبارد ، ولكن روابط المصاهرة لم تكن قوية لتتغلب على طموحات الفرنجة السياسية ، إذ بعد وفاة كارلومان في سن الثالثة والثلاثين طلق أخوه ـ شارل ـ الذي أصبح مطلق القوة ـ زوجته اللومباردية ، وتزوج من هلديجارد الألمانية الأصل ، ولهذا لم يعد يمت إلى ديزيديوس بصلة القربى ، وهكذا تحركت طموحاته تجاه إيطاليا .

ومن سخرية القدر أن نجد طموحات شارل قد أمنها ديزيديوس نفسه عندما قرر هذا الزحف نحو روما نفسها ، وكان يأمل أن يخلع البابا ، ولقد هدد البابا أدريان الأول 772م اللومبارديين بالحرمان (وهي أول مرة يستعمل بها الحرمان كسلاح في يد السلطة الدينية ضد السلطة الزمنية) ، وبعدها طلب جمع المليشيا الرومانية ، ثم استنجد بملك الفرنجة شارل ، وأرسل له مبعوثاً بابوياً ، وشارل هذا هو الذي سيعرف باسم شارلمان ، وقد كان شديد الرغبة بمساعدة البابا لأن تلبية طلبه بصفته القوة الكنسية ، فرصة سانحة لدعم خطة شارلمان للتوسع ، وبعد حصار دام تسعة أشهر استولى على بافيا وأعلن نفسه ملك لومبارديا ، وفي 2 نيسان عام 774 وصل إلى روما ، وكان وصوله يوماً تاريخياً ، فقد كانت البابوية تنتظر هذا التحالف بفارغ الصبر ، فهو الذي سوف يعيد تنظيم العالم المسكوني الكنسي «Iclaseun» الذي كان تحت سلطة البابا في جميع الشؤون الدينية والكنسية ، وتحت سلطة الإمبراطور في جميع الشؤون الدنيوية ، فعرش الإمبراطور بقي خالياً لمدة طويلة من الزمن .

لم يطلب شارلمان الكثير لنفسه ، وعلى الأقل ، في أول الأمر بالذات ، فقد وسع أملاك البابا وزاد عليها ثم وعد بحماية البابا ، ولم يناقش حتى حق الإمبراطور القديم

بتثبيت انتخاب البابا، إلا أن شارلمان طلب أن يمنح حق سماع الاستغاثات والمناشدات التي ترد له من النبلاء الرومان بما فيه تلك المناشدات التي توجه ضد البابا نفسه، وقد كان لقب شارلمان هو ملك الفرنجة واللومبارديين، وأحد أشراف روما، ولهذا أصبحت إيطاليا جزءاً من الإمبراطورية الكارولنجية بشكل فعلي، وبعد إخضاع الشمال في السنوات التالية أصبح شارلمان حاكماً لجزء لا بأس به من أوروبا يمتد من الحدود الإسبانية في جنوب فرنسا حتى أملاك القبائل السكسونية، والتشيكيين، والكرواتيين وبالإضافة إلى ذلك حدثت مفاوضات مع البيزنطيين بخصوص وضع البندقية وساحل دالماشيا، وهذه المفاوضات خففت من إمكانية حدوث مشاكل وتهديدات متصلة بين الطرفين في المستقبل، ونتيجة لهذه التطورات وضح وضع البابا تماماً.

توفي البابا أدريان أول عام 795م، وانتخب بابا جديد هو ليو الثالث (795 ـ 816م)، ولكن نظراً للفوضى المستحكمة في روما في ذلك الزمن، ووضع البابوية المقلقل وغير المستقر، قام مؤيدو أدريان المتوفى بخطف البابا الجديد عندما وجدوا أنه يختلف في سياسته عن البابا المتوفى ونقلوه إلى دير القديس (إيرازموس) وعاملوه معاملة في غاية الوحشية والسوء، بحيث أصبح عاجزاً عن النطق والرؤية تقريباً، ولكنه عمد إلى الهرب، وبعد رحلة محفوفة بالأخطار، وصل إلى قلعة شارلمان في بادربون Baderboin وقد اشتد غضب الإمبراطور عند سماعه ما حدث للبابا، وتعهد بحمايته، ودخل إلى روما على رأس جيش، عندها بدل خصوم البابا (ليو) موقفهم المبني على العنف، واتخذوا موقفاً جديداً أساسه المطالبة بالاحتكام، وذلك الحق الذي كان شارلمان قد أمنه لهم، ووعد به كما ذكرنا آنفاً، بعدها عقد مجلس اتهم خصوم ليو البابا باللا أخلاقية واليمين الكاذب، والحنث باليمين، وعندما أشار أنصار ليو إلى المبدأ القائل بعدم جواز محاكمة البابا، من قبل أية سلطة مادام أنه هو ممثل المسيح، نهض ليو بنفسه وبحركة درامية أمسك بالكتاب المقدس وأقسم أنه بريء، وهكذا انتهت المحاكمة ورضي الفريقان بهذا الوضع الذي إن دل على شيء فهو يدل على خضوع البابا، مع أنه لم تتخذ أية إجراءات رسمية في هذا المجال، وعد هذا الحل حلاً بارعاً بديعاً.

وبعد سنتين حدث حادث درامي آخر كانت له نتائجه العميقة في المستقبل بالنسبة لتاريخ البابوية وقد تم هذا الحدث أثناء القداس الإلهي في بازليكا القديس بطرس في روما، حالما ركع الإمبراطور أمام المذبح وهو يبدو غارقاً في صلاته إذا بالبابا يتقدم منه ويضع التاج الإمبراطوري على رأسه، ومع أنه من الصعب أن نصدق أن شارلمان لم يكن على علم مسبق بهذه المناورة السياسية، إلا أنه يبدو أن المؤرخين متفقون أن هذا العمل كان مفاجأة لشارلمان، وسواء أكان مفاجأة أم لا، فالحقيقة أن ملك بلاد الفرنجة قد أصبح إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة، وهكذا حيا الأساقفة والنبلاء شارلمان بحماس، وهنؤوه وهم يشهدون هذا المشهد عن كثب، وعليه أعلن على الملأ: «إن شارل أوغسطوس المتوج من قبل الرب قد أصبح الإمبراطور العظيم المسالم للرومان، وليعيش حياة ملكية بالنصر والظفر»، وهكذا أصبح شارلمان رجل المسيحية الغربية الأوحد، ليصبح داود الجديد، والرجل الذي اختاره الرب وكرسه مرشداً لشعوب المسيحية في مدينة الله على الأرض (تاريخ كمبردج للعصور الوسطى) أما مؤرخ شارلمان الخاص فقد لقبه: «بالسيد والأب والملك والكاهن والزعيم المرشد لجميع المسيحيين»، وهكذا بزغ عصر جديد.

إذا أخذنا المقاييس الحديثة فإننا نعد شارلمان الملك الجديد مركباً من المتناقضات: حقاً إنه افتتح عصراً جديداً من العلم والمعرفة ندعوه «عصر النهضة الكارولنجية»، إلا أن هذا الإمبراطور لم يحسن القراءة حتى وقت متأخر من حياته، وحتى ذلك الوقت لم يحسن القراءة تماماً، وكان مسيحياً تقياً ورعاً، ومع ذلك فلم يكن يتورع عن استعمال السيف لتحويل الناس إلى المسيحية قسراً، وكان لين العريكة، حسن الأخلاق ومع ذلك ففي يوم واحد وفي مدينة فيردين على الالير Verden on the Aller تسبب في موت خمسة وأربعين ألف رجل سكسوني بتهمة الخيانة، ولكن بالنسبة لمقاييس العصور الوسطى، لم تعد هذه الأمور تناقضات إذ كانوا يعدون أن كل ما يصدر عن القديس والفارس والراهب والمحارب يعد مغتفراً، ومن الأمور المحترمة التي لا يجوز التصدي لها، أو حتى نقدها، أما المستنيرون حينها فكانوا يقولون إنه لأمر بغيض كريه مستهجن أن يجبر السكسون، والاسكندنافيون على قبول مذهب الصليب، ويقولون إنه كان من الأفضل اللجوء إلى المبشرين بالدين وإلى

الأتباع ذوي المصالح الذاتية، وكان من الواجب استعمال الإقناع، وليس القوة والوحشية في هذا السبيل، ولكن هذه الأمور لم تكن ذات بال أو خطر بالنسبة لشارلمان، فكما عد قسطنطين المسيحية وسيلة للمحافظة على تماسك الإمبراطورية الرومانية، هكذا تبنى شارلمان الخطة نفسها لحل مشاكله العسكرية مع السكسونيين الجامحين العنيدين، وذلك بتحويلهم إلى الديانة المسيحية بالقوة، فالديانة المسيحية لم تنم وتترعرع في أوروبا في ظل جلال ووقار الرسول بطرس، بل نمت وعظم أمرها في ميادين الحروب.

وهكذا أصبح شارلمان منظماً ممتازاً لا بل حتى مصلحاً للكنيسة (مع أن إصلاح الكنيسة كان سيأتي من داخلها، إلا أن بداية الإصلاح بدأت على يدي شارلمان وبناءً على إصراره)، والحقيقة أن هذا التدخل له أسباب مادية وجيهة، فأملاك الكنيسة قد تضخمت زمن غريغوري، وكانت بحاجة إلى أكثر من شخص واحد لإدارتها، لذلك عمد شارلمان إلى تنصيب نفسه قيماً على ممتلكات الكنيسة، ولكنه اصطدم بقضية أكثر إلحاحاً وهي معالجة الفساد الداخلي في الكنيسة، إذ أن الأساقفة كان قد سمح لهم بالاستقلال الداخلي في الكنيسة، لذلك أصبحوا شديدي الحرص على زيادة مدخولاتهم المادية، ولقد أظهر بعضهم إسفافاً باستعمال الوسائل الفاضحة في هذا السبيل، فقد عمد بعض الكهنة والأساقفة الجشعين لانتهاز فرص تعوزها اللياقة والحكمة وذلك باستغلال توقير وافتتان بعض الناس بآثار القديسين، إذ اعتقدوا أن هذه الآثار قادرة على شفاء كل الأمراض، ولهذا فقد شجع هؤلاء الكهنة العائلات الفقيرة للتضحية بكل ما يملكونه من مال لشراء ما يستطيعون شراءه من البقايا المقدسة، وهكذا أهملت شؤون الفقراء وأصبح الكهنة يتقاضون الأموال الطائلة لقاء الخدمات الشخصية البسيطة، دونما شفقة أو رحمة، ووجدت أموال الصدقات للكنيسة طريقها إلى جيوب الاكليروس بدلاً من توزيعها على الفقراء، وأهمل القداس الإلهي، وأصبح الكهنة يتفوهون بكلمات لا معنى لها أثناء القداس، ولم يكن أحد يبالي فيما إذا فهم المتعبدون شيئاً أو لم يفهموا، والحقيقة أنه لما كانت الأمية متفشية بين الاكليروس لذلك أصبح من المشكوك به أن يستطيع الكثيرون منهم أن يفهموا ما يقولونه، ولذلك ففي أثناء حكم شارلمان كان القانون الإمبراطوري

(وليس القرارات البابوية) هو الذي يصل وينفذ على جميع المستويات، وأصبحت القاعدة المتبعة تقديم الحسابات الدقيقة للبلاط، وكان على الأديرة الواسعة الثراء أن تنشئ وتبني المستشفيات، وبيوت الفقراء على نفقتها الخاصة، وكان على الاكليروس أن يساهموا في مساعدة الفقراء، وقد تجدد العمل بالقانون البندكتي الذي أهمل منذ زمن طويل، فأصبح البر والإحسان ليس من واجب العلمانيين فحسب بل واجباً على الكهنة والاكليروس أيضاً، ومهما كانت مجهودات شارلمان فعالة ومؤثرة إلا أن الكنيسة كانت لا تزال بحاجة إلى إصلاحات روحية فضلاً عن الإصلاحات الإدارية، وإلى التأكيدات الأخلاقية للقيم والفضائل المسيحية، وهذا هو الهم الأكبر الذي تنوء به كواهل رجال الكنيسة، ولقد زخر العالم المسيحي بالشواهد، فمع أن الفساد لم يكن قد تسرب إلى البابوية بعد، إلا أن ذلك سرعان ما حدث إذ أن العرش البابوي سرعان ما تورط في حالة من الفساد الأخلاقي ألقت الكنيسة على حافة الهاوية التي كانت تنتظرها، وظهر للعيان أن الكنيسة الفرنجية التي كان شارلمان حريصاً على دعمها وتقويتها، أصبحت في حالة تدعو للأسف، وقد كتب المبشر الإنكليزي بونيفيس في تقرير بعث به إلى البابا زكريا (741 ـ 752م) حول الكنيسة الفرنجية يقول: «نجد أنه في أكثر المدن سلمت الوظائف الكنسية لرجال من العلمانيين الجشعين، والكتبة الفاسقين والزناة ومديري الحانات والخمارات، الذين يعيشون حياتهم، ويتمتعون بأسلوب دنيوي صرف، ونجد بين هؤلاء بعض الشمامسة أو ما يدعون بالشمامسة الذين قضوا حياتهم منذ طفولتهم بالفسوق والزنا وعاشوا حياة مستمرة مملوءة بالقذارة، والذين وصلوا إلى مناصبهم بفضل قذارتهم، وهم مع كونهم شمامسة يحتفظون في فراشهم بأربع أو خمس محظيات مومسات أو أكثر، ومع ذلك فهم لا يخجلون ولا يتورعون أن يدعوا أنفسهم بالشمامسة، وأن يقرؤوا الإنجيل أثناء القداس، ويأتون وهم في هذه الحالة من القذارة وعدم الطهارة ويحضرون اجتماعات الإخوانيات الكهنوتية وهم يصرون على ارتكاب الذنوب نفسها فيضيفون ذنباً إلى ذنب، ومع ذلك فهم يقومون بالأعمال الكهنوتية ويدّعون القدرة على الشفاعة وتقديم القربان المقدس، والأنكى أنه في هذه الأيام ـ ويا للأسف ـ ترتفع درجاتهم يوماً بعد يوم، ويكرسون ويعلن ترفيعهم إلى مقام

الأساقفة، ولذا أتوسل إلى قداستكم أن تتفضلوا بإدانة هؤلاء وإدانة هذه الأعمال كتابة حتى يقتنع هؤلاء الخطاة ويشعروا بالخزي والعار عند استلام جوابكم الرسولي، وفوق ذلك هنالك بعض الأساقفة من هذه الزمرة الذين ينكرون صفة الزنا والفسق عن أنفسهم، إلا أنه من الثابت أنهم سكيرون ومشاغبون أو صيادون في الماء العكر، فهم رجال يقاتلون بالسلاح في المعركة، ويريقون دماء الأبرياء بأيديهم سواء أكانت ضحاياهم من المسيحيين أو الوثنيين».

أما النساء اللواتي يرتدين مسوح الراهبات فكتب بونيفيس نفسه عنهن ما يلي: «إننا سنشعر ببعض الراحة والتفريج عن العار اللاحق بنا، لو أن مجمعكم المقدس وأمراء الكنيسة أشاروا وأمروا بمنع النساء اللواتي يرتدين مسوح الراهبات من تكرار الحج إلى روما، والرجوع من هناك، لأن معظمهن يتعرضن لهتك أعراضهن، ولا يبقى إلا القليلات اللواتي يحتفظن ببكارتهن، لأنه قلما نجد أية مدينة في لومبارديا أو فرانكونيا، أو فرنسا تخلو من أعمال الغش والزنا، والعاهرات من أصل إنكليزي».

لقد كانت إصلاحات شارلمان معظمها تعتمد على القوة (مما يشبه النظام البروسي) فقد كان يطلب الإشراف التام الصارم على الحياة الخاصة للاكليروس، وأمرهم بارتداء ملابس خاصة في الكنيسة وفي الشوارع وذلك حتى يسهل ضبط أي كاهن ينغمس في الملذات في الجرم المشهود، إذا صدف وانغمس في اللذائذ المخصصة للعلمانيين، وهذا القانون له صلة بموضوع كتابنا هذا لأن نظاماً مشابهاً قد اتبع فيما بعد بالنسبة لليهود، إذ عندما لاحظت الكنيسة أثناء حكم البابا انو سنت الثالث (1198 ـ 1216) بكل استياء أن هنالك اتصالات اجتماعية جنسية بين اليهود والكفار، عمدت الكنيسة إلى ابتداع ملابس مميزة لليهود بحيث يمكن إلقاء القبض عليهم واعتقالهم بالجرم المشهود، وهكذا قرر المجمع اللاتيراني الرابع (1215م) «إنه لا يجوز ولا بحال من الأحوال أن يسمح هؤلاء لأنفسهم في المستقبل بالإفراط بالاتصالات الجنسية، ويدعون بالوقوع في خطأ من هذا النوع، ولذلك قررنا أن يخصص لباس خاص لليهود لتسهل معرفتهم على الجمهور»، وهكذا ظهر إلى الوجود الرداء الكهنوتي كما ظهرت القبعة اليهودية المدببة والشعار الأصفر.

لا نشعر أنه من الضرورة بمكان أن نصف بالتفصيل دور شارلمان في تنظيم الكنيسة وإصلاحاته، أو أن نذكر تأثير تدخلاته في الشؤون الطقوسية الكاثوليكية والموسيقا والتراتيل، فضلاً عن التعليم المسيحي في كل من المستويين الثانوي والعالي، وأصبح ما يهمنا في هذا البحث الخاص لنجعل القارئ يتعرف على المشاكل نفسها هو هذا السؤال: «لماذا قام الإمبراطور بكل هذه الأعمال ولم يقم بها البابا؟»، وهل كان حادث تتويج الإمبراطور (مع ما يبدو به من عوامل العفوية وحتى الهزلية) في ذلك اليوم الأول من أيام عيد الميلاد في كنيسة الرسول بطرس، هل كان هذا الجانب سبباً في نقل سلطة البابا ووظائفه إلى الإمبراطور الذي كان حسب الصيغة الجيلاسية هو المسؤول عن الشؤون الدنيوية فقط، وهل يا ترى خسر البابا بهذا التتويج حقوقه كرئيس وزعيم للكنيسة.

إن هذه الأسئلة ليس لها أهمية كبيرة، إذا ما حصرت في البحث في العلاقات المتبادلة بين إمبراطور معين، وهو شارلمان وبابا معين وهو ليو الثالث، فمن الواضح أن شارلمان كان ملكاً عظيماً ذا عزيمة وخيال غير عادي، وسلطة غير عادية، ومن الصحيح أيضاً أن ليو لم يكن من البابوات العظماء، فلو أن ليو توج شارلمان بعد تحليل للوضع المسيحي في القرن التاسع، ولو كان يدرك أن الإمبراطور البيزنطي لم يعد من الممكن الاعتماد عليه (فالعرش في القسطنطينية كان تحت قبضة امرأة كثيرة النزوات وهي ايرين) عندها كنا نقول: إنها ضربة معلم وإن الحبر الأعظم قد أظهر حنكته وعظمته، ولكن الحقيقة كانت أن هذا العمل إما أنه ومضة مؤقتة لا تتفق مع صفات ذلك الرجل المتوسط الذكاء والمقدرة، أو أنه من عمل وإيحاء شارلمان نفسه، ومن بنات أفكاره التي تخيلها وخطط لها ونفذها ذلك الملك العبقري العظيم.

توفي شارلمان بعد أربعة عشر عاماً من ذلك اليوم الذي توج به إمبراطوراً يوم عيد الميلاد عام 800م، وبموته انتهت الأسرة الكارولنجية عملياً، في الحقيقة إن عام زوالها الحقيقي هو عام 887م، ولكن الأعوام التي انقضت ما بين وفاة شارلمان ووفاة شارل السمين

وهو آخر ملوك هذه الأسرة، كانت أعواماً حصل بها التفسخ والانحطاط في الإمبراطورية الكارولنجية، مما شجع البابوية على فرض نفسها للدفاع عن حقوقها بحزم، ولقد بدأت مرحلة جديدة عام 962م عندما توج أوتو الأول إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة التي كانت تشمل جميع الأراضي الألمانية، ففي تلك الآونة بالذات ظهرت إلى السطح من جديد قضية العلاقات فيما بين البابا والإمبراطور، وذلك لأن هذه العلاقات كانت المشكلة الدرامية المزعجة المثيرة خلال العصور الوسطى أو على الأقل بالنسبة لوضع الكنيسة في تلك العصور، ولهذا فسوف نوليها اهتماماً خاصاً في هذا الكتاب، ولقد تأزم الوضع ووصل النضال إلى أوجه في القرن الحادي عشر بظهور البابا غريغوري السابع، وهو الذي عمل بحماس وإرادة لا هوادة فيها إلى قطع الحبل السري الذي كان يصل بين البابا والإمبراطور في تلك الوحدة الغامضة المعالم، وإلى إحلال الدكتاتورية البابوية مكان تلك الوحدة، ويعرف هذا النزاع بصورة عامة باسم مشكلة تقليد المناصب، وسوف نعالجه بصورة مفصلة في المستقبل، إنما علينا أن نعالج أولاً جذور هذا النزاع، أي النظرية الأساسية اللاهوتية والسياسية التي كانت تحدد هذه العلاقات بين البابا والإمبراطور.

إن استعمال كلمتي اللاهوتية والسياسية لوصف النظرية ربما أدخل العجب والحيرة لنفس القارئ الحديث، ففي خلال القرون الوسطى كان الفكر السياسي في معظمه مركزاً على الشؤون الدينية اللاهوتية، وقلما كانت الأفكار الدينية منفصلة تماماً (ويمكننا أن نقول: إنه حتى في قرننا الحالي وهو القرن الحادي والعشرون ليس هنالك خط واضح يفصل ما بين النظامين)، وكما يذكر القارئ: تقول الصيغة الجيلاسية: إن الله قد خلق العالم وحدة متكاملة تحت حكم أسقف روما الذي يمنح صلاحية إدارة الشؤون الدنيوية - إن أراد - الحاكم الإمبراطورية الزمني، مع التأكيد التام على دور البابا المتفوق العالي، فهو يتنازل لأنه يريد ذلك، ولأن الله نفسه، قد أمر وقدر وجود سلطتين في هذا العالم: السلطة الدينية، والسلطة الزمنية، وإن سلطة الحاكم الزمنية ما هي إلا هبة من الله، أتت من خلال البابا، لأنه هو وحده نائب الرب الذي يستطيع أن يصادق على، ويعزز حق الأباطرة في الحكم، ولما كانت

السلطة الزمنية معرضة للتورط في إراقة الدماء والفظاعات من الأوزار التي قد تنشأ عن تلك الأعمال في ميادين المعارك ، فالسيفان اللذان وهبهما الرب لبطرس هما السلطة الدينية والسلطة الزمنية ، وهما قد أصبحا في حوزة البابا ، وبموافقته فقط ، عهد بأحد هذين الرمزين من رموز القوة الإلهية للإمبراطور ، وهذا يعني أن البابا هو السيد المطلق ، وأما الإمبراطور فما هو إلا أحد أتباعه الإقطاعيين ، وأما القسم الإمبراطوري الذي يقسمه الإمبراطور يوم تتويجه في كنيسة القديس بطرس والذي تشهد عليه الكوريا والشعب الروماني ما هو إلا قسم ولاء للبابا ، وتبعاً لذلك فإن البابا الذي يهب الإمبراطور السلطة والتقدير يستطيع أن يسحب هذه السلطة ويخلع الإمبراطور من عرشه ، وهذه نقطة هامة بالنسبة لهذا البحث ، إذ أن هذه النظرية هي التي كانت سائدة ومهيمنة خلال العصور الوسطى ، وكان تنفيذها يختلف تبعاً للظروف ، إذ أن بعض البابوات كانوا أقوى من الآخرين ، وقد واجهت البابوية نفسها عدة تغييرات وتحولات تسببت بتقلص وتناقص سلطة البابا تبعاً لسلوك الرجل الذي كان يتربع على الكرسي البابوي ، ولكن روح تلك النظرية ظلت سائدة لا يعتريها الشك ، وبقي البابا ممثل السيد المسيح ونائبه على الأرض دون منازع .

لقد تتابعت الحوادث زمن الأسرة الكارولنجية لتظهر الملابسات المختلفة التي تعرضت لها هذه النظرية ، فمع أن شارلمان نفسه هو الذي بدأ بتلك السابقة القانونية ، التي أصبح الأباطرة القادمون ملزمين بها ، وهي التتويج على يد البابا ، إلا أنه وبعد بضع سنوات من موت شارلمان وجد البابا غريغوري الرابع (827 ـ 844م) نفسه ملزماً أن يذكّر الأساقفة الألمان بحق السلطة البابوية الروحية بالتفوق والسيادة على السلطة الزمنية ، وذلك بما فيه سلطة الإمبراطور ، وقد توج ابن شارلمان وهو لويس التقي على يد البابا ستيفن الثامن (816 ـ 817م) في ريمس ، بينما توج ابن لويس هذا وهو لوثير في روما ، وقد تقرر مصير هذه المشكلة زمن لوثير هذا ، وذلك لأنه عندما انتخب البابا سيرجيوس الثاني (844 ـ 847م) دون الموافقة الإمبراطورية التي اتفق عليها في مثل هذه الأحوال ، أرسل لوثير جيشاً إلى روما لإجبار البابا على تقديم الخضوع والولاء المناسب للإمبراطورية ، وقد

رفض البابا واستنكر دخول لوثير إلى كاتدرائية القديس بطرس وقال لـه بشـدة: «سـوف لا يفتح لـك هـذا البـاب حتـى تـأتي ولديـك النيـة الصافيـة والاسـتقامة بالسـعي وراء مصلحـة الدولة»، وعندها رضخ لوثير، وبعدهـا أصبـح ممثـل الإمبراطور فـي الكوريـا الرومانيـة لا يزيد عن كونه سفيراً لدى البابا، وليس حاكماً.

وفي مجمع بافيا عام (876م) أوضحت القضيـة بتعـابير لا لبـس فيـها ولا إبـهام فـي إعلان موجه إلى شارل الأصلع، الذي كان قد خلف لتوه لوثير، وأصبـح إمـبراطوراً: «لما كانت النعمة الإلهية التـي وصلـت مـن خـلال أفضـال الرسـل المقدسـين، وبواسـطة ممثلـهم يوحنا الثامن (872 ـ 882م) الحبر الأعظم والبابـا العـالمي، وأبونـا الروحـي قـد رفعـك إلـى مقام الإمبراطوريـة طبقـاً لإرادة الـروح القـدس، لـهذا فإننـا ننتخبـك بالإجمـاع حاميـاً لنـا» وعندما كان الأباطرة السكسون الذين يتوّجون في رومـا ينـالون موافقـة البابـا كـانت صيغـة العرض كما يلي: «إذا دخلت روما بعون الرب وقدرته، فإني أقسم بكل ما أوتيت من قـوة أن أعلي مقام الكنيسـة، وعلـى رأسـها يوحنـا الثـاني عشـر (955 ـ 964م)، وسـوف أسـلم مملكة إيطاليا إليه وسوف أطلـب منـه أن يقسـم أن يدافـع بكـل مـا أوتـي مـن قـوة عـن مملكـة الكنيسة، وعن أملاك الرسول بطرس».

إنه لمن الصحيح أن أملاك الكنيسة الواسعة في عدة بلدان قد أضافت قوة كبيرة لمركز الكنيسة، ولكن مركز البابا كان سيصبح هشاً يتعذر الدفاع عنـه لـولا تلـك القـوة الروحانيـة الخفية الكامنة في التقاليد الرسولية، والحقيقة أنـه حتـى فـي أيـام انحطـاط وفسـاد البابويـة، احتفظ البابوات ـ حتى غير الأخلاقيين منهم ـ بالهالة الروحانية حول وظائفهم، ممـا كـان لـه أثره على الملوك والأباطرة، فكل ما كان يصدق على الروابط الخفية للبابويـة، كـان يصـدق على مدينة روما نفسها إذ ظهر أنها تمتلك قوى فطرية لا تقدر بثمن، مع أنها قد توقفت عـن أن تكون الجوهرة التي ترصع تاج المدن والإمبراطورية، ومع أن العصور الوسطى لم تنجب فناناً مثل بيرانيسي Piranaisi يحتفظ لنا بصور عن معالم روما في القرن العاشر، كما فعـل ذلك الفنان العظيم بالنسبة لرومـا فـي القـرن الثـامن عشـر، إلا أننـا لا نعـدم المعرفـة الكافيـة

حول روما في العصور الوسطى، ولهذا نستطيع أن نصفها للقارئ، ولكن الأمر المدهش كيف أن قسماً كبيراً من المدينة الإمبراطورية قد بقي سالماً لم يمس بعد كل ما تعرضت له المدينة من نهب وسلب، ولا يزال كتاب غريغوري المعجز المؤلف من ثمانية مجلدات عن تاريخ روما في العصور الوسطى، هو المصدر الرئيس الوحيد لكل من يهمه الأمر، ولكننا نستطيع أن نسمح لأنفسنا بإلقاء نظرة سريعة على روما في ذلك العصر من العصور الوسطى، إن لم نستطع أن نمتنع ونمسك عن ذلك كلياً.

فبابوات غيتو اليهود الذين هم موضوع كتابنا هذا، كانوا أفراداً من أسرة تعمل في الوساطة العقارية أو السمسرة العقارية في روما، وكانت بيوتهم وقلاعهم جزءاً من الأبنية المعمارية الثمينة والشهيرة في المدينة، ولما كنا سوف نتبع خطواتهم وهم يتحركون في مسقط رأسهم، لذا علينا أن نتعرف على روما لنعرف أي نوع من المدن كانت هذه المدينة في العصور الوسطى، يكتب ر. و. سازرن R.W.Southern : «إن روما لا تزال تعد قلب أوروبا النابض من وجهة عاطفية، ولكنها من جهة اقتصادية وإدارية أصبحت قلباً قد توقف عن الخفقان، فالريف حولها قد أضاع معظم خصوبته الماضية بسبب قلة التروية، والمدينة أصبحت مركزاً تجارياً ضئيلاً، والجزء الأعظم من منطقة التلال السبعة استمرت كما كانت مقر الحدائق والكروم والأطلال والخرائب والفراغ، وفي داخل الأسوار التي كانت تضم حوالي المليون نسمة، تجمعت وتحلقت جماعات من السكان في القسم الأسفل من المدينة على طول ضفاف النهر، وفي الجزيرة على التيبر، ولقد كانت روما مدينة كثيرة الكنائس، إذ كان بها حوالي ثلاثمائة كنيسة في نهاية القرن الثاني عشر، وربما كان هذا العدد نفسه موجوداً قبل ذلك بقرنين من الزمان، وهذه الكنائس تعد أساس حياة روما، فالحج إلى روما كان يؤلف قوام اقتصاد المدينة، فكل إنسان في المدينة اعتمد على الحج بشكل أو بآخر، ابتداء من رجال الاكليروس الذين كانوا يقومون بخدمة الكنائس إلى أصحاب البيوت المعدة للإيجار، إلى مقرضي الأموال، إلى الوسطاء من جميع الأنواع والأشكال إلى الأرستقراطية الصغيرة التي عمدت إلى إنشاء القلاع الحصينة ضمن خرائب المدينة

القديمة، وهذه الطبقة الأخيرة كانت تفرض الأتاوات، وتكتسب الأموال التي تمكنها من العيش بكرامة، من الضياع التي تمتلكها المدينة، ولكنها كانت تهدف أيضاً للسيطرة على ثروات الكنيسة فضلاً عن ثروات العلمانيين من أهالي المدينة، إلا أن غنيمتها المنتقاة كانت البابوية، وقد كانت عائلة بيرليوني التي انحدر منها البابوات من غيتو اليهود تنتمي إلى هذه الجماعة من النبلاء».

وعلى الرغم من أن كثيراً من الآثار القديمة قد سقطت بيد الكناسين ورجال القمامة، فقد استعملت رؤوس التماثيل الرخامية كمعروضات تجارية، واستعمل الجزارون المزهريان القديمة في حوانيتهم، وجمع آخرون النواويس الثمينة المزخرفة لخزن المواد التجارية، أما الأبنية القيصرية الرومانية، فبقيت سالمة لم تمس، ومن بين هذه كان الكولسيوم، ومقبرة هدريان، ومسرح مارسليوس، وأقواس النصر الجميلة التي أقامها تيطس وقسطنطين، وحمامات كركلا، وبالطبع بقيت كثير من الكنائس القديمة ككنيسة سانتا ماريا في تراستفيري، وسانتا ماريا ماجيوريا، وكنيسة القديس بطرس، ومع أن السير على الطرق كان صعباً ومتعذراً، إلا إننا نجد مئات من الزوار من جميع أنحاء العالم يتجولون في المدينة، وهم مندهشون لما يرون من الأنصاب والآثار القديمة، وقلوبهم تتوق لأداء الصلوات مع الحبر الأعظم ونيل بركاته وغفرانه لخطاياهم، وهذا هو الهدف العظيم الذي كان يسعى للوصول إليه، كل الخطاة في العصور الوسطى.

كان السكان في روما الذين حكمهم بشكل فضفاض مهلهل مجلس الشيوخ، الذي احتفظ باسمه القديم دون أن يمارس أعمال ووظائف البرلمان، ممثلاً هؤلاء السكان الذين كانوا يتألفون من الأسر القديمة التي عاشت في روما منذ مئات السنين، وكانت روما مقسمة جغرافياً إلى ثلاثة عشر إقليماً، أما اقتصادياً فكانت مقسمة طبقاً لنقابات التجار والصناع في العصور الوسطى، وكانت هذه النقابات أول شكل اتخذ لحماية الصناع والتجار، فقد مارست خدمات نقابات العمال الحديثة نفسها، وكانت تقدم لأعضائها إعانات للمرضى ولدفن الموتى وعمل المقابر، وهذه المجموعات من العمال الفنيين

وأصحاب المهن الراقية تعد كيانات اجتماعية محافظة على أوضاعها، حيث ترى الذي يعلم ابنه أسرار المهنة التي اشتهرت بها العائلة التي تحافظ على حصر الزواج ضمن نطاق العائلة فقط، وهذه المدارس لها نظائرها Scholae Peregnorum أي نقابات «أبناء السبيل»، وأن استعمال كلمة أبناء السبيل واصطلاح غريب بالنسبة لتلك المجموعات التي استمرت في المعيشة في روما أجيالاً وأجيالاً، وبعضها كاليهود مثلاً قد قطنوا في روما منذ أقدم عصور الرومان قبل المسيح بزمن طويل، ولكن هذا الاصطلاح ينقل لنا حقيقة ملموسة وهي أن كلاً من هذه المجموعات مع أنها لا تتميز في اللباس أو الكلام أو العادات والانتماء السياسي عن الرومان الأصليين، إلا أنها احتفظت بسماتها العرقية، فضلاً عن علاقاتها ببلاد غير إيطالية، وهكذا كانت هنالك مدارس خاصة باليونان والانجلوسكسون والفرنجة واللومبارد والفريزيين والسوريين والمصريين وطبعاً اليهود، وكل من هذه المجموعات كان يعيش في حي خاص (من الواجب أن نشير إلى أن الكلمة المألوفة شول التي تعني الكنيس اليهودي القديم تذكرنا بالكلمة Schola ، وليس لها علاقة بالكلمة الياديشية Yiddish التي تعني مدرسة) وكانت السلطة الحقيقة في روما بيد تلك الأسر النبيلة التي غالباً ما كانت تنسب للإمبراطورية القديمة، وكانوا من مالكي الأراضي على مقياس واسع، وبعضها كعائلة كرمسنتي، وكونتات توسكانيا كانوا يملكون أملاكاً لا بأس بها في ضواحي روما، وكان للعائلة التوسكانية قصراً أشبه بقلعة في الجبال على بعد خمسة عشر ميلاً من روما، وهذه حقيقة ذات أهمية عسكرية، فالنبلاء هم الذين أنيطت بهم شؤون الإدارة في المدينة، وكذلك الشؤون القضائية والعسكرية، وتنحصر السلطة في هؤلاء بحاكم المدينة (الذي يعينه البابا)، وبقاضي القضاة، وقائد المليشيا وإلى بداية الإصلاح الكبير في الكنيسة، كانت هذه الوظائف الثلاثة غالباً ما تنحصر في عائلة واحدة، أما الخصومات العائلية وإن كانت تتأزم باشتراك أشخاص لهم مواقف خاصة تجاه الإمبراطور الجرماني، ولكنها كانت تقع على عواتق أفراد الطبقة الوسطى من البورجوازيين التجار وأصحاب الصنائع الذين لم يكن لهم حول ولا قوة سواء عسكرية أم

سياسية، فالمنتصر لم يكن باستطاعته نيل الثلاث وظائف العليا المذكورة أعلاه فحسب بل البابوية أيضاً، وقد مضى أكثر من قرن والبابوات ينتخبون من العائلات الحاكمة هذه حيث كانوا مجرد «ألعوبة» في أيدي إخوانهم الأغنياء، إذ لم يكن لهم إلمام بالخفايا والتدريبات اللاهوتية من أي نوع كان، وقليل منهم بدَّل أسلوب حياته بعد أن تسلم أعلى وظيفة في العالم المسيحي، وبعضهم تربعوا على عرش البابوية، وهم لا يزالون في سن المراهقة، وبعضهم استمر في الحياة كأطفال مدللين يعبثون في القاعات المقدسة في القصر اللاتيراني، وبذلك جعلوا وظيفة الأب المقدس مدعاة للسخرية، وقد تسربت إلى الفاتيكان الخليلات والأطفال غير الشرعيين، لا بل حتى القتلة والمجرمون.

ولا نستطيع أن ندرك قيمة وضرورة حركة الإصلاح التي عملت على إنقاذ الكنيسة من الورطة التي كانت قد سقطت بها، إلا إذا تفهمنا أعماق الهوة التي تردت بها البابوية، ويكتب المؤرخ غريغوري حول ذلك الفصل المخجل من تاريخ البابوية قائلاً: «ما هو هذا المجتمع، وما هي هذه الحالة، عندما نرى الأمم تتقبل الطفل كحاكم أعلى للكنيسة، ويعترف به الملوك، ولا يخجل الأساقفة أن يستلموا مراسيم تنصيبهم منه، ورموز كرامتهم، أو الأوامر البابوية الرسمية من يديه، ولقد بدا أن البابوية قد فقدت مُثُلَها اللاهوتية السماوية، وأن كرسي بطرس الأسقفي قد تحول إلى مقعد كونت، وانحدر مقام البابوية بحيث لم يعد مختلفاً عن مقام الأسقفيات التي كان الأمراء الأقوياء والعائلات النبيلة قد تسلطوا عليها، ورفعوا أقاربهم بما فيهم الأطفال الصغار إلى المناصب العليا في الأسقفيات هذه، فقد سقطت الكنيسة في الظلام الدامس أخلاقياً، وإدارياً وسياسياً وإذا جاز لنا القول إنه عندما حدثت الترتيبات والإجراءات التي نوهنا عنها أيضاً في الكنيسة، أدى ذلك إلى هجوع المسيح في سبات خفيف في الهيكل، كما يصح لنا أن نقول الآن إنه بعد أن وصلت الكنيسة إلى ما وصلت إليه من الانحدار، أدى ذلك إلى هجر المسيح الهيكل كلية، بعد أن انتهكت قدسيته ودنست، وها قد استلمه سمعان المجوسي المتغطرس الوقح «يعني السمعانية - السيمونية = بيع المناصب الدينية».

لقد بدأت هذه المرحلة المأساوية بشكل غير مباشر باستلام فورماوس (891 ـ 896م) السلطة البابوية، وكان هذا مبعوثاً بابوياً من قبل في بلغاريا، وقد أثبت أنه شخصية غريبة تستحق الدراسة، فقد كان يمثل صفات متناقضة، بل صارخة في التباين والتناقض، إذ كان أولاً رجلاً متقشفاً متنسكاً بشكل صارم، وطبق على نفسه نظاماً حازماً في حياته الخاصة بأن نذر نفسه وكرسها للصلوات، والصيام، والورع، إلا أنه كان يراقب والغيرة تملأ قلبه تلك الامتيازات البابوية، لذلك أحاط نفسه بشرذمة من الأوغاد والأنذال، ومدبري المكائد في روما، وفي طرفة عين أصبح أفاقاً سياسياً رهيباً، فقد قام بتتويج لامبرت دوق سبوليتو إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة، ثم ما لبث أن خلعه بعد عام تقريباً وتوج أرنولف ملك ألمانيا بسمات الوقار نفسها، وفي كنيسة القديس بطرس الرسول نفسها، والحقيقة أنه لم يظهر لهذين الحادثين أي أثر في نفسية فورماوس هذا سوى رضاه بتنفيذ طموحاته الغريبة، ولكن كان لهما وقع وصدى في العالم الخارجي، إذ عندما مات فورماوس هذا عام 896م ودفن بكل إجلال واحترام يليق بالحبر الأعظم للكنيسة الرومانية الكاثوليكية، خلفه ستيفن السابع (896 ـ 897م) ولا نعرف الكثير عن حياة هذا البابا، سوى دوره الذي أعد له مشهد «محاكمة الجيفة بعد الموت»، وهو المشهد الذي شهدته القاعات المقدسة في كنيسة الرسول بطرس، والذي هو مدعاة للاشمئزاز فضلاً عن الإثارة والرعب، حتى أنه يصلح كمقدمة أو استهلال غريب غير عادي لتلك المرحلة من الفسوق التي سرعان ما تبعت.

لم تستطع (ألجيترود) والدة (لامبرت) الإمبراطور المخلوع على يد (فورماوس) أن تتحمل الإذلال الذي أصاب ولدها نتيجة لخلعه، فعمدت إلى حبك مؤامرة، وخطة لا يمكن تصديقها، لو حدثت في هذه الأيام، إلا إذا شهد صحتها شهود عيان موثوقون، فبعد تسعة أشهر من وفاة فورماوس، دعي عدد من أفراد الاكليروس والنبلاء لحضور محاكمة في كنيسة الرسول بطرس، وهي محاكمة فورماوس وجلس ستيفن السابع، يلبس رداء قاضي القضاة في مقعده الملكي الطويل الفخم، يحيط به أعضاء الكوريا،

وحالما افتتحت حيثيات المحاكمة، أحضر جثمان فورماوس، الذي كان قد نبش من ضريحه، وألبس ملابس الحبر الأعظم القرمزية، ثم حمل بوقار ووضع على كرسي بطرس الرسول، وانتشرت رائحة النتن والموت وسيطرت على أجواء المحكمة، وكانت عينا الجيفة المجوفتان بعد أن سقط التاج البابوي بشكل ممجوج سمج فوق الجمجمة، كانت هاتان العينان تحملقان بالقاضي الذي بدأ بقراءة قائمة طويلة من الاتهامات لزميله وسلفه اللاهوتي متهماً إياه بالخيانة العظمى والتستر على الجريمة، والتواطؤ مع عدم الأخلاقية، ولم يحدث في التاريخ أن تعرضت أية قاعة من قاعات المحاكم لمثل هذا الاستفحال المثير، وزيادة في السخرية فقد عين محام للدفاع عن المتهم، وليقف بجانب الجثة البابوية، ثم استجوبت المحكمة عدة شهود، ولكن محامي الدفاع لم يستطع أن يسوغ أعمال البابا هذا وقد جلست والدة لامبرت في مقعد الشهود، وهي ترتجف بانفعال الشامتين، ذلك الانفعال الذي يدل على شدة ولعها بالانتقام، ثم نطق القاضي بالحكم بوقار، وأعلن إدانة فورماوس وألغيت جميع مراسيمه البابوية فضلاً عن جميع التعيينات التي أحدثها خلال السنوات الخمس التي حكم بها، وقرر القاضي قطع أصابعه الثلاث التي كان يستعملها عند إعلان بركاته البابوية على الجمهور، وهنالك في كنيسة القديس بطرس، وهي التي استعملت بمثابة غرفة الجلاد موقتاً، بترت الأصابع الثلاث من جسم الحبر الأعظم، وهكذا تم إذلال وتشويه البابا بشكل مشين مخجل، وأزيلت عن جسمه الأثواب القرمزية، ونزع عن رأسه التاج البابوي وقذف بما بقي من الجثة من النافذة ليستلمها رعاع روما الذين كانوا يصرخون ويضجون، بعد أن كانوا قد أخطروا سلفاً بما كان يحدث من عمل مروع رهيب ساخر.

بدأت كتل الجماهير بالتمايل والترنح في ألوف مؤلفة أمام أقدس بيت عبادة في العالم المسيحي، ومد أفرادها أيديهم بشوق، وهم يصرخون بنشوة عندما تلقوا الجثة وحملوها إلى مقرها الأخير لترمى في أعماق نهر التيبر، وكان هذا اليوم يوم عطلة حقيقية في روما وقد أعدت ألجيترود المال الكافي لشراء الخمور التي كانت ضرورية لذلك الشعب الهائج المائج الفاقد الإحساس، بعد ذلك العيد غير المقدس، وبعد انتهاك قدسية كنيسة بطرس الرسول.

أمن الممكن أن يوجد هنالك خير من هذا الاستهلال لتلك المرحلة من حكم البابوات التي لم تعرف لها الحشمة والتي سلطت بها الأضواء نحو تلك الزوايا المخجلة من الفساد الأخلاقي، بحيث سمح لشرذمة من النسوة بحكم روما في كل من المدينة والفاتيكان، فقد استولت ثيودورا، وهي زوجة واحد من أعضاء مجلس الشيوخ الأقوياء، وهو ثيوفيكلات، مع اثنتين من بناتها على (سانت انجيلو)، وهناك وطدن سلطتهن في جميع أنحاء المدينة، وقد تبع ذلك عهد من الفظاعات، والخلاعات، والفسق والدعارة التي ليس لها حدود، وقد ولدت ماروزيا وهي أجمل البنتين وأبرعهن، طفلاً غير شرعي وأصبح هذا الطفل فيما بعد البابا يوحنا الحادي عشر (921 ـ 935م)، وسعى البريش وهو عضو آخر من أعضاء الأسرة إلى انتخاب نفسه عضواً في مجلس الشيوخ في روما، وحكم لمدة اثنين وعشرين عاماً، ولم تكن قضية من يعتلي العرش البابوي أمراً ذا بال، لأن هذه النسوة كن السلطة الحقيقية في روما، وهكذا توقف وجود البابوية عملياً، وتوقف صدور الأوامر البابوية الرسمية، ومظاهر الخضوع والطاعة للبابا أو الأبهة والصلوات والإيمان هذه كلها أصبحت أشياء لا معنى لها، ذلك أن الشيطان جلس على عرش بطرس، وخلال الستين عاماً التي تلت موت ستيفن السابع عام 897م تولى عرش بطرس سبعة عشر من البابوات، ولم يكن يستحق منهم أحد أي احترام، اللهم إلا القليل، فمثلاً كان بين هؤلاء أوكتافيان وهو حفيد ماروزيا، الذي أصبح يعرف باسم البابا يوحنا الثاني عشر(955 ـ 963م) (بالمناسبة كان أول بابا يبدل اسمه الحقيقي عند ارتقائه عرش البابوية)، وكان في السادسة عشرة عندما ارتدى الرداء البابوي، واعترف به شعب روما طوعاً أو كرهاً، حاكماً روحياً للكنيسة، وقد قيل عنه أنه لم يدخل الكنيسة طيلة حياته إلا في الاحتفالات الرسمية، عندما كان يرأس القداس، ومع أنه لم يخطئ عند تلاوة البيانات الرسمية البابوية، إلا أنه كان كثير الخطأ في حياته اليومية، فقد عاش حياة ولد مدلل لعوب، كما كان كثير من زملائه الذين أتوا قبله والذين أتوا بعده في هذه المرحلة من مراحل الخزي والعار، ومع ذلك فقد ركع أمامه الإمبراطور الألماني أوتو الأول احتراماً للمركز أكثر منه احتراماً

للشخص الذي شغل المركز، وقد استلم الإمبراطور لقاء ذلك الاحترام تاج الإمبراطورية بعد أن نال البركة البابوية المرجوة التي لولاها لما استطاع أي إمبراطور أن يمارس الحكم، وهكذا فقد تمتع البابا بالاحترام حتى في أيام انحطاط البابوية، وهذا يعكس إيمان رجال العصور الوسطى، وخلع البابا يوحنا عن عرش البابوية فيما بعد واغتيل في النهاية، ومع هذا وجد بعض البابوات من نوعيات وسويات تختلف عن نوعيات تلك المرحلة، فالبابا غريغوريوس الخامس (996 ـ 999م) وهو أول بابا ألماني، وهو ابن عم الإمبراطور أوتو الثالث، كان شاباً في الثالثة والعشرين، ذا نوايا نقية حسنة، وحافظ على كرامته الشخصية، لكنه لم يحكم سوى ثلاث سنوات، لهذا لم يستطع أن يظهر هذه النوايا بوضوح فقد دس له السم، وهو في السادسة والعشرين، وكان خليفته أول بابا فرنسي جيربرت الأوريلي، رئيس أساقفة ريمس الذي اتخذ لنفسه اسم سلفستر الثاني (999 ـ 1003م) ولم ينجب القرن العاشر رجلاً متعدد المواهب، خلاقاً مبدعاً كهذا الرجل، فقد بدا وكأنه رجل من رجال النهضة ولد قبل زمنه في عالم كله صخب وفساد أخلاقي وركود، وقد كان رجلاً مسناً عندما استلم منصب البابوية وواجباتها، وعد هذا المنصب عبئاً ثقيلاً لا يحمل وتعرف على ثلاثة أباطرة، وكان له ارتباط وثيق بالإمبراطور أوتو الأكبر، وقد أوحى لهذا الإمبراطور وأثار في نفسه طموحاً لتجديد مجد الإمبراطورية الكارولنجية وازدهارها (رحل أوتو إلى آخن، وفتح ناووس شارلمان وأقسم أمامه الأيمان المغلظة أن يستمر في إعلاء شأن الإمبراطورية وتوسيعها، لكن سرعان ما توفي ولم يستطع أن يبر بوعده).

وفي أثناء تولي سلفستر البابوية كان يحكم بصفته رجل دولة متمكن ويحاكم بصفة عالم متفهم، وكان عقله المتفتح النشيط، مشغولاً بعلوم المنطق والرياضيات واللاهوت، والفلسفة، واشتغل على سبيل الهواية بالكيمياء والطب والفلك، وأنشأ كرة تمثل الكرة الأرضية، وساعة في ماجديبرج، ووضع أرغناً في ريمس، وكان له أصدقاء من العلماء يراسلونه من جميع أنحاء العالم، وقد اشتهر عنه أنه اشتغل بالسيما وتكشف أعماله

المختلفة وكتاباته وقراراته البابوية وترجماته، ومناظراته ومواعظه التي لا يزال قسم منها موجوداً حتى الآن، كلها تكشف عن معرفة وثقافة هائلة، ولا عجب أن يعدّه رجال الأدب (فاوست) الأصلي في رواية جوتيه وشعره الدراماتيكي وفي قصيده.

وهكذا برقت بارقة أمل في الكنيسة في حوالي نهاية القرن العاشر، وسرعان ما انتشرت وأصبحت لهباً قوياً على يد مجموعة صغيرة من الناس، كانوا يجتمعون في مكان قد نسي موقعه الآن قرب مدينة ماكون في برغنديا، وهو مكان يدعى كلوني، والحقيقة أنه لم يبق إلا القليل من ذلك الدير الرومانسيكي[1] الذي كان مركزاً لحركة الإصلاح المثمرة للكنيسة، وفي هذه الأيام يذهب الناس إلى هذا الدير لتذوق الخمور الشهيرة في تلك المنطقة ولا يعلمون شيئاً عن تلك الثورة الدينية التي بدأت هناك، والتي كما يقول بعضهم، قد وضعت أسس الدولة الجديدة، أسس ذلك الدير وليم أكويتين الذي حمل لقب «التقي»، وهو رجل عرف عنه أنه كان متحمساً، لأن تلك الروح الشريرة التي أفسدت البابوية قد انتقلت بالعدوى إلى كل دير وكل كنيسة تقريباً، وذلك عندما أصبح قصر اللاتيران داراً للدعارة وماخوراً، ومقراً للمقامرين، عندما لم يعد أحد ينتظر من الرهبان أي شيء أفضل من ذلك، فالمكتبات قد غطيت بغبار الإهمال والنسيان، ونسيت الصلوات في كثير من الكنائس، ولم تعد تسمع الاعترافات المعتادة، وإذا استشهدنا بمثل واحد فقط نجد أن دير «فارفا» قرب روما، كان يقوم بصنع وتحضير السموم، وهكذا تردت المسيحية بأسرها في مهاوي الفساد تبعاً لتردي البابوية، وأصبح من الواضح أن الواجهة المصطنعة الموجودة في روما سوف تنهار إذا لم يحدث أي إصلاح سريع.

لقد تقدم دير كلوني بالبادرة الروحية الجديدة، وكان من الواضح أن هذه البادرة لا يمكن أن تصدر إلا عن مجموعة كهذه المجموعة، من الأنصار المتحمسين والمتعصبين للدين، والذين قد انفصلوا تماماً عن الالتزامات الدنيوية وكرسوا أنفسهم لذلك الواجب

---

(1) الطراز الرومانسيكي في العمارة: هو الطراز الذي انتشر في العصور الوسطى بين فن العمارة الرومانية القديمة والقوطية الحديثة.

المقدس بإنقاذ الكنيسة، ومن ثم المسيحية، فلم يعد الزهد والتنسك والتقشف وحرمان الذات مهما كان مرغوباً به ومحموداً، لم يعد كافياً بذاته بل أصبح من الواجب تأسيس نظام أخلاقي جديد، نظام لا يحتمل أي انتهاك أو تدنيس مهما كان طفيفاً، وقد اشترطت حركة إصلاح دير كلوني أن تكون إعادة توكيد الضمير المسيحي، مرتبطة بالرب وفي الرب وجميع قديسيه، وهذا ما أثبته وليم في الوثيقة التي تعد دستور دير كلوني المعمول به، ويستطرد وليم بقوله: «أرجو وأتوسل تحت طائلة العذاب يوم القيامة، أن لا يسمح لي أمير أو كونت أو أسقف بان يتجرأ بتعيين أي رئيس لدير لا يرضى به الرهبان في ذلك الدير». وتأسس دير كلوني عام (909م) وكان رؤساؤه من نبلاء الفرنسيين، فأول رئيس له كان (بيرتو) والثاني (أودو) وهو الأهم، وكانا فرنسيين من ذوي الأصل الطيب، ازدريا طعام الدير المقنن.

وقد أسسا نظاماً صارماً لا هوادة فيه ولا لين، ومع ذلك لم يكتفيا بالعيش بصورة منعزلة في دير كلوني، بل تركا الدير ليجوبا في الآفاق من بلد إلى بلد، ومن دير إلى دير حتى بلغ بهما النجاح أن انضمت إلى مسيرتهما وخضعت إلى قواعدهما وأحكامهما حوالي ثلاثمائة وأربعة عشر ديراً في فرنسا، وإيطاليا، وبولندا، وإسبانيا، وفلسطين، واسكتلندا، وبلغ عدد الرهبان في هذه الأديرة الألوف ولم يكن هنالك سوى رئيس واحد لجميع هذه الأديرة، وهو راعي دير كلوني، أما رؤساء الأديرة الأخرى التابعة، فأصبح كل منهم يسمى الكاهن الأول، وكان أول دير أنقذاه هو دير جبل كازينو (مونتي كازينو) وهو ذلك المعقل القوي البندكتي الشهير الذي كان قد بدأ يسقط فريسة للفساد المستحكم، وكانت أهداف الحركة الكلونية البندكتية ذات ثلاثة أبعاد: النضال ضد السمعانية (بيع الوظائف الكنسية) والمعركة ضد زواج الاكليروس، والحرب ضد فجور وانقياد الرهبان للشهوة الجنسية، وإن قائمة الجرائم والآثام التي اتهم بها الولد المدلل اللعوب يوحنا الثاني عشر توضح بجلاء كم كان الإصلاح الجذري ضرورياً وملحاً، وفي عام 962 اتهم هذا البابا نفسه في محاكمة علنية باستلام الرشوات لسيامة الأساقفة وأنه عين ولداً في العاشرة

من العمر في وظيفة أسقف، وأنه اقترف الزنا مع خليلة والده، وأنه كانت له علاقات سفاحية مع أرملة والده، وإذا أضفنا إلى ذلك أن الزواج كان شائعاً بين الاكليروس (كان جميع الكهنة في أسقفية فيرونا مثلاً متزوجين)، حتى أن الكاهن المتزوج في ميلانو عد محترماً ومبجلاً، لأن الكاهن غير المتزوج، كان من المفترض اتخاذه خليلة لنفسه، ولما كانت الوظائف الكنسية العالية تشترى وتباع، عندها يمكننا أن ندرك كم كان حجم عمل دير كلوني الإصلاحي كبيراً، لقد باشر دير كلوني أعماله بحماس، وأصبح القيم والحارس الأمين على جميع المثل الأخلاقية المسيحية، ولكن مهما كانت أهمية وتأثير أعماله في الأديرة والأبرشيات، فقد كان هدفه الرئيس هزيمة البابوية، وقد احتاج دير كلوني وقتاً طويلاً وانتظر ما يزيد على مائة وخمسين عاماً، حتى انضم إلى حركته أحد البابوات ووقف بحزم إلى جانبه في حركة الإصلاح، وكذلك فقد مضى قرن آخر من الزمان قبل أن ينتهي الصراع في سبيل تنصيب رجال الدين، وهنا كانت الغلبة والنصر النهائي لدير كلوني.

وفي بداية القرن الحادي عشر أصبح رجال الفاتيكان ألعوبة بيد نبلاء روما فقد خرجت أسرة من الأسر النبيلة تدعى (تسكولاي) منتصرة في نزاعها العنيف مع أسرة كرسنتي، ولذلك انتخب سيرجيوس الرابع (1009 ـ 1012م) وهو من أقارب العائلة المنتصرة، بابا، وبعد موته ظهر أن البابوية قد أصبحت إرثاً تسكولانياً، إذ كان البابا بندكت الثامن (1012 ـ 1024م) تسكولانياً آخر، وهو الذي خلف سيرجيوس وأصبح أخوه بموافقة من الإمبراطور هنري الثاني قائد مليشيا روما، ورئيس القضاء، ومقدم النبلاء، والمسؤول عن انتخاب البابوات، وهي مجموعة مهمة من الوظائف كانت تخوِّل حاملها سلطة ونفوذاً عظيماً في العالم الروماني، ومن الغريب أن بندكت الذي انتخب على يد السلطة الغاشمة للنبلاء الرومان، قد أثبت أنه كفؤ وذو فاعلية وتقوى، فقد اهتم اهتماماً شديداً بحركة دير كلوني، وبعد وفاته انتخب أخوه روميولوس بابا، لكنه لم يكن ذا جدارة وفاعلية كأخيه، وقد اتخذ اسم يوحنا التاسع عشر (1024 ـ 1032م) وتبعه واحد

من أقربائه كان قد احتفل لتوه بعيد ميلاده الثاني عشر، وذلك حسب المصادر التاريخية للعصور الوسطى، ولكن المؤرخ الإنكليزي ريجنالدين بول يرتأي أنه كان في العشرين من العمر، ومهما يكن عمره، فإنه كان سيء الأخلاق، وهذا أمر أكيد لا شك فيه، كما أن اسمه كان بندكت التاسع.

وتنتهي بهذا البابا (بندكت التاسع) تلك الحقبة القذرة من تاريخ البابوية، بعد أن اجتمع في هذا البابا الشاب غير الناضج، الفاسق جميع ما احتوته كل تلك المرحلة من فساد وفسوق، ويقول المؤرخ غريغورفيوس: «يبدو وكأن شيطاناً متخفياً بصورة كاهن، قد احتل كرسي بطرس الرسول ودنس مقدسات الديانة بأعماله الوقحة، فقد كان هذا البابا يعتمد على حماية أخيه غريغوري، الذي كان يحكم المدينة بصفته عضواً في مجلس الشيوخ الروماني، وقد مارس حياة سلطان تركي في قصر اللاتيران، دون أي رادع أخلاقي، وملأ هو وأخوه روما نهباً ورعباً، وقتلاً وتعطلت جميع الأحوال القانونية».

ومع أن أهالي روما كانوا قد اعتادوا على (لا أخلاقية البابوية) وعلى روح الفظائع في أوساط الأسر النبيلة، إلا أن الأعمال التي ظهرت زمن البابا بندكت تجاوزت حدود المحتمل، لذلك حدث أنه بينما كان البابا راكعاً أمام المذبح في إحدى وقفاته التقية الورعة النادرة، حاول أحد القتلة الاعتداء على حياته واغتياله، ومن المحتمل أن يكون هذا القاتل دفع من قبل أسرة الكريسنتيين، لكن هذه المحاولة لم تنجح بل شجعت الإمبراطور كونراد، وجعلت له عذراً للظهور في روما لدعم البابا الذي لم يعد يتمتع بأي شعبية، وكان هذا الإمبراطور تواقاً لإعادة علاقاته الودية مع أسرة التوسكولاني الموالية للألمان، ولم يكن لديه كبير اهتمام بشؤون الكنيسة الداخلية، ولكن نجاة البابا بندكت بمعجزة من القتل أضافت إلى مواد الشائعات التي تقول: إن البابا لم يكن به مس من الشيطان فحسب، بل من المحتمل أنه ملك القوى السحرية الموجودة في الشيطان نفسه (قيل مثلاً أنه كان يغري الفتيات العذارى، بالذهاب إلى الغابات حيث كن يقعن بفضل سحره فريسات لنزواته الجنسية النهمة التي لا تشبع) وفي عام 1044م لم يعد باستطاعة الشعب تحمل هذه الحالة

الفظيعة، فثار ضد بندكت، واضطر هذا للاستسلام، ولكن لمدة من الزمن، وانتخب سلفستر الثالث بابا، ولكن حكمه لم يدم سوى تسعة وأربعين يوماً عندما قامت المليشيا التوسكولانية وطردت هذا البابا من الكرسي الرسولي، وأرجعت بندكت إلى السلطة، وقد رجع هذا إلى منصبه دون الشعور بالندم أو الأسف، ولم يكن مستعداً لتغيير طريقة، وأسلوب حياته الماضية.

وفي حوالي نهاية ذلك العام نفسه قام بندكت بأفظع حركة من حركاته المروعة، فقد أشاع أنه يرغب بالزواج من ابنة عمه الجميلة، وناقش هذه القضية مع عدد من الناس كان من بينهم عرابه، الشماس الأعظم في كنيسة القديس يوحنا الواقعة في البوابة اللاتينية، وكان هذا الرجل مشهوراً بحسن سلوكه وأخلاقه بإجماع الروايات، فقد وصفه المؤرخ فهلث مالمسيري الذي عاصره بأنه «رجل متدين شديد التقوى والإخلاص»، ويهمنا شأن هذا الرجل كثيراً وسنوليه عظيم العناية في هذا الكتاب، وذلك لأن اسمه كان اليونيس جراتيانوس بيتري ليونيس، أي: «يوحنا جراتيان بيرليوني» وهو أول بابوات آل بيرليوني أو أول بابا من الغيتو اليهودي.

لا نعلم بالتأكيد نوع القرابة التي وجدت بين يوحنا جراتيا وآل بيرليوني ويقول بعض الباحثين الحديثين، إن يوحنا هذا هو ابن باروخ، ومهما كانت الأقوال والتكهنات والفرضيات ليس هنالك من شك أن يوحنا كان بيرليونياً صميماً، وكان قد اعتنق الديانة المسيحية في وقت مبكر قبل أن يتحول أفراد أسرته الآخرين، غداة ذلك اليوم من أيام عيد الفصح في كنيسة القديسة مريم في تراستفيري 1030م، وكما كان باروخ قد اختار اسم بندكتوس فقد رأينا هذا اتخذ اسم (يوحنا جراتيان) عند عملية التحويل، وأما اسمه اليهودي فيجب أن يكون يوشعنان، إذ أن يوحنا جراتيان هي ترجمة حرفيه لهذا الاسم.

في هذا الوقت كان يوحنا جراتيان قد بلغ السبعين من العمر، ويمكننا أن نتخيل بندكت الشاب يتقدم من عرّابه المسن المجرب يستشيره حول قضية حب وزواج، وهي قضية ذات أهمية كبيرة بالنسبة لبندكت لأنه في حالة زواجه، كان عليه أن يتنازل عن حقه في

العرش البابوي، ذلك المركب الذي تردد الشاب بندكت في ركوبه، وهو على ما هو من الفساد الأخلاقي، لكنه أخيراً تنازل عن حقه في العرش البابوي، والحقيقة أن الظروف التي أحاطت بالتنازل لا تقل غرابة عن التنازل نفسه، لأنه قد نمي إلينا عن طريق أحد الثقات أن يوحنا جراتيان قد دفع الأموال لإقناع بندكت بالتنازل عن العرش، ولانتخابه أي يوحنا لذلك المنصب بدلاً منه، وبالنسبة لبعض المعلقين نرى أنه قد وجد نوع من التلميح أن تلك الأسرة اليهودية قد اشترت أعظم منصب في الكنيسة لأحد أبنائها، إرضاء لطموحاتها المتأصلة، والتي ظهرت ابتداءً من ذلك الوقت الذي اعتنقت به هذه الأسرة الديانة المسيحية، قبل حوالي جيلين من الزمان، وقد قدر ذلك الثمن الذي دفعته بمقدار يتراوح بين 1500 ـ 2000 رطلاً من الفضة، وهو مبلغ كبير بالنسبة للقرن الحادي عشر، ويساوي حوالي 6000 جنيه إسترليني، حسب تقدير المؤرخ بول، ومن الواضح أنه لم يكن بإمكان أي رئيس شمامسة، في أي كنيسة رومانية، أن يمتلك مثل هذا المبلغ الكبير من المال، ما لم يكن قد ورثه، أو كان له علاقة قرابة ذات ثراء فاحش، ولم يكن هذا الأمر له أهمية بالنسبة ليوحنا جراتيان، فقد كان بيرليونياً وواحداً من أقارب تاجر وافر الثراء يسكن في المنطقة وراء نهر التيبر، والتي كانت هي الغيتو اليهودي في المدينة، وسواء دفع يوحنا المبلغ ثمناً لنيل منصب البابوية، أو كما يفترض بعض مؤرخي العصور الوسطى دفعه تعويضاً لبندكت عما صرفه من أموال، كل هذا سوف يبقى من الأسرار إلى الأبد، والمهم هنا أن يوحنا جراتيان تمتع بأخلاق حسنة وشخصية محترمة وورع، حتى أنه من الصعب علينا أن نحكم عليه إلاَّ من خلال دوافعه النبيلة في إجراء تلك الصفقة، وقد مضى عليه زمن خدم فيه كنيسة القديسة مريم على الأفنتين، وهو دير عرف عنه النظام والميول الكلونية، وكان يوحنا يميل إلى الإصلاح، وفوق ذلك فإن معظم أفراد أسرته وهم من لحمه ودمه كانوا منذ أول ظهورهم الممولين والمستشارين الماليين للبابوات المستنيرين، ولذلك لم يكن الجشع والطمع هو ما شجعه لدفع تلك المبالغ الطائلة، فقد سعى ليصبح أسقف روما لأنه عدّ أن مهمته وواجبه خدمة مبادئ دير كلوني، وأن ينهي تلك المرحلة من العار والانحطاط،

وهكذا اتخذ لنفسه اسم غريغوري السادس، وأصبح في عام 1045م أول بابا من الغيتو اليهودي، وبارك دير كلوني انتخاب يوحنا جراتيان بيرليوني لمنصب البابا، وقابل هذا الحدث بالسرور والغبطة ورحب بذلك الانتخاب، وعدّه نصيراً للإصلاح، ومهما عدّ دفع النقود فيما بعد من قبل رجال الدين في دير كلوني لم يعدوا ذلك إثماً، أو عملاً مستهجناً، وقد كتب هوارس، ك. مان حول هذه القضية يقول في كتابه: «حياة البابوات في أوائل العصور الوسطى»: «احتاجت الآثام العظيمة علاجاً قاسياً» ثم استطرد قائلاً: «كان يوحنا جراتيان يأمل بعد أن دفع حفنة من المال أن يتزوج بندكت قريبته التي اختارها وأرادها لنفسه، ويستقيل من ذلك المنصب الذي دنسه، وقد طلب أوديلو راعي دير كلوني وكان من معاصري يوحنا جراتيان في رسالة أرسلها إلى الإمبراطور، في شهر تشرين الأول عام 1047م: «أن يهتم اهتماماً شديداً بالكرسي الرسولي الأسقفي في روما، فلا يجوز للشخص الذي دفع الكثير (جون جراتيان) أن يخسر كل شيء، لا يجوز أيضاً لبندكت الذي أخذ كل شيء أن يربح ويمتلك كل شيء»، وهنالك رجل معاصر آخر، وهو بطرس دامين، وهو الناسك المشهور في «مونتي فيلانا»، وكان قد عاش عيشة كلها ندم وتوبة، وكبح لجماح النفس، وفي زمنه كان النساك يرابطون في صوامعهم (قلاياتهم) أكثر من عقد من الزمان، ويخضعون أنفسهم لأقصى أنواع الأنظمة وأشدها، وكانوا يصومون ثلاثة أيام في الأسبوع ويتغذون على الخبز والماء فقط، ولا يسمحون لأنفسهم بتناول الفطائر الدسمة إلاَّ يوم الأحد فقط، وكانت هذه الكفارات وأعمال أخرى مشابهة هي من النماذج والنظائر السائدة للإصلاح الأخلاقي الذي ابتدعه دير كلوني، ولم يكتب بطرس دومين رسائل التهنئة المدبجة الجميلة دون أسباب وجيهة، فعندما علم بتنازل بندكت، وتولي غريغوري السلطة المقدسة، كتب بطرس هذا إليه يقول: «إلى غريغوري البابا العظيم القداسة، يقدم بطرس الراهب المذنب، إليه الإخلاص والخضوع الكلي، وإني أتقدم بشكري وامتناني للمسيح ملك الملوك، وإن لدي الرغبة لسماع كل الأخبار الجيدة حول الكرسي الرسولي، وإن أنباء الثناء عليكم التي يرددها الكثيرون والتي بلغتني، قد

أثلجت صدري ومست شغاف قلبي، ولقد أسكرتني الفرحة وأصبحت كما لو أني قد تناولت شراباً له نكهة لا مثيل لها، وفي غمرة سروري صرخت قائلاً: المجد لله في الأعالي وعلى الأرض المحبة، والسلام للرجال ذوي النوايا الحسنة، ولتفرح السماء ولترقص الأرض حبوراً، ولتهنئ الكنيسة نفسها، لأنها قد استعادت حقوقها القديمة وليبتعد سمعان مزيف النقود عن الكنيسة، ولتعد أمجاد الرسل تحت رعايتكم الخيرة العاقلة، وليزدهر النظام السماوي، وليكبح جماح أطماع أولئك الذين يطمحون إلى السيطرة على حكومة الأساقفة، وليصب الخزي والعار صرافي الأموال والمرابين وحساباتهم»، بهذه الثقة الكبيرة والآمال العراض، بدأ غريغوري حكمه وقد انتخب على يد شعب روما، مع أنه لم يحز على تثبيت الإمبراطور هنري الثالث، وهكذا استلم غريغوري مقاليد السلطة وصار أسقف روما، وكانت خزينة البابوية خالية الوفاض، والأبنية التي هي الأمانة المقدسة للأمة المسيحية، في حاجة للإصلاح، فكنيسة الرسول بطرس قد أهملت منذ مدة طويلة، حتى أصبح من الخطر إقامة أي قداس فيها، وكانت القلاع المجاورة للفاتيكان تحت سلطة طبقة من النبلاء لا همَّ لهم إلاَّ جني المكاسب المادية والثروات لأنفسهم، وكانت الطرق المؤدية إلى روما مبتلاة بقطاع الطرق واللصوص، والحجاج يعدون أنفسهم محظوظين إذا وصلوا إلى روما سالمين، أو بقي معهم أي شيء من النقود لينفقوه في شراء القرابين، ولا غرابة في هذا فلطالما سرقت التقاديم والنذور التي وضعت على مذبح القديس بطرس، واختطفت من فوقه، ووصلت إلينا وثيقتان تحملان وصفاً فيه شيء من الدقة لسيرة حياة غريغوري السادس، وقد حفظت بعض الرسائل التي كتبها طالباً المساعدة لإنجاز الواجبات الملحة، ولكن لم يذكر فيها خبر صدور أي مرسوم بابوي، ولا أي أمر رسمي أو أي إرادة بابوية، أو أي منشور بابوي، وربما لم يصدر أي شيء من هذا القبيل لأن كل ما كان يهتم بفعله، كان إزاحة النفايات وإزالة تلك الأنقاض، المتراكمة التي تركها البابوات السالفون، مع الاهتمام بالمبادئ الروحانية العالمية، ولم يكن هنالك من إنسان يتطرق إلى ذهنه الشك بنزاهة هذا البابا، وتمسكه بالمبادئ اللاهوتية لدير كلوني، وقد جاء حوله في كتاب «تاريخ

كمبردج للعصور الوسطى» ما يلي : «من المحتمل أن البابا غريغوري ، يهودي الأصل ، وكان الجميع يعرفون ذلك» ، ولكن أول أعماله كانت إعادة ترميم الأبنية ، وقد أتته بعض المساعدات من أكويتانيا ، ولكنها لم تكن كافية ، ولذلك اضطر أن يعتمد على الأموال البيرليونية في سبيل إعادة بناء الكنائس وقصر اللاتيران ، وكان قطاع الطرق قد احتلوا بعض القلاع المحصنة المحيطة بالفاتيكان ، وهكذا أصبح من الواجب استعمال القوة لإبعادهم عنها وطردهم منها ، وأصبح هذا ممكناً بمساعدة المليشيا البيرليونية ، بالإضافة إلى القوة العسكرية التي كانت تابعة للبابا .

لاشك أن هذا الرجل الطاعن في السن قد ارتجف فرقاً أمام تلك المصاعب التي جثمت أمامه ، فقد كان بندكت التاسع الذي استلم منه هذا البابا السلطة ، لا يزال في روما ، ولما لم ينجح هذا في مشاريعه الزواجية أصبح يتوق للرجوع إلى مركز البابوية ، إذ أنه لم يعزل رسمياً من وظيفته ، وفوق ذلك فإن سلفستر الثالث الذي حكم لبضعة أسابيع بعد الثورة التي قامت ضد بندكت ، كان هو الآخر لا يزال ينتظر فرصته المواتية في إحدى القلاع خارج روما مستعداً للمطالبة بالبابوية ، عندما تسنح له الفرصة المناسبة ، وهكذا ليس من الخطأ أن نقول : إنه كان هنالك ثلاثة بابوات يحكمون بالوقت نفسه ، بل الصحيح أنه كان هنالك مطالبان طموحان ينتظران فرصتهما للوثوب على العرش البابوي .

في هذه اللحظة الحرجة غادر هنري الثالث ، ذلك الإمبراطور الذي لم يكن قد توج بعد ، غادر ألمانيا على رأس جيش كبير وعبر «برنر» متجهاً إلى إيطاليا ، وهناك عقد مجمعاً كنسياً في بافيا ، بعدها تقدم إلى بيسانز ، وهي ليست بعيدة عن ميلانو ، وشكلت بيسانز معقلاً من المعاقل اللومباردية القديمة ، ومركزاً من المراكز الأسقفية (ولم يبق بها من جميع الأبنية القديمة التي ترجع في تاريخها إلى القرن الحادي عشر إلاّ كنيسة سان سافينو الرومانسيكية) ولا يعرف بالضبط أين عقد الإمبراطور بلاطه ، وعلى كل حال وصل البابا غريغوري إلى بيسانز للترحيب بالإمبراطور ، وتقديم بركاته له ، وقد استقبل البابا استقبالاً محترماً يليق به ، وهذه حقيقة يجب أن تؤكد وذلك بالنسبة للحوادث التي ستلي ، ولا

يعرف فيما إذا كان البابا قد بقي مع الإمبراطور بعد الاستقبال الرسمي ، ولكن يمكننا أن نفترض أنه قد عاد إلى روما ، في الوقت الذي استمر فيه الإمبراطور ومنافسوه [أي البابا] يتناقشون حول الوضع في روما ، كل ذلك في أثناء غياب البابا هناك ، وإن كلمة الوضع في روما لم تشتمل على مجرد الفوضى في البابوية التي تبعت تنازل بندكت عن العرش فحسب بل أيضاً السعي للسيطرة التامة على الأسر النبيلة المتنافسة ، مما أدى لفقدان الأمن والانحطاط الاقتصادي والأخلاقي ، وكان الأمر الأهم هو الاعتراف بدور الإمبراطور ، لأنه بدا وكأن روما قد نسيت أن البابا يجب أن ينتخب من قبل الرومان بمعرفة وموافقة الإمبراطور ، ولهذا فإن انتخاب غريغوري كان بمثابة تحدٍ لسلطة هنري ، ويبدو أنه ليس من العدل أن نعزو الحوادث التي تلت لمجرد الطموحات والتفاهات الإمبراطورية ، فقد كان هنري الثالث نفسه رجلاً شديد التدين وكانت زوجته أغنس Agnes من المتحمسات لمبادئ دير كلوني ، وكان هذا الإمبراطور يرى أن الكنيسة لا يمكن إنقاذها إلاَّ بالإصلاح الفوري الكامل ، وهكذا أصبح يعمل طبقاً لهذه الحاجة ، ولم يكن دقيقاً فقط بل حتى موسوساً في أمر اختيار أصحاب المراتب الدينية ، وكان مستعداً للتضحية بالمصالح المادية لخزينته ، ومع أن بيع الوظائف الدينية كان معترفاً به لدى أسلافه كمصدر من مصادر الدخل في الدولة ، نجده قد حارب هذا المبدأ حرباً لا هوادة فيها بروح رهبانية ، لاجتثاث هذا الشر من جذوره ، وكان مولعاً بالصيام والصلاة ، وقد ظهر في القداس الذي تلا انتصاره على الهنغاريين ، وهو حافي القدمين يرتدي الملابس الخشنة وأردية الحجاج الصوفية الخشنة ، وعندما أدخل إلى الكنيسة ، وعاءً يحتوي على بقايا من صليب الصلبوت ، وهو أحد الآثار المقدسة ، إذا بالإمبراطور يخر راكعاً ثم يسجد على الأرض بروح من التذلل والتوبة ، وفي الصحيفة المصورة بالألوان من كتاب مجموع أوريوس Codex aureus المحفوظ في مكتبة الاسكوريال قرب مدريد ، يظهر هذا الإمبراطور على شكل شاب ملتح يحمل الكتاب المقدس بخشوع تام ، وقد كان صغير السن حقيقة ، فقد كان في الحادية والعشرين عندما توفيت زوجته ، وفي التاسعة والعشرين عندما عبر جبال الألب ، ومع أنه أظهر منتهى

الخشوع والبساطة في تعامله مع دير كلوني والكنيسة، إلاّ أنه أظهر إصراراً على الاحتفاظ بامتيازاته في المسائل الأخرى، وفوق ذلك فقط رفض الرأي الجديد الذي كان يحبذه دير كلوني، وهو أن قسم الرهبنة يتضارب مع عهد الولاء للملك، وأصر على ضرورة تبعية الرهبنة للملك، وكان مقتنعاً أن مسؤوليات الحاكم الروماني ورئيس الكهنة، يجب أن تكمّل الواحدة منها الأخرى، وأنه لا يجوز حدوث أي نزاع بينهما، هذا ولم يجرؤ أحد من دير كلوني أن يتصدى لمناقشة أقواله، لأن الجميع اقتنعوا بإخلاص هذا الملك الألماني وتكريسه كل ما لديه من قوة لمصلحة الكنيسة، هذا هو إذن هنري الثالث، رجل شاب متحمس وتقي، غادر بيسانز وكله عزم وتصميم على إعادة تنظيم البيت البابوي في روما، وقد تأثر الناسك ويبرخت، عندما صب جام غضبه على أولئك الرومان الجشعين، الذين لم يتورعوا عن عرض الكرسي الرسولي نفسه للبيع في روما، فوقفت حاشية الإمبراطور وجيشه على بعد ستة وثلاثين ميلاً شمال روما في سوتري التي لا تزال تحتفظ بكثير من الآثار القديمة الرومانية حتى الآن، وتربض هذه المدينة بشكل فاتن يشبه صورة رائعة على تلال تتخللها وديان عميقة، وقد بقيت أسوارها سالمة، دون أن يصيبها أي ضرر، واستخدمت كاتدرائية سوتري مكاناً لاجتماع المجمع الكنسي الرسمي الذي افتتح في أوائل تشرين الثاني، وقد دعي إليه البابا غريغوري السادس، الذي وصل على رأس البطانة البابوية المعتادة، ولا نعلم فيما إذا كان قد أبلغ سلفاً ببرنامج الاجتماع إذ لم تصل إلينا أية تفاصيل عن وقائع الاجتماع، إلا أن الحقائق المجردة أصبحت معروفة، ففي بداية الجلسة، خاطب الإمبراطور الأساقفة بهذه الكلمات الصارمة الشديدة اللهجة: «إنه ليحزنني أن أتقدم بنفسي بهذا الخطاب لمثلي المسيح في الكنيسة، إذ أنه حالما عمد السيد المسيح، وبمحض إرادته وفضله إلى القدوم لتخليصنا وفدائنا، لهذا قال: عندما أرسلكم إلى جميع أنحاء العالم كما استلمتم كل شيء دون مقابل، عليكم أن تعطوا كل شيء دون مقابل، ولكن ظهر أنكم أنتم يا من ينتظر منكم أن تمنحوا الناس ما وهبكم الرب دون مقابل، قد أفسدكم الجشع فوقعتم في الخطيئة والإثم في معاملاتكم، سواء في الأخذ أو

في العطاء، ولقد استحققتم لعنة الآباء المقدسين ابتداء من البابا حتى أصغر حاجب في الكنيسة، وأصبحتم مثقلين بالآثام والذنوب».

من الواضح أن هذا الخطاب، كان موجهاً إلى البابا غريغوري، ولكن ما حدث بعد إلقاء الخطاب، لا يزال غير مفهوم تماماً، وقد دعا المؤرخ بنيزو البابا غريغوري الأبله المعتوه، أو على الأقل، المغفل، بينما ذكر الآخرون أنه كان رجلاً خالي الذهن، ولم يكن يعلم أبداً أنه قد اقترف أي ذنب، ونقرأ فيما كتبه ميجن: «ولكن عندما وصل غريغوري إلى هناك وبدأ المجمع بمناقشة القضية تبين له أنه غير قادر على تفادي أو تدبر الأمر إزاء هذه التهم الفظيعة، لهذا نهض عن كرسيه البابوي، وعرى نفسه من ثياب البابوية، وبطلبه العفو ضحى بالكرامة البابوية»، ونفهم من هذا القول إن البابا لم يعزل من منصبه بل إنه استقال بمحض إرادته، مع أن مجمع سوتري انعقد بعد ستة أو ثمانية أشهر من رفعه إلى مقام البابوية، وقد أكدت السجلات الرسمية للمجمع أنه كان هذا البابا الرسمي الشرعي، وظل كذلك حتى آخر يوم من حياته، أي بعد سنتين وستة أشهر من ارتقائه، ولقد قام غريغوري بتقديم أعذار واهية وسخيفة، مع أنه كان يتمتع باحترام الإمبراطور وبقية الأساقفة، فقد قال في سياق حديثه: «إنه قد حصل على مبالغ كبيرة من المال (من خلال أسرته، وذلك كان معروفاً لدى العموم) وقصد بها إما إصلاح الكنيسة، أو القيام بأعمال أخرى ضرورية للكنيسة»، وقال بعد ذلك برزانة ووقار: «إني أعلن لكم يا إخواني، والله على ما أقول شهيد، إنني ما عملت ما عملته إلاّ لكسب رضوان الرب، ولكن الآن عرفت أن الشيطان قد بدأ بإلقاء أحابيله، فأشيروا علي بما يجب أن أفعل؟» وهكذا اعترف هذا الرجل المسن بجريمة لم يقترفها عن علم، وكتب بورينو Borino، بعد أن درس هذه الحادثة العرضية دراسة عميقة قائلاً: «إن النقود التي دفعها جراتيان لبندكت، لم تكن ثمناً للبابوية، بل لتغطية النفقات التي كان قد دفعها بندكت لأجل انتخابه، وكما نعلم رحب بطرس دامين بارتقائه عرش البابوية، فقد فكر أن «حمامة السلام قد عادت إلى سفينة نوح أخيراً» وقال بول بحذر: «لقد ظهر أن غريغوري كان مقتنعاً بعدم صلاحية بندكت لمنصب

البابوية، فاتخذ تلك الخطوة الجريئة لإقصائه عن ذلك المنصب، ولو بدفع المال لشرائه»، ولا نعلم فيما إذا كان هذا العمل عملاً غير مشروع أي «سمعاني»، فمفهوم السمعانية هو دفع النقود لشراء منصب ديني مرغوب به، ولكن هل هذا يشمل أيضاً دفع النقود لتنحية شخص غير مرغوب به عن وظيفته على يد شخص آخر لا يقره على أعماله المخزية؟، إنني أترك تحديد الجواب على هذه النقطة للناس الذين أكثر تفهماً مني للقوانين الكنسية، وعلى كل حال لم يُدن غريغوري في مجمع سوتري، فقد حيا كل إنسان انتخابه باحترام وارتياح، ولكن طبيعة هذا الرجل الحساس لم تسمح له بالبقاء في منصبه تحت طائلة اتهام فظيع كهذا الاتهام، لذلك رأيناه يخلع شارات شرف انتمائه للبابوية، ثم يتقبل النفي الطوعي، كعقاب رادع مناسب، أما بندكت فقد عزل رسمياً، وحرم من ألقاب الشرف والاحترام، وأما سلفستر فلم يعزل، بل حكم عليه بأن يقوم بالتكفير عن ذنوبه بالإقامة الجبرية في أحد الأديرة.

بعد هذه الأحداث، تقدم الملك إلى روما، حيث حيته الجماهير بسرور وفرح، وفي الثالث والعشرين من كانون الأول عقد مجمع في كنيسة بطرس الرسول، وكان الإمبراطور قد عين سودجار من بامبرج بابا جديداً، ولكنه تقيد بالخطوات والإجراءات المطلوبة طبقاً للاتفاقات الرومانية القديمة، فقد قال عندما خاطب النبلاء الرومان: «أيها السادة، إنني سوف أمنحكم الحرية التامة لانتخاب البابا طبقاً للعادات القديمة، على الرغم مما صدر عنكم من سلوك أرعن لا تفكير فيه فانتخبوا من تريدون من المجمع»، وقد رد عليه المتحدث باسم النبلاء بصراحة مشابهة، وصدق في إبداء الرأي: «عند حضور جلالتكم الإمبراطورية، فليس من حقنا أن نوافق أولا نوافق على الانتخاب، أما عند غيابكم فإن البطريق نائبكم يمثلكم، ومعروف أنه أثناء إدارة أعمال الجمهورية، أن هذا البطريق يمثل الإمبراطور وليس ممثلاً للبابا، ونحن نعترف أننا تصرفنا التصرف الأرعن دون تفكير عندما وافقنا على تعيين الحمقى المعتوهين في منصب البابا، ولكن ينبغي أن تتيح سلطتكم الإمبراطورية للجمهورية الرومانية فرصة التمتع بظل القانون وزينة الأخلاق، مع مدِّ يد المساعدة والحماية للكنيسة».

وبعد انتهاء تلك المراسم الاحتفالية انتخب سودجار أسقف بامبرج بابا واتخذ اسم كليمنت الثاني (مات بعد أقل من عام من انتخابه)، وبينما كانت الاحتفالات بالتتويج الإمبراطوري تقوم على قدم وساق وأبهة وعظمة منقطعة النظير في كنيسة بولس الرسول (هنالك وصف كامل محفوظ لهذه الاحتفالات)، رجع غريغوري السادس إلى قلعة آل بيرليوني، وهكذا انقضى عهد أول بابا من الغيتو اليهودي، وبهذا التواضع العميق الذي تميزت به حياته، والوقت القصير الذي قضاه في منصب البابوية نراه يعد العدة لقضاء بقية حياته في المنفى الذي اختاره لنفسه في كولون، هذا وقد قررت الأسرة أنه لا يجوز لهذا الرجل المسن المتهدم صحياً أن يذهب لوحده، وهكذا اختاروا واحداً من رجال الأسرة الشباب واسمه توسكان لمرافقته، وكان هذا الشاب في الثانية والعشرين من العمر، وهو أحد أقارب البابا غريغوري، ويصفه تاريخ كمبردج للعصور الوسطى «بأنه الرجل الذي رافق قريبه إلى المنفى وأصبح هناك راهباً، تميزت قدراته العملية، وقوة شخصيته بشكل ملحوظ». كما بات يدعى باسم هلد براند، وإن رحلته إلى كولون هي إحدى الحوادث الفاصلة في تاريخ البابوية، وبالتالي في سياق قصتنا الراهنة.



غريغوري السابع . وهنري الرابع والصراع على التتويج

حدث زلزال هز مدينة روما بعد وقت قصير من اعتزال غريغوري السادس في سوتري وتنصيب بابا جديد، ومع أن الزلازل والفيضانات والكوارث الطبيعية ليست نادرة الحدوث في روما، إلاّ أن رجال القرون الوسطى فسروها بأنها صوت الله الذي يقول بلهجة رهيبة ناهية، أنه لا يوافق على أعمال الإنسان الحالية، فقد ترك كل من كان في سوتري تلك المدينة بضمائر ملبدة، إذ قام ملك شاب بإدانة يوحنا جراتيان، المبجل المحترم الذي أثار إذلاله، وهو الراهب المتواضع شفقة الكثيرين الذين ذرفوا الدموع حزناً وأسى، فقد اتهم كل من حضر ذلك المجمع، نفسه، فقد استسلم لمشيئة وبهاء هنري الثالث الشاب، وللقصف والمرح الصاخب في الاحتفالات المهيبة المتألقة البراقة أثناء حفلات التتويج التي اشترك بها جميع الرومان، ولم يهدئ كل هذا وخز ضمائرهم، والآن ها هو الرب قد هز رأسه منذراً مهدداً بغضبه وعدم موافقته، وظهر أن العناية الإلهية أقوى، وأكثر إقناعاً من قوة البشر لا بل حتى من قوة الملك.

لقد ثبت أن رجال اللاهوت الذين احتجوا على انتخاب بابا جديد أثناء حياة غريغوري هم على حق، فالقرار الذي اتخذ في سوتري لم يتفق مع روح الشريعة المسيحية، وذلك لأن غريغوري لم يعزل من منصبه، فقد اعتزل البابوية بمحض إرادته، وكان رجلاً ساذجاً مسناً نقياً شديد البراءة، فضّل أن يعترف بذنوبه على أن يظل متربعاً على الكرسي الرسولي، والشك ينهش قلبه، ولا يمكن أن نعده سجيناً حتى وهو في منفاه، فهو لم يسافر إلى ألمانيا بحراسة الجنود، وبرفقة بطانة الإمبراطور مثلاً، بل قام

برحلته المضنية المتعبة، ومعه جماعة صغيرة من أتباعه وخدمه وقريبه هلد براند، ولم يذهب إلى آخن حيث بلاط الإمبراطور، بل إلى كولون في حوض الراين، فالكاتدرائية التي تجتذب السياح هناك، لم تكن قد بنيت بعد، ولكن كان هنالك مجموعة من الكنائس الجميلة الصغيرة مثل كنيسة القديس جيريون. وماريا أم لاش وكنيسة الرسل (هدمت جميع هذه الكنائس في الحرب العالمية الثانية) وهذه كانت هي الصور التي واجهت غريغوري، وهلد براند، وكان عليهما أن يرياها ويشتركا في الأمجاد الهادئة لتلك المرحلة الرومانسيكية التي رأت بالمسيح الملك والكنيسة رمزاً للسلطة الروحية والملكية متفوقة في صفائها، قبل أن تخلق وتسمو معلنة انتصاراتها، المتجسدة في تلك الأبراج المستدقة الشامخة فوق الكاتدرائيات القوطية، وإلى كولون هذه هرع هذان الرجلان، وكانت كولون عند ذلك معقلاً من معاقل دير كلوني في ألمانيا، وإن قدوم اثنين من أسرة بيرليوني المعروفة بدعمها المادي لحركة الإصلاح وبنشاطها في التحول إلى المسيحية، كان أمراً يستوجب الترحيب الشديد من قبل رهبان وأساقفة الراين.

ولكن ما دام المنفى اختيارياً فلماذا اختار الرجلان ألمانيا؟ وهي البلاد التي عامل إمبراطورها البابا تلك المعاملة الخشنة، ولماذا لم يذهبا إلى مونتي كازينو، أو إلى دير كلوني نفسه؟ إن الجواب على هذا السؤال يتعلق بشخصية هلدبراند الرجل الذي قدر له أن يقود ويؤثر في الشؤون الكنسية في العالم المسيحي في القرون الوسطى في الأعوام الخمسة والثلاثين القادمة، وهو لربما يعد أكبر شخصية فعالة، مؤثرة في العالم المسيحي قاطبة، وبالتأكيد الشخصية المهيمنة في ذلك، وكان يدعى على سبيل السخرية «الرجل الصغير» لأنه بالحقيقة كان ضئيل الجسم قصيراً، ومظهره غير جذاب، يتصف بالبشاعة: داكن لون البشرة، وبالاختصار كان بيرليونياً، ويمكننا أن نجد وصف ثلاثة بابوات بيرليونيين في الوثائق المختصة بالعصور الوسطى، إذ نجد أنهم جميعاً متشابهين أشد شبهاً باليهود الشرقيين منهم بالمسيحيين الغربيين (بالمناسبة أطلقت هذه الأوصاف على هلدبراند ليس

بلسان أعدائه بـل مـن قبـل رئيس دير كلونـي)، وإنـه لأمـر يدعـو للدهشـة أن رجـلاً بـهذه الصورة من البشاعة، وعدم المهابة أو الجلال، يصبح له ذلك النفوذ وتلك الأهمية، مما أثار موجة من الدهشة والإعجاب، ولما كان متهماً أيضاً بحيازته قوى شيطانية كالسحر الأسود، فهل حقيقة كان هذا الرجل يستعمل الحيلة والخداع في أعماله؟ إن الأمر الثابت أنه كان بعيداً عن كل ذلك، فقد كان يعمل طبقاً لتخطيط أسرة تسعى لمجد مؤثل، فقد كان بندكتوس باروخ قد بلغ الآن من الكبر عتياً، ولم يعد باستطاعته أن يقوم بأي تخطيط أو تمثيل، لكن ابنه ليودي بندكتوس، أصبح زعيم الأسرة، وكان أقدر من والده بكثير، وكانوا لا يزالون يدعونه (ليو اليهودي)، وغدا الآن جزءاً لا يتجزأ من حياة روما السياسية والدينية، فلم يكن شعبياً أو مقبولاً ولكن الأسر النبيلة القديمة كانت تتحمله على مضض.

لقد اختار هلدبراند ألمانيا وهي بلاد الإمبراطور الذي لا يمكن للسياسة البابوية أن تستقيم أمورها وتنفذ دون وجوده، ولهذا فهو سينقل معركة استقلال البابوية إلى ألمانيا، إنما ذلك سيكون في المستقبل البعيد حين سيصبح أحد الأباطرة خصمه اللدود، وذلك الوقت لم يأت بعد، فلم يكن هنري ذلك الشاب القوي التقي، الذي كرس نفسه لفكرة الإصلاح، يصلح لأن يكون هدفاً لأي هجوم، وكان قد نجح تواً في انتخاب بابا ألماني، وسوف يتبعه آخرون (بالحقيقة لقد تتابع على عرش البابوية خمسة ألمان جميعهم قصيرو العمر، إذ أن الواحد منهم حكم مدة تقل عن السنة، وبعضهم بضعة أسابيع أو أشهر، وأطولهم حكماً مكث أقل من خمس سنوات، ولكن طبعاً لم يكن هلدبراند يستطيع أن يتنبأ بذلك)، ولم يكن هلدبراند متضلعاً بالعلوم اللاهوتية، بقدر ما كان سياسياً بارعاً عملياً، لذلك وجد من الحكمة أن ينشئ علاقات ودية مع الإمبراطور، حتى يصبح ذا تأثير فعال في انتخاب البابوات، إذ أنه صمم أن ينغمس في صميم السياسة البابوية، ومن المحتمل أنه انضم إلى رهبنة دير كلوني ولكن بشكل روتيني تعوزه الحماسة، وربما كان بشكل رمزي إذ لم يثبت انتسابه لهذا الدير، ولكنه حصل على بركته، وهذا يعد أمراً كافياً،

وإنه لأمر مثير أن نرقب عن كثب أسرة بيرليوني وهلدبراند في مواقفهم تجاه الإمبراطور الألماني، لقد كانوا من الاكليروس أي من الحزب المعادي للإمبراطور، لذلك كان من الواضح أنهم أيدوا موقف البابا، بينما تبع النبلاء القدماء الإمبراطور، هذا ووضحت الخطوط الحزبية في نظرية تطور البابوية واستقلالها التي كان هلدبراند هو المنظِّر والباني الأول والنصير الأساسي لها، لكن تتابع حكم البابوات الخمسة الألمان (1047 ـ 1058) أوقف مؤقتاً هذا التيار، لأنه ما دام أن الإمبراطور هو الذي انتخبهم، وما دام أن الرومان قد ثبتوهم فلا مجال لهم أن يسلكوا سلوكاً فيه أي مساس بسلطة الإمبراطور، مع أنه وجد بينهم من لم تنقصه الشجاعة والذكاء والفطنة لتفهم روح العصر التي تتلخص في فكرة الحرب والنضال لنيل الاستقلال البابوي، الذي اتخذ ذلك الاسم الرنان، وهو النزاع على التتويج، فأسرة البيرليوني تدعمها أسرة الفرانجيباني (غيرت موقفها بعد حوالي ثمانية عقود، ولكنها بقيت مخلصة خلال بابوية هلدبراند وما بعد ذلك)، كانتا هما العمود الفقري للمقاومة الرومانية ضد الهيمنة الألمانية، وحافظت الأموال والدعاية على دوام توقد نيران حماس «الرأي العام» واضطرابها بين الشعب الروماني، إنما كان من الواضح أن تلك الستراتيجية السائدة المؤسسة على التقدير الفاتر للأحوال السياسية المتغيرة، كانت عاملاً من عوامل تأييد الإمبراطور مؤقتاً والانتظار حتى حلول اللحظة الحاسمة عندما يحين وقت الضربة القاصمة والنصر.

وقضى هلدبراند معظم وقته في خدمة يوحنا جراتيان البيرليوني بإخلاص، وكان يوحنا محتفظاً بلقب غريغوري السادس، وكذلك احتفظ بخاتم الرسول بطرس، ولم يتخل عنه، وظل الكهنة والأساقفة يقبلون ذلك الخاتم، ولكن لم يدم هذا الحال طويلاً، لأن غريغوري توفي عام 1048 في هامبورغ (ولا نعلم ماذا كان يعمل هناك، إذ ربما ذهب إلى هامبورغ في شؤون تجارية لأسرة بيرليوني إلى ذلك المرفأ، ولا يُعرف مكان قبره ولم يُحفظ له شاهد قبر)، وورث هلدبراند ثروة كبيرة من قريبة، فقد كان هذا الرجل

البيرليوني راضياً تمام الرضا عن هلد براند، وكان من الطبيعي لرجل الدين البيرليوني أن يترك جميع ثروته للرجل الذي تأكد أنه سيستمر في سياسة إصلاح البابوية، وقد انتقد هلدبراند فيما بعد لحيازته تلك الثروة التي اكتسبت بأساليب الربا، ولكن الحقيقة أن المال كان العامل المحرك في مجرى حياته وسيرته، وعلى كل حال فقد ارتاح هلدبراند لتخلصه من ذلك العبء الذي كان يتحمله برحابة صدر وهو الاعتناء برجل مسن مريض صعب الطباع، فأصبح الآن حراً في متابعة أهدافه السياسية، وتوفي في ذلك الحين سودجار أسقف بامبرغ، وهو البابا الذي انتخب بشكل جليل ميمون، وسمي بكلمنت الثاني وذلك قبل التتويج العظيم للإمبراطور هنري، ومن المحتمل أنه مات مسموماً، وقد أعيد جثمانه إلى كاتدرائيته السالفة، وبذلك كان البابا الوحيد الذي دفن في ألمانيا، وكان خليفته نبيلاً ألمانياً تبنى اسم دامسكوس الثاني، لم يدم حكمه أكثر من ثلاثة وعشرين يوماً لم يكد يتعرف خلالها على ذلك المنصب العالي الذي رفع إليه، وقيل إنه توفي مسموماً أيضاً، وقد وضح أنه ليس بأمر صحي أن يكون البابا ألمانياً في تلك الأيام، ومن المحتمل أن يكون هلدبراند قد وصل إلى آخن في هذا الوقت، واتصل بالإمبراطور، وبقدرة قادر وبأسلوب ليس باستطاعتنا معرفة كنهه، نجح ذلك الرجل قبيح الوجه، غير المهيب الطلعة (ولكن غير المتغطرس) في أن يصبح أحد مستشاري الإمبراطور الحميمين، على الأقل في الشؤون الكنسية وبصورة أهم في الشؤون الرومانية، لأن هلدبراند كان من ناحية عملية رومانياً صميماً، وبالمناسبة إنه لأمر له مغزاه وأهميته أن لا يعرف أحد الظروف الدقيقة لمولده، وكتب يوحنا وليم باودن، وهو أحد الذين كتبوا سيرة حياته قائلاً: «إن تاريخ ميلاده غير مسجل، ولكن من المحتمل أنه ولد بين عامي 1010 و1020، وقد عرف هذا من النتف المختلفة المعروفة من حياته، وليس من الواضح أيضاً، أين رأى النور لأول مرة، ولا يعرف الكثير عن والديه وأصله، ولكن من المحتمل أن يكون مكان مولده هو مدينة سونا على الحدود الجنوبية لتوسكانا، ولكن أينما كان مولده فالجميع متفقون أنه قد حضر إلى روما وهو طفل صغير أو شاب صغير»، ثم استطرد باودن فقال: «وسرعان ما نقل من بيت

والديه إلى مكان مناسب أعدّ له لكي يستعد للأعمال المرهقة والواجبات التي تنتظره، ثم رجع إلى روما»، ونحن نعتقد أنه أحد أفراد أسرة يهودية من المتحولين إلى المسيحية، وهي أسرة بيرليوني، وذلك إما عن طريق زواج أمه وذلك حسب رأي ريجينالد بول، أو بالدم حسب رأي بترو فيديل، وعلى كل حال فقد كان رومانياً، وقد عرف الرومان من النبلاء إلى الغوغاء والرعاع، وجميع صور وأشكال الرأي العام، الصالح والطالح، وكان على علم بعقلية هؤلاء الرومان السذج الحساسين، وكل مدارسهم والضواحي في أجزاء المدينة المتعددة ـ خصوصاً تراستفيري التي عرفها أكثر من الجميع، وكان يعرف أمزجتهم وردود فعلهم تجاه أي حادث سواء كان سياسياً أو دينياً، وفوق كل شيء عرف الكوريا، وإنه لأمر خارق للطبيعة أن نعرف كيف استطاع أن يحصل على تلك المعرفة الجمة، وهو في سنه، على الرغم من حقيقة أن رجال العصور الوسطى كانوا ينهون تدريبهم الجامعي وهم في سن الثامنة عشرة، ومع ذلك فيبقى هلدبراند أحد النوابغ العظام في جميع الأزمنة، فقد كان يفاوض ويناور ويخطط ويوجه ويستخدم الناس والظروف بمحض إرادتهم، ويظل مع ذلك مسيطراً على كل شيء، فسهولة حركة ذهنه والقسوة، وعدم الرحمة التي أظهرها في ملاحقة أهدافه وتوطيد عزمه تجاه هدف مفرد يستقطب كل قواه وفوق كل شيء إخلاصه الكلي للكنيسة ومثلها العليا، كل ذلك يجعله في مصاف أعاظم الرجال في التاريخ، وقد ظن أعداؤه أن به مساً من الشيطان، والحقيقة أنه لم يكن ملاكاً بل رجلاً شاباً له هدف، وقد ادعى أنه قد ذهب إلى ما وراء جبال الألب دون رغبة حقيقية، وذلك عندما رافق قريبه غريغوري لحراسته، ولكن هذا الكلام يعد نوعاً من التواضع المبالغ فيه، والحقيقة إن عبارة «ما وراء الألب» التي كان يعنى بها ألمانيا، ما هي إلاَّ المنطقة التي كان ينتمي إليها، وهي التي أحسن الاستفادة منها.

لقد توفي البابوات الأول الذين نصبهم هنري الثالث ولم تكن ظروف وفاتهم لتشرف هنري، أو لتجعل مركزه أكثر جاذبية أو شعبية، ولا عجب إذن أن رفض بعض الأساقفة الألمان هذا المركز عندما طلب منهم شغله، وبناء على نصيحة هلدبراند توجه

الإمبراطور بالطلب إلى بورنو أسقف تول لإشغال هذا المنصب، وكان بورنو صديقاً حميماً ومستشاراً لـهلد براند، وقد جمع عدة صفات دينية وعسكرية مما جعله شخصاً ثميناً ونادراً، وثبت فيما بعد أن تلون معارفه وتعددها كان سبباً في تعطيلها، وإبطال مفعولها، وعلى كل حال فقد قبل هذا المنصب، و أعلن الملك للملأ من النبلاء والاكليروس أن بورنو أسقف تول سيصبح البابا ليو التاسع 1049 ـ 1054م، وقدر لهذا البابا أن يصبح واحداً من أعظم البابوات إن لم يكن أكثرهم مأساوية.

إن قضية هذا التعيين كانت أمراً بسيطاً بالنسبة إلى هنري، فقد كان على ليو الذي نصبه الملك أن يذهب على رأس وفد كبير من الأساقفة وعلماء اللاهوت، وبعض الوحدات العسكرية إلى روما حيث ينصب هنالك رسمياً بكل جلال ووقار حبراً أعظم بصفته صديق الإمبراطور الموثوق به، والرجل التقي الورع ذو الشخصية الفذة، أما هلدبراند فلم تكن القضية بهذه السهولة في نظره، فقد كان على صلة وثيقة بالبابا الجديد قبل تنصيبه، وأصبح الآن لا يفارقه ليلاً ونهاراً، وقد حاول خلال عدة أيام أن يقنعه بأهمية مظاهر الدخول إلى روما، وأن يعد هذا الدخول خطوة من الخطوات الهامة في مجرى حياته وعمله، فقد كان معروفاً أن الألمان لم تكن لهم شعبية في روما، وإن وجود الألمان في روما، كان يعد أمراً مستهجناً إن لم يكن مرفوضاً، فوجود أية وحدة عسكرية ألمانية في روما، كان يعد رمزاً للقوة الاستعمارية البغيضة الذميمة والمهينة على أقل تقدير، الأمر الذي طالما عانى منه الرومان الكثير منذ أيام شارلمان، فكان قيام الغوغاء في روما، بالتحرك في الشوارع أمراً فظيعاً لا يستطيع البابا بموكبه وأرديته الكهنوتية التي أصبحت مألوفة لدى هؤلاء، أن يؤثر عليهم ويجعلهم يتمتعون بالرزانة فيخضعون مذعنين، وفوق ذلك كان هنالك تلك الاتفاقية التي لا تزال سارية المفعول، وهي أن يشترك الرومان مع الإمبراطور في انتخاب البابا العتيد، وأن يكون لكل منهما صوت في انتخاب البابا الجديد، صحيح أن هنري استطاع أن ينصب البابا الذي يريده بسهولة أثناء تلك الأيام المضطربة الصاخبة، في أيام بندكت، وسلفستر

وغريغوري، وقد قدم كلمنت للرومان الذين وافقوا على ذلك، مع أن هذا العمل لم يكن قانونياً ولا متفقاً مع التقاليد الكنسية، ولكن الرومان في هذا الوقت لم يعودوا يهتمون بأي شيء عدا النظام، مع شيء من اللياقة والحشمة، ولهذا فلا عجب أن يتذكروا في هذا الوقت تلك الاتفاقية التي تدعو إلى اشتراك الإمبراطور والرومان معاً في انتخاب البابا، إذ أن قوانين انتخاب البابا لم تكن قد كتبت بعد (سوف تكتب بعد مدة وجيزة)، وهكذا أصبح فرض أي بابا على الرومان إهانة وأية إهانة.

كان موطن قوة هلدبراند وميزته يكمن في قدرته على إقناع أي شخص متردد، لكن بورنو لم يكن بحاجة إلى الإقناع، فقد كان على علم بالتحدي، لا بل حتى بالخطر الكامن تحت منصب البابوية، فجثتا ذينك البابوين المسمومين لم تبردا بعد، وهما كلاهما كانا مواطنين صالحين، وقد حضر بورنو قداس جنازتيهما في بامبرج، ولهذا أدرك أن الوضع جدي وخطير، ولها أصغى لهلدبراند باهتمام، وقبل نصيحته، وهكذا ظهر البابا أمام أسوار روما بمظهر غريب، فلم يكن مرتدياً الألبسة البابوية، بل لم يكن يرتدي حتى ملابس رجل نبيل، أو حتى كاهن، بل ظهر كرجل مذنب تائب، يرتدي مسوح الرهبان، عاري القدمين، وقرع أبواب روما راجياً السماح له بالدخول ليس كمجرد حاج من الحجاج، بل كرجل مثقل بالذنوب، مستعد لخدمة الكنيسة كحبر أعظم، وعندها فتح الرومان الأبواب، ودخل البابا وبطانته غير المسلحة إلى المدينة، وكان في عداد هذه البطانة رجل روماني قصير القامة، نحيف الجسم، أسمر اللون، من آل بيرليوني، ويقول المؤرخ غريغوري: «لقد اصطحب بورنو معه هلدبراند وهو رجل يزيد في أهميته على الملك أو الإمبراطور، وهو يرتدي مسوح الرهبان وكان لا يزال مجهولاً، ولكن قدّر له أن يصبح عبقري الكنيسة الفذ» وها قد رجع هلدبراند إلى وطنه، وإلى مدينته، وإلى الرومان، وبالطبع إلى أسرته التي أصبحت تسيطر سيطرة تامة على تراستفيري، وأصبحت لها معاقلها وجسورها وقلاعها وجنودها، وأصبحت

قلعة سانت انجيلو الآن تحت سيطرتها، ولذلك ازدادت سيطرة وقوة ليو دي بندكتو ووصلت إلى الأوج، وظل إخلاص الأسرة وولاؤها للكنيسة كما كان عشية ذلك اليوم قبل عشرين عاماً، في كنيسة القديسة مريم في تراستفيري.

كان باروخ لا يزال حياً عند عودة هلدبراند، ولكنه كان على فراش الموت، وقد مات فعلاً عام 1051م، وكتب غريغوري: مع أنه لم يبق أي أثر لقبر أي بابا كان في تلك الأيام، إلا أن قبر ذلك اليهودي باروخ، حفظ بعناية، في داخل الأروقة المعمدة، المسقوفة المبنية حول كنيسة سان باولو خارج أسوار روما، هنالك ناووس كبير من الرخام يرجع في تصميمه إلى أسوأ مرحلة من مراحل الفن الروماني، لكنه مزين بتماثيل أبوللو، ومارسياس وعرائس الشعر، وهذا الناووس هو قبر البيرليوني الذي نقشت عليه نقوش يهودية أصيلة تتبجح بالقول: «إنه كان رجلاً بارزاً بسبب أمواله وذريته»، والحقيقة أنه قد خلف حقاً ذرية كثيرة العدد من الأبناء، وكانت ثرواتهم غير عادية، حتى أن أحدهم أصبح «بابا» وآخر نبيلاً من النبلاء الرومان، وادعى ثالث أن ابنته قد تزوجت روجر ملك صقلية، وقد دفن آخرون من تلك الأسرة في كنيسة القديس نقولا في كارسيري Carcere، وفي سان آنجيلو، وبرسكاريا، وقبل أن تهدم هذه الكنيسة، رأيت عياناً رسماً من الفسيفساء لرنك من رنوك آل بيرليوني يمثل أسداً مرسوماً بشكل مربعات داخل ثلاثة قضبان، والحقيقة أن هذا القبر ليس قبر باروخ (الذي دثر قبره الآن)، بل هو قبر بطرس بن ليو، وهو حفيد باروخ، وقد نقلت هذه الفقرة لأن هذه التعليقات تنطبق على باروخ أيضاً.

وهكذا وصل أمل الأسرة العظيم هلدبراند مستشاراً موثوقاً به للبابا الجديد، هذا وافتتن الرومان بتواضع برونو البابا الجديد فحملوه إلى كنيسة بطرس الرسول، وهناك حدثهم عن إمبراطوره العظيم هنري الذي طلب منه أن يخدم حبراً أعظم، وأضاف قائلاً إن تسميته حبراً أعظم من قبل الإمبراطور فقط لا قيمة لها، إذا لم تتوج بموافقة أهالي روما، من نبلاء واكليروس، ورجال الشارع العاديين، وهكذا أرضى البابا غرور الرومان

بمثل هذه الأقوال فأعلنوه بكل سرور وغبطة بابا جديداً باسم ليو التاسع ، وهكذا ثبت مبدأ الموافقة الرومانية على تعيين البابا بشكل لا غبار عليه ، ولا ندري كم دفع آل بيرليوني من الأموال حتى أعدوا العدة لهذه الموافقة التلقائية للشعب الروماني ، والذي يهمنا هو أن ليو قد انتخب ، والحقيقة أنه كان جيداً وعظيماً ، وهكذا وكعلامة على امتنانه لنصائح هلدبراند ومواهبه النادرة جعله أمين سر الكوريا الرومانية ، التي بدأت تتخذ لأول مرة شكل مجلس وزراء الملك ، فلم تر روما منذ زمن طويل مثل هذه الجمعية النشيطة المؤلفة من رجال مخلصين ، وقد اعترفت بليو بمنصبه الجديد ، ذلك المنصب الذي لا يقل خطراً عن منصب الإمبراطور ، حاكماً لإقليم واسع الأرجاء ، ففي السنوات الخمس التي استمرت بها ولايته قضى ستة أشهر فقط في المدينة المقدسة تاركاً هلدبراند ليقوم برعاية شؤون البابوية ، بحرية تامة خلال غيابه الطويل ، وبالحقيقة كان هلدبراند هو نائب البابا ، بينما كان ليو في الخارج مشغولاً بعقد الاجتماعات في إيطاليا وفرنسا وألمانيا بهدف تعزيز مركزه وحكمه .

كان ليو صلباً عنيداً في الحكم ضد أولئك الاكليروس من المراتب الكثيرة الصغيرة ، الذين تزوجوا زواجاً عرفياً دون عقد زواج ودون حياء أو خجل ، ومن وقت لآخر كان يراجع كتاب «سلوك الاكليروس» وهو كتاب أهدي له ، يحتوي على تفاصيل الانحطاط الأخلاقي للأكليروس المسيحي ، وكان مؤلف هذا الكتاب هو بطرس داميان المعروف بقسوته وصرامته وحماسه ، وعدم الرغبة بالمساومة ، وهو بطرس نفسه الذي رحب بارتقاء غريغوري السادس عرش البابوية والذي عين رئيساً لأساقفة أوستيا على الرغم من إرادته ، وأوستيا هذه لا تبعد كثيراً عن روما ، وإن تمتع كل من بطرس وهلدبراند بالنفوذ والسلطة أثناء حكم ليو يقدم لنا شهادة ممتعة عن انقسام الكنيسة في العصور الوسطى ، فمن جهة نرى بطرس عندما كان يعيش في قصره الأسقفي يشعر وكأن السعادة لم تدخل إلى قلبه في وجوده الجديد على الرغم من الاحترام والوفرة والثروة ، لذلك حسب نفسه ولداً قروياً أجبر أن يرتدي البزة المدنية ، وكانت أفكاره ومثله صوفية

تقشفية إلى أقصى الحدود، وعلى الرغم من المنافع ومظاهر الاحترام التي كانت تحيط به، إلا أنه كان دوماً تواقاً لحياة الوحدة في قلاية الدير، الذي كان يعاقب فيه جسمه لمجرد تفكيره بالذنوب، أو حتى بالذنوب التي اقترفها الآخرون، أما من الجهة الأخرى، فإننا نرى هلدبراند يعيش في عالم مملوء بالنفعية والنزوع إلى جو المغانم دون تقدير لأخلاقية الوسيلة، وكذلك كان غارقاً بالحسابات السياسية والدبلوماسية الذكية والتأمل والتفكير الموهوب، والسحر المادي للمال، واللف والدوران والتعامل بفلس بطرس[1]، وأنواع العملة المختلفة التي كانت ترد إلى خزائن البابوية الخاوية، وكان يعرف أيضاً كيف يستفيد من داميان، إذ بينما كان هلدبراند يعد بمثابة وزير الخارجية، كان بطرس داميان هو المسؤول عن الدعاية والتبشير بالدين المسيحي، وكان أكثر إقناعاً من هلدبراند خصوصاً لدى معاقبة ولعن الاكليروس وجماهير الشعب الذين كانوا يهرعون إلى الكنائس لسماعه، ويعد مثل سافونا رولا، ومنه أتت فكرة اتهام المسيحيين في القرن الحادي عشر، والحقيقة أن هلدبراند لم يكن باستطاعته منافسته، فقد كان مثل نبي من أنبياء العبرانيين، ولكن حتى أصبح أداة في حركة الكفاح العظيمة التي سوف يأتي ذكرها، أما في الوقت الحاضر فقد كان على هلدبراند أن يقود الكوريا أثناء غياب سيده ليو وسفراته، وقد ظهر تماماً أنه هو ممثل البابا خلال جميع أركان العالم المسيحي، وقد استعملت كلمة (سيده) بمعناها الحرفي إذ مع أن هلدبراند كان مستشار ليو وشماسه المفضل، إلا أن هذا البابا عد معلماً لهلد براند، وقد تركت السنوات الخمس، أي الوقت القصير الذي استغرقه حكم ليو أثراً واضحاً وبصمات في نفس هلد براند، فبعد أن أصبح هلدبراند في منصب البابا كان يقول عند ذكر ليو: أبانا ليو السادس، أو سيدنا المحبوب، وكان يعني ما يقول فقد كانت مفاهيم ليو حول عدّ الكنيسة إمبراطورية

---

(1) فلس بطرس: ضريبة مقدارها بنس واحد كان يدفعها رب الأسرة في إنكلترا إلى الكرسي الرسولي، وينطبق هذا أيضاً على التبرع السنوي الذي كان يدفعه الكاثوليك إلى الكرسي البابوي.

كاثوليكية مسكونية يحكمها البابا، وهو الإمبراطور السماوي، كل هذه الأفكار أثرت تأثيراً شديداً على هلدبراند الذي لم يكن قد تجاوز الثلاثين من العمر بعد.

ومع ذلك فإن كان ليو قد أحرز شرف بناء تلك المؤسسة العالمية التي تدعى الكنيسة الرومانية، فإن ذلك لم يتم إلا بفضل عبقرية هلدبراند التنظيمية، وبخاصة في الشؤون المالية، مرة ثانية نعود لنستنير بأوصاف غريغوري لهذا الرجل ومنزلته الرفيعة وواجباته حيث قال: «لم يعد هلد براند، أعظم شخصية بارزة في روما فحسب، بل من أعظم السياسيين البارزين في جميع الأزمان، فقد جعل من الآخرين أدوات طيعة في يده، وفي معركته بصفته زعيم حركة الإصلاح، وقد ألهب حماس القديسيين والرهبان والمتعصبين وأعطى تعليماته للبابوات، وطلب من اللومبارديين أن يعودوا إلى قتل النبلاء القدماء، وكان يستعمل دوماً طرقاً ديماغوجية (أي دهمائية، غوغائية) وقد انتهز فرصة افتتان وتوقير كونتسة توساكنيا الفتية والقوية التي كان قد تفضل عليها، وطوق عنقها بأفضاله من خلال صداقته لها، وكانت أهم العيوب والأمراض الأخلاقية المنتشرة في زمنه هي التسري واتخاذ المحظيات، أي المعاشرة دون زواج شرعي، ثم السمعانية (بيع الوظائف الدينية)، وقد ناضل ضد هذه المخازي بحماس، ولكن بدلاً من أن يتطرق اليأس إلى نفسه، جعل هذه المخازي أسلحة استعملها البابا، وخدمت أخيراً في إخضاع السلطة الزمنية للسلطة الروحية الأمر الذي ساعد على حرمان الإمبراطور الألماني من نفوذه في روما، وهكذا ثبت الحكم الروحاني في جميع أنحاء العالم، (الكونتسة التوسكانية التي ذكرت هنا هي ماتيلدا التي سوف نتحدث عنها بالتفصيل بعد قليل).

وكان أحد أعمال هلدبراند الهامة، مع أنه أقل إثارة هو سد النقص في الخزينة البابوية، وكان هذا أمراً هاماً لأن معظم أهالي روما كانوا يعيشون إلى حد كبير على أموال الصدقات، وإذا لم يكن لدى البابا شيء يعطيه لهم، كانوا يضطرون للاستجداء في الشوارع، أو يعمدون إلى السرقة، فالحجاج الذين كانوا يأتون من بعيد ليتعبدوا في كنيسة

القديس بطرس، ويصلوا عند قبور الرسل الأوائل، كانوا يصعقون ويصابون بصدمة عندما كانوا يكتشفون أن الطرق التي تؤدي إلى روما لم تعد آمنة، والمدينة المقدسة نفسها أصبحت وكراً للتجار الخداعين، الذين إذا استلموا قطعة مالية من النقود من الزبون يردون له أقل مما بقي له عندهم، وكذلك المبتزون، (لم يكن هناك حاجة لإجبار الحجاج على العطاء، فقد ذكر أحد المؤرخين أنه في عام 1050 زار الملك ما كبث ملك اسكتلندا روما، ورأى البابا ووزع الهبات والعطايا على الشعب) والحقيقة أنه لا تعرف بالضبط كميات الأموال التي وهبها آل بيرليوني وآل فرانجيباني وغيرهم من النبلاء للفاتيكان، ولكن يظن أن القسم الأكبر من الهدايا التي وردت للفاتيكان والتي زادت في هيبته المالية هي الهدايا التي قدمتها مجموعة صغيرة من الأغنياء، ويعلم الجميع أن بيوتات توسكانيا وبيرليوني المالية قد قامت بدور فعال في دعم هلدبراند مادياً، وجعلته المنظم المالي للكرسي الأسقفي، ولقد أشار زيما الجزويتي إلى الروابط المادية التي ربطت غريغوري وآل بيرليوني، وقام زيما هذا بدراسة مستفيضة للبابوات المصلحين، وقبل زيما الحقيقة التي تقول إن غريغوري السادس كان يرتبط بالدم مع عائلة بيرليوني، وأما غريغوري السابع فكان يرتبط بهم من ناحية الأم مع أنه يتفق مع بول في الرأي أن العلاقات بين هلدبراند وآل بيرليوني كانت وثيقة إلا أنه ليس من المؤكد أن هذا كان من أصل يهودي رغم سحنته السامية.

وعلينا أن نتصدى الآن لذكر الحدثين الرئيسين اللذين حدثا أثناء حكم ليو التاسع، ذلك أن أحدهما له مساس بنتائجه بعصرنا الحاضر، وكلاهما يشكل مظهراً من مظاهر الهزيمة لا بل حتى الكارثة بالنسبة لليو، وبشكل من الأشكال للعالم أجمع، فالأول كان الانقسام النهائي الكامل بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة الإغريقية، وهذا ما حدث عام 1054م، أما الثاني فهو ظهور النورمانديين المفاجئ كقوة عالمية.

واعتقد بعض المؤرخين أن النزاع الذي كان موجوداً بين القوتين الأعظم: الكتلة الشرقية والكتلة الغربية، له جذوره العميقة في النزاع بين الكنيستين في القرن الحادي

عشر، ففي هذا القرن بدأ نشوء العالمين الشرقي والغربي، وذلك كما يدعي المؤرخ فريدريك هير، فلو نجحت الكنيسة اللاتينية في الإبقاء على كنيسة موحدة كاثوليكية حقيقية ومقبولة لدى الجميع، لكانت بلدان البلقان وروسيا الآن جزءاً من العالم الغربي، ولو كان هذا الأمر صحيحاً - وهو لا يخلو من قوة الإقناع - فإن الانفصال بين روما والقسطنطينية لم يكن حدثاً محلياً أو مجرد تاريخ من تواريخ الكنيسة، ولكنه كان حدثاً عالمياً هز أركان العالم، ومع أنه لا ليو ولا هلدبراند قد استطاعا أن يتنبأا بهذه النتائج، إلا أنه من المؤكد أن هلدبراند قد خذل سيده، وخذل الكنيسة، وخذل العالم أجمع، إذ لا بد أن البابا قد استشار هلدبراند بالنسبة لهذه القضية، وأخذ نصيحته، ومن الممكن أن تكون هذه النصيحة قد رفضت على أساس أنه يجب الرجوع إلى التعقل بدلاً من العمل المباشر، أو أن البابا قد اتخذ قراراً خاطئاً، ولكن علينا الآن أن نولي الاهتمام اللازم إلى السبب الرئيس لهذا الانقسام بين الكنيسة الشرقية والغربية وهم النورمان.

يعد النورمان، وهم من القبائل البربرية التي أتت من اسكندنافيا، من أكثر القبائل سحراً وفتنة، وكانت هذه القبائل قد اندفعت من الأقطار الشمالية للنهب والسلب والاغتصاب، وأخيراً حاولت الاستقرار في البلدان الجديدة التي هاجمتها، وأسس النورمان في ايرلندا وفي شمال فرنسا (نورمانديا) ومن هناك استولوا على إنكلترا عام 1066م، ولكن قبل هزيمة إنكلترا، كانوا قد أسسوا لأنفسهم مراكز في جنوبي إيطاليا، تلك المنطقة غيرا لمنظمة والمقسمة، والتي كانت تابعة جزئياً للبيزنطيين وللومبارديين، وكانت تشمل أيضاً ثلاث جمهوريات صغيرة وهي: جمهورية جنوى، ونابولي، وأمالفي، وكان هناك نزاع مستمر بين هذه الفئات وبين أباطرة الشرق الذين لم يكن بوسعهم الدفاع عن أملاكهم البعيدة عن القسطنطينية.

كان النورمان محاربين أشداء يستحقون الأجور التي كان يدفعها لهم أسيادهم، وقد أتوا كمقامرين وجنود يسعون وراء الثروة، وفي البدايات عندما كانوا لا يملكون

قيادات سياسية ، لم يكن لديهم طموحات سلطوية ، ولكن سرعان ما تطوروا وظهرت لهم قيادات سياسية خلال عدة عقود ، فأصبحوا يشكلون خطراً وتهديداً للجمهوريات الصغيرة المستقلة وللممتلكات البيزنطية ، ثم عبروا البحر إلى جزيرة صقلية ، وكان قائدهم العظيم في ذلك الزمن هو روبرت غويسكارد ، وكان رجلاً شديداً قاسي القلب في قتاله وأعمال توسعه وعملاقاً شمخ فوق أقرانه (من المفيد أن نذكر أن النورمان بصورة عامة قصار القامة ، وسمر البشرة ، ولم يكونوا شقراً أو زرق العيون كما يظن البعض) .

ومع أن النورمان كانوا مسيحيين ، إلا أن البابا ليو التاسع عد أعمال توسعهم تهديداً لدولة البابا ، التي كانت تحافظ على وحدتها واستقلالها بغيرة وحماس ، كأية دولة أخرى ، ويجب ألا ننسى أن ليو كان قائداً عسكرياً متدرباً تقليدياً ، كأي نبيل من نبلاء القرن الحادي عشر .

عندما استقبل ليو وفداً من مدينة بنفنتو ، يعرض عليه انضمام تلك المدينة للأملاك البابوية مقابل مساعدته العسكرية لهذه المدينة ضد غزوات النورمان ، وقبل البابا هذا العرض ، ترى هل خطر ببال البابا أنه لم يكن يحارب المسلمين أو الوثنيين؟ بل أمة من إخوانه المسيحيين الموالين له والمعترفين به كبابا ، وقد طرحت هذه القضية في المستقبل وكانت نقطة ضده ، والحقيقة أنه لو نجح في حربه مع النورمان لعدّ مثلاً للبابوات الأبطال الذين اجتمع لديهم الدين والدنيا والتقوى مع الفضائل العسكرية ، ولكن ويا للأسف إنه لم ينجح .

وتلاقت القوى المتقاتلة في سيفيتلا في 18 حزيران عام 1053م ، وكان جيش البابا يتألف من المليشيا البابوية ، ويدعمها اللومبارد الإيطاليون ، ووحدات من الجيش الألماني (طلب من هنري الثالث إرسال جيش لكنه كان مشغولاً جداً فلم يستطع إرسال جيش كبير) ، وقبل المعركة وصلت الأخبار إلى البابا تفيد أن النورمان لا يملكون سوى ثلاثة آلاف فارس ، وقد انتابه الغرور وأخبره جيشه أن هؤلاء الشياطين غير المنظمين مهزومون ، وليسو متمرسين في فنون القتال ، فلا يجوز الخوف منهم أو حملهم على محمل الجد ،

وسـوف يـهزمون بالسـرعة الكليـة ، وسـرعان مـا حضـر هـؤلاء الشـياطين الصغـار ومـع أن عددهم كان قليلاً ، إلا كانوا أنهم متمرسين في فنون القتال إلى حد كبير جداً ، ولا يخافون أحداً ولا يـهابون شيئاً ، وقـد استسـلم الطليـان بسـرعة أمـا اللومبـارد فقـد صعقـوا وفقـدوا صوابهم لشراسة الهجوم النورماندي ، ولهذا أبيدوا عن بكرة أبيهم .

وكان ليـو وجماعـة مـن ضباطـه يراقبـون المعركـة عـن كثـب ، وبقلـق متزايد عندمـا اخترق النورمان الحصون الخالية مـن المدافعـين ، وانـهمكوا فـي عمليـات القصـف والعربـدة والحرق والسـلب والنـهب والاغتصـاب ، وفجـأة صـادفوا البابـا وهـو يرتـدي كـامل أرديتـه الكهنوتية ، فما كان منهم إلا أن توقفوا (وهذا المشهد يليق بالمخرج سيسيل دي ميل) ثم خر أولئك الجند وهم يتصببون عرقاً وينزفون دماً إلى الأرض وركعوا على ركبهم أمام حـبرهم الأعظم ، فاللياقة المسيحية يجب أن تراعى سواء كان هنالك حرب أو لا حـرب ، وكـان ليـو حقاً هو العدو الـذي حـاول قـهرهم ، ولكنـه كـان أيضـاً هـو الحـبر الأعظـم فـي كنيسـتهم ، وعليهم أن يدينوا لـه الاحـترام والإجـلال والطاعـة ، وحالمـا ركعـوا بخشـوع تقـدم قـائدهم وقبل خاتم البابا وتكلم معه بكل خشـوع وانفعـال ، وأعلـن أن البابـا قـد أصبـح أسـيراً لـدى النورمان ، ومع أنهم عاملوه بكل لطف واحترام كما يجب أن يعامل الحبر الأعظم ، إلاّ أنـه مع ذلك كان أسيراً ، وهكذا حمل إلى بنفنتو حيث أجبر على البقاء فيها حوالي ستة أشهر ، ولم يطلقوا سراحه حتى وقع اتفاقية مع النورمان ، خضع فيها لجميع مطالبـهم ، وعـاد إلـى روما وقد أنهكه المرض ، وأرهق عقله الهم واليأس ، وبعد بضعة أشهر ، في 10 نيسان عـام 1054 توفي ذلك البابا العظيم .

وكان من الطبيعي أن يطلب مـن هلـد برانـد ، ذلـك الرجـل الـذي كـان يدير شـؤون البابوية أثناء حكم ليـو ، أن يخلـف هـذا البابـا فـي الحكـم ، ولكـن هلدبرانـد رفـض ونصـح الإمـبراطور أن يعـين جبـهارد أسـقف ايشسـتادت ، وهـو نبيـل ألمـاني آخـر ومـن رجـال الاكليروس ، وتوج جبـهارد رأسـاً باسـم البابـا فكتـور الثـاني (1055 ـ 1057م) وفـي بدايـة

السنة الثالثة شعر الإمبراطور هنري الثالث الذي لم يتجاوز التاسعة والثلاثين من العمر بالمرض، وأسرع البابا فكتور لزيارته، ولكن سرعان ما توفي الإمبراطور ووضع هنري الثالث في مثواه الأخير في احتفال مهيب، كان على رأسه البابا فكتور وحضره النبلاء الألمان ونخبة من الاكليروس، وأعلن البابا تولي ابن الإمبراطور مهام الحكم، وأصبح يدعى هنري الرابع، وكان هنري صغيراً في السادسة من العمر في ذلك الوقت، وتولت أمه مهام الحكم القاسية بالنيابة عنه، وهي الإمبراطورة أغنس وبعد سنة سقط البابا فكتور ضحية ذلك السحر المشؤوم الذي كان يتعرض له البابوات الألمان، وفارق الحياة، وقد نصب بعده آخر بابا ألماني وهو البابا ستيفن التاسع، وهذا أيضاً تأثر بتلك اللعنة، وتوفي بعد عام واحد.

لقد ساعد تنصيب البابوات السريع في خلق جو من القلق في روما، وهذا ما جعل الأسر النبيلة القديمة، وبصورة خاصة الكرسنتيون (الهلاليون) يعملون على تنصيب واحد منهم بسرعة على عرش الرسول بطرس باسم بندكت العاشر، وكان هذا الاسم اسماً مشؤوماً يرجع في شؤمه إلى بندكت التاسع البابا الفاسق الشهواني الذي اشترى منه يوحنا جراتيان البابوية فقد كان حكم بندكت الجديد قصيراً، لأن آل بيرليوني قرروا طرده وإخراجه، لذلك اقترح ليودي بندكتو كرستيانو، وهو واحد من المواطنين الأغنياء، وابن أحد المتحولين اليهود، ومن ذوي النفوذ والعلاقات الحميمة مع هلدبراند، أن ينصب بابا جديداً معارضاً لهذا البابا وقام هلدبراند باختيار هذا البديل وهو جيرارد أسقف فلورنسا.

وفي هذه المرحلة ثبت عملياً أن الموقع الاستراتيجي الممتاز لتراستفيري كان ذا أثر فعال في تنفيذ أغراض البابوات المصلحين، وكانت هناك مدينة ليو، وهي ذلك الجزء من روما الذي كان قد حصنه البابا ليو التاسع، والذي احتفظت به الأرستقراطية الرومانية القديمة الموالية للألمان، فلم يكن يسمح لأي شخص ضد البابا أن يدخل خلال بوابات روما، دون موافقة هذه الأرستقراطية، ومن البوابات كانت الطريق مفتوحة رأساً إلى

الفاتيكان، ولكن الغيتو القديم كان في يد آل بيرليوني وقد أضيفت له حصون كثيرة، وكتب زيما: «في القرن الحادي عشر كانوا يسيطرون على الجزيرة ذات الجسر المزدوج، وهي جزيرة القديس برثلميو (جزيرة التيبر)، وحولوا مسرح مارسيلوس على الضفة اليسرى إلى برج مراقبة لحراسة مدخل الجزيرة، وكذلك سيطروا على مكان حصين في الزاوية الشمالية للفوريوم، قرب سجن ماميرتاين، وفي هذا الجزء من روما كان بإمكان البابوات المصلحين أن ينجوا فيما إذا طردوا من مدينة ليو، أو اللاتيران، وهكذا عندما حضر جيرارد أسقف فلورنسا الذي أصبح يدعى الآن البابا نيقولا الثاني (1059 ـ 1061م) إلى روما لخدمة الكنيسة المسيحية فتحت له أبواب تراستفيري، ودخل البابا إلى المدينة المقدسة من خلال الغيتو اليهودي في روما وتحت حراسة هلد براند، وليو بيرليوني، ومليشيا أسرتهما عندها انتشر الخبر بسرعة، وأرسلت الرسل إلى قلاع الكرسنتيين لإخطارهم أن المليشيا الرومانية كانت في طريقها إلى قصر اللاتيران، ولم يكن أمام بندكت من خيار سوى أن ينهي عهده القصير في البابوية، ويفر من المدينة قبل أن يستولي البابا الجديد على المقر البابوي، وقد بقي معتصماً في إحدى القلاع عدة سنوات حتى وافق أخيراً أن يتنازل عن عرش البابوية ويرحل بصفته مواطناً عادياً إلى والدته في روما.

لقد كسب هلدبراند المعركة الأولى ووضحت الآن أكثر من ذي قبل مناحي الصراعات، وأصبحت طبقة النبلاء القدامى برمتها مع الحزب الإمبراطوري لأسباب سياسية، وبالنسبة لبعضهم وبسبب انتساب بعضهم للأسر الألمانية منذ الجدود، ولخوف بعضهم الآخر من تزايد نفوذ البابا وبخاصة نفوذ هلد براند، ولكن الجميع كانوا يخشون النورمان، الذين تحركوا وانتقلوا إلى قرب روما، ولذا أصبحت مصلحة هلدبراند متفقة مع النبلاء الجدد، وقام بنزو أسقف إلبا وعدو هلدبراند اللدود بتعداد مؤيدي هلد براند، وافتتح القائمة باسم ليو بيرليوني الذي دعاه «ليو رئيس الجماعة اليهودية»، إذ يظهر أن ماء المعمودية لم يكف لغسل أصله اليهودي وهناك وثيقة أخرى ترجع في تاريخها إلى

28 نيسان عام 1060م وقعها جمع غفير من مؤيدي هلدبراند بما فيهم البابا الجديد والكاردينالات، وحاكم روما وظهر النبلاء مرة ثانية تحت إمرة ليو بندكتو كرستيانو.

لم يكن من أحد يدرك أكثر من هلدبراند أن النضال والحرب لتنصيب الأساقفة بدت وشيكة الوقوع، ويجب أن تكون جدية، وكان هنري الرابع لا يزال صغير السن، ولكن سيأتي الوقت الذي سيحتدم به الخلاف بين البابا والإمبراطور حول تلك القضية الخطيرة التي شملت العصر الوسيط، وكان من الأهمية بمكان، ومن الضروري مبدئياً تعزيز الأسس القانونية لسلطة البابا، لأنه على الرغم من العنف والوحشية التي ظهرت في العصور الوسطى كان من المعلوم أن الاتجاه العام في تلك العصور كان يميل للأخذ بالقانون، وسيادة النظام، ولهذا كان وضع أسس قانونية شرعية للنضال لا يقل في أهميته عن إيجاد حلفاء سياسيين أقوياء، ولهذا وبالنيابة عن نيقولا الذي كان يعمل تحت نفوذ وإشراف هلدبراند أعد هذا وثيقة لا تزال تعد أساس الإجراءات المتبعة في انتخاب البابوات مع أنها غيرت فيما بعد وعدلت، لا بل حتى في ذلك الزمن، وكما رأينا كان الانتخاب يستدعي الموافقة الإمبراطورية، واتفاق الكاردينالات والاكليروس الرومان والنبلاء، ولكن هؤلاء كانوا منقسمين على أنفسهم إلى فرقتين متعاديتين متحاربتين لم تتردد أي منهما عن استعمال القوة المسلحة في سبيل تأييد انتخاب البابا الذي كانت تؤيده، ولهذا أصبح الوضع في غاية الفوضى، وشعر الجميع أنه قد حان وقت استتباب النظام، ونقرأ في الوثيقة الهلدبراندية ما يلي: «وهكذا وبحضور نقولا في السنة 1059 من تجسيد المسيح وضع الإنجيل المقدس أمامنا، وكان البابا الرسول الكلي الاحترام والتقديس، نيقولا يرأس الاحتفال، بينما كان رؤساء الأساقفة المبجلون والشمامسة يساعدون في الكنيسة البطريركية اللاتيرانية التي تدعى كنيسة قسطنطين»، آنذاك قرأ هلدبراند وثيقة تعد واحدة من أهم المراسيم في تاريخ البابوية، وإننا سنقتبس بعضاً منها هنا، لأنها قامت بدور بارز في انتخاب اثنين من البابوات البيرليونيين، وهما غريغوري السابع، وبصورة خاصة أناكلت الثاني، ويذكّر هذا المرسوم بالحوادث المتتالية عندما كان يموت أحد البابوات فتعمد

عصابات النبلاء إلى فرض رجل تختاره لاعتلاء العرش البابوي، حيث يقول نيقولا: «تعلمون كم مرة تعرض هذا الكرسي الرسولي الذي لي الشرف أن أخدمه بمشيئة الرب، إلى المحن عند وفاة سيدنا وسلفنا ستيفن، وإلى تلك الضربات والجروح التي تعرض لها حتى أنه قد اهتزت أركان عرش الرب» ثم استطرد يقول: «ولذلك يجب وضع نظام للخلافة حتى لا يبقى هنالك مجال للمزاحمة»، ثم بدأ يذكر حيثيات الإجراءات بوضوح:

1 ـ عند وفاة الحبر الأعظم في الكنيسة الرومانية المسكونية يجتمع كرادلة الأسقفيات، ويتداولون بعضهم مع بعض، وبعدها يدعون كرادلة الاكليروس العاديين، وبعدها يتقدم الشعب، ويوافقون جميعاً على الانتخاب الجديد، وعلى هذا رست الصلاحيات في أيدي الكرادلة الأساقفة، لكن الشمامسة كانوا أيضاً مشمولين بذلك.

2 ـ إن هذه القاعدة ليست بالجديدة، وهي تتفق مع مراسيم أصدرها آباء مختلفون، وبصور خاصة ليو التاسع، والذين حاولوا أن يكتبوا وثائق مشابهة.

3 ـ يجب أن يختار البابا من أحسن الرجال الموجودين أي «من حضن هذه الكنيسة الرومانية»، ولكن في حالة عدم وجود شخص كفؤ فمن الممكن انتخابه من كنيسة أخرى.

4 ـ هنالك ملاحظة عابرة عن تفوق الإمبراطور المقررة هي كما يلي: «نخص بالشرف والاحترام الواجب ولدنا هنري، الذي يشغل في الوقت الحاضر منصب الملك، ونأمل أن يصبح في المستقبل إمبراطوراً بنعمة الرب، طبقاً لما وهبنا له ولخلفائه من بعده، الذين سيحصلون على هذا الحق شخصياً من هذا الكرسي الرسولي».

وينبغي التنبه لهذه الفكرة وهي أن الإمبراطور هو الذي يحصل على حقوقه، والبابا بفضله وكرمه يسلمه هذه الحقوق، وهذه رسمت خطوط السيادة البابوية.

5 ـ لو صدف بعد انتخاب البابا رسمياً، أن حاول أي رجل تعززه، أو تشجعه قوى الشر والعدوان، أن يمنع البابا من تسلم منصبه هذا، فإن البابا يجد تحت تصرفه جميع الموارد البابوية، وإذا حدث ونصب هذا المغتصب على عرش البابوية من خلال الفتنة والادعاء غير الشرعي، فسوف يعد هذا رجلاً ضد المسيح، وغاز، ومخرب للمسيحية

برمتها، ويجب عزله دون محاكمة، وأن يدان بالحرمان الأبدي، ولسوف يعزل كلياً عن المجتمع، ولينزل عليه غضب الرب القادر الآب والابن والروح القدس، ولسوف تصيبه لعنات الرسل في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، وتتناول هذه اللعنات التي تدين المدعي بعرش البابوية كل من يعترف بهذا الشخص أيضاً، ولسوف يصبح بيته خراباً يباباً، ولن يسكنه إنسان، وسوف يصبح أولاده أيتاماً وزوجته أرملة، ولسوف يطرد ويضطر أولاده للاستجداء، ولسوف تقاتله الأرض ومن عليها، وتقاومه جميع الكائنات (يلاحظ أن روح هذه اللعنات ليست روحاً مسيحية، ويتلمس بعض المؤرخين آثار الأسلوب القديم المستعمل ما بين فترتي العهد القديم والعهد الجديد في التوراة، ذلك الأسلوب وتلك اللهجة، التي كان يستعملها هلدبراند الذي كان غالباً ما يفضل اللهجة الصارمة القوية في اللوم والتحذير، وهي اللهجة نفسها التي كان يستعملها الأنبياء العبرانيون بدلاً من تلك اللهجة المهذبة الحلوة، وهي أحبوا أعداءكم).

ولقد زاد المرسوم الجديد عدد الناخبين من سبعة أشخاص إلى خمسين شخصاً، وهكذا نقصت قوة الكرادلة لمصلحة الشمامسة والكهنة، وأضاف شرطاً جديداً، وهو أنه لا يجوز أن ينتخب البابا قبل موت سلفه فعلاً ودفنه، ومع أن المدة التي كان تمضي ما بين موت البابا ودفنه، لم تكن أكثر من ساعة من الزمن، وهذا ما سنراه فيما بعد، إلا أنه عد من اللياقة أن تمضي ثلاثة أيام يقضونها صياماً بين الحدثين، أي ما بين دفن البابا وانتخاب بابا جديد، وفي القرن الثالث عشر كان من الواجب انقضاء عشرة أيام قبل انتخاب بابا جديد، وظل هذا الإجراء متبعاً حتى يومنا هذا، وخوفاً من تدخل القوى العسكرية لبعض الأسر النبيلة في المداولات تم إيثار أن تجري هذه المداولات في كنيسة محصنة، ولم يكن من الضروري إجراؤها في روما نفسها، وكانت الانتخابات تسبق بمناقشات حول المرشحين المختلفين: أخلاقهم وطول المدة التي ينتظر أن يدوم حكم الواحد منهم قبل أن يحل به الهرم، ثم كانوا يبحثون موقف كل مرشح تجاه الإمبراطور، وغالباً ما كان البابا

عندما يشعر بدنو أجله يوصي بخلفه، وكانت مثل هذه الرغبات تلبى، وبالطبع ففي حالة وجود مرشح واحد فقط، فإن الانتخاب الجديد لا يقدم ولا يؤخر، ومن الممتع أن نقول أنه عند تولي البابا أناكلت الثاني، بحث أمر الوثيقة في بداية الانقسام المأساوي الذي حدث عام 1130م، وإنه لمن سخرية القدر عندما نرى أناكلت بالذات، وهو ذلك البابا من آل بيرليوني الذي رعته أسرته بحماس، والذي هوجم بسبب أصله اليهودي، يتعرض في انتخابه للمناقشة والتفنيد على أساس السياسة التي وضع أسسها قريبه هلد براند.

وها نحن قد اقتربنا من مطلع قصتنا، فقد توفي نيقولا الثاني عام 1061م، واختار هلدبراند خلفاً له الاسكندر الثاني (1061 ـ 1073م) الذي كان أول بابا انتخبه طاقم الكرادلة الجديد، وطبقاً للقوانين الجديدة، واستمر هلدبراند في العناية بشؤون البابوية الداخلية ورعاية نظامها، والحقيقة أنه قد أحرز كثيراً من النجاح منذ أيام ليو التاسع الذي وجد الخزينة البابوية خاوية على عروشها، وتنفيذاً لهذه الأهداف عين أفراداً من عائلة بيرليوني في وظائف رسمية لتصريف الشؤون المصرفية البابوية ـ وكما يلاحظ (جورج كارو): كان بندكت وليو بيرليوني مشغولين بالصفقات المالية، قبل تحولهما إلى المسيحية، ذلك التحول الذي يمكننا أن نسميه صفقة مصرفية منظمة، ولهذا فمن المحتمل أن يكون هلدبراند قد أودع أموال الكنيسة في مصرف آل بيرليوني، ويمكننا أن نفترض أن الكنيسة كانت تستلم الفوائد المستحقة على ودائعها، مع أن هذه الودائع يمكن أن تكون قد استخدمت في الاشتراك بصفقات تجارية معينة ومربحة، ومنذ تأسست العلاقات المالية لليو بيرليوني، وهلدبراند كانت الأموال تدفع من الحسابات الجارية، وأما المبالغ الأخرى، فكانت تدفع سلفاً من حساب الودائع البابوية في المصرف، وكانت هذه المعاملات هامة ومتلاحقة ما بين عام 1059 و1061م عندما لم يكن هنالك أية تأكيدات حول انتخابات البابا، وعندما كانت النقود توزع على الشعب لربح أصواتهم لانتخاب مرشح حزب الإصلاح، ولذلك فليس من قبيل الصدفة أن استطاع هلدبراند بمساعدة رجل الأعمال

الذكي ليو بيرليوني أن ينظم الشؤون المالية البابوية، وإنه لمن المعقول أن نفترض أن بندكت كان مشتركاً أيضاً في الشؤون المالية للكوريا، ولا يستبعد حتى التحاق شخص إداري يهودي آخر بعد وقت قصير بإدارة الشؤون الداخلية البابوية.

لقد حدث ما ليس منه بد عام 1073م، وتوفي البابا الإسكندر الثاني، بعد أن تولى عرش البابوية مدة تسعة أعوام، وكان حتى أثناء مرض هذا البابا قد عرض على هلدبراند أن يخلفه، إذ أصبح هذا هو الخليفة الطبيعي، فلم يكن هنالك أي شخص له تلك التجربة العريضة التي يملكها هلدبراند في روما ولا في خارجها (وصحيح أيضاً أنه لم يكن هنالك أي شخص له العدد نفسه من الأعداء)، أما بالنسبة لقضايا إصلاح الكنيسة، فقد كان هلدبراند يتميز بالصراحة والموضوعية التي امتاز بها دامين، لأنه كان مقتنعاً أن من المستلزمات الأساسية لاستقلال دولة الكنيسة عن الإمبراطور أن تنظف وترتب شؤونها الداخلية أولاً، إذ لا يمكن إلا لكنيسة قوية ونقية أن تتوقع الاعتراف الشامل بها كإمبراطورية دينية مستقلة، وكانت وجهات نظره من السمعانية (بيع الوظائف الدينية) والتسري (زواج الكهنة) معروفة تماماً، وقد أصدر معظم البابوات الذين كان له اليد الطولى في انتخابهم البيانات الرسمية القوية بهذا الخصوص، وهي بيانات صدرت أيضاً بناء على قناعاتهم الشخصية، أو بإيعاز من هلد براند، وهكذا فقد حرم مئات الأساقفة، والكهنة، وزاد ليو التاسع بأن حرم جميع الزوجات اللواتي تزوجن زواجاً عرفياً في المدن الغربية، وكانت وجهة نظره بالنسبة لتقليد المناصب الدينية لا تقل تشديداً وصرامة، حيث عارض بشدة تعيين الملوك والأمراء والنبلاء للأساقفة والكهنة في الأقطار التي كان يعيش بها هؤلاء، وأخيراً لا ننسى مواقفه السياسية، فقد كان الحزب الموالي للألمان مرتاباً منه، بسبب موقفه السلبي تجاه الإمبراطور الألماني، والنفوذ الألماني في روما، أما بالنسبة لقدراته الشخصية، فلم يشك بها أحد، ولكن لم يستطع أي مراقب ذكي أن ينكر أن عصراً جديداً في تاريخ البابوية قد بدأ بانتخاب هلدبراند حبراً أعظم، وظهرت الأحداث الدراماتيكية

منذ البداية، ففي رسالة بعث بها إلى رئيس دير مونت كازينو في نيسان عام 1073م، يصف هلدبراند الحوادث بما يلي: «لقد توفي سيدنا البابا الإسكندر، وكانت وفاته صدمة كبيرة لي، وتأثرت تأثيراً عميقاً داخلياً، ووضع الشعب الروماني على غير عادته، مقاليد الأمور بيدي، بكل هدوء وطواعية، حتى أنه خيل لي أن ذلك كان عملاً من أعمال القدرة الإلهية، وهكذا وبعد عمل الاستخارة قررنا أن ننظر في أمر اختيار حبر أعظم جديد، بعد صيام ثلاثة أيام، وبعد إتمام القداس الجنائزي والصلوات العامة التي تصحبها أعمال البر والإحسان».

ويمكننا أن نتوقف هنا لنلاحظ نقطتين هامتين: الأولى أن هلدبراند وهو مؤلف مرسوم الانتخاب الذي أصدره نيقولا كان حريصاً على احترام القوانين التي سنها بنفسه، وكان عالماً أنه في يوم من الأيام سوف تصبح القيمة القانونية أمراً يحتمل الأخذ والرد، لا بل حتى الشك كما حدث ذلك فعلاً.

وأما النقطة الثانية فهي أن انتخاب هلدبراند تم على يد الشعب الروماني، وهذا يعني الشعب العادي وليس النبلاء، وهذا يوحي باستعمال قوى خفية، وذلك بالالتجاء لنفوذ الأموال والرشوات، فهل شعر وتنبأ الممول البيرليوني بالصعوبات المقبلة التي سوف يواجهها رجله، والتي منها إيجاد بابا معارض على يد العصبة الإمبراطورية، يا ترى؟ ربما كان ذلك صحيحاً، ولكن على كل حال يستمر هلدبراند في القول: «ولكن وفجأة بينما كان سيدنا محمولاً إلى مثواه الأخير في كنيسة مخلصنا إذا بجلبة وصراخ من جهة الشعب، وإذا بهم يندفعون نحوي كالمجانين، وكلهم يريد مني أن أردد كلام النبي: (لقد أتيت إلى المياه العميقة حيث يغمرني الطوفان، لقد تعبت من البكاء وجف حلقي)، ولأقول أيضاً: (لقد انتابني الخوف واعترتني الرجفة، والتفتني الظلمة)»، (نلاحظ هنا للمرة الثانية اقتباسه لمقاطع من العهد القديم تتفق مع أسلوب هلدبراند أكثر من تلك الفقرات اللطيفة لعظة الجبل، وكما اقتبس من العهد القديم في أول رسالة له بعد اعتلائه السدة البابوية، هكذا كانت آخر جملة تفوه بها قبل وفاته هي أيضاً من أقوال الأنبياء العبرانيين).

ولا تذكر السجلات الرسمية لأحداث انتخاب هلدبراند باسم البابا غريغوري السابع، ولا تشير إلى الحشود التي اندفعت كالمجانين والتي أشار إليها هلدبراند في رسالته أعلاه، بل إن كل ما لدينا من الأخبار هو ما كتب في وثيقة مؤرخة في 22 نيسان عام 1073م تقول: «اجتمع كرادلة الاكليروس في الكنيسة الرومانية الرسولية المقدسة، والقساوية والشمامسة والكهنة، وذلك بحضور الرهبان المبجلين ورؤساء الأديرة الذين يدعمهم كهنتهم ورهبانهم، وفي وسط هتافات الجموع الغفيرة من كلا الجنسين ومن جميع المراتب، الذين اجتمعوا في كنيسة الرسول بطرس، وذلك لانتخاب هلدبراند بكل ما يستحقه من احترام وجلال ووقار، ووصفوا هلدبراند رئيس شمامسة الكنيسة، بالرجل التقي، وأنه بارز متفوق بعلمه في كل الأمور الدينية والدنيوية، ومشهور بحبه للعدالة والإنصاف، قوي وقت الشدة، متواضع زمن الرخاء، وطبقاً لما قاله الرسول، فهو ذو أخلاق حسنة وحياة تقية، متواضع، رزين، طاهر، مكرم للضيف، يرفرف الانسجام على شؤون بيته، ذو تربية ونشأة نبيلة منذ نعومة أظفاره وفي أحضان الكنيسة الأم، وبناء على فضائله هذه فقد رفع إلى منصب الحبر الأعظم» وبدا هذا الكلام مثل خطاب انتخابي في مؤتمر سياسي، ولكنه كان يعبر عن إيمان واقتناع الجماهير، فقد سئل هؤلاء:

- هل أنتم موافقون؟. نحن موافقون.
- هل ترغبون به؟. نعم نرغب به.

مرة ثانية:

هل توافقون عليه؟. وأجابوا جميعاً بصوت واحد، وبحماس: نحن موافقون.

كان انتخاب البابا مقدمة للاحتفالات والأفراح الشعبية العظيمة، فقبل انتخاب الإسكندر الثاني، وبسبب التتابع السريع لتولي البابوات في أزمان متقاربة لا تزيد عن الأشهر، زهد الناس بهذه الاحتفالات، ونقص اهتمامهم بسحر هذه الاحتفالات التقليدية، ولكن بالنسبة لهلدبراند، كان قد مضى على ارتقاء الإسكندر العرش البابوي

حوالي تسعة أعوام، وفوق ذلك كان هلدبراند رومانياً، ينتسب إلى أسرة معروفة لها نفوذها وثروتها، فيوم تتويجه هو يوم من الأيام الرائعة بصورة خاصة، ويوم فخر للمجتمع، بأجمعه، يوم إظهار السخاء والكرم بالنسبة لعامة الشعب والدهماء، فقد حل يوم التتويج في 29 حزيران في يوم من أيام الصيف القائظة، لكن هلدبراند آثر أن يستعمل الحكمة، ويخبر الإمبراطور هنري الرابع ويعطيه الوقت لإرسال ممثل عنه، واجتمع الجمهور في الساحة أمام كنيسة القديس بطرس أدفنكولا حيث رفع البابا رسمياً إلى السدة البابوية، والآن أخذوا ينتظرون ظهور البابا من الكنيسة العظيمة، وبدأ آخر نشيد ديني يعزف على الأرغن، تلك الآلة الموسيقية التي اعترف بها حديثاً كأداة كلاسيكية تصلح للعزف في الكنيسة، (وهي بقية من الآثار الرومانية الوثنية جلبت من البلاط البيزنطي)، وكانت جوقة المرتلين لا تزال تنشد حين تقدمت إلى البوابة الرئيسة، وتبعها الاكليروس، والموظفون العلمانيون والكوريا، وبينما كان الجمهور يهتف بصوت عال وبوحشية، ظهر البابا ومرّ أمام البوابة الرئيسة، وهو يرتدي الرداء الأرجواني وعلى رأسه تاج الأسقفية، ثم توقف الجمع على المنصة العالية فوق السلم، وعندها توقفت جوقة المرتلين عن الإنشاد، وساد السكون فجأة، ووقف الجميع وكأن على رؤوسهم الطير، وهم مأخوذون بجلال الموقف ورهبته، وأمسكوا أنفاسهم وتوترت أعصابهم حتى لا تفوتهم أية حركة تحدث أو أية كلمة تقال، وأحاط بالبابا ثلاثة أساقفة للعناية به، وهم: أسقف أوستيا، وأسقف ألبانو، وأسقف بورتو، وذلك طبقاً لتقاليد قديمة متبعة في مثل هذه المناسبات، وعندها تقدم رئيس الشمامسة من البابا، ونزع عن رأسه تاج الأسقفية، ثم أمسك بالتاج البابوي المثلث بكلتا يديه، وبدأ يتلو صيغة التتويج كما يلي: «خذ هذا التاج واعلم أنك قد أصبحت الآن أباً للأمراء والملوك، وسيد هذا العالم، ونائباً لسيدنا المسيح على الأرض، والذي عليك أن ترعى شرفه ومجده إلى أبد الآبدين»، وبعد ذلك وضع التاج المثلث الثقيل المزين بالجوهرات على رأس البابا، وهو رمز للعبء الثقيل الملقى على عاتقه كحبر أعظم،

ثم بدأ الموكب بالسير عبر المدينة، متجهاً إلى الكنيسة اللاتيرانية، وهي أم الكنائس في العالم ورئيستها، وهي كنيسة قسطنطين، إذ كانت هذه الكنيسة تُعَدّ هي الكنيسة البابوية، بدلاً من كنيسة الرسول بطرس، وكانت التقاليد تقضي أن يحتل البابا الكنيسة اللاتيرانية، وقصرها المجاور لها حتى يصح أن يُعَدّ هو الحبر الأعظم بحق وحقيق.

تقدم الآن إلى الأمام حامل الصليب الذهبي يتبعه اثنا عشر رجلاً يدعون البانتياري، وهم يحملون اثنتا عشرة راية بابوية، ثم تقدم اثنان من الفرسان يحمل كل منهما رمحاً مزيناً بصور ذهبية للملائكة، ومعهما اثنان من المديرين الرسوليين، واتخذ الجميع أماكنهم المعينة.

وكان نظام سير الموكب يجري طبقاً لعادات قديمة مرعية، أدخلت إليها عدة تعديلات، بعد حوادث مشابهة، حدثت في روما الوثنية القديمة:

أولاً: كان يأتي محامو البلاط، وبعدهم القضاة بأرديتهم الطويلة السوداء، وبعدهم جوقة المرتلين، الذين كان عليهم أن ينشدوا الأناشيد الطقوسية الملازمة لتلك المناسبة، ثم يأتي رجال الاكليروس وعلى رأسهم الشمامسة الكبار والشمامسة الصغار، ثم رؤساء الأديرة القادمون من مدن خارج روما، ثم الأساقفة، ثم رؤساء الأساقفة، وأخيراً رؤساء الديرة العشرين في روما، وحضر المستشار الإمبراطوري، ممثل الإمبراطور هنري الرابع الرسمي، وكذلك والدة هنري وهي الإمبراطورة أغنس مع البطانة البابوية، وهنا امتطى البابا حصاناً أسود بمساعدة بطانته، وكان هذا الحصان مزيناً بالتاج البابوي المثلث، وكان سرجه مزيناً بالحجارة الكريمة، ولون عنانه أرجوانياً بلون رداء البابا.

وأما لجام الحصان المثقل بالزينة، فكان يمسكه حاكم روما، إذ احتفظ بهذا الشرف لحاكم روما، وقد تألفت مؤخرة هذه البطانة من جمهرة القضاة وأعضاء المجلس البلدي ورؤساء الأسر النبيلة في المدينة، وحالما تقدمت عربات النبلاء الرشيقة، كل منها تظهر رنك الأسرة وشعارها، ويجرها أربعة من الخيول، وسارت إلى الأمام ببطء، رؤيت عربة تحمل

صورة أسد ذهبي على أرضية أرجوانية، تجري والجميع يهتفون لها، لقد كانت هذه العربة هي عربة آل بيرليوني الآتية من تراستفيري، وهم أقارب هلدبراند وأهله، وكانت المدينة تتألق بالزينات بهذه المناسبة، وقد ظهرت السجف الملونة المزدانة بالرسوم والرايات تتدلى من نوافذ بيوت الأثرياء، أما الفقراء فقد تدلت من نوافذ منازلهم حبال الزهور، والأشرطة الملونة، والأكاليل، أما أجراس الكنائس التي كان في روما وحدها منها حوالي الثلاثمائة، ما عدا الأديرة والبازيلكات، فكانت تؤلف خلفية موسيقية صاخبة، وكانت أصوات الأجراس تكاد تصم الآذان أحياناً، ولكن صراخ وصياح الجماهير كانت تطغى عليها أحياناً، تلك الجماهير التي اصطفت في الشوارع، وقد حاولت المليشيا البابوية أن تحفظ النظام بشكل ما، تساعدها مليشيات المدينة والنبلاء، ونصبت أقواس خاصة تحمل أسماء الحبر الأعظم الجديد بهذه المناسبة مع أنها لا تعد شيئاً مذكوراً أمام عظمة أقواس النصر القديمة كأقواس قسطنطين، وتيتس، وجراتيان، وثيودوسيوس، وفالنتاين، ومع ذلك اكتسب ذلك المشهد شيئاً من الفخامة إزاء تلك الخلفيات المنتشرة لآثار الأبنية الرومانية العظيمة القديمة، كالكولوسيوم وحمامات كركلا، ومسرح مارسيلوس، وخمسة أسواق إمبراطورية أخرى، وكان هنالك أيضاً أبراج النبلاء المحصنة التي كانت نوافذها وأسوارها تتقابل مظهرة العداء السافر بعضها لبعض.

وبدت الفوضى في فن المعمار في روما في العصر الوسيط، وكأنها تزاوج مختلط بين الوثنية والمسيحية، فقد ظهرت نصب الأرباب والربات تقف بهدوء جنباً إلى جنب مع القديسين في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وكانت هذه الظاهرة واضحة في كنيسة القديس نيقولا في كارسيري، والتي بنيت على أنقاض معابد جانوس وجوثون، وسوستيا، واسبراسيا، واستعملت فيها الأعمدة الرومانية القديمة لدعم سقوفها.

وتحرك الموكب ببطء باتجاه الكنيسة اللاتيرانية، التي كانت بعيدة جداً عن الفاتيكان، وكنيسة بطرس الرسول، حتى أن السواح في هذه الأيام يجدون صعوبة في الوصول إليها،

وتوقف الموكب كما كانت العادة أيام باروخ ليتسنى لموكب اليهود التقليدي أن يؤدي واجبات الخضوع والطاعة للبابا، ومرة ثانية وقف الرباني اليهودي وقفة الوجهاء على منصة مزينة بالرموز والأعلام، ومرة ثانية وقف البابا طويلاً ليستلم تأكيدات اليهود بالولاء، وليمسك بيده درج الشريعة اليهودية، التي قدمها الرباني له، ثم ليتقدم البابا ليهب بركاته لجماعة اليهود القدماء في روما، إلا أنه قرن تلك البركة بالتأنيب القاسي الحاد لعنادهم الشديد، ورفضهم اعتناق دين الكنيسة مع الغطرسة والإصرار، والكبرياء التي علمهم إياها موساهم، وجعلها واجباً عليهم، مع أن ذلك من عمل الشيطان، ولاشك أن هلدبراند قد كرر كل هذه الجمل مع البركات واللعنات دون أي تردد لا بل حتى بإيمان عميق، وهو يعلم تمام العلم أن أسرته التي خرجت من الغيتو اليهودي، في تراستفيري، قد غادرت عالم العهد القديم، والمعتقدات الخرافية القديمة إلى غير رجعة.

توقف الموكب في خمسة أماكن معينة، ومقررة، وذلك لإنجاز أعمال دنيوية وهي توزيع الأموال، (وكانت روما تشتهر بالنهم والجشع الذي يضرب به المثل بالنسبة للمال، وكان هنالك مثل مشهور في العصور الوسطى يقول: إن روما إذا وجدت مشترياً فهي لا تتردد عن وضع المدينة برمتها في المزاد العلني للبيع)، وفي هذه النقاط أي بازليكا الرسول بطرس، وبرج ستيفانوس – حيث كان على الموكب أن يتوقف لاستقبال الوفد اليهودي – وساحة سنس موسكا في بونجا، وساحة القديس ماركوس، والقديس هدريان في الفورم، هناك ظل الفقراء ينتظرون عدة ساعات، وهم يتدافعون بالمناكب ويصخبون ويشتمون بلهجة الأفاكين الفسقة، من عمال روما، (طبقة العامة في روما) وبينهم المرضى والمعاقين والمتسكعين، والمتسولين المحترفين: الذين كانوا مستعدين لاقتراف أي عمل مقابل قبض النقود، هذا وتزود الموظفون الماليون في الخزينة البابوية بالأموال الكافية التي تبرع بها كثير من الأسر النبيلة حتى لا ترهق الخزينة البابوية بمثل هذه المصاريف، وكانت هذه المناسبة الجليلة تفقد هيبتها عند التزاحم والتدافع الجنوني بالمناكب للحصول على النقود،

التي كانت تبدد وتبذر بعد وقت قصير في الحانات والمواخير التي كانت على أتم استعداد لهذه الأعمال بمناسبة تتويج البابا، ولا يشك أن أعمال التدافع والتزاحم هذه كانت تستحق أن تسجل بفرشاة الرسام بطرس بروغل بأسلوبه اللاذع.

وبعد مسيرة دامت ساعات وساعات، وصل الموكب إلى مجموعة من الأبنية العادية، والكنيسة التي تدعى اللاتيران، هناك بنى الإمبراطور قسطنطين كنيسته الكبرى (البازليكا) على الأرض التي كانت زمن روما القديمة تخص أسرة لاتيراني، وكانت هذه الكنيسة تحتوي في يوم من الأيام على بعض التحف والكنوز المقدسة ذات القيمة الطقوسية الأثرية، التي أخذت من هيكل القدس، والتي كان يشاهد قسم منها، في قوس تيتس، مثل الشمعدان ذي السبع شعب الذي يدعى مينوراه، وأبواق الكهنة الذهبية التي تستعمل في الاحتفالات القربانية، لكن هذه التحف وغيرها من الكنوز القديمة اختفت بعدما حملها الوندال الذين لم يكونوا يدركون قيمة تلك التحف والكنوز القديمة التاريخية، التي نهبوها في هجومهم الوحشي الخاطف على روما، ومع أن بازليكا قسطنطين كانت تشكل قلب هذه العقدة المركبة من الأبنية، وكانت أهم بناء وأكبره هناك، فقد أضيفت عدة أبنية أخرى خلال القرون، كنيسة تلو كنيسة، وديراً بعد دير، والفنادق لإيواء الحجاج من رجال الدين ومن العلمانيين الذين كانوا يؤمون المدينة بالألوف، وشيد سور محصن حول هذه الأماكن عندما ظهر أنه من الضروري حماية هذه الأماكن المقدسة ليس ضد البرابرة فحسب، بل ضد العصابات المسلحة في روما، لكن هذا السور صدعته الزلازل منذ زمن طويل، كما هدمت أبنية كثيرة إما عرضاً عن طريق الصدفة، أو عمداً خصوصاً خلال الانقسام، الذي حدث في القرن الرابع عشر، عندما انتقل البابوات إلى أفنيون، ولهذا انتقل مركز الثقل إلى كنيسة القديس بطرس، وهي مفخرة أعمال ميكيل آنجيلو الفنية، وأصبحت هذه الكنيسة وهي كنيسة روما الرئيسة، ويقع القصر اللاتيراني، وهو مقر البابا بجوار البازليكا وهي الكنيسة البابوية (القصر اللاتيراني الموجود حالياً يرجع في تاريخه إلى القرن السادس

عشر، وهو أصغر بكثير من القصر القديم الذي نحن بصدده) وكان انتخاب البابا لا يعد قانونياً، وذلك طبقاً للقوانين الكنسية، حتى يصبح مالكاً رسمياً لتلك الأملاك بطريق عمليات شراء رمزية كانت تتلو الإجراءات القانونية التي نص عليها القانون الروماني الذي كان ساري المفعول في أوائل عصر البابوية، وإن هذا الإجراء الروتيني لإثبات الملكية، هو الذي جلب غريغوري إلى اللاتيران، وعند وصول الموكب البابوي إلى ساحة سان جيوفاني في اللاتيران، ترجل الجميع واستعدوا لدخول الكنيسة الكبيرة، وكان هنالك جمع غفير من المتفرجين الفضوليين من محبي الاستطلاع الذين كان بعضهم لا يزال يأمل عبثاً بالحصول على بعض المال، وتحلق هؤلاء حول محيط الساحة في الوقت الذي بدأ به الضيوف المدعوون بالصعود بوقار، وهم متعبون على الدرجات الموصلة إلى البهو الكبير الذي كان يحتوي على نصب قسطنطين، وهنالك أجلس البابا بشكل رسمي طقوسي على عرش قديم من المرمر الروماني، ثم بدأت جوقة المرتلين ترتل مرة ثانية أنشودة التتويج الطقوسية، وحالما نهض البابا، بدأ الكرادلة يرددون معاً وبشكل جماعي الأدعية والتبريكات، وتقدم عدد من أعضاء الكوريا أنيطت بهم مهمة وضع كيس نقود صغير من الجلد في يد البابا، وعندما فتح البابا هذا الكيس بكل وقار وجدية، ورأى فيه ثلاث قطع من العملة، رفعها حتى يراها الجميع: إحداها ذهبية، والثانية فضية، والثالثة بنساً من النحاس، ثم بادر إلى توزيع هذه القطع على من حوله ثم أقسم نذر الفقير قائلاً: «ليس لي أن أمتلك الذهب ولا الفضة، وكل ما أملكه سأعطيه لكم»، هذا ويلاحظ أنه في حالة هلدبراند وعدد من البابوات الآخرين، من آل مديشتي مثلاً: لم يكن لهذه الإجراءات أية أهمية عملية، فالثروات الطائلة التي امتلكها البابوات لم تكن لتتأثر بأي قسم أو نذر.

ودخل غريغوري الآن الكنيسة حيث قدم له الاكليروس فروض الطاعة والخضوع، وهو جالس على عرش وضع على المذبح بهذه المناسبة، ثم تقدم البابا إلى كنيسة القديس سلفستر التي كرست للبابا الذي كان قد عمّد قسطنطين الكبير، واقترب من كرسيين

فخمين مزينين بالنقوش ومتماثلين بـالحجم والمظهر، وحالما جلس على الكرسي الأول، اقترب منه رئيس الأديـرة بوقار عظيـم وخشـوع، ثـم سـجد أمامـه وسـلمه صولجان الحبر الأعظم، ومفاتيح اللاتيران، ومنذ تلك اللحظـة استلم هلدبرانـد رسمياً مقاليد السلطة، فهو وحده الذي يحكم الدولة البابوية، لا بل حتى العالم بأجمعه، من خلال هذا الكرسي الرسولي أو السدة البابوية، ثم انتقل إلى الكرسي الثاني، وأعاد رموز السلطة التي سـلمت إليه إلى رئيس الأديرة، ليكون قيماً ومحافظاً عليها، ثم قدم لـه حزاماً من الحرير الأحمر ألصق به كيس نقود أرجواني، فنهض البابا وأخـرج حفنـة مـن النقـود مـن الكيس ووزعـها على الحاضرين كعمل صامت من أعمال البر والإحسان، ثـم وقـف الجميع حالما شـاهدوا الحبر الأعظم ينحدر على الدرجات من المذبح ويدخل إلى كنيسة سانتا سنكتوريوم، وهذه الكنيسة التي لا يسمح للمسيحيين الأتقيـاء الورعـين بـالدخول إليـها إلاّ وهـم جـاثون على ركبهم، تحتوي على بقايا الرسل المقدسة، محفوظة في أوعية خاصة، مصنوعة باليد لحفظ الذخائر الدينية، التي يعتقد المؤمنون أنها تشفي جميع أمراض الأجسام والأرواح، ولم يُبد أي شخص أية حركة، بينما ركع البابا في الكنيسة وحده، برعاية الرب، وبصحبة أفكاره لأول مرة في حياته، وهو يصلي ليهبه الرب القدرة على تحمل المسؤوليات والنضال لأجـل مصلحة الكنيسة، ذلك النضال الـذي لـم يكـن يتوقعـه فقـط، بـل كـان قـد وضـع خطوطه الأولية، بعد أن كـان يعلـم علـم اليقـين أن لا منـاص، ولا مندوحـة عنـه، وكـانت الصلاة طويلة، وحماسية متقدة، ثم نهض وعاد إلى العرش في كنيسة القديس سلفستر، لإفسـاح المجال للكرادلة والأساقفة لأداء فروض الطاعة والخضوع لمعلمـهم وسيدهم بـأن يركـع كـل منهم ويقبل قدم الحبر الأعظم المنتخب، وذلك كما كانت تقضي التقاليد الكنسـية فـي مثـل هذه المناسبات، وبعدها استلم كل منهم عند نهوضه «البرسبتيريوم» Presbetyrium وهـو شعار تذكاري مصنوع من الفضة محفور عليه اسم البابا غريغوري السابع، وتاريخ التتويج في 29 حزيران 1073، وبعدها أتى دور الرجال العلمانيين، وعلى رأسهم أعضـاء مجلس

الشيوخ في روما، ليدخلوا ولينحنوا أمام البابا، وليبايعوا الحبر الأعظم الجديد بجلاله ومجده وسلطته، وهكذا انتهت الاحتفالات الرسمية في الكنيسة، وفتحت أبواب القصر على مصاريعها وتسلل البابا والكرادلة من خلال باب صغير يؤدي إلى المخادع البابوية، حتى يتسنى لهم اختلاس لحظة من الانفراد والراحة، بعد تلك المحنة الطويلة التي استغرقت سحابة يوم بكامله، وقد قرب موعد الولائم المنتظرة، وبدأ الجمهور يتحرك دائرياً دون نظام بعد أن تحرر من الجدية والرزانة والرهبة التي سادت الموقف أثناء الصلوات والاحتفالات، فأخذ أفراده يتجولون خلال المقاصير الرحبة، حتى يحين موعد الوليمة الكبرى، ثم دخلوا بسرعة إلى صالة الولائم التي كانت شديدة الأناقة تعود في تاريخها إلى القرن الرابع، واحتوت على طابع مختلط من الأساليب المختلفة، فقد حفظ بها كثير من الأدوات الأثرية الرومانية القديمة كما هو الحال في أمكنة أخرى كثيرة في روما، فهناك الشمعدانات والسجف الملونة والمزينة بالرسوم، والأعمدة والتماثيل والمنحوتات، وفي جميع أرجاء المكان رؤيت تماثيل نصفية لقسطنطين، لتذكر الجميع بالمحسن الأكبر الذي أنقذ المسيحية، وكان قد أعيد بناء هذه القاعة زمن البابا ليو الثالث في القرن التاسع الميلادي، ولكن احتفظ بهندسة بنائها القديمة وزخرفتها، وفي زمن تتويج غريغوري، كانت هذه القاعة لا تزال تعكس البساطة المجردة والجافة للعالم الرومانسيكي من صور الملوك والفرسان، والبابوات، والقديسين، وقد عقدت كثير من المجامع الكنسية في كنيسة اللاتيران والقصر، ولطالما انبعثت وانطلقت من تلك القاعات، البيانات والقرارات الرسمية المسكونية التي عدّت نقاط تحول حاسمة في تاريخ الكنيسة، ولم يكن هنالك من أحد ممن شاهد الأناقة والفخامة الهادئة لتلك القاعة عام 1073، ليتصور أنه خلال مدة اثني عشر عاماً سوف يخلع البابا غريغوري في اللاتيران، وتصبح هذه القاعة ذاتها غرضاً للنهب والسلب على يد النورمان، ولم يبخل بأي جهد لرفع قيمة وروعة وبهاء هذه الوليمة، فقد جلبت أيقونة شهيرة للمسيح، كانت تعرض عادة على المذبح، ووضعت في

القاعة بهذه المناسبة، فقد قيل إن هذه الأيقونة تمتلك قوة لا تمتلكها أية صورة في العالم، إذ تقول إحدى الأساطير أن صنعها لم يتم على يد أحد من بني البشر، وصفَّت الموائد الطويلة المزينة بالصحون الذهبية، والصيني الثمين، والأواني الفضية والأزهار، وكان رجال الكهنة يجلسون حول هذه الموائد كل طبقاً لمرتبته، وبعدهم جلس أفراد الأسر النبيلة كل حسب قدره، وحالما دخل البابا نهض كل إنسان وتوقف الجميع عن الحديث لمدة قصيرة، ولكن عندما جلس البابا الذي كان قد بدل ثيابه الكهنوتية الرسمية الثقيلة بغفارة[1] خفيفة استؤنف الحديث من جديد، ثم أحضر الطعام، وكان طعاماً دسماً، يتألف من عدة ألوان وعدة أنواع من السمك واللحوم المشوية، وجميع أنواع التوابل والأوز والفراخ المشوية المحشوة بالبيض، ولحوم الصيد المتبلة بالفلفل، والسمك المطهو بالزنجبيل، ثم كانت هنالك عدة أصناف من الحلويات لا تقل في دسامتها ولذتها عن الأصناف الأخرى الرئيسة، وأما النبيذ الذي لم يكن حلواً بشكل كاف فقد مزج بمواد مُحلية كالعسل.

جلس الحبر الأعظم أمام مائدة منفردة بعيداً جداً عن ضيوفه وقد بدأ النبلاء بتقديم أصناف الطعام له كل صنف على يد نبيل معين، ووزعت أدوار خدمته طبقاً للعادات القديمة المتبعة، ولكن لم ينبس أحد ببنت شفة أثناء الطعام، لقد قدم للبابا الصنف من الطعام تلو الآخر، وصب له النبيذ، وقدمت له الحلوى، ثم الفواكه ولكن لم تصدر أي كلمة لا من البابا ولا من النبلاء، وذلك لأن غريغوري كان يقصد بجلوسه، منفرداً على مائدة منفصلة، دون التفوه بأية كلمة، أن يرمز إلى الانعزال الرهيب الذي يكتنف مركز البابوية، لقد اتخذ هلدبراند لقب غريغوري لإحياء ذكرى سيده المحبوب وقريبه يوحنا جراتيان بيرليوني، وهو غريغوري السادس، الذي رافقه إلى ما وراء الألب، والذي ورث منه تلك الثروة الطائلة التي قام على إدارتها بعناية فائقة، فقد شهد الكرادلة أن هلدبراند «كان معتدلاً في رضائه» ولاحظوا أنه قد تربى تربية نبيلة منذ نعومة أظفاره في أحضان أمه

---

(1) الغفارة: رداء الكاهن في الكنيسة.

الكنيسة، ومن المحتمل أنهم أشاروا إلى أنه على الرغم من كونه فرداً من أفراد تلك الأسرة النبيلة من تراستفيري، إلا أنه قد ولد مسيحياً.

وعلى كل حال فحينما نراقبه وهو على السدة البابوية، لا نستطيع أن نشك بإيمانه المسيحي العميق وحماسه الشديد للمسيحية، ومع أن سحنته كانت تشبه سحنة الرجل اليهودي أو الشرقي، إلاّ أن إيمانه كان إيماناً مسيحياً لا يتزعزع، وأن ملاحظاته عن اليهود لا تفضح أي شعور خاص أو تحيز لهم، وبينما نجد سلفه الإسكندر الثاني يوبخ الكونت لاندولف بنفنتو لمحاولته إجبار اليهود في إقليمه على التحول إلى المسيحية، لا نجد وثيقة مشابهة قد صدرت في عهد غريغوري، بل على العكس نجد أنه عند انعقاد المجمع الكنسي الروماني عام 1087م كرر التحذير الذي ينص على أنه لا يجوز أن يسمح لليهود أن يحكموا المسيحيين، وقد عبر عن هذا المعنى بالنهي في رسالة أرسلها إلى الملك ألفونسو السادس ملك قشتالة، الذي كان معروفاً عنه أنه يعامل اليهود معاملة لينة، فقد كتب له يقول: «ولكن وبما أنه ليس علينا أن نهنئكم بتلك الأمجاد التي أحرزتموها فقط بل علينا أن نعبر عن أسفنا لتوجيه نظركم بالامتناع عن تنفيذ بعض الإجراءات غير اللائقة، وذلك بأن نأمركم بألا تسمحوا لليهود في بلادكم أن يحكموا المسيحيين، أو أن تكون لهم أية سلطة عليهم، لأنه إذا وضعتم المسيحيين في مركز أدنى من مركز اليهود أو إن عرضتموهم ليكونوا تحت سلطة اليهود قضائياً، فما ذلك إلاّ ظلم يقع على كنيسة الرب، بإعلاء شأن كنيس الشيطان بهدف إرضاء أعداء المسيح، وجرّ المسيح نفسه إلى مواطن الازدراء والتحقير».

وعلى كل حال لم يكن اليهود هم المادة الأساسية لاهتمامات غريغوري، فقد أعد برنامجه ليخدم عقوداً طويلة، وأهم غاية له كانت تنظيف الكنيسة، بإعلان استقلالها، وتقدم إلى معالجة إصلاح شؤون الاكليروس أولاً، ففي أول مجمع كنسي عقده عام 1074م رسم ما يلي:

1 – إن أي رجل من رجال الاكليروس قد حصل على وظيفته بالرشوة ودفع المال، فلسوف يخسر هذه الوظيفة، وأبرشيته، لأن الوظائف الكنسية ليست للبيع.

2 – إن أي كاهن أو أي أسقف عرف عنه ارتكابه ذنب السمعانية (وهي بيع الوظائف الدينية) سيصبح من الآن غير جدير بحمل وظيفته.

3 – إن أي كاهن اتهم بالزنا يخسر حقه بالعمل في الكنيسة.

4 – إن كل من يسمح لنفسه بأن يستفيد من خدمات أي كاهن مذنب، ومتهم بأحد الذنوب المذكورة أعلاه، سوف يعد مذنباً أيضاً.

وواجه هذا المرسوم نتائج مشؤومة، ففي كثير من الكنائس، وعندما نفذ الكهنة واجباتهم بتلاوة المرسوم على جمهور المصلين الذين تجمعوا لحضور القداس يوم الأحد، ما كان من الجمهور إلاّ أن هجموا على الكهنة وأنزلوهم من على منبر الوعظ في الكنيسة، وجروهم، وأخرجوهم وقذفوا بهم إلى الشارع.

أما رئيس أساقفة روان، فقد قذفه الجمهور بالحجارة بعد أن قرأ لهم المرسوم في كاتدرائيته، وأما هنري الرابع فلم يستجب لهذا المرسوم، ورفض الاكليروس لديه قراءة المرسوم للشعب، وفي إنجلترا واسكندنافيا خشي الاكليروس أن يقرأوا هذا المرسوم للشعب، وأما في فرنسا فقد أعلن الكهنة في مجمع باريس أن هذا المرسوم باطل ولاغ، وأنه عقيم لا طائل تحته، وسخيف ومضحك، فقد أصبح بيع الوظائف الدينية (أي السمعانية) وزواج الكهنة جزء من حياة الكنيسة لمدة طويلة، حتى أنه ظهر للعيان أن مجرد توقع إجراء تغييرات جذرية ما هو إلا أمر غير واقعي، وغير عملي، وفوق ذلك، وبما أن الملوك قد تأكدوا أن الضربة التالية للبابا ستوجه ضدهم، لذلك لم يعد لديهم أي رغبة أو حماس لحث الكهنة وتشجيعهم على إطاعة أوامر البابا، وهكذا ظلت الأدران لاصقة بالكنيسة، واستمر الرقص حول العجل الذهبي[1] أحد الطقوس الواسعة الانتشار في العالم المسيحي.

---

(1) إشارة إلى مخالفة اليهود تعاليم موسى، وعبادتهم العجل الذهبي أثناء غياب موسى على جبل الطور لمناجاة الرب.

وهكذا بقي الدين ، والتحلل من الواجب ، والغفران يباع ويشترى ، وكانت الكاتدرائية هي سوق البيع ، وأصبح الكهنة بائعين متجولين شديدي الحماسة لعملهم ، وقد ظل الحال على هذا المنوال إلى أن ظهر راهب مرتد عن الدين ، وهو مارتن لوثر ، وقاد ثورة ناجحة ضد تلك الأدران ، فقد ثبت أن فرض العزوبية على الرهبان أمر صعب التطبيق ، وذلك كما ظهر من الدعاوى المقدمة للمحاكم لطلب نفقة الزوجات المطلقات ، وخاصة في القضايا المتعلقة بالكهنة والأساقفة .

لقد وضح أن هذا الإخفاق لم يؤثر على غريغوري ، ولم يثنه عن عزمه في اتخاذ الخطوة التالية ، فقد أصدر أخطر مرسوم في تاريخ الكنيسة ، وهو مرسوم دكتاتورية البابا ، فلم يكن هذا المرسوم إعلاناً باستقلال الكنيسة فحسب بل ولكنه كان إعلاناً لسيادة البابا الذي يستلم سلطته من الرب رأساً ، وكان أسلوب هذا المرسوم متغطرساً ، فأما مضمونه فكان مماثلاً ومنافياً للطبيعة والعقل ، ولاشك أن غريغوري كان واعياً تماماً للنتائج المحتملة لهذا المرسوم ، لقد عمد غريغوري الآن إلى إعلان حرب علنية نهائية لا هوادة فيها ، ولا رجوع عنها ، والحقيقة أنه بالنسبة للرجل العصري الذي أصبح متحسساً ضد أي نوع من أنواع الدكتاتورية ، سواء أكانت دينية أم سياسية ، يبدو هذا العمل غريباً ووهمياً ، وها نحن نعرض النص الكامل لهذا الإعلان .

لقد رسم : إن الرب فقط وليس غيره هو الذي أسس الكنيسة الرومانية .

إن الحبر الأعظم الروماني فقط هو الذي يحق له أن يعد شخصاً مسكونياً .

وإنه هو وحده الذي يستطيع عزل وتثبيت الأساقفة .

وإنه في حال انعقاد أي مجلس أو مجمع يعد مبعوثه ، ولو كان ذا درجة دنيا فوق جميع الأساقفة ، وله الصلاحية باتخاذ أي حكم بالعزل ضدهم .

إن البابا يمكنه عزل المتغيبين .

إنه ومن جملة أشياء أخرى ، لا يجوز لنا أن نبقى في المنزل نفسه ونساكن أي شخص حرمه البابا .

لا يجوز لأحد أن يسن أية قوانين جديدة طبقاً للحاجة في جميع الأزمان إلاّ هو، هو فقط دون غيره.

وهو الذي يدعو إلى عقد المجامع الكهنوتية، وهو الذي باستطاعته أن يحول الرهبانية إلى دير، أو أن يقسم الأسقفية الكبيرة إلى أسقفيات صغيرة، أو أن يوحد الأسقفيات البسيطة في أسقفية واحدة كبيرة.

وإنه هو وحده الذي يجوز له استعمال الشارات الإمبراطورية.

وإنه لمن حق البابا أن يقبل الأمراء قدميه.

وإن اسمه هو الاسم الوحيد الذي يذكر في الكنائس، وإن اسمه هو الاسم الرفيع المقام في جميع أنحاء العالم.

وإنه هو الذي يستطيع أن يخلع الأباطرة.

وإنه يجوز له أن ينقل الأساقفة إلى حيث هنالك حاجة إليهم.

وإن له الحق أن ينصب أي كاهن في أية كنيسة يريدها، وإن الكاهن المنصَّب على يده يمكنه أن يتولى منصباً مشابهاً في كنيسة أخرى، شريطة ألا يقل هذا المنصب في درجته عن منصبه الحالي، وإنه لا يجوز لمثل هذا الكاهن أن يقبل رفع درجته على يدي أي أسقف آخر (عدا البابا).

وإنه لا يجوز لأي مجمع كنسي أن يتمتع بصفة مجمع عام رسمياً إلاّ بأمره، وموافقته.

وإنه لا يجوز عدّ أي كتاب أو أي فصل في كتاب كهنوتي قانونياً دون موافقته، أو تخويله السلطة بذلك.

وإنه ليس باستطاعة أحد نقض أي حكم يصدره، وإنه هو نفسه الذي يستطيع أن ينقض ذلك الحكم.

وإنه لا يحق لأي سلطة على هذه الأرض أن تحاكمه.

وإنه لا يحق لأي شخص أن يتجرأ بإدانة أي إنسان يلجأ إلى الكرسي البابوي.

وإنه يجب إحالة أية قضية بالغة الأهمية في كل كنيسة إليه، وإليه فقط.

وإن الكنيسة الرومانية معصومة عن ارتكاب أي خطأ، ولن ترتكب أي خطأ إلى أبد الآبدين، والكتاب المقدس على ما نقول شهيد.

وإنه عندما ينصبّ الحبر الأعظم بشكل قانوني يصبح قديساً دون أي شك أو ريبة، وذلك بفضل ونعمة بطرس الرسول، والقديس أبوديوس أسقف بافيا الذي يشهد على ذلك وآباء الكنيسة المقدسين الذين يتفقون معه في هذا الشأن، وذلك كما ورد في مراسيم البابا القديس سيمافوس.

وإنه بعد موافقته وأمره يجوز للآباء الأصغر مرتبة أن يوجهوا الاتهامات للآخرين، وإنه يحق له أن يخلع أو يعيد تنصيب الأساقفة دون دعوة أي مجمع كنسي، وإن كل من يعادي الكنيسة الرومانية لا يعدّ كاثوليكياً أبداً.

وإن بإمكانه أن يحلل الأتباع من واجبات إخلاصهم وولائهم للرجال الأشرار.

كان هذا المرسوم الذي دعي أصلاً بالمذكرة البابوية فاتحة تلك الدراما التي حدثت في القرون الوسطى، والتي شغل فيها الملك هنري الرابع، الذي كان قد بلغ الثلاثين من العمر، وغريغوري الأدوار الرئيسة، ولم يحدث في أي تاريخ مضى من تلك الحقبة أن تصرف البابا بذلك الشكل العدائي الساخر، والشجاعة التي بلغت حد القنوط، وكأن كل شيء أمامه قد أصبح في خطر، ليس البابوية فحسب بل المسيحية برمتها، وفي أثناء سير معركته ضد الملك استحوذ على البابا ذلك الشعور، وتلك الفكرة التي جعلته يدعي أنه لم يكن ملهماً، أو مدفوعاً من قبل التاريخ فحسب، ولكن بدعم من بطرس الرسول، والمسيح، لا بل حتى من الرب نفسه، ولو كان عمله هذا مجرد تمثيل لقلنا إنه قد بالغ في تمثيل دوره بشكل سيء أدى إلى خسرانه وإخفاقه، ولكن القضية كانت أكبر من ذلك بكثير، ففي أوج حماسته لإحراز السيطرة الكنسية تخيل غريغوري نفسه الخليفة الشرعي

لذينك النبيين العبرانيين المذكورين في العهد القديم، اللذين لم يكونا بالنسبة له مجرد بطلين أو زعيمي قضية في تلك المعركة الأبدية الخالدة بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية فحسب، بل كانا مثليه العظيمين اللذين يحذو حذوهما، وهما صموئيل، وإيليا، وكان هنري يمثل شاؤول وأهاب، الملكين اللذين ناضل صموئيل وإيليا ضدهما، وكان صموئيل يطلب الطاعة من الملك ليس باسم العرف والقانون، بل باسم الرب الذي كان صموئيل ممثله الرسمي، وهكذا حمل السيف بيده، وقتل باسم الرب الملك أجاج، الذي كان شاؤول قد صفح عنه وحماه، المثل الذي رأى غريغوري عليه أن يتبعه، ومع ذلك فإن غريغوري بما كان يشعر به من حماس عظيم، اعتقد أن صموئيل لا يصلح أن يكون مثله الكامل الذي يقتدي به، وذلك لاعتداله، وحتى خضوعه، بل شعر باقترابه من إيليا رجل الصحراء، ذلك النبي الهائج، معكر صفو السلم والرضا، والمنتقم الذي أرسله الرب، والذي كان مستعداً لرؤية المئات من كهنة بعل وهم يذبحون في ذلك القتال الجريء على جبل الكرمل، وهو الذي كان مطمئناً لاشتراك الرب معه، حتى أنه اعتقد أنه بإمكانه إنزال شواظ من نار من السماء، وهذه النزعة الزهدية التقشفية المستقاة من العهد القديم، وهذه الأمثلة القديمة من حياة الرهبنة أصبحت المثل الأعلى لغريغوري، ولا عجب أن دعاه بعض المعلقين المعاصرين «بالشيطان المقدس».

حقاً لقد كان غريغوري رجلاً تنتابه الهواجس على نحو غير سوي، فلم تكن نوبات الغضب الشديدة التي تعتريه، وانفعالاته منسجمة مع ذلك الجسم الضئيل الهش، لذلك الرجل الذي كان يجلس وجسمه لا يكاد يظهر على عرشه البابوي العالي، ولم تحفظ له أية صورة أو تمثال، وليس هنالك أية كتابات منقوشة على شاهد قبره في كاتدرائية سالرنو، مع أننا لا ننسى أن هنالك تماثيل كاملة يمكننا رؤيتها على قبور عدد كبير من البابوات، هذا وقد وصل إلى علمنا خبر وجود صورة منقوشة يقال إنها صورة غريغوري، لكن من الصعب التأكد أنها صورته، أو حتى صورة ترجع إلى عصره، وأما الصور

الموجودة في تواريخ فريزنـغ فـهي أيضـاً ليسـت مقنعـة، وهكـذا فـإن كـل شـيء حـول هـذه القضية متروك لخيالنا، وغني عن القول إنه ليس من قبيـل الصدفـة أن حـبراً أعظـم لـه تلـك الصلات الوثيقة بعائلة بيرليوني، يختار تلك الشخصيات من العهد القديم، ليكونوا أبطـالاً يبـاهي بـهم ويتخذهـم أمثلـة، يحاكيـها ويحتـذي بـها بـإخلاص وبشـكل طبيعـي، وكـان اندماجه بهؤلاء الأنبياء اندماجاً حقيقياً، حتى أنه أحيانـاً كـان يقـدم علـى التنبـؤ بالمسـتقبل، ففي أثناء قداس عيد الفصح عـام 1080م، حـين كـان النضـال بينـه وبـين هـنري الرابـع فـي أوجه، أعلن بجدية ووقار أنه خلال سنة مـن الزمـن سـوف يمـوت هـنري إذا لـم يعمـد إلـى إطاعة أوامر البابا، فإذا لم تصدق هذه النبوءة فسوف يتنـازل عـن عـرش البابويـة (لـم يمـت هنري الرابع في ذلك العام، وظل غريغوري في مركز الحبر الأعظـم)، وإن هـذه التنبـؤات التي كانت لا تخلو من التهور لابد أنها كانت مستحيلة الصدور عن رجـل يحسـب حسـاب المخاطر السياسية، ويتحرك بتعقل للتغلب على خصومه، ولكن ما من شيء من هذا القبيل كان موجوداً في غريغوري، فها هو يكتب إلى هنري وهو يفترض أنه مطيع للعرش البابوي كما يليق بأي ملك مسيحي، ويتوقع منه كما قال: «أن يؤثر عليك الخوف من الـرب الـذي يسيطر على حركات الملوك والأباطرة، أكثر من جميع مواعظي، كما وعليك ألا تنسـى مـا حدث لشاؤول بعد أن أحرز النصر بـأمر النبـي، كيـف أنـه بـدأ بالتبـاهي، والتفـاخر بنصـره والهزء بالنبي وبعظاته، وكيف وبخه الرب وأنبه بسبب ذلك» وما كان هذا ليقال للملـك كـان قد ربح لتوه نصراً كاسحاً في معركـة حاسـمة ضـد أعدائـه الأشـداء مـن السكسـون، وكـان يستعد لإنزال الهزيمة بخصمه الأخطر وهو البابا، وشطرت المعركـة بـين غريغـوري وهـنري أوروبا كلها إلى معسـكرين متعـاديين، مقدمـة بذلـك شـاهداً لا نظـير لـه فـي التـاريخ، فقـد تواجهت قوتان غير متساويتين وجهاً لوجه، فمن جانب كان هناك ملك جبار، يقود جيشـاً قوياً للغاية وهو بحق الوراثة والشـرعية رأس الإمبراطوريـة الرومانيـة للأمـة الألمانيـة، وهـو ملك تسلم آباؤه التاج من البابوات، وفي الجانب الآخر رجـل هزيـل، لا ينبـئ مظـهره عـن

أي قوة، مسلح بالقوى الروحية، هذا المركز الذي أمد غريغوري بقوى أعظم من قوى الملوك والجيوش، تحتوي منح البركة وإنزال اللعنة، وعلى هذا فالمعركة كانت ستقع بين السيف والتكفير، ولم يسبق أن وقع في التاريخ صراع بمثل هذه الإثارة والعنف، فقد شغلت المسيحية كلها وأجبرت الأرستقراطية والعامة ورجال الدين والعلمانيين أن يقف كل منهم إما مع الملوك أو مع البابا.

ابتدأ الصراع حرباً كلامية، تبودلت بها الوثائق والرسائل، وكانت أول رسالة كتبت في أيلول عام 1073م، بعد بضعة أشهر من انتخاب غريغوري كتبها ملك شاب غير مجرب، يتظاهر بالولاء للحبر الأعظم، بينما يحتقره من كل قلبه، ويستعد لمواجهته مواجهة كلية، إذ قال: «إلى السيد اليقظ المحبوب البابا غريغوري، الذي نصب بالمشيئة الإلهية، والشرف والكرامة الرسولية، يقدم هنري ملك الرومان بنعمة الرب، خدماته الواجبة المخلصة، وإن المملكة والكنيسة إذا كانت ستحكم حكماً صالحاً باسم المسيح، فهي بحاجة إلى دعم المسيح المستمر وكذلك أيها الأب والسيد المحبوب، يجب أن نتخلص من الفرقة والانقسام، وأن نتلاحم بنعمة المسيح، وذلك لأنه بهذه الطريقة دون غيرها يمكن للكنيسة، أن تظل متماسكة ووحدتها في قيود الحب والسلام»، ولم تكن هذه الصيغة للعلاقة بين الدولة والكنيسة لترضي غريغوري، الذي كان يعتقد أن كلاً من القوة الروحية والقوة الزمنية هما بيد البابا، وبيد البابا فقط، الأمر الذي يجعل الكنيسة العنصر المتفوق، وحملت بقية الرسالة التي كتبها الملك الشاب سمات الندم والأسى والأسف، وكان من المنتظر أن تؤثر في البابا إذ قال: «إني آسف لما وصلت إليه، أنا المذنب التعس إما بسبب طيش الشباب، أو بسبب المستشارين المخادعين، فلقد أذنبت ضد السماء، وأصبحت أتهم نفسي بعدم الولاء بالنسبة إليك، فلم أعد أستحق أن تدعوني ولدي، وإني لم أتعد على أملاك الكنيسة فحسب بل قد بعت الكنائس لأشخاص وجماعات غير محترمين، قد تشربوا سم حقد السمعانية، رجال لم يدخلوا البيوت من أبوابها، ولكن دخلوها بطرق ملتوية، وإني أعترف أني لم أدافع عن الكنائس كما كان من الواجب علي أن أفعل».

وكان هذا الاعتراف الكامل لخادم متواضع للكنيسة يحتوي طلب العفو ويطلب في النهاية تأييد البابا ودعمه «في جميع أعمالي»، كما قال في النهاية، ولكن سرعان ما تغيرت هذه اللهجة.

ولقد حدث حادثان عجلا بالمواجهة بين الرجلين، ففي ربيع 1075م أعاد البابا تأكيد مبادئه في قضية تقليد المناصب، فأوقف ثلاثة أساقفة ألمان عن عملهم في أسقفياتهم الهامة في: بامبورغ، وستراسبورغ، وسبير، وأضاف هذا الحرمان الموقت بلبلة جديدة وأحدث قلقاً بين صفوف الاكليروس الألمان، الذين لم يرق لهم انتخاب غريغوري، منذ البداية، وأما الملك الذي كان في وضع مقلقل عندما كتب رسالته إلى البابا عام 1073م فقد أصبح الآن في وضع سليم بعد أن انتصر في معاركه الكاسحة ضد السكسون، وهكذا لم يعد بحاجة لتهدئة غضب البابا، ولهذا دعم بشكل علني أسقفي: رافنا، وميلان اللذين عبرا عن رغبتهما وشوقهما للاستقلال عن البابا، ففي روما كان هنري يعتمد اعتماداً كلياً على النبيل سنسيوس، زعيم الحزب الموالي لألمانيا، والذي كان شديد المعارضة لغريغوري ولأسرتي البيرليوني والفرانجيباني وتلك الخطط التي وضعها البابا لتأمين السيادة البابوية.

وافتتحت الأعمال العدائية برسالة رسمية أرسلها غريغوري إلى هنري، كتبها في أوائل شهر كانون الأول عام 1075م قال فيها: «ننذرك بناء على حبنا الأبوي أن تقبل حكم المسيح، وأن تفكر ملياً بالخطر الذي يكمن في تفضيلك إجلالك لنفسك على إجلاله، وذلك بألا تكون سبباً في إعاقة سبيل حرية الكنيسة التي قضى المسيح أن يربطها بنفسه كعروس ربطت باتحاد إلهي سماوي، وأن تقرض الرب القادر، وبطرس الرسول قرضاً حسناً يزيد في استحقاقك للمجد، وذلك بإظهار ولائك وإخلاصك»، وكلف بحمل هذه الرسالة ثلاثة مبعوثين ألمان، أُمروا بأن يخبروا الملك أن أي عمل من أعمال العصيان سوف يجبر البابا على حرمانه كنسياً، أي أن جواب البابا التالي سيكون التكفير.

وبعد بضعة أسابيع، وفي عشية عيد الميلاد احتفل غريغوري بالقداس في كنيسة سانتا ماريا ماجوريا طبقاً للتقاليد الرسولية القديمة التي كانت تقضي بأن يقرأ البابا قداس عيد الميلاد في ثلاث كنائس في روما، وكانت الكنيسة تغص بالمؤمنين المتعبدين، وركع البابا أمام المذبح استعداداً لهذه المناسبة الجليلة، وحالما بدأ بالنهوض، ظهرت في الكنيسة فجأة زمرة من المرتزقة المسلحين، عندها صرخت بضع نسوة، فانتبه الناس الذين أصابهم الخوف والدهشة، حالما اتجه هؤلاء المتطفلون إلى المذبح بسرعة حيث كان غريغوري وهو غير عالم بهذا التدخل الفجائي، وفي بضع لحظات أمسكوه من شعره، وسقط التاج البابوي من على رأسه وسحبوه إلى خارج الكنيسة، وقد وضح للجميع أن هؤلاء المغيرين ومن يواكبهم من الذين يحرسونهم ويحتلون المراكز الاستراتيجية في الكنيسة هم من مأجوري سنسيوس، وذلك لأنهم كانوا يرتدون رنوك عائلته، ومع هذا فهم لم يتخذوا أي احتياط لإخفاء هويتهم وهوية المسؤولين عن تلك المؤامرة، فأخذوا غريغوري رأساً إلى أبراج سنسيوس حيث عومل البابا الذي كان ينزف بغزارة معاملة قاسية مذلة على يد سنسيوس نفسه، وبصورة خاصة على يد أخوات سنسيوس اللواتي كن يصرخن بفحش وقذارة وهن يوجهن الإهانات للسجين، وقد قيل إن غريغوري احتفظ بوقاره، ورباطة جأشه، موقناً أن أسرته سرعان ما سوف تعرف مكانه، وأين ستجده، هذا وقد أرسلت الرسل بسرعة إلى كاسا بيرليوني وإلى مسرح مارسيلوس، وإلى جميع مواقع القوة والأبراج البيرليونية، وسرعان ما تحرك جمهور كبير من المليشيا ومن عامة الشعب الذين ساءهم هذا التدنيس القذر للمقدسات، فزحفوا باتجاه برج سنسيوس، وبعد الاستعانة بالآليات والرجال فتحت ثغرة في السور، ووجد البابا في إحدى الغرف يحيط به جلادوه، عندها تحقق سنسيوس أن نهايته قد دنت، وأن الرعاع والغوغاء، سوف يقذفون به إلى نهر التيبر، لذلك خرّ راكعاً على ركبتيه، وطلب الغفران والصفح من غريغوري، وكان غريغوري قد عانى من تجارب سالفة مشابهة (وسوف يعاني في المستقبل) لذلك تذكر

بسرعة دوره «كحام للضعفاء» وكمسامح رحيم للمؤمنين التائبين، فأسرع للحيلولة دون وصول الرعاع الغضاب إلى سنسيوس، وأعلن القرار البابوي بالعفو عن جلاده الذي لم يعد يدري ماذا يفعل، وكانت العقوبة التي فرضها الحبر الأعظم على سنسيوس للتكفير عن ذنوبه هي الحج إلى بيت المقدس (لقد فكرت بهذه الحادثة عندما كنت أسير على ضفاف التيبر في روما، فاكتشفت أن هنالك على بعد بضعة أبنية كبيرة أمام بونتو فابريكو، وهي المدخل إلى تراستفيري، يوجد زقاق يدعى لونجوتيفيري دي بيرليوني، بينما هنالك وبجوار المكان الحامل لذكر آل بيرليوني، وعلى بعد كتلتين من الأبنية يدعى الزقاق لونجوتيفيري دي سينس، وهكذا نرى أن الأعداء السالفين قد أصبحوا جيراناً مسالمين في القرن العشرين).

ولاشك أن محاولة اغتيال غريغوري في عشية عيد الميلاد كانت بناء على أمر وإيعاز من هنري الرابع، فقد كان قتل البابا هو أسهل طريقة للخروج من كثير من المشاكل، ولقد كان ذلك العمل سهلاً ولكن نجاحه كان محفوفاً بالمخاطر، وعاد بعد هذا البابا والدم لا يزال ينزف من جبهته، إلى كنيسة سانتا ماريا ماجوريا حيث حيته الجماهير المحتشدة بحماس وتبعته، وقد غصت الكنيسة على رحبها بالمصلين المتحمسين الذين أخذ منهم العجب كل مأخذ من هذا البابا العظيم بقامته القصيرة، ونحفه، ودمامة شكله، وسمرة بشرته، ولكنه مع ذلك كان مثيراً للإعجاب، حينما وقف أمام المذبح في عشية عيد الميلاد عام 1075م ليحتفل بالقداس وكأن شيئاً لم يحدث، كأنه لم يكن يشعر بأي ألم، فقد كانت تلك الساعة هي ساعة الكرامة والنصر، فها قد أظهر الرب الحق وميزه عن الباطل، فقد خذل سنسيوس، وهنري، وكلمه العصاة، وأنقذ النبي بإرادة الرب، وأصبحت الطريق أمام غريغوري أوضح ما يكون بشكل لم يسبق له مثيل في ذلك اليوم من أيام عيد الميلاد، هذا وقد علم غريغوري الآن أن أفضل جواب منطقي ومحتشم، ومبجل جليل يبعثه إلى هنري هو «الحرمان الكنسي».

أعلن هذا الحرمان الكنسي بعد بضعة أشهر في شباط 1076م لتجسيد المسيح، فقد عُقد المجمع الكنسي في كنيسة مخلصنا والتي تدعى القسطنطينا (أي سينت جيوفاني في

اللاتيران)، وحضر هذا المجمع عدد كبير من الأساقفة ورؤساء الأديرة والاكليروس، والعلمانيون من جميع الإخوانيات، وكان أول عمل للمجمع أن حُرم سيغفريد أسقف ميانس، لأنه هو الذي حاول قطع العلاقة بين أساقفة ورؤساء الأديرة في ألمانيا، وبين الكنيسة الرومانية المقدسة، الكنيسة الروحية الأم، وتلا ذلك تلك الخطوة الحاسمة، وهي أول خطوة من نوعها في تاريخ الكنيسة والبابوية عندما أنزلت ضربة الكنيسة القاصمة على ملك ألمانيا القوي، ونورد هنا نص الحرمان الكنسي، مختصراً: «إنه ابتغاء رفع شرف الكنيسة والدفاع عنها، وباسم الرب القادر، وباسم الآب والابن والروح القدس، ومن خلال قدرة ربنا وسلطانه أعلن حرمان الملك هنري ابن الإمبراطور هنري الذي تمرد ضد الكنيسة، بوقاحة لم يسبق لها مثيل، إني أحرمه من حق الحكم والسلطة في جميع أنحاء مملكة ألمانيا وإيطاليا، وإني أحل جميع الرجال المسيحيين، من قسم الولاء الذي كانوا قد أقسموه أو سيقسمونه له، وإني أمنع أي إنسان أن يعامله معاملة الملك، أو أن يخدمه كملك، لأنه قد حق على كل من تحدثه نفسه بالانتقاص من شأن الكنيسة ومجدها الخسران المبين لكل تقديراته، ولما كان قد شق عصا الطاعة كمسيحي، لذلك قررت أن أقيده بقيود الحرمان الكنسي باسم الرب حتى تعلم جميع الأمم أنك أنت يا بطرس الذي بنى ابن الرب القادر الحي الكنيسة على صخرته، تلك الكنيسة التي لن تفتح أمامها أبواب الجحيم».

لم يكن الحرمان مجرد جواب لما حدث عشية عيد الميلاد فحسب بل كان عبارة عن ردة فعل لبعض الإجراءات التي كانت قد حدثت في ورمس، حيث طلب الملك ومعه أربعة وعشرون أسقفاً من البابا أن يتنازل عن عرش البابوية، ولم يصدف أن أرسلت أية رسالة من قبل الملك تبلغ هذه الدرجة من الصلف، حين كتب هنري يقول: «من الملك المنصب من قبل الرب دونما اغتصاب، إلى هلد براند الذي لم يعد حبراً أعظم بل راهباً كاذباً»، واستطردت الرسالة تقول: «لقد استحققت هذه التحية أنت الذي أثرت الفتنة والاضطرابات والقلق، أنت الذي لا تزال تلعن بدلاً من أن تبارك، دعني أختصر القول:

إنك قد جردت رؤساء الأساقفة والكهنة من مراتبهم، وجعلتهم عبيداً أرقاء دونما سبب، ولا رغبة، وإنك تدعوهم جهلة، بينما أنت تدعي العلم الشامل، ولقد تحملنا كل هذا إكراماً للمقام الرسولي، ولكنك عددت احترامنا لك خوفاً منك، ولقد ثرت ضد السلطة الملكية التي وهبت لنا من قبل الرب، وقد هددتنا أن تحرمنا من هذه السلطة، كما لو أن الحكم والرسم بيدك لا بيد الرب، ولقد دعانا المسيح لنكون على هذه المملكة، ولكنه لم يدعُك أنت لتكون حبراً أعظم، إذ حصلت على هذا المنصب بالدهاء والغش والخداع، ولقد احتقرت أرديتك الكهنوتية، وحاولت أن تحصل على نعمة الرب بالمال، وباستعمال القوة العارية المفضوحة، ووصلت إلى عرش البابوية، إلى عرش السلام الذي نزعت منه صفة السلام، وأنت تُسلح الناس ليحاربوا ضد السلطة، وتعلن حقارة الأساقفة الذين نصبهم الرب، وأنت تسمح للعلمانيين أن يلعنوهم ويعزلوهم من مناصبهم، وأنت تود لو عزلتني، فأنا الملك البريء الذي لا يمكن أن يحاكم إلاّ من قبل الرب، وهاهم الأساقفة قد تركوا محاكمة حتى يوليان المرتد إلى الرب، أليس من أقوال بطرس الرسول: احترموا ووقروا الرب واخشوا الملك، والآن ولأنك لا تخشى الرب، لذلك أنت تحاول أن تنال مني ومن شرفي، إن حرمان القديس بولص جدير بك وليس بي، فلقد أدانك جميع الأساقفة، ولذلك عليك أن تنزل عن العرش الرسولي الذي اغتصبته اغتصاباً حتى يستطيع أن يحتله شخص آخر جدير به، ولا يدنس الدين ولا الإيمان، ولذلك فإنني أنا هنري الملك بنعمة الرب، أقول لك باسم جميع الأساقفة: انزل، انزل».

حمل هذه الرسالة التي تعد وثيقة فريدة من نوعها، بما احتوته من إهانات موجهة إلى رئيس الكنيسة الرومانية، أحد رجال الاكليروس، المدعو رولاند، الذي خاطب المجمع المنعقد في كنيسة اللاتيران في روما بأقوال تدل في صراحتها ووقاحتها أن رسول الملك كان رجلاً بسيطاً ساذجاً، إذ قال: «إن ولي نعمتي وسيدي الملك بالاتفاق مع الأساقفة الذين يحكمون فيما وراء جبال الألب يأمرك أن تنزل عن عرشك حالاً، إذ أنه لا يجوز لأي

شخص أن يحتل هذا العرش دون موافقة الملك، والأساقفة، وأما أنتم يا اخوتي (قالها مخاطباً الأساقفة) فإني أحمل لكم دعوة أن تمثلوا أمام ولي نعمتي الملك في وايتسفتايد حيث سيقدم لكم حبراً أعظم جديداً، لأن هذا الذي بينكم ليس بابا، وإنما هو ذئب مسعور»، وعند سماع هذه الأقوال المهينة، اقترح كاردينال بورتوس اعتقال هذا الرجل فوراً، وأما حاكم روما فقد استل خنجره وهجم على هذا الساذج المغفل الذي ظهر أنه كان ينتظر المديح والإطراء، لكن غريغوري وللمرة الثانية اختار أن يصون حياة هذا المذنب الذي أهانه، وحدثت هذه الحادثة في الاجتماع نفسه الذي أعلن به حرمان هنري، هذا وقد كانت الإمبراطورة أغنس والدة هنري حاضرة عند تلاوة وثيقة الحرمان، وأصغت بانتباه واحترام، ولم تخنها أية دمعة، ولم تتقلص أية عضلة من عضلات وجهها في اللحظة التي سمعت بها إدانة ولدها من قبل البابا.

عقد مجمع ورمس، في ايتسلنتايد، ولكن بدلاً من أن يظهر المجمع انتصار الملك ثبت أنه أخفق إخفاقاً كبيراً، لقد كان هنري وحيداً، وظهر أن قرار البابا بحرمانه أبطل قراره بعزل البابا وألغاه، وهكذا انفض عنه الاكليروس والنبلاء، وبدأت سكسونيا تتحرك وتجد حلفاءً جدداً، وتجددت المشاكل التي كان هنري قد ظن أنها خمدت وانتهت، فقد سُمي رودولف صاحب سوبيا ملكاً معارضاً، لأن هنري لم يعد ملكاً مناسباً ما دام أنه لم يحصل على عفو وغفران البابا، وفوق ذلك فقد دعي غريغوري ليرأس مجمعاً جديداً أزمعوا عقده في مدينة أوجسبرغ البافارية للمناقشة في أمر جدارة الملك، وبينما كان الأمراء الألمان مجتمعين في تريبور كان هنري في أبنهايم وحيداً أشبه بالسجين، محروماً من السلطة والأبهة، ولاشك أنه ملك آنذاك الكثير من الوقت، وأنه فكر ملياً في تلك الحوادث الماضية عندما جلس والده في مدينة سوتري لمحاكمة قريب هلد براند، وهو غريغوري السادس، وكان سبباً في نفيه، والآن دار الزمن دورته، وجلس هلد براند نفسه على عرش البابوية باسم غريغوري السابع، ليحاكم الملك هنري ويسبب نفيه في عقر

داره، وذهب المؤرخ توينبي إلى أبعد ذلك، فادعى أن دوافع غريغوري النبيلة قد لطفتها وخففتها رغبة في الانتقام من السلطة الإمبراطورية لقاء ذلك الإذلال الذي ألحقته هذه الإمبراطورية بالبابوية المنحلة المتفسخة في مجمع سوتري عام 1046، ويزيد من قيمة هذه الفكرة ويعززها أنه عندما لبس هلد براند التاج البابوي، اتخذ اسم غريغوري، ذلك الاسم الذي كان يحمله حبر أعظم عزل بهذه المناسبة (وإذا كان الأمر كذلك فإننا نكون قد عالجنا قضية أحد أفراد أسرة بيرليوني، وهو يباشر أخذ الثأر لفرد آخر من الأسرة، أضمر له كل محبة، والتصق به بإخلاص عميق) ووضح لهنري الآن أنه ليس من مصلحته أن تتم المقابلة بين غريغوري والنبلاء الألمان، ولم يكن أمامه سوى طريق واحد لمنع هذه المقابلة، وهي أن يقابله هو شخصياً أولاً، ولكن ليس بصفته ملكاً يطلب حقوقه، بل كمذنب تائب يطلب الغفران والصفح عن ذنبه الذي اقترفه وهو العصيان والتمرد.

في هذا الوقت كان غريغوري قد ذهب إلى لومبارديا ليقابل بعض الحرس الذي كان سيواكبه في رحلته إلى ألمانيا، وعندما تأخر الحرس قرر أن ينتظر في مكان أكثر مواءمة وودية، فحل في القلعة المحصنة العائدة لابنته المحبوبة في المسيح ماتيلدا، وهي كونتيسة توسكانيا الفتية، وكانت أغنى وأقوى امرأة في ذلك الوقت، وكانت ماتيلدا هذه وأمها بياتريس أرملة بونيفيس صاحب قلعة كانوسا، وقد ورثت أملاكاً من وادي البو جنوباً حتى وادي آرنو الذي يتصل بالأملاك البابوية، وبالإضافة لهذه الأملاك، فقد كان لهما ممتلكات منتشرة في اللورين، وفي جميع أنحاء إيطاليا، وعندما توفي بونيفيس تزوجت أرملته من ابن عمه غودفري دوق اللورين الأعلى، وظهر أن زواج ابنتها الجميلة الفتية التي كانت في الثالثة والعشرين من العمر من أخيها لأبيها غودفري الذي كان أحدب الظهر أمراً تغلب فيه النفعية والمصالح الذاتية، (مع أنه بالنسبة إلينا أشبه ما يكون بالسفاح المحرم)، وهكذا كان هذا القران غير متكافئ ليس بالنسبة للسن فحسب، بل بالشكل والمصالح، فقد كان غودفري هذا يفضل الالتفات إلى اللورين، وإلى السياسة الألمانية بدلاً من الاهتمام بالحياة

المنزلية والواجبات الزوجية، وهكذا بقي الزوجان دون أن ينجبا أطفالاً، والحقيقة أنهما قلما اجتمعا أو رأيا بعضهما بعضاً، وبمرور الزمن توفيت والدتها، وتوفي زوجها، وبذلك أصبحت ماتيلدا الوريثة الوحيدة لثروة واسعة، وقطع هائلة من الأملاك، وبينما اختار زوجها التشيع سياسياً لهنري وللمصالح الألمانية، نجد أن ما تيلدا قد اختارت غريغوري وحركة الإصلاح البابوي، وقد بدأت الأقاويل والإشاعات تنتشر حول علاقة ماتيلدا الجميلة بغريغوري، وأنهما كانا مرتبطين بشيء أكثر من المصالح العامة المشتركة والإيمان والورع، وليس هناك من شك بأن هذه الإشاعات كانت جزءاً من حملة للتضليل مغرضة ضد غريغوري، فقد افتري على بعض البابوات أثناء حياتهم بلؤم، ومع أن ماتيلدا كانت لا تزال في شرخ الشباب وريعان الصبا دون أطفال، امرأة تستطيع أن تحب وأن تطلق العنان لعواطفها المشبوبة، وفي الحقيقة إنه ليس لدينا أقل برهان أو إثبات عن وجود أي شيء ما عدا أنقى وأطهر الدوافع التي جعلتها تلتصق بالبابوية وتصبح من المحسنين إليها، ويظهر أنه لم يصادقها الحظ في قضايا الحب، إذ عندما أصبحت في الثالثة والأربعين من العمر اقتنعت بالزواج، وفي هذه المرة من شاب في السابعة عشرة من العمر اسمه جو بليف، وكان هذا الزواج زواجاً تغلب عليه المصالح السياسية، فالرواية الشاملة العظيمة عن حياة هذه المرأة لا تزال تنتظر من يكتبها، لكن ليس بوسع أحد سوى شاعر ملهم عظيم أن يعبر عن قلب هذه المرأة، فالوثائق واللوحات غير المتقنة لا تكشف سوى أهميتها بالنسبة للشؤون البابوية، وإخلاصها وولائها الكامل لغريغوري.

وبتأييدها المالي للإصلاح البابوي وجدت ماتيلدا نفسها شريكة وصديقة لآل بيرليوني، وهي أسرة غريغوري، وكتب زيما الجزويتي حول ذلك ما يلي: «على الرغم من كل القذف والتشهير الذي افتعله أعداء الغريغوريين بخصوص الشؤون المالية البابوية، إلاّ أن هنالك جوهراً من الحقيقة وهو أن نقود آل بيرليوني سواء جاءت على شكل هبات، أو على شكل قروض كانت توضع في وقت الحاجة تحت تصرف البابا، مع أن مصادرنا

لا تشير إلى مبالغ معينة بذاتها»، وكان اشتراك ماتيلدا التوسكانية مع آل بيرليوني، والتضحيات التي قدمها الطرفان بهباتهما للكنيسة له أوسع الآثار، حتى أن أموال ونقود هذه الأسرة المتحولة كما قال زيما: أسهمت في أحوال ودرجات حاسمة، وقد أثرت في تحويل التيار ضد أي رجل رفع رأسه معارضاً البابا في روما أثناء تلك المدة، فالعلاقات كانت أكثر من علاقات مادية، ففي حالة آل بيرليوني كانت العلاقات عبارة عن روابط أسروية، أما بالنسبة إلى ماتيلدا، فقد كانت علاقات ولاء، وإخلاص حقيقي لرجل عظيم، ولقضية عظيمة، ولهذا نجد أنه لأمر طبيعي أن يختار غريغوري أن ينزل مؤقتاً في ضيافة ماتيلدا في قلعة كانوسا الحصينة في جبال الابناين ليترقب الحوادث التي لم يكن ليعرف عنها شيئاً.

ووصل البابا ومعه بطانة كبيرة بينها سنسيوس فرانجيباني، وألبيريك بيرليوني اللذين ذكرتهما ماتيلدا في وصيتها ووصفتهما بأنهما صديقان حميمان لغريغوري، وقد وجد غريغوري هنالك بانتظاره هيوج راعي دير كلوني ومستشار ماتيلدا الروحي، والأب الذي كان يتلقى منها الاعتراف، وأنسلم أسقف لوكا، وماتيلدا، وقد ظهرت فجأة فتاة في ريعان الشباب مشرقة ومتألقة على استعداد للوقوف إلى جانب غريغوري، وكانت بذلك أشبه بربة للحرب مستعدة للقتال دفاعاً عن مبادئ دير كلوني، تلك المبادئ التي أصبحت قضية روما وشغلها الشاغل، فقد كانت تراقب معركة غريغوري عن كثب وباهتمام أكثر من عادي، فطالما حضرت جلسات المجمع العظيم المنعقد عام 1074م حين أعلن غريغوري أول إصلاحاته الكنسية، ولاشك أن المناقشات في كانوسا اتجهت فوراً نحو الخطوة التالية في معركة التتويج، ولكن سرعان ما توقفت هذه المناقشات بوصول أخبار مثيرة، لم تكن بالحسبان، فقد جاء أن هنري في طريقه إلى كانوسا، ويذكر جميع المعاصرين أن شهر كانون الثاني عام 1077م كان شهراً قاسياً جداً، وقد سلك هنري طريق ممر جبل سينس، وهو من أصعب الممرات عبوراً، خلال جبال اللب، خصوصاً في ذلك الفصل، ولهذا اضطرت

زوجته وابنها أن يتدثرا بجلود الفراء، وانسابت بهم الزحافات عبر الأنهار الجليدية، بينما ظل الملك ومعه بطانة قليلة العدد يزحف عبر ذلك الممر المخيف حتى وصل إيطاليا، ولقد حيّا النبلاء الألمان والأساقفة مقدم الإمبراطور بسرور وابتهاج، إذ أنهم ظنوا أنه قد أتى متحدياً البابا ومستعداً لدعوتهم لخوض المعركة ضد ذلك البابا الذي زاد كرههم له الآن بعد إعلانه حرمان الملك، ولم يعلموا أن الملك قد أتى تائباً، هذا ومن الملاحظ أن بعض المؤرخين ينظرون إلى استسلام الإمبراطور في كانوسا نظرة انتقادية متزايدة، ذلك الاستسلام الذي أصبح شعار السياسة ونداءها ضد فرنسا زمن بسمارك «لن نذهب أبعد من كانوسا»، ويعتقد هؤلاء المراقبون أن هذه الرحلة وهذا الحجم الذي بدا به الإمبراطور مذنباً ذليلاً لم يكن إلاّ جزءاً من حفلة تنكرية قصد بها إخفاء مقاصد وحركات سياسية محسوبة بذكاء ودهاء، واستهدف أن تظهر بمظهر التواضع الذليل والتوبة، ولكن هنالك كثير من النقد لهذا التفسير الذي تعوزه الوجدانية، ورقة العاطفة والإحساس.

وأخيراً ظهر الملك ومعه زوجته وابنه وخدمه أمام قلعة كانوسا، وكانت هذه القلعة غاية في الحصانة لا يحيط بها سور واحد فحسب بل ثلاثة أسوار مع ما يتبعها من الخنادق والفخاخ ووسائل الدفاع الأخرى التي كانت معروفة في العصور الوسطى، وعندها طلب هنري السماح له بالدخول، ليس كملك بل كمذنب متضرع ومتوسل، وقد بقي ثلاثة أيام متتالية تبدأ باليوم الخامس والعشرين من كانون الثاني واقفاً أمام أسوار القلعة، وهو يرتدي قميص صوف فوق معطفه المصنوع من الفراء، وقميص الصوف هذا كان يرتديه المذنبون التائبون، وكان يلبس خفاً بسيطاً في قدميه (إنه لمن غير المحتمل، وكما يدعي بعض الكتاب الرومانتيكيون أن يكون قد قضى ثلاثة أيام بلياليها، لا يلبس إلاّ قميصاً، وقدماه عاريتان في طقس ثلجي، حيث تهبط درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر، إذن لكان تجمد ومات فعلاً)، ولكن الحقيقة أن هذا العمل رمزي، وأن ملك ألمانيا الجبار كان واقفاً خارج القلعة، في الطقس البارد يطلب الغفران، فلو كانت هذه الحركة قد خططت كحركة سياسية في

لعبة شطرنج، فالحركة التالية قد تركت للبابا، وأصبحت محتومة، إذ مهما بلغت عواطف غريغوري الشخصية وشكوكه، وجب عليه الآن أن يستسلم ويلين، فمن الواجب أن يُظهر بابا الكنيسة المسيحية الرحمة والسماح للمذنبين، فمن يستطيع أن يطلع على الأفئدة ليحكم أن توبة هذا هي توبة غير نصوح يا ترى؟ وإن مجرد إجبار الملك على الانتظار ثلاثة أيام يثبت أنه كانت هنالك مداولات ومناقشات حامية داخل القلعة، فقد ظهر أن ماتيلدا ومعها هيوج وأنسلم كانوا يحاولون إقناع غريغوري بالاعتدال واللين، وهنالك لوحة يرجع عهدها إلى القرن الثاني عشر الميلادي تصور حياة ماتيلدا (موجودة في مكتبة الفاتيكان) وهي تظهر هنري وهو يطلب من هيوج وماتيلدا أن يتدخلا لمصلحته، ولكن لا يعرف تماماً إذا كان هذا الأمر قد حدث فعلاً، والذي حدث هو أنه في اليوم الرابع، (في الثامن والعشرين من كانون الثاني) رضخ البابا، وسمح لهنري بالدخول إلى القلعة حيث استقبله بحضور كل من كان في القلعة من جماعة البابا.

وصف هذا المنظر مراراً أنه ما أن دخل البابا حتى سجد الملك أمامه بخضوع، وبدأ يقوم بحركات تشنجية مصحوبة بالدموع كما لو أن توبته تسبب له الآلام والرعشات، وعندما رأى البابا هذا المنظر، وهذا الخضوع الواضح، قيل إنه بلغ به التأثر حداً جعله يذرف الدموع أيضاً، ولكنه لم يعانق الإمبراطور (هنالك محاولات مضحكة لمقارنة هذا المنظر بالمقابلة التي حدثت بين يعقوب وأخيه عيسو الذي كان حاول قتله، وقابله عند نهر يبوق [من فروع الأردن] في تلك القصة التوراتية التي تصف إعادة لمّ شمل الأخوين)، وهنا بدأ البابا وقد تمالك أعصابه وسيطر على الموقف مدركاً الأهمية التاريخية لهذه المقابلة، (لم تكن إلاّ مواجهة بين شخصين وليس بين مبدأين) وطلب من الملك أن ينهض، فوقف الملك أمام غريغوري النحيل القصير القامة، بقامته التي تزيد حوالي القدم عن قامة البابا، ولكن مع ذلك فقد كان يبدو في مقام وضيع مجرد ملتمس، متوسل، تائب، ليس حاكماً، عندها طلب غريغوري أن

يطلبوا له رقاقة من خبز القربان المقدس[1]، وبإيماءة كلها جلال وتحد أخذ الرقاقة وقسمها نصفين وقال: «فلينزل علي غضب الرب وليتحول هذا الخبز إلى سم يقتلني إذا كانت الاتهامات التي اتهمت بها صحيحة، أو إذا كانت واحدة فقط منها صحيحة» ثم أخذ الرقاقة ببطء ووضعها في فمه، وهو يدعو العدالة الإلهية للانتقام منه، تماماً كما فعل النبي إيليا في موقف مشابه عندما دخل في نزاع مع الكهنة الوثنيين، وبعد أن ابتلع الرقاقة وانتظر مدة كافية حتى ينال عقاب الرب وضربته، إذا بكل من كان حوله يصفقون ويهتفون بفرح، وهم ينظرون بإعجاب وإكبار لحبرهم الأعظم وسيدهم الذي تحدى أقاويل الناس وأحكامهم، ولم يخضع لأحد سوى للرب نفسه، وعندما توقف التصفيق والهتاف، أخذ غريغوري النصف الثاني من الرقاقة وسلمها لهنري، فإذا قبلها يكون قد تحلل من الحرمان، وقيل إن الملك تردد قبل أن يبتلع الرقاقة مدة طويلة خوفاً من إمكانية حلول العقاب الإلهي به، وهذا يجعل هذه القصة بأجمعها مجرد حادث من حوادث القرون الوسطى النموذجية إذ أنه بعد خمسين عاماً، وفي بداية القرن الثاني عشر المشهور بالأفكار التشككية والعقلانية التي انتشرت أثناءه لم يعد حدوث مثل هذا المنظر ممكناً على الأقل بين الطبقات العليا في المجتمع، لكن كان الأمر مختلفاً في القرن الحادي عشر حين كانت تلك السلسلة المتصلة الحلقات، ابتداء من الجحيم إلى الخطيئة المميتة التي يستحق أصحابها العقوبة السرمدية، والتي كانت تمثل في الصور واللوحات التي رسمت في العصور الوسطى، والمنحوتات التي تصور يوم القيامة المريع، كل هذه الأمور كانت لا تزال حقيقة مقدرة، وأخيراً ابتلع الملك الرقاقة ولم يحدث له شيء وعفا عنه البابا وسامحه، ووضح أن الرب قد أذن بالوقت نفسه بالتوبة والغفران، ولكن لم يصدر عن الحاضرين أي تصفيق أو هتاف، وسرعان ما رحل الملك وأسرته من كانوسا، وقد كتب غريغوري ما يلي: «عندما غادر

(1) رقاقة مدورة من خبز فطير تستعمل في العشاء الرباني.

هنري القلعة، حيث تنكر لكرامة بلاده، وعظمة أجداده وأسلافه، أصبح كأنه رجل استيقظ لتوه من كابوس شديد، فقد استقبل بالصمت المطبق في لومبارديا، وانفض اللومبارديون الذين كانوا لا يزالون تحت السلاح عنه، أما الكونتات والأساقفة فقد أداروا له ظهورهم أو استقبلوه بفتور، فقد رفضت المدن التي كانت الأفكار الجمهورية قد بدأت بالانتشار بها أن تأويه وزودته بالطعام تدريجياً من وراء الأسوار، وهكذا انتشرت في إيطاليا موجة من النوايا السيئة، فقد خان الملك تاجه، وكان أفراد الشعب على استعداد للالتحاق به والقتال معه ضد عدوهم المشترك، لو لم يعقد تلك المعاهدة المذلة مع البابا، وقد فكروا أنه من الأفضل خلع هنري، وتنصيب ابنه الصغير كونراد ملكاً بدلاً منه، والزحف تحت إمرة هذا الملك الصغير إلى روما، حيث يطردون غريغوري وينتخبون بابا جديداً.

وكان الملك هنري قد وقع الإعلان التالي في كانوسا: «تبعاً للشروط التي سوف يمليها سيدنا البابا غريغوري، وتجاوباً معها سأقوم أنا الملك هنري إما بفض الخلافات وإزالة أسباب النزاع والشكوك ضدي مع رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والدوقيات، والكونتات، والأمراء، أو أن أتعهد بإجراء اتفاقية طبقاً لنصيحته، ما لم يعقه عائق إيجابي أو يعقني، وعندما يتم إبرامها سأكون على استعداد لتنفيذها، وإذا رغب مولانا البابا غريغوري نفسه أن ينتقل إلى ما وراء جبال الألب، أو إلى أي مكان آخر، فسوف تؤمن سلامته ضد أي أذى أو ضرر تعرض له حياته أو أعضاء جسمه أو خطر الأسر وذلك له شخصياً ولجميع من يكونون برفقته، أو من ينتدبهم، أو بالنسبة لأي شخص ينوي زيارته من أي مكان، سواء كان ينوي الإقامة أو ينوي الرجوع، وذلك عهداً علي وعلى كل من هم تحت سلطتي وأمري، ولن يحدث أيضاً أن يناله بموافقتي أي مساس بشرفه، وإذا حدث وحاول أحدهم الاعتداء عليه فلسوف أخف لمساعدته بكل ما أستطيعه من قوة».

إن هذا الإعلان يبدو وكأنه اتفاق بين سلطتين، فها قد ذهبت تلك الدموع، وذلك الركوع المهيب، وتلك الصلوات أدراج الرياح وبدا هذا الإعلان واقعياً، وعملاً رصيناً بين دولتين، واختفت لهجة الندم، ولا عجب أن تجد أن تأثر المؤرخين المعاصرين لإذلال كانوسا، كان أقل شأناً من تأثر المؤرخين والكتاب في القرن التاسع عشر مثلاً، فبعد حرمان هنري الدرامي بدأ العد العكسي.

مضت ثلاثة أعوام حاسمة أصيب غريغوري خلالها بالتردد والتقلص، بينما عمل هنري بنشاط، فقبل الرجوع إلى ألمانيا، عمل على استرضاء وتلطيف اللومبارديين الذين كان قد خاب أملهم وجعلهم حلفاء من جديد، وأقنعهم أن قسمه في كانوسا، لم يكن إلاّ نوعاً من المجاملات المؤقتة، وأنه لا يزال معارضاً للبابا، لذلك وحّدهم كرههم المشترك لغريغوري في هدف واحد متبادل، ورجع هنري إلى وطنه، وكأن شيئاً لم يكن، وعادت له كرامته الملكية، ولم يعد يشعر بأي حرج أو أي إذلال نتيجة للحوادث السالفة، وجعل كل إنسان من رعيته يفهم أنه قد تحرر من حرمان البابا وأنه أصبح مستعداً لبناء وطنه، وأصبح الوضع معقداً بالنسبة إليه، إذ أن النبلاء البعيدين في مملكته كانوا قد انتخبوا رودولف صاحب سوابيا ملكاً، وعدّوا هنري معزولاً، ولكن هنري قرر أن يتجاهلهم.

وأما تردد غريغوري خلال هذه المدة التي كانت أكثرها ضعفاً في حياته فما كانت لتدوم إلى الأبد، لهذا قرر أخيراً أن يتصرف واختار أن يعترف برودولف منافس هنري ملكاً مناوئاً لهنري، وهكذا بدأت المعركة من جديد، وهكذا عاد غريغوري وحرم هنري مرة ثانية في مجمع كنسي روماني عقد في آذار 1080م، وكان الإعلان الطويل والغريب محاولة لتسويغ أعماله فضلاً عن محاولة تفسير الحوادث التي حدثت بعد كانوسا، حين قال: «لقد أتى هنري إليّ وكله ارتباك وكله ذل، وهو يتوسل أن أعفيه من حرمانه، وعندما شاهدت تذلله، وبعد أن قدم وعوداً مخلصة بتغيير طرق حياته أرجعته إلى حظيرة الجماعة، ولكني لم أعده إلى السلطة الملكية التي كنت قد عزلته منها في مجمع روماني»،

وتلا ذلك الصيغة العادية لمرسوم الحرمان الجديد، ذلك الحرمان الذي أصبح مبتذلاً بعد أن تكرر بهذا الشكل، ونسمع أخيراً هذه التهديدات «ولتنزل على هنري المذكور آنفاً حكمك وغضبك حتى يعلم الناس جميعاً أنه قد سقط وسحق ليس صدفة بل بقدرتك وسلطتك أيها الرب، وليس لديه إلاّ التوبة والندم حتى تنقذ روحه يوم الحساب».

لم يسقط هنري الملك المخلوع، بل سقط رودولف الملك الذي اعترف به البابا وباركه، سقط في معركة خاضها ضد السكسون بعد أن أصيب بجرح بليغ سبب موته (يُرى الهيكل العظمي الأسود لذراعه بعد أن قطعت يده، والذي يفترض أنه رفع هذا الذراع كما لو كان يقوم بأداء القسم في كاتدرائية ميرسبيرغ)، وهكذا فقدت لعنة غريغوري قوتها وسحرها، وفوق ذلك عين هنري ويلبرت أسقف رافنا، وهو رجل ذو بصيرة وعلم كبير، حبراً أعظم منافساً للبابا، وقد لاحظ أحد المؤرخين في ذلك الزمن وقبل موت رودولف أن كل شيء كان مزدوجاً، فهناك ملكان، وبابوان، ومجموعتان من الأساقفة، واستعد هنري هذه المرة لعبور جبال الألب وكان الهدف روما والبابوية.

وكانت الأعوام الثلاثة التالية التي سوف نذكرها بكل ما فيها من فزع وأهوال هي بين أكثر أعوام التاريخ إثارة ومشاكل، وكان الممثلون الرئيسيون في هذه المأساة هم:

غريغوري، وهنري، والقائد النورماندي روبرت غويسكارد، وماتيلدا المخلصة، ولكن من الصعب أن نحدِّد المنتصر في هذا الصراع الأخير، إذا جاز لنا أن نقول أن أحداً قد انتصر، وذلك لأن التطورات التي حدثت بعد عبور هنري لجبال الألب، كانت عبارة عن سلسلة كبيرة من الحوادث التاريخية، التي سببت خسارة الجميع، فقد حاصر هنري روما مدة ثلاثة أعوام، لكنه لم يستطع دخولها أبداً، بل تعرّضت المدينة للحرق على يد النورمان أنفسهم الذين استدعاهم غريغوري لإنقاذها، هذا ولقد لقي ألوف من السكان حتفهم، أو بيعوا في أسواق النخاسة، وقد تخرب كل ما بقي من عظمة وجلال روما القديمة، وأصبح أطلالاً، وبيعت الأعمدة الفخمة الرائعة والتماثيل القديمة التي كانت تزين

الساحات العامة، وأرسلت لتستعمل لتشييد الأبنية في جميع أنحاء أوروبا، وأما غريغوري فقد احتفظت به أسرة بيرليوني حفظاً لسلامته، في قلعة رومانية قديمة، كانت معقلاً من معاقل الوثنية التي حاول البابوات القضاء عليها، وقد مات في المنفى عقب مدة قصيرة بعد أن أنهكه المرض وهده التفكير بما أصاب مدينته المحبوبة، ونزل بها من المحن التي تعرضت لها من نهب وحرقٍ وتخريب، ولقد عم الموت والخراب والتعويق والخيانة على يد الصديق قبل العدو، الأمر الذي سبب خيبة أمل الجميع، وأخيراً وضع التاج الإمبراطوري على رأس الإمبراطور، لكنه كان تاجاً هشاً من ورق، وذلك لأن سيادة السلطة الزمنية قد ولى أمرها وانتهت، ومع أن البابا لم يربح المعركة، إلا أن البابوية هي التي ربحتها.

وابتدأت المأساة عندما وصل هنري على رأس جيشه، كان جيشاً لا بأس بعدده، ولكن لم يكن بحجم يؤهله لانتزاع النصر، ووصل له الدعم العسكري، والسياسي كما هي العادة من لومبارديا المعادية للبابا، حيث أعلن كلمنت الثالث حبراً أعظم جديداً بدلاً من غريغوري، لكن هذا الإعلان لم يكن له قيمة شرعية من أي نوع كان وعدّ خرقاً لقانون الانتخاب لعام 1057م، إذ كيف سولت لأعداء غريغوري أنفسهم اتهامه بالقيام بمناورات غير قانونية، مع أنهم عمدوا هم أنفسهم آنذاك إلى تعيين رجلٍ في منصب الحبر الأعظم، دون موافقة مجلس الكرادلة، وهكذا يبدو موقفهم مُحيراً، وليس من العجيب أن نرى أن كلمنت ظل طيلة الوقت مقدراً حبراً أعظم خاصاً بهنري: وليس بالمسيحية.

ومن نافلة القول أن نذكر أنه عندما تنازل البابا غريغوري السادس عن عرش البابوية، كان خلفه الذي قدمه هنري الثالث للرومان يُدعى كلمنت أيضاً، وهذه دلالة تشير إلى أن هنري الرابع كان يحاول أن يتطابق دوره، ويتماثل مع دور والده، الذي كان يحترمه ويقتفي آثاره تماماً كما كان غريغوري يتناغم، ويقتفي آثار غريغوري السادس، لكن روبرت غويسكارد القائد النورماندي الذي كان قد أسر البابا ليو التاسع في سيفيتيلا،

صدف أنه لم يكن موجوداً، إذ كان في إحدى مغامراته في اليونان، ولهذا لم يستطع أن يرسل أكثر من مفرزة صغيرة لمساعدة المليشيا الرومانية والمدافعين التوسكانيين الذي أعدَّتهم ماتيلدا للعمل على تحصين المتاريس في روما، وتزويدها بالجند.

وكانت الأماكن المحصنة التابعة للنبلاء تعُج بالجنود الخاصة التي كان على رأسها قوى عائلة فرانجيباني وسنسيوس التي أصبحت موالية للبابا في هذا الوقت، كما أن آل بيرليوني حصنوا مواقعهم وتحصيناتهم في تراستفيري ولم يستسلموا للعدو، ولقد تحقق هنري وتيقن من قدرة قوى الدفاع العسكرية وتماسكها بعناد ولاءً للبابا غريغوري، ولهذا لم يجرؤ على مهاجمة المدينة، الأمر الذي ساعد في إضعاف حزبه في روما، ذلك الحزب الذي استطاع في الماضي أن يخطف البابا، اجتمع أفراده الآن لا قائد ولا زعيم لهم، (وكان سنسيسوس قد مات منذ مدة، وكما قال أعداؤه: ذهب إلى الجحيم)، وهكذا أقام هنري بلاطه الملكي خارج روما، حيث أقيمت الاستعراضات العسكرية والمواكب التي كان البابا الصوري كليمنت يُمثل دور المهرج المقدس فيها، كل هذا كان يتم تحت سمع الرومان وبصرهم، ويزودهم بالتسلية عند مراقبتهم لهذه المناظر وهذه الحركات من متاريسهم وشرفاتهم.

وبعد أربعين يوماً من هذا الحصار الذي لم يكن من طائل تحته، انسحب هنري إلى توسكانيا، حيث التحقت به قوى لوكا، وبيزا وسينا الذين بهرتهم قوته وسحره الجديد، وبقيت فلورنسا موالية لماتيلدا التي كانت قلاعها وحصونها تنتشر في جميع الأصقاع الشمالية، والتي برهنت أنها من أكفأ خصوم هنري وأشدهم وقعاً عليه، هذا وقد استؤنفت الحملة ضد روما في ربيع عام 1082م، ولكن بالنتائج نفسها والإخفاق، فقد أصبح غريغوري يملك السيطرة الكاملة على روما، ومع أن جنود هنري بدأوا بسلب ونهب الريف المجاور لروما، إلاّ أن المدينة بقيت سالمة ولم تُمس، وظلت ماتيلدا تثبت أنها خصم عنيد عندما كانت تثير حملات صغيرة من خلال

قلاعها وحصونها، وقد ظل الحال على هذا المنوال سبعة أشهر أخرى في حصار عقيم دون طائل، ودون إحراز أي نجاح.

حقاً لقد بدأ أهالي روما يلغطون ويتذمرون، وإن أحسن علاج لمثل هذا الهيجان الشعبي كان هو دائماً النقود، هذا وقد أرسل النورمان النقود بدلاً من المساعدات العسكرية التي كانت المدينة في أمَسِّ الحاجة إليها، وقد كانت ماتيلدا تصهر الأواني الذهبية والفضية التي كانت تُزين كنيستها وتبعث بالمعادن الثمينة إلى صديقها، وبالطبع ساعد آل بيرليوني صديقهم وقريبهم إلى أبعد الحدود، وهكذا استطاعوا تجنُب النقمة الشعبية، والتمرد الشعبي ولم يبق هناك أي تذمر أو عدم رضا بين الأسر النبيلة، وفي شهر حزيران أحرز هنري انتصاراً جزئياً، ولكنه لم يكن يخلو من الأهمية، فقد فتح المدينة الليونية، ولكن غريغوري استقر في كنيسة القديس بطرس حيث استأنف المقاومة بعناد، ولكن أصبح هذا العمل محفوفاً بالخطر، ولهذا أصرت أسرته على أن ينتقل إلى قلعة سانت انجيلو المنيعة، وذلك لمتابعة الحصار، لأن هذه القلعة كانت أمنع معقل لهذه الأسرة وهي ضريح هدريانوس – لأن الجميع كانوا يتوقعون أن يأتي النورمان تحت قيادة روبرت غويسكارد ما بين لحظة وأخرى –، ولا يعلم إذا كانت الأسرة قد اشترت هذا المبنى الهائل أو أنه انتقل إلى حوزتها بوسائل أخرى، ولكن من المؤكد أنهم لم يمتلكوها بالوقت نفسه الذي امتلكوا به قلعة الأسرة الأخرى، وهي مسرح مارسيلوس، التي بقيت بيد هذه الأسرة مدة ثلاثمائة عام، ولكن ما يهمنا هو أنها كانت بيد الأسرة في الوقت المناسب، وقت الحاجة، وكانت القلعة ضخمة جداً، حتى أن جميع موظفي البابوية كانوا يستطيعون الإقامة بها، أو في جزء منها فقط، والحقيقة أن غريغوري استمر في حكم الكنيسة، وهو متمركز في كنيسة سانت انجيلو.

لقد كان انتقال البابا من كنيسة الرسول بطرس عملاً سليماً، لأنه سرعان ما استولى هنري على البازليكا القديمة، وقد علق المؤرخ غريغوري، الذي كتب عن هذه الحقبة

بتأثر عميق، ويتعاطف كبير بقوله: «وهكذا دخل هنري كنيسة الرسول بطرس بعد محاولات طويلة غير مجدية، بينما كان عدوه اللدود مختبئاً في كنيسة سانت انجيلو ينظر من خلال المتاريس، ويراقب ذلك المذنب التائب القديم في كانوسا، وهو محاط بالفرسان والأساقفة والنبلاء الرومان، تحرسه جماعته المخالفون للبابا، وهو يسير فوق الخرائب المحترقة متُجهاً إلى كاتدرائية القديس بطرس»، وربما كانت تسبيحة الشكر التي تسمع من الكاتدرائية تسبب له بعض الهدوء، وتلطف مزاجه قليلاً، ما دام أنه انتقم، وما أحلى الانتقام! ولكن كل ذلك لم يكن يُرضه تماماً، فقد كان البابا الذي عينه ألعوبة بيده (مع أنه كان مفيداً في الوقت الحاضر) لم يكن قد نُصب بشكل شرعي، ولم ينتخب بشكل شرعي أيضاً، لا بل حتى تاجه الإمبراطوري الذي كان تمناه، لم يكن قد ثبت على رأسه بعد، وكانت هنالك أمنية تدغدغ أفكاره، وهي أن يأتي اليوم الذي سوف يتوِّجه به غريغوري العظيم بنفسه.

وأضفى تزامن وجود حالة الحرب، مع وجود البابا في كنيسة سانت أنجيلو، على تلك الكنيسة تبايناً غريباً، فقد بنيت القلعة بمهارة فائقة، وبراعة في الصناعة مما جعلها تظهر حتى في هذه الأيام، وكأنها لم تمس، ولن تمس، فالأسوار سميكة جداً وبإمكانها مقاومة أي نوع من الهجوم، وإذا استعملنا مفاهيم العصور الوسطى نجد أن مناعة هذه القلعة ليست مجرد كلام، أو أسطورة، وهنالك نفق عظيم سري يصل هذه الكنيسة بكنيسة القديس بطرس، وقد حُفر هذا النفق لكي يفي بأغراضٍ كالأغراض التي وجد غريغوري نفسه في حاجة إليها، ولو كان هذا النفق موجوداً في القرن الحادي عشر إذن لخدم في تأمين الاتصال لنقل الحاجيات الثمينة، والمواد والأدوات الطقوسية، والمخطوطات حتى في أيام الحصار من قِبل عدو متربص لا يبعد أكثر من بضع مئات من الأقدام عن الكنيسة (لم أجد برهاناً يثبت ذلك)، ولما كان هذا النفق سرياً، فيجب أن يكون قد استعمل بعد أن اخترق هنري الأسوار، وعلى كل حال فقد كانت القلعة مجهزة

تجهيزاً كافياً لاستعمال البابا للعبادة والصلاة فضلاً عن مقتضيات الحكم البابوي، ولا يَسع الإنسان عندما يتجول في هذه الأيام في تلك الأقبية اللامتناهية في عددها، (والتي هي الآن عبارة عن متحف) إلا أن يجمح به الخيال فيتصور كيف كانت تبدو عندما كانت تستخدم في مجموعة من الأغراض، أي ككنيسة للبابا، ومقراً للحكم، ولاشك أن بعض المذابح قد نُقلت من كنيسة القديس بطرس، وكذلك اللوحات والتماثيل وكراسي القراءة المزينة والمحفورة بأسلوب رومانسيكي أنيق، والكتب والمخطوطات الطقوسية المكتوبة بجمال وإتقان وأناقة، على يد رهبان مونتو كازينو، وفي إحدى الصالات التي أصبحت كنيسة خاصة بالبابا، كان غريغوري يحتفل بالقداس كل يوم في ساعات معينة مخصصة للاكليروس والنبلاء، وفي أوقات أخرى كان القداس يخصص لرجال المليشيا الذين كانوا يؤمُّون الكنيسة بشكل ربما كان غير محبب إلى أنفسهم، وكانوا يلبسون ألبستهم الرسمية البديلة ويتنكبون الأقواس والسهام، وهم على أتم الاستعداد لرد أي اعتداء، ومن المحتمل وجود جوقة لترديد الأناشيد المقدسة (التي كانت تنافس الأصوات الخشنة الصادرة عن الجنود الموجودين في الخارج، وفي ممرات الكنيسة وفي قاعاتها)، وفي هذه الأيام يستطيع الإنسان أن يجلس في مقهى صغير على السطح، ويرى منظراً شاملاً عريضاً لروما مع كنيسة القديس بطرس في خلفيتها (وكانت كنيسة ميكيل أنجيلو أقل هيبة وتأثيراً، مما هي عليه الآن، ولم يكن قد بني بها رواق برليني المعمد الرائع)، وهنا ربما يذكر الإنسان غريغوري، وهو يراقب المدينة من المكان نفسه، ويحدق بقلق بالجنود الألمان، واللومبارديين الذين كانت رؤوسهم تُرى وهم يحرسون الأسوار حول المدينة الليونية، وفيما بعد وبعد أن اخترق الألمان المدينة كان هؤلاء الجند يسيرون في الشوارع عبر نهر التيبر ليس على بُعد أكثر من رمية حجر، ولكن لم يرم أي حجر على سجن القلعة، ويمكن للإنسان أن يتخيل غريغوري وهو يحدق في السهول البعيدة المحيطة بروما وهو يَرقب بقلق أية إشارة تظهر من النورمان القادمين، وهم أمله الوحيد، الذين سوف يأتون لحمايته

حتماً، ومساعدته حالما يُنهي غويسكارد تصريف شؤونه وتسويتها في بلاد الإغريق، فالرجل الذي كان عدوه اللدود بالأمس، أصبح اليوم الحليف العظيم لغريغوري.

في هذا المحبس في هذه القلعة كتب غريغوري ودبج بعض رسائله واستغاثاته ومناشداته، ولما كانت هذه الرسائل قد كتبت في حالة ضيق وكرب، لذلك فهي تكشف حقيقة هذا الرجل أكثر مما تكشفه رسائله، وهو في أوج قوته وسلطته، التي لم يكن يُنازعه بها منازع، وكان أعداؤه وكل من لم يعرفه يعتقدون أنه عنيد، ولكن الحقيقة أن ثباته وجَلده بالنسبة للإيمان وتكريسه نفسه لإتمام أهدافه، هذه الصفات جعلته صُلباً لا يلين، وتظهر بشكل جلي في هذه الرسائل رجولته وشجاعته التي رافقته وأصبحت من خصائصه وصفاته الرئيسة حتى النهاية، ولاشك أنه كان يعلم أنه كان يسطر حروف التاريخ، ونذكر هنا نموذجاً، وهو دون تاريخ ولكنه يرجع إلى أيام حصار روما، وهو موجه «**لجميع رعايا الكرسي البابوي وأتباعه**»:

«إننا متأكدون أيها الأخوة المحبوبون أنكم تتعاطفون مع آلامنا، وما نحن فيه من محن، وأنكم لا تنسوننا، بل سنظل في قلوبكم وأنتم تصلون للرب، ولن يتطرق الشك إلى نفوسكم بأننا نُضمر لكم المشاعر نفسها، ولنا سبب وجيه لهذا الإضمار، لأن الرسول يقول: (إذا تألم عضو منكم تألم له سائر الجسد)، لذلك فنحن نرغب في شيء واحد فقط، وهو أن تعود الكنيسة المقدسة إلى سالف مجدها وروعتها ووحدتها، بعد أن وطئتها الأقدام، ودبت بها الفوضى وتقسمت أحزاباً وطوائف، ولا يأخذكم العجب أيها الإخوة الأحباء إذا قلت لكم أن العالم يكرهكم، لأننا نحن نثير العالم ضدنا بمقاومتنا لرغباته، وإدانتنا لأعماله، لماذا يستبد بنا العجب عندما نرى الأمراء وكبار القوم في هذا العالم يكرهوننا حينما نقاوم أعمالهم الشريرة ونثور ضدهم بغضب، ومع ذلك، حتى هذا الوقت، فقليل منا قد قاوم الطغاة والأشرار مقاومة جدية تبلغ حد إراقة الدماء، فكروا أيها الإخوة، فكروا كم من الجنود في هذا العالم قد قدموا حياتهم لأجل سادتهم، ولأجل

مطامع هؤلاء السادة في الربح وقذارة المال، أما نحن فماذا عملنا لنحوز على مرضاة الرب في علاه، ولراحة أنفسنا الأبدية؟ تعالوا، وقووا قلوبكم، ولتبقى آمالكم حية، وضعوا نصب أعينكم راية قائدنا الملك الخالد الأبدي، ونصيحته: **(بصبر، حافظوا على أرواحكم)**».

هذا الرجل الذي كتب مثل هذه الرسائل في أحلك ساعات الشدة والكرب، وانقطاع الأمل، هو الذي تقدم نبلاء الرومان للتفاوض بالنيابة عنه، فقد عمل سنسيوس فرنجيباني، وهو صديق طفولة غريغوري وألبيرك بيرليوني قريبه على التردد ذهاباً وإياباً على رأس وفد لإيجاد حل سلمي تحفظ به كرامة البابا وهيبة الإمبراطور، وتنقذ به روما نفسها، وكان من المفهوم أن هنري رغب بقبول التسوية على شرط أن يتم تتويجه على يد البابا الشرعي، ولم يكن مهتماً جداً، بالاعتراف رسمياً بالبابا البديل الذي عينه هو، بل قال أنه يكتفي لو أن غريغوري ناوله التاج من نافذة من نوافذ القلعة واضعاً إياه على عصا طويلة، وأما النبلاء فكانوا يحسبون حساباً لمزاج الشعب، وكمية الأطعمة المتناقصة يوماً بعد يوم، والتكاليف المتزايدة للإنفاق على الجند ورشوة الرعاع، فلم تكن أموال ماتيلدا، ولا أموال أسرة بيرليوني لتظل باقية دون أن تنفد إلى الأبد، ولهذا ذهب النبلاء إلى غريغوري وهم يحملون هذه الأفكار، ولكنهم وجدوا في غريغوري رجلاً عنيداً لا يلين، والآن لقد أصبح في أواخر عمره (كان يشعر أن الإجهاد قد أثر عليه)، فلم يكن ليبيع كل رصيده للعدو الذي ظل طيلة حياته يطارده، ولهذا يكون قد خان مبادئه بتحكم البابا، فقد كان يريد أن يبرهن للعالم أجمع، أن البابا هو الشخص الذي يتوجب على الأمراء أن ينحنوا إجلالاً له.

وكان غريغوري يعتقد أنه إذا صدف وعمد البابا - وهو الذي تقمص به الرسول بطرس، وهو أيضاً نائب المسيح - إلى إجراء تنازلات وتسويات مع الملك الألماني، تحت تهديد السلاح، فذلك خيانة للرسول بطرس، إن لم يكن خيانة للمسيح نفسه، وقال إنه

لن تستطيع أية مناقشات أو محاولات يقوم بها أحد من بني البشر أن تثنيه عن عزمه للاحتفاظ بهذا الموقف، وهكذا تركه النبلاء، وهم يشعرون بخيبة الأمل، لأنهم علموا أنهم إذا كانوا يتفهمون دوافع البابا الداخلية، ويحترمون هذه الدوافع، فإن رجل الشارع لن يفعل ذلك، والدفاع عن روما لا يعتمد على النبلاء ولا حتى على المليشيا فحسب، بل على الشعب أيضاً، وإذا حدثت حرب أهلية فهي الكارثة.

وفي أثناء ذلك شعر هنري بخيبة الأمل بسبب نجاحه العسكري المحدود وإخفاق مفاوضاته الكامل، فترك روما وليس فيها سوى حوالي أربعمائة جندي ألماني، وتوجه إلى كانوسا، وكما ضغط غريغوري من قبل على هنري في كانوسا، هنا قرر هنري أن يقوم بالضغط نفسه على ماتيلدا، التي كانت قد أصبحت قائدة الجيوش المنتشرة في الشمال، والتي كانت تضايق هنري بغاراتها المتكررة باستمرار، وبينما كانت ماتيلدا ترسل المساعدة تلو المساعدة والتشجيع لصديقها غريغوري، لذلك أصبحت أكثر شبهاً بالأمازونية[1] أكثر منها بالبطلة التوراتية، هذا وقد جندت كل نشاطها وعواطفها ومواردها في ناحية واحدة، وفي هدف واحد، وهو كسر هنري وإعادة سلطة غريغوري، وعندما تعرضت لضغوط شديدة تخلت قليلاً وبصورة مؤقتة، ولكنها استعادت قوتها وعزمها بالصلاة والتأمل، فبدأت تعمل كأنها روح منتقمة أو كامرأة حقود، وقد كرست نفسها، وكل ما تملكه لهدف واحد وهو النصر.

رجع هنري إلى روما عشية عيد الميلاد في عام 1083م، وهنالك ظهر له أن معظم جنوده قد لاقوا حتفهم نتيجة للحمى، وأن غريغوري صلب لا تلين قناته، إلا أن الوضع قد تغير تماماً، فبالنسبة للرومانيين أصبحوا يفكرون أن هنري لم يعد هو سبب جوعهم وحرمانهم وتعبهم في الساعات الطويلة التي قضوها في الحراسة والترقب، ولم يعد هو

---

(1) الأمازونية: امرأة من عرق خرافي ومن المحاربات، زعمت الأساطير الإغريقية أنهن كن يقمن قرب البحر الأسود، والواحدة منهن طويلة القامة مسترجلة.

السبب في التمزق الذي حدث في حياتهم الخاصة، بل عدّوا غريغوري هو المسؤول الوحيد، فقد أصبح سواد الشعب لا يرى ولا يتخيل في البابا إلا رجلاً مسناً عنيداً لا يفكر بمصلحة الشعب، قدر ما يفكر بمصالحه الخاصة وبنفسه، أما القضايا المعقدة التي تتطلب تفكيراً رفيعاً، وأما المعايير التاريخية والتخطيط الطويل الأمد لسياسة الكنيسة، فلم يكن يهم عامة الشعب لا في قليل ولا في كثير، وهكذا فتح الرعاع والغوغاء الرومان أبواب مدينتهم على مصراعيها (أو على الأقل الأبواب التي سيطروا عليها، ووصلوا إليها بسهولة) ودخل هنري وجنوده المدينة، ولم يأت اليوم الحادي والعشرون من شهر آذار، إلاّ وقد أصبحت روما جميعها تحت سيطرته (أو على الأقل الأجزاء الأكثر أهمية فيها)، وظل غريغوري قابعاً في كنيسة سان أنجيلو، واحتفظ آل بيرليوني بالضفة اليسرى، وأما ما عدا هذه المناطق فكان بيد الألمان، وفي يوم أحد السعف[1] جمع هنري برلمان الرومان الذي دُعي إليه النبلاء والاكليروس، وأما غريغوري الذي لم يظهر طبعاً، فقد أعلن عزله بسرعة، ودون إبطاء، وأعلن أن البابا الشرعي هو كلمنت الثالث، ومع أن هذا الإعلان لم يكن ليعني شيئاً بالنسبة للقانون الكنسي، إلا أنه كافياً بالنسبة لهنري، وفي يوم أحد الفصح تجمع مؤيدوه في كنيسة الرسول بطرس (ربما كان غريغوري يراقبهم من الأبراج الصغيرة في القلعة)، وهناك توج كلمنت الثالث هنري والملكة بيرتا إمبراطوراً وإمبراطورة، للإمبراطورية الرومانية المقدسة.

وبعد بضعة أسابيع من هذا الحادث، وفي الرابع والعشرين من شهر أيار، لاحظ الحراس الرومان بعض الحركات الغريبة في الوديان، فقد رأوا الخوذ العسكرية والرماح على مسافة منهم، وهي تلمع تحت أشعة الشمس، ثم ظهرت كتائب الجنود، وهي تهدر كالأمواج على الشاطئ بأعداد متصلة لا نهاية لها، وبشكل قاس لا يلين، وسرعان ما

---

(1) أحد السعف هو يوم الأحد الذي يسبق عيد الفصح، وفيه تحيي ذكرى دخول المسيح ظافراً إلى بيت المقدس حيث نشرت على طريقه سعف النخل.

غصت السهول والوديان بالجنود الفرسان منهم والمشاة، فها قد أتى النورمان أخيراً، وعلى رأسهم غويسكارد وابنه الأصغر في جيش يتألف من حوالي ستة آلاف فارس، وثلاثين ألفاً من المشاة.

وقد كان هؤلاء خليط من الرجال جمعوا من كثير من بقاع الأرض، ولكنهم كانوا تحت قيادة النورمان، ومعظمهم من العرب والمسلمين من صقلية، ومن كل زاوية وقطر من الأقطار الإسلامية، وقد تألف منهم حشد هائل متنافر متعدد الألوان مسلح تسليحاً كاملاً، ولكنهم كانوا جياعاً يميلون للتخريب والتعذيب، يعوزهم النظام، ويتوقون لاحتلال روما، وعندما رأى هنري هذه الجموع تأكد أن ليس باستطاعته مقاومتها، ولما كان قد حصل على أمنيته، وهي التتويج، لذلك بدأ بالتقهقر بجيشه الصغير شمالاً، ودخل غويسكارد المدينة بصفة محرر عظيم، وتقدم إلى كنيسة سانت أنجيلو، حيث عانقه البابا غريغوري السابع وقبله، ويا له من منظر عاطفي غريب، إذا قورن بمنظر سالف للبابا ليو التاسع في سيفيتيلا (تذكر أن النورمان قد أخذوا هذا البابا أسيراً حينها) ومع ذلك فقد تحررت روما الآن ووجدت البابوية حامياً قوياً شديد المراس يرتجف حتى الإمبراطور أمامه فرَقاً، وهاهو غويسكارد يمثل قوة الغد، فقد استولى أنسباؤه وأقرباؤه على إنكلترا، وأصبحت إمبراطوريته ظاهرة سياسية جديدة في العصور الوسطى، ومثل هذا الرجل قد أتى لتحرير البابا، ومعه الكنيسة برمتها التي قضت شهوراً وسنوات قيد الأسر الحقيقي، هذا وقد آن أوان التحرر، وتحرك الموكب في اتجاه القصر اللاتيراني في مظاهرة أقل ما يقال عنها أنها كانت مظاهرة النصر، وحتى الظفر، وحالما ركع غريغوري في قدس الأقداس في الكنيسة العظيمة وهو يحتفل بالقداس، تقدم بالشكر للرب في صلاة كلها إخلاص وامتنان وشكران، إذ لم تعد الكنيسة رهن القيود والأغلال.

ولسوء الحظ ثبت أن غريغوري كان مخطئاً، فقد كانت الاحتكاكات الأولى بين الرومان والنورمانديين أمراً محتملاً في أول الأمر، أي مجرد علاقة مع أي جيش أجنبي،

ولكن لم تمض بضعة أيام حتى طفح الكيل واكتشفت روما أنها كانت تتعامل مع جيوش وحوش، إذ انتشر الاغتصاب والقتل والحرق والنهب والسلب، واقترفت كل الأعمال الوحشية، مما سبب استنفاد صبر الرومان، وقد كانت الاحتكاكات أولاً تنحصر في الحانات والمواخير العامة، ومناوشات في بعض الشوارع، ولكن سرعان ما لجأوا لاستعمال أسلحة المعارك، ولم يكن هنالك أي شك لمن سيكون النصر، فالخاسر طبعاً هو الشعب، وكما لاحظنا فقد الألوف من الشعب أرواحهم في الشوارع دونما سبب، ودونما مقاومة، بينما بيع الألوف من الآخرين، ومن بينهم أفراد من الأسر النبيلة في أسواق النخاسة، وبدأت روما تحترق بضراوة، وانتشر اللهب في بعض القصور والأسوار والحدائق، والبعض الآخر هُدم وسويت به الأرض بعد أن نهبت البيوت وانتهكت أعراض النساء، وهدمت النصب المسيحية القديمة، وأصبحت قاعاً صَفْصفاً، وأكواماً من الحجارة والركام، وقد وصف الشعراء بعد زمن ما حل بروما من الخراب بأسلوب مؤثر يُفتت الأكباد، ومما زاد الطين بلة أن الجنود المسلمين توغلوا في كنيسة الرسول بطرس، ولأول مرة في التاريخ ارتفعت أصوات الصلوات الإسلامية التي بدت كجوقة من جوقات النصر، (أما بالنسبة للرومان فكانت هذه الصلوات الإسلامية تشبه ألحاناً حزينة، وترانيم جنائزية ممزوجة بالخزي والعار)، وقد حدث هذا كله في القاعات المقدسة للعالم المسيحي.

وهكذا، وكما كانت مدينة القدس - التي عمل غريغوري على تخطيط حملة صليبية لتحريرها - خاضعة للسيطرة السلجوقية هكذا كانت روما، قدس المسيحية بأجمعها قد تحولت أطلالاً لا فائدة منها على يد غير المسيحيين، ولم يذكر أي مؤرخ أية كلمة قالها غريغوري حتى في رسائل صديقته الوفية ماتيلدا، يصف بها أفكاره وعواطفه حالما كان ينظر إلى تلك المدينة، التي قضى بها شبابه، وعمل فيها لأجل الكنيسة قبل أن يستلم منصب البابا، وأخيراً تلك المدة التي قضاها، وهو يحكم ذلك الشعب الذي عرفه وأحبه، ولقد أصبحت روما فارغة وعقيمة لا طائل تحتها، فلقد دُنست، وانتهكت

قدسيتها، وها هم النورمان يتركون المدينة بعد أن حشدوا حشودهم فيها، ووراءهم الدخان يرتفع من كثير من الأبنية المحترقة، وظل ألوف الموتى ملقون على الأرض في الشوارع دون أن يدفنوا، ورائحة الموت تنتشر في المدينة، ولا شيء يسود فيها سوى الإقفار والخراب، والبؤس البشري على مدى العين والنظر ولقد أصبح غريغوري غريباً في مدينة طفولته، يشعر بالعزلة، وكراهية شعبه ومقتهم وازدرائهم له، فلم يعد يخشى هنري فحسب، بل كان عليه أن يرهب أتباعه ورعاياه، وعندما أدرك أنه من الأسلم له أن يكون تحت حماية غويسكارد، انتقل ليقضي بقية عمره في قصر من قصور سالرنو في إيطاليا، وسرعان ما تركه غويسكارد، ومات بعد أن استحوذت عليه فكرة الاستيلاء على القسطنطينية، وقد دعا غريغوري لعقد مجمع كنسي في سالرنو، لكن انحطاط روحه المعنوية، وعزيمته، تضافرت مع انحطاط جسمه، فلم يستطع أن يغادر فراش مرضه، وهكذا توفي في اليوم الخامس والعشرين من شهر أيار عام 1085م، وهو في الثالثة والستين من العمر، وقد قيل أن آخر أفكاره كانت تتوجه دوماً نحو ذلك المبدأ الذي دافع عنه طيلة حياته: «لقد أحببت العدالة، وكرهت الجور والخطيئة، ولذلك فإني أموت منفياً»، وإن هذه الكلمات ما هي إلاّ إعادة لصياغة واحد من الأناشيد التوراتية القديمة، وقد دفن تحت مذبح كاتدرائية سالرنو في صقلية.

ومع أن غريغوري قد سمى أربعة أساقفة كخلفاء يحتمل انتخاب أي واحد منهم ليخلفه، إلاّ أنه مضت أكثر من سنة قبل أن ينتخب بابا جديد، وأخيراً اختاروا حبراً أعظم جديداً، وكان نعْمَ الاختيار، ولكنه بقي متردداً في قبول هذا المنصب، ورفض ممارسة أية سلطة، فقد كان غنياً، تقياً ورعاً، ميالاً للرهبنة، وعالماً، وهو كاردينال القديسة سيليا في تراستفيري، موطن غريغوري، لكن حبه وإخلاصه ينتمي إلى دير مونتي كازينو، وقد أعلن حبراً أعظم في أواخر الربيع من عام 1086م باسم فكتور الثالث (1086 - 1087م)، وبالنسبة لرجل أكثر قدرة وطموحاً من هذا الرجل كانت المطالب التي تواجه البابوية في

تلك المرحلة غاية في التحدي، وقد وجدهم فكتور ليس فقط مثبطين للهمة، لا بل حتى مخيفين، فكان في كثير من الأحيان عندما كانت تضايقه مشاكل الكوريا، قد اعتاد أن ينسحب ليرتاح في مونتي كازينو.

وأصبح الحزب الإمبراطوري هو الحاكم الفعلي لروما، مع أن حكم المدينة وإداراتها كان بيد ائتلاف من أسرتي فرانجيباني وبيرليوني (ونجد اسمي هاتين الأسرتين في وثائق معاصرة)، وكانت كنيسة الرسول بطرس بيد أعدائهم وقد اضطرت أسرة بيرليوني أن تتخلى عنها أخيراً، وأما منافس غريغوري على البابوية وهو البابا كلمنت الثالث، فقد بدا في أول الأمر تافهاً ضئيلاً، إلاّ أنه استطاع أن يسيطر على كنيسة القديس بطرس، وقصر اللاتيران، وحصل على اعتراف كثير من الدول بما فيها هنغاريا وإنكلترا، وأما هنري الرابع الذي ظهر أولاً أنه شعر بالراحة لتوقف معاركه ضد غريغوري وأعدائه التقليديين، ما لبث أن تورط في نزاع مأساوي ضد ابنه الأكبر كونراد الذي أجبره على التنازل عن العرش، ونصب نفسه ملكاً على اللومبارد.

إن هذا الوضع مع ما فيه من الضرر للكوريا ولحزب الإصلاح، إلاّ أنه جعل من الجزيرة في نهر التيبر معقلاً شديد الأهمية والقوة، وجعل من آل بيرليوني قوة أعظم من السالف، ولكن ولاءهم للبابوية الشرعية ظل أمراً لا يتطرق إليه الشك، وقد ثبت أن امتلاكهم لتراستفيري وللجزيرة أمر لا يُستغنى عنه، ولما كان البابوات الشرعيين لا يستطيعون أن يعيشوا في كنيسة الرسول بطرس، لهذا أقاموا مع أسرة بيرليوني في البرج الذي لا يزال مشاهداً حتى اليوم، ومن الممتع أن نقول أن الجزيرة قد احتفظت بطابعها اليهودي، وقد أنشئ مستشفى لليهود الفقراء هناك، وتنفق عليه الجماعة اليهودية في روما، وهنالك إشارة كتب عليها ما يلي: «المشفى اليهودي لمعالجة فقراء اليهود»، ويقع على الجزيرة برج يعود في تاريخه إلى العصور الوسطى، ويعرف باسم برج ماتيلدا حاكمة توسكانيا، ويسكن في غُرفه فقراء روما، لكن البرج نفسه سامق وشامخ إلى العلاء،

يشرف على جميع منطقة تراستفيري، وعلى منظر الضفة اليسرى لنهر التيبر، وعلى الرغم من مرور حوالي ثمانمائة عام عليه، إلاّ أنه لا يزال في حالة حسنة، وفي هذا المكان عاش البابوات ضيوفاً على آل بيرليوني الذين أكرموا وفادتهم وأضافوهم، وهم البابوات الذين خلفوا غريغوري السابع.

لم يعش البابا المتردد فيكتور طويلاً، فقد توفي عام 1087 وانتخب الاسم الثاني في القائمة التي اختارها غريغوري، وكان اسم البابا الجديد أوتو أسقف أوستيا، واتخذ لنفسه اسم أوربان الثاني (1088 – 1099م)، وقد ثبت أن انتخابه كان له أهمية سياسية قصوى، وبالنسبة لحالة الفوضى في روما، وانتشار هذا الوضع فيها، فقد حدث انتخابه في البلدة البعيدة القصية، وهي تيراسينا، ولكن هذا الانتخاب كان قانونياً شرعياً في كل مظاهره، وقد روعيت به كل الأنظمة الحديثة السارية المفعول بشأن انتخاب البابا بشكل دقيق، وحضر الانتخاب أربعون كاردينالاً وأسقفاً، ورئيس دير، وهم يشكلون الكوليجيوم[1] ومع أن أوربان وغريغوري كانا صديقي العمر، (ولاشك أن هنالك صداقة بين أوربان وآل بيرليوني)، إلا أن الرجلين يختلفان بعضهما عن بعض، في الخلفيات والأخلاق الشخصية، وإن طبيعة غريغوري الساذجة المزعومة يصفها بعضهم بأنها تعود إلى أصل قروي، ولكن عناده وافتقاره للدبلوماسية، وتحيزه لجانب واحد، ومعاركه التي لا هوادة فيها ضد الإمبراطور، ليست هذه كلها من صفات القرويين والفلاحين، ونحن نعدها صفات وخصائص نبي من أنبياء العهد القديم، وليس من الممكن أن نعد أشعيا فلاحاً، أما أوتو فعلى الرغم من اسمه الألماني، إلاّ أنه ولد لعائلة فرنسية نبيلة في مدينة شاتليون (ليست بعيدة عن ريمس) وكان غنياً، حسن الثقافة، مهذباً، عالمياً، ووسيماً، بينما كان غريغوري قصيراً وبشعاً، مندفعاً متهوراً، يلفظ الكلمات والتهديدات بسرعة من فمه، ونجده عكس أوربان الطويل القامة، المهيب الطلعة، والذي كان يؤثر على كل من يتصل

---

(1) الكوليجيوم مجلس يتمتع كل عضو من أعضائه بسلطة مساوية تقريباً لسلطة الأعضاء الآخرين.

به ، وفي معاملاتــه مـع الأسـاقفة والاكليـروس كـان أوربـان يستعمل لغـة مهذبـة بأسـلوب مهذب ، ويربح تأييدهم بالإقناع وبدون القوة ، ومع ذلك فلم يكن يسـاوم فـي مبـدأ مـع مـا بدت عليه لغته وأسلوبه من تساهل ، وكان من رجال كلوني السالفين ، وكان فـي معتقداتـه قوياً لا يلين مثله مثل غريغوري إذ كان أحد تلاميذه ، وفي الاتصال بجماهير الشعب كانت له مواهب لم يمتلكها إلاّ القلة من البابوات ، فقـد كـان مبشـراً متحمسـاً سـاحراً ، ولـم تكـن مواعظه تمتلك تلك الروح التي نجدها في مواعـظ بطـرس دومـين ، أو مواعـظ سـافونا رولا الذي تأخر عن هذا التاريخ ، وبدلاً من ذلك فكانت بلاغته لها رشاقة مظهرة نفسـها ، وكـانت فصاحتـه لا يضاهيـها أي إنسـان تقلـد منصـب البابويـة ، وسـاعده صوتـه الجـهوري القـوي الرنان ، الذي كان يصـل إلـى آخـر مقعـد فـي الكنيسـة ، ويحمـل رسـالته لكـل مستمع فـي الكاتدرائية ، فلقد كانت مقدرته كخطيب فضلاً عن رسالته ، هي التي صنعت التاريخ .

عند تولي أوربان عرش البابوية تعقدت الأمور وتشوشت فـي رومـا وألمانيـا أكـثر ممـا كانت عليه من قبل ، فقد تزوج هنري الرابع من زوجة جديدة وهي الأميرة أدليد بعد محنته بخيانة ابنه كونراد له ، وعندما ظـهر إخفـاق هـذا الـزواج هربـت أدليـد إلـى مـاتيلدا ، حيـث فتحت لها قلبها ، وأفضت بالفضائح التي منها علاقات غرامية مـع ابـن زوجـها ، هـذا وقـد حاول هنري الانتحار بعد أن أصبح منبوذاً منعزلاً في سجن ابنه ، وظلت روما تحـت سـلطة كليمنـت الثـاني ، وهـو البابـا المضـاد ، وبقـي الحـال علـى هـذا المنـوال حتـى اسـتولى حـزب الإصلاح على اللاتيران بعـد لأي ، وذلـك باسـتعمال الرشـوات والمـال أكـثر مـن اسـتعمال القوة والسلاح ، وهكذا عاد البابا الحقيقي أوربان إلى مقره الرسمي ، ولكن وجود كليمنت البابا المضاد لم يكـن المشـكل الرئيـس الـذي واجهـه أوربـان ، فالمسـيحية أصبحـت فـي هـذا الوقت منقسمة متصدعة بشكل لا يدعو لأي أمل ، ولم تعد المهارة الدبلوماسية كافية لرأب الصدع ، ولهذا رأى أوربان أنه من الضروري القيام بمغامرة مثيرة على مستوى عالمي ، تضع العالم المسيحي بأجمعه أمام عمـل وهـدف عـام مشـترك ، وبعـد وفـاة كلمنـت البابـا المضـاد

أصبح أوربان المتسلط الوحيد دونما منازع ، وبناء على نصيحة ماتيلدا دعا إلى عقد مجمع كنسي في بياسنزا ، المدينة التي استقبل بها هنري الثالث البابا غريغوري السادس قبل أن يُعزل هذا البابا ، وقد صادف هذا المجمع نجاحاً لم يكن متوقعاً ، إذ أعلن أوربان حالاً أنه ينوي عقد جلسة استثنائية فوق العادة في كلير مونت يعلن بها للعالم المسيحي بأجمعه خطة يحتفظ بسريتها حتى الآن ، ولكنها ستخدم في إعادة الوحدة المسيحية إلى سالف عهدها ، وبعد هذه المقدمات المثيرة لا عجب أن نرى أن الكاتدرائية الكبيرة قد غصت على رحبها بالحضور المنقطع النظير بالأساقفة والنبلاء والمؤمنين ، فقد أمَّها مئتين وخمسة أساقفة ، وثلاث عشرة من رؤساء الأساقفة وعدد غفير من الأمراء والنبلاء ، والألوف من المؤمنين الأتقياء ، ومع أنه كان يوماً بارداً من أيام شهر تشرين الثاني ، إلاّ أن هذا الجمع الغفير احتشد ، وانتقل إلى ساحة كبرى خارج البوابة الشرقية للمدينة حيث تجمعوا كتلاً كتلاً للوقاية من زمهرير الشتاء القارس ، وهنا حلت اللحظة الحاسمة :

هنا اعتلى المنصة البابا أوربان بقامته الطويلة ، ووجهه الوسيم ، وتلا خطابه المذهل ، وللأسف لم يحفظ لنا النص الرسمي للخطاب ، ولكن نفهم من التقارير التي نقلت لنا من عدة مصادر أنه دعا لإنهاء حالة الفوضى ، وقتل الأخ لأخيه في العالم المسيحي ، وقد ابتدأ يقول : «انهضوا وأديروا أسلحتكم التي كنتم تستعملونها ضد إخوانكم ، ووجهوها ضد أعدائكم ، أعداء المسيحية ، إنكم تظلمون الأيتام والأرامل ، وأنتم تتورطون في القتل والاغتصاب ، وتنهبون الشعب في الطرق العامة ، وتقبلون الرشاوي لقتل إخوانكم المسيحيين وتريقون دماءهم ، دونما خوف ، أو وجل ، أو خجل ، فأنتم كالطيور الجوارح ، أكلة الجيف التي تنجذب لرائحة الجيف الإنسانية النتنة ، ضحايا جشعكم ، انهضوا إذن ولا تقاتلوا إخوانكم المسيحيين بل قاتلوا أعداءكم الذين استولوا على مدينة القدس ، حاربوا تحت راية المسيح قائدكم الوحيد ، افتدوا أنفسكم ، أنتم المذنبين المقترفين أحط أنواع الآثام وهذه هي مشيئة الرب» ، وهنا دوت أصوات الألوف من الناس الذين رددوا هذه الكلمة

«هذه هي مشيئة الرب» ، ثم تقدم أسقف لى بوي وركع أمام البابا ، واستلم بركته ليقود هذه الحركة المسيحية العظيمة ، وهكذا بدأت الحملة الصليبية الأولى ، تلك الحركة التي أوجدت للمسيحية هدفاً جديداً ، ومع أن هذه الحركة كانت خطرة في كثير من النواحي ، وقلما احتفظت بالمستوى الروحي الذي اتسمت به اجتماعات كلير مونت ، بل كانت تلجأ إلى أخس الغرائز الشهوانية والسلب والنهب ، والجشع والتعطش لامتلاك الأرض ، والطموحات السياسية والعسكرية ، إلاّ أنها في الوقت نفسه كانت تثير العواطف والانفعالات الدينية في كثير من المؤمنين .

ومع أن الصليبيين قد تعهدوا بمحاربة المسلمين في الأرض المقدسة ، إلاّ أن البعض منهم وجد لهذه الحروب هدفاً مباشراً ينفذه في بلاده ، وهو قتل اليهود ، وقد انحصرت مذابح اليهود في ألمانيا بشكل مميز ، إذ أنها لم تنتشر في فرنسا ، أو في إيطاليا أو في بيزنطة ، ولم يحدث أي اضطهاد لليهود في تلك البلدان ، فقد تُركت ثلاث فرق ألمانية تحت قيادة إيميش صاحب ليسينجين ، وفولكمار ، وجوتشولك للعمل على قتل الآلاف من اليهود «تحت راية المسيح» ، ولم ينس اليهود هذه المذابح لمدة قرون قادمة ، ولا تزال كثير من الصلوات اليهودية ، تذكر هذه الكوابيس الجماعية ، ولا مندوحة لنا عن القول أن هنري الرابع الذي برهن عن صداقته لرعاياه من اليهود قبل اندلاع الحروب الصليبية ، أرسل تحذيرات لأتباعه أن يمتنعوا عن إراقة الدماء ، ذلك الأمر الذي توقعه ، ولكن ثبت أن هذه التحذيرات كانت عبثاً ، شأن تحذيرات يهود روان الذين أرسلوا رسلاً إلى إخوانهم في حوض الراين ، ولكن سبق السيف العذل ، فقد انقضت تلك القطعان المقدسة الغاضبة على الجماعات اليهودية القديمة ، وكانت وسائل الدفاع الوحيدة هي دفع الرشاوي والأموال أملاً في منع الكارثة ، فقد أرسل اليهود خمسمائة من القطع الفضية إلى غودفري صاحب بولليون ، وهو أحد القادة العسكريين البارزين ، وقبلت الرشوة ، ولكن النقود صُرفت كما هي العادة دون أية فائدة أو جدوى .

واستهلت الحملة الصليبية في ألمانيا كما رأينا، بهجوم على اليهود في مسباير في 3 أيار عام 1096م، ولكن أسقف المدينة (الذي كان قد استلم مقادير كبيرة من الأموال كرشوة) قرر أن يحمي اليهود المقيمين في أسقفيته، إنما لم يكن لجميع اليهود وقت كاف للوصول إلى الملجأ المخصص لهم، ولهذا قتل الكثيرون في كمائن أعدت لهم في طريقهم إلى حاميهم، وبما أنهم رفضوا التحول إلى المسيحية، فقد ذُبحوا جميعهم، وقد عمدت إحدى اليهوديات إلى الانتحار للتخلص من انتهاك عرضها على يد جماعة من الصليبيين الأتقياء، التي كان أفرادها يضعون علامة الصليب على دروعهم، هذا وقد تحركت الحملة الصليبية الألمانية في 18 أيار من ورمس حيث اتهمت الجماعات اليهودية بتسميم آبار المياه، وكانت هذه الجماعات قد بنت لنفسها كنيساً طبقاً للطراز الرومانسيكي عام 1036م، (وبقي هذا الكنيس قائماً حتى قام صليبيو هتلر بنسفه عام 1938)، ولهذا قتل المئات منهم، وهرب خمسمائة إلى قصر الأسقف، ولكن خاب أملهم عندما فتحت أبواب القصر بالقوة، وقُتلوا جميعاً بشكل بائس، وبعد خمسة أيام وصل تلاميذ المسيح (أمير السلام) إلى ميانس حيث أمر روثارد أسقف هذه المدينة بإقفال أبوابها في وجوههم، هذا وظهرت جماعة من اليهود وطلبت الرحمة من الصليبيين ودفعت سبع أوقيات من الذهب إلى إيميش، وقد قُبلت هذه النقود كالعادة، ووعِد اليهود بالحماية كالعادة ولكن حُنث بالوعد كالعادة، هذا وقد قام أهل المدينة الأتقياء في ميانس بفتح أبواب المدينة من الداخل، لكن اليهود الذين كانوا يرتجفون، وهم في قصر الأسقف تأكدوا من حماية الأسقف لهم، وعندما أشعل الصليبيون النار في قصر الأسقف هرب هذا الأسقف الطيب تاركاً اليهود تحت رحمة الصليبيين، وهكذا هلكوا جميعاً، وكان عددهم يربو على الألف، وقد عمد الرباني اليهودي كالونيموس في محاولة يائسة إلى إجبار الأسقف للالتزام بوعده بحماية اليهود فاستل سكيناً بيده، ولكن ذلك لم يُجد نفعاً، ولا حاجة لنا للقول أنه قُتل مع جميع أبناء جلدته، وعندما انتقل هؤلاء القتلة إلى كولون، حيث كان اليهود قد بنوا أول

كنيس لهم عام 324م، لم يجدوا أي يهودي فيها، وذلك لأن اليهود التجأوا إلى بيوت في القرى المجاورة حول كولون، حيث استقبلهم المسيحيون الطيبون وقدموا لهم الملجأ والحماية.

إن تكرار ذكر الحوادث التي تلت، يبدو مملاً، وعلى وتيرة واحدة، ففي ترير، وفي الأول من حزيران قذفت جماعة إيميش باليهود إلى النهر، وفي ميتز ذبحوا جميع اليهود عن بكرة أبيهم، وابتداءً من 24 حزيران حتى 27 حزيران انشغل الصليبيون في أراضي الموزيل، وقد أُبيد اليهود الموجودون في نيوس وإيللير وإكزانتين و «يفلنج شوفن»، هذا وقد زحف فولكمار، وهو القائد الألماني الثاني إلى براغ، وذبح جميع اليهود هناك (حيث عاش جماعة من اليهود هناك من قديم الزمان)، حيث كانت توجد الألت نيوسكول الشهيرة في العصور الوسطى (لقد كان قسم منها رومانسيكي، والآخر قوطي الطراز) ولا تزال المقبرة القديمة موجودة هناك، وأما القائد جو تشولك، وهو ثالث الأبطال الألمان، فقد ذبح اليهود في راتسبون في الوقت نفسه، ولحسن الحظ وجدت هذه الفرق الثلاث من يقاومها ويتصدى لها، إذ عندما زحفت هذه الفرق خلال سهول هنغاريا، ممارسة أعمال السلب والنهب والاغتصاب في طريقها إلى القسطنطينية، حيث تقرر أن يلتقي هؤلاء مع الصليبيين القادمين من البلدان الأخرى، ليتوجهوا معاً إلى فلسطين، هنالك في هنغاريا كانوا يأملون بإجراء مذابح جديدة بين اليهود، والحقيقة أنه حتى هذا الوقت لم يصادفوا أية مقاومة سواء من اليهود أم من المسيحيين، ولكن عندما وصل أولهم، وهو جو تشولك إلى هنغاريا، قابله مواطنون مسلحون أشداء، وأبيدوا عن بكرة أبيهم، ولم ينج من الموت أي صليبي من هؤلاء، ثم وصل إيميش الذي لقي المصير نفسه هو وجميع رجاله، وقد أثر إخفاق وانهيار حملة إيميش تأثيراً عميقاً في العالم المسيحي في أوروبا الغربية، وأما بقية المسيحيين المؤمنين فقد عدّوا هذا الإخفاق علامة على غضب الرب في علاه، وعقابه لهؤلاء الذين اضطهدوا اليهود.

وعلى الرغم من المعمعة والإخفاق الذي مني به الألمان، إلاّ أن القوة الصليبية العامة نجحت في الاستيلاء على القدس واحتلال فلسطين، (ومات يهود هناك، إنما ماتوا على شكل أبطال مدافعين عن كل من حيفا ومدينة القدس) وهكذا توصلت الحملة الصليبية الأولى إلى إحراز النجاح والظفر في النهاية، إلاّ أن نبأ النصر استغرق عدة أشهر للوصول إلى أوربان، وذلك لما كانت عليه طرق المواصلات من البؤس في تلك الأيام، وعندما وصلت أخبار النصر لم يستقبلها الناس بالحماس المتوقع، لأن روما لم تهتم بالحملات الصليبية، فلم يكن هنالك فرسان في المدينة، وبقي السكان بمعزل عن فعل هذه الحوادث الدنيوية، ولم تتأثر جماعة اليهود في روما بتلك الحوادث، هذا ولا يفوتنا أن نذكر أن أوربان الذي بدأ هذه الحروب الصليبية في كلير مونت، قد عاش ليرى تنفيذ أول فكرة روحانية هدفت إلى اتحاد المسيحيين في حرب شاملة للدفاع عن المُثل المسيحية العليا، وهي تلك الفكرة التي كانت تدغدغ أحلام سيده العظيم غريغوري السابع، وساءه أن يرى تلك الفكرة قد تلطخت وانحرفت عن أهدافها، وقد قضى أوربان أواخر أيامه مع آل بيرليوني، وتوفي في 24 آب عام 1098م، وقبل وفاته بعام واحد كان آل بيرليوني قد استعادوا سيادتهم على كنيسة سانت انجيلو، وكان من الأنسب لو مات البابا العظيم أوربان في المبنى نفسه الذي اختبأ به غريغوري السابع خوفاً من أعدائه تحت حماية أسرته، ولكن الذي حدث هو أنه مات في بيت آل بيرليوني، وقد اندثر هذا البيت، ولم يعد له وجود الآن، ولكن هناك وفي ساحة رحبة بين الكنيسة، ومسرح مارسيلوس بعض الأعمدة القديمة، ومن المحتمل أن تكون هذه الأعمدة جزء من بيت آل بيرليوني، وقد سارت جنازة أوربان يتبعها بطانته إلى مثواها الأخير ببطء، خلال حي تراستفيري حتى وصلت إلى كنيسة الرسول بطرس حيث ووري الثرى هناك.

لقد تحسنت أحوال آل بيرليوني في هذا الوقت، فلم يعودوا يُعدون أعضاء غير رسميين في الكوريا، كما أنهم لم يعودوا مجرد مولين للبابا، إذ أن إسهاماتهم

ومشاركاتهم المادية أصبحت في هذا الوقت أمراً مقرراً مسلماً بصحته، وأصبحت قلاعهم قصوراً ومنتجعات يتقاطر إليها الاكليروس والنبلاء، أي أصبحت صالونات روما في العصر الوسيط، وأصبح آل بيرليوني أدوات دفع الشر عن البابوات والأمناء على أسرارهم، وعندها انتخب رينير وهو كاردينال كليمنتي خلفاً لأوربان باسم باسكال الثاني (1099 - 1118م) أصبح صديقه الحميم، ومستشاره بطرس ليونيس ممثلاً دائماً له أثناء غيابه الطويل الأمد عن روما، هذا وقد اكتسب آل بيرليوني بشكل آلي اسم الأوصياء على روما، ولهذا فقد كان تعيينه مجرد إجراء رسمي بسيط يتوقعه كل إنسان.

لقد ورث باسكال المشاكل القديمة التي شغلت غريغوري السابع، وهي العلاقة ما بين البابا والملك، وبصورة خاصة قضية تنصيب الأساقفة، تلك النقطة التي بقيت دونما حل، هذا وقد خلف هنري الرابع ابنه هنري الخامس، الذي لم يكن ينوي أن يستسلم للبابوية، بل بالعكس كان يقصد الزحف على روما لاستخدام كل نفوذه وسلطته للتتويج بالقوة، على الرغم من أن جثة والده الذي كان لا يزال تحت الحرمان، لم تزل ملقاة دون دفن في إحدى كاتدرائيات ألمانيا، تنتظر أن يأذن البابا بدفنها حسب الطقوس المسيحية، ولذلك وضح للجميع أن هنالك دراما جديدة على وشك أن تُمثل في روما، ولكي نفهم أهميتها علينا أن ندرك عاملين هامين: الأول هو القوة العظمى الكامنة في عملية التتويج ذاتها، تلك العملية الصوفية الروحانية التأملية، التي كانت تتم في كنيسة الرسول بطرس مع أنه من الصعب سبر أبعادها في هذه الأيام، إذ طالما قد أريقت الدماء حول هذه القضية قبل زمن باسكال، ولسوف تراق دماء أخرى في المستقبل، أما العامل الثاني فهو أن السلطة السياسية في روما في هذا الوقت كانت في أيدي الأسر النبيلة، وعلى الأخص آل بيرليوني الذين كانوا يرمزون للسلطة الأرستقراطية، وقد أصبح البابا يعتمد في سلطته العسكرية اعتماداً كلياً على مليشيات النبلاء التي تدعمها تحالفاتهم مع النورمان، وكان النبلاء يوقعون على الاتفاقيات التي يعقدها البابا مع السلطات بما فيه الملوك، ومن هؤلاء النبلاء بطرس

ليونيس، وليون، وبطرس ليونيس الثاني، وقد قُدر لهذا الأخير أن يكون آخر بابا من أسرة بيرليوني، لهذا عندما رحل باسكال إلى فرنسا ليؤمن مساعدة ملكها في نضاله (أخفق في هذا المسعى) فليس من المستغرب أن نجده يُنيب عنه للحكم في غيابه بطرس ليونيس كما فعل فيما بعد عندما قضى بضعة أشهر في بنيغنتو.

في عام 1110 بدأ هنري يتحرك ضد روما على رأس جيشٍ قوامه ثلاثون ألف فارس من الألمان، وألوف آخرون من المرتزقة، ولذلك ولإحباط أي احتمال لاستعمال العنف من جديد، تقرر العمل على إحلال تسوية سلمية يُتوج هنري من خلالها بشكل مشرف، وقد اجتمع المفاوضون في كنيسة سانتا ماريا في توري، ليس بعيداً عن كنيسة الرسول بطرس، وكان بطرس بيرليوني هو ممثل البابا في هذه المفاوضات، وإن توقيع بطرس بيرليوني على هذه التسوية لا يدل على مهارته الدبلوماسية، ولكن موافقة الملك عليها تدل على رغبته الأكيدة وتهافته على التاج، أو على الأقل تهافته على نيل بركة البابا، وطبقاً لهذا السجل الغريب تقرر أن يعيد جميع الأساقفة الذين عينهم الملك (وهذا ينطبق على أساقفة ألمانيا، وكثير من أساقفة إيطاليا) كل الأملاك غير المنقولة من الأراضي والممتلكات الأخرى، التي استلموها من يد الملك، وأن يعيشوا من هذا الوقت فصاعدا على موارد ضئيلة يحصلون عليها من ضريبة العشر[1] التي يدفعها الشعب، وهذا يعني أن يُجبر الأساقفة الذين كانوا يحيون حياة البذخ كالنبلاء على الانحطاط اجتماعياً واقتصادياً، وأن يصبحوا من رجال الاكليروس الشحاذين، ومع أن هذا الوضع مطابق لتعاليم المسيحية المثالية، لنذر الرهبنة وقواعد المسيحية الأولى القديمة للعيش في حالة فقر، إلاّ أنها لم تكن حالة يقبلها رجال الدين المرفهين، وزيادة على ذلك كان على الأساقفة أن يتخلوا عن جميع حقوقهم ليس بالتملك فحسب، بل جميع الامتيازات الدنيوية التي اكتسبوها من قبل وتمتعوا بها، مثل حقوقهم في الأسواق،

(1) ضريبة العشر: تقضي بدفع عُشر الغلال والمال إلى الكنيسة.

والنظر في بعض الدعاوي، والفصل بها، وحق ضرب النقود، وبالاختصار كانوا مجبرين على أن يتخلوا عن امتيازات الأكليروس الكبيرة، التي كانت تؤمن لهم القوة وحياة الرخاء والبذخ، أما الملك فكان عليه أن يعد وعداً صادقاً أن يتخلى إلى الأبد عن المطالبة بتنصيب الأساقفة، وكان توقيع بطرس بيرليوني قمين بموافقة البابا عليه، وقد أقسم الملك ونبلاؤه بشكل وقور - وألسنتهم ملجومة - أن يحترموا هذه الاتفاقية، وتمت كتابة وثيقتين منفصلتين بعد بذل جهود مضنية إحداهما تحتوي على وعد الملك، والأخرى تعهد البابا، وعندها تحركت الجيوش باتجاه روما.

وصلت الرسل تبشر النبلاء وجموع الشعب والبابا بالاتفاق المشرف، الذي حصل، واستعد الناس لإقامة الحفلات التقليدية الخاصة بالتتويج، وحالما وصل الملك إلى المدينة ممتطياً صهوة جواده تحيط به حاشية كثيرة العدد، فخمة باهرة للأبصار، تتألف من النبلاء وجميع الرتب الكهنوتية، إذا بالشعب يصرخ ويحييه تحية السرور والفرح (لقد اختار القديس بطرس الملك هنري)، ومن نافلة القول أن نؤكد إخلاص الشعب وحماسه خصوصاً إذا كانت الأموال قد وزعت عليه كالعادة، وبسخاء، توقف الملك عند جسر الرسول بطرس، وأقسم بجلال ووقار أن يحترم قوانين روما، (وكانت هذه الوقفة إحدى التقاليد المرعية) ثم مر بمجموعات تمثل الشعب المستنير في روما، ويقال أنه استقبل الإغريقيين بشيء من الغطرسة، وأصغى بابتسامة احتقار لأقوال اليهود التي حفظوها عن ظهر قلب، وحالما دخل المدينة الليونية حيته جوقة الرهبان والراهبات، وأفرادها يحملون الشموع في أيديهم ويرتلون ترتيلة الاستقبال (اختار القديس بطرس الملك هنري) وعلى الرغم من الحفاوة التي قوبل بها الملك هنري، إلاّ أنه لم يَخل الأمر من بعض المضايقات والمتاعب، الأمر الذي اضطر هنري قبل أن يدخل عتبة كنيسة الرسول بطرس أن يرسل بعض رجال الخدمة السرية إلى الكنيسة، وأمر عدة وحدات من الجيش باحتلال وحراسة الكنيسة أثناء قدوم هنري.

تبع ذلك برنامج هنري ثم حمام الدم، فقد أجلس كل من البابا والملك على عرشه، وكل منهما يحمل مخطوطة ملفوفة تحتوي على الاتفاقية، وعندما طلب البابا من الملك أن يثبت هذا العقد الذي لم يوقعه بعد، طلب الملك أن يسمح له بالانسحاب ليجتمع مع النبلاء الألمان ورجال الدين للمشاورة، وهكذا زال جلال تلك المناسبة وبدأ اللغط والصخب داخل الكنيسة وخارجها، مما طغى على صوت البابا وهو يعلن أنه سوف لن يتوج الملك، ما لم يوقع الوثيقة، وقد كان هذا القول فوق احتمال الألمان، الذين عرف عنهم تحللهم من الإثم، وعدم انضباطهم عندما يشعرون بتأخير في مطالبهم الشرعية، ولذلك قرروا حل هذه المشكلة المتعبة بشدة وصرامة، فصاحوا يكفينا الانتظار، وكفانا كلاماً، إن سيدنا يرغب أن يتوج الآن دونما لحظة انتظار، كما توج شارلمان، ولويس، وهنا بدأ الاكليروس في الاحتفال بالقداس، إما لتخفيف حدة توتر الشعب الهائج، أو لتأخير اتخاذ القرار الحاسم، ومرت دقائق ورفع القربان المقدس فوق رؤوس جموع المصلين مما أجبر الجميع على الركوع، وبعدها انتشرت بين الجموع همسات تقول أن سيدهم هنري قد أصبح سجيناً في المبنى المجاور لكنيسة الرسول بطرس، وهنا استل الجنود السيوف وأحاطوا بالمذبح فانسحب البابا ومعه ستة عشر كردينالاً واختفوا من خلال باب سري جانبي في الوقت المناسب قبل أن يسود الهرج والمرج، وقد أعملت السيوف في رقاب رجال الدين والمصلين فقتل من قتل، وترك الجرحى ينزفون على المذبح، وفي جميع أنحاء الكنيسة ونهبت الكاتدرائية، وهنا هرب اثنان من الأساقفة، وذهبا رأساً إلى قلعة سانت انجيلو معقل آل بيرليوني وسرعان ما وصل الخبر إلى المليشيا وعامة الشعب.

وفي منتصف الليل بدأ زحف الرومان باتجاه كنيسة القديس بطرس، لكن هنري استطاع الهرب وهو في ثياب النوم، فامتطى جواداً وهرب وهو شاهر سيفه بعد أن قتل خمسة رجال اعترضوا سبيله، أما البابا ومعه الستة عشر كردينالاً فقد أجبروا على ركوب عربات، وأخذوا تحت الحفظ وظلوا مدة واحد وستين يوماً سجناء لدى الملك هنري في قلعة

ترويبيكم، وأخيراً وتحت التهديد بالموت (الأمر الذي لم يكن ليرهب غريغوري السابع في مثل هذا الموقف) انهار البابا باسكال، فوقع اتفاقية جديدة حصلت بها الموافقة على جميع طلبات الملك، وقد حصل وعد بإجراء تتويج جديد، ومنح الملك حق تنصيب الأساقفة، مع احترام حقوق روما بمفهوم ضمني، وكانت نصوص هذه الوثيقة غاية في الإذلال للبابا، وهذا جزء من النص: «لقد قضت إرادة الرب وحكمته، أن يرتبط إقليمكم ارتباطاً وثيقاً بالكنيسة، كما أن أسلافكم بما لهم من السلطة والحكمة، قد حصلوا على تاج مدينة روما، وشرف لقب الإمبراطور» هذا وكان أحد بنود الاتفاق ينص على دفن جثة الملك هنري الرابع، حسب الطقوس المسيحية، وبموجبها أطلق سراح البابا الأسير.

لقد كان هنري الخامس حكيماً، فلم يقرر العودة إلى روما للتتويج، بل حدث التتويج في ساحة مفتوحة خارج المدينة، وعندما رجع باسكال إلى روما حياه الجمهور تحية شهيد، ولكن كان على بطرس بيرليوني أن يدرك حالاً أن دوره المأساوي في هذه المفاوضات لا يمكن أن يُغتفر، فهذا هو قدر أسرته، كما كان نصيب المتحولين الآخرين من اليهود، ففي أيام الحظ وبحبوحة العيش كان الناس يقبلونهم لا بل حتى يتسامحون معهم، وأما في أيام الذل والانكسار فقد كانوا يجبرون أن يتذكروا أنهم عبرانيون آتون من الغيتو اليهودي لا أكثر ولا أقل، وأن عليهم أن يبرهنوا ويثبتوا طهارتهم حتى الجيل الثالث أو الرابع، وإلاّ فإن غضب الشعب سوف يحل عليهم، وعندها سوف يذكرهم الناس بذلك اليوم من أيام عيد الفصح عام 1030م، أي قبل جيلين من هذا التاريخ الذي نحن بصدده عندما تحول أحد اليهود المدعو باروخ إلى الديانة المسيحية، وأصبح اسمه بندكت المسيحي، زد على ذلك أن وجوههم الشرقية التي كان لونها بلون الزيت تفضح أصلهم، ومع أنهم كانوا روماناً منذ الأزل إلاّ أنهم عُدّوا غرباء.

ومرة أخرى استكثروا عليهم ماء المعمدان في كنيسة القديسة مريم في تراستفيري، ولم تنفع الثروة ولا السلطة ولا التقى والورع في غسل ذلك العار الذي حملوه كابراً عن كابر، من جراء انتمائهم اليهودي منذ البداية مع أنهم قد قاسوا الأمرين حتى نسوه.

ومع هذا وعندما توفي حاكم روما واقترحت الأسر النبيلة الإمبراطورية مرشحاً لـها ليخلفه، عمد آل بيرليوني إلى ترشيح أحد أبنائهم، وهـو شـاب ذكـي لامـع صغـير السـن، لكنه متغطرس ومتعجرف جداً، وكان منصب حاكم روما منصباً تحلم به الأسـر النبيلـة فـي روما، أما الحزب الإمبراطوري فقد عدّ هـذا المنصب رمزاً لسلطته الخاصة ما دام أن الإمبراطور هو الذي يثبت تنصيب هـذا الحاكم بمنحه الشارة الإمبراطوريـة، وهـي سيف ونسر، أي أنه ممثل الإمبراطور في روما، (كان هنري قد رجع إلـى وطنـه) ومـع أن موافقـة البابا كانت واردة، إلاّ أنـها كانت شكلية، وبالنسبة للحزب الإمبراطوري فقد عدّ هـذا الحزب أن هذه هي الفرصة السانحة يجب ألا تفـوت للحصـول علـى السلطة، أما بالنسبة لبطرس ليونيس فقد عدّها فرصة أيضاً لدعـم السلطة البابويـة، عنـد انتخـاب حـاكم بيرليوني، وحـدث فـي يـوم عيـد الفصـح أن كـان البابـا يحتفـل بإقامـة القـداس فـي كنيسـة اللاتيران في روما، عندما اندفعت جماعة من الغوغـاء الذيـن اشـتراهم وحرضـهم الحزب الإمبراطوري، وفـي مقدمتـهم مرشـحهم الـذي كـان يرتـدي الملابـس الحريريـة المخصصـة بالحاكم، وطلبوا موافقة البابا وتثبيته لتعيين هذا المرشح، عندهـا حـاول البابـا تـأجيل البـت بالأمر، وذلك لأن ميوله كانت مع آل بيرليوني أصدقائه المخلصين وحماته، ولكن الغوغاء هددوا بمداهمـة قصـر اللاتـيران واقتحامـه، فانسـحب البابـا الـذي لـم يعـرف عنـه أنـه كـان محارباً، وعندها تحول الرعاع إلى تراستفيري وأخذوا يقذفون أبراج آل بيرليوني فتحطمت بعض النوافذ وكُسرت بعض الأسـيجة، لكـن آل بـيرليوني كـانوا قـد انسـحبوا إلـى قلعتـهم الرئيسة، في مسرح مارسيلوس، وقد وقف الرعاع وقد بدا عجزهم وهـم يحدقـون بالبنـاء الضخم، وأدركوا عدم جدوى الهجوم علـى صرحٍ يظـهر حتـى فـي هـذه الأيـام فـي غايـة المناعة، ولا يمكن اقتحامه، ولكنهم قذفوا الصرح ببعض الحجارة مما شفى بعـض غليلـهم، ثم انصرفوا إلى بيوتهم بعد أن ملأوا الجو صراخاً وشتماً للبارونات اليهود، ولكـن هـذا لـم يؤثر على آل بيرليوني في كثير أو قليل، وقد أظهر آل بيرليوني بعض الحكمة والـتروي فلـم يرسلوا المليشيا في أثر هذه الحشود، وبلغ بهم الذكاء أن سحبوا مرشحهم أيضاً.

ولم تساهم حوادث السنة التالية في كثير أو قليل في تخفيف حدة التوتر والفوضى المستحكمة، والتي أصبحت من مستلزمات الحياة النظامية في روما، وبعد أن أجهضت حركة آل بيرليوني بتنصيب حاكم من رجالهم، توفي البابا باسكال أثناء إحدى حوادث الشغب في الشوارع التي كانت كثيرة الحدوث في تلك الأيام، وتبعته ماتيلدا الحليفة الوفية المخلصة لحركة الإصلاح البابوي والمدافعة عن غريغوري السابع، وصديقة آل بيرليوني، وقد تقلص نشاطها قُبيل وفاتها وذلك بسبب تغير الأحداث، ولكنها كانت دوماً على تمام الثقة بأن حركة الإصلاح سوف تفوز في النهاية مهما خسرت من معارك، وهكذا أغمضت عينا تلك المرأة الرائعة المحاربة البطلة، وهي في السبعين من العمر، (وقد أوصت بجميع ثروتها وأملاكها للكوريا، ولكن وصيتها كانت غير واضحة لذلك فقد سببت تورط الكنيسة في التقاضي أمام المحاكم ردحاً من الزمن طيلة أجيال طويلة)، ولم يكن أمام البابا الجديد غلاسيوس الثاني (1118 – 1119م) سوى الصعوبات، إذ أن تراص وتنظيم القوى قد اختل وتغيّر في ذلك الوقت، فقد تبدل موقف آل فرانجيباني، وهم الذين كانوا رفقاء السلاح مع آل بيرليوني مدة أجيال وأجيال، ذلك أنهم أصبحوا الآن مشايعين للحزب الإمبراطوري، وعندما خُطف البابا وقيدت حريته، وحمل إلى برج سينسيوس فرانجيباني، هرع بطرس ليونيس لنجدته ودعا جماعته في تراستفيري لحمل السلاح، وحرر البابا وأطلق سراحه، هذا وقد أصبحت تراستفيري والجزيرة بجانبها مدينة داخل مدينة في هذا الوقت، وتتمتع بالحكم الذاتي، ولها تحصيناتها الخاصة بها، وأهلوها المتعصبون لآل بيرليوني، وعندما عاد هنري الخامس إلى روما هرب غيلاسيوس إلى فرنسا يرافقه بطرس ليوني، وقد مات في دير كلوني، ولم يتمتع بالحكم الحقيقي في تلك السنة اليتيمة التي حكمها، فالسجن والنضال والنفي كان قدره، وأما خلفه وهو كاليكستوس الثاني (1119 – 1124م) فقد كان أحد أقرباء ملك فرنسا، وقد انتخب في جزيرة آل بيرليوني، حيث تجمع النبلاء في قلعة تلك الأسرة تحت زعامة آل بيرليوني دون منازع،

وقد ثبت هؤلاء النبلاء انتخابه ، ولهذا لم ينس لهم كاليكستوس هذا الجميل ، ويعتقد البعض أن موقفه الكريم وإحسانه لليهود في روما ، وتأمين حريتهم في التجارة والعبادة ، لم يكن إلاّ نتيجة اتفاق مسبق مع آل بيرليوني ، الذين كانوا يتعاطفون مع أقربائهم السالفين .

ولكن اهتمامات كاليكستوس الرئيسة اتجهت إلى نواحٍ أخرى ، فقد صدف أن كان قدره أن تنتهي الخلافات بشأن قضية تنصيب الأساقفة على يديه ، فقد أعلن عن عزمه على حل هذا الخلاف أمام أربعمائة وأربعة وعشرين أسقفاً في مجمع عقد في ريمس ، حيث ارتفع ذلك البابا بقامته المديدة وهيبته الملكية ، وسيطر على الموقف في ذلك المجمع ، ثم رجع إلى روما (حيث كان آل بيرليوني قد فتحوا كنيسة انجيلو وكنيسة الرسول بطرس بمفتاح من الذهب ، وأعلن كاليكستوس علناً أن بطرس ليونيس وإخوته هم من أخلص مؤيديه) واستمر في سعيه لصياغة آخر اللمسات على مشروع حل النزاع بين الكنيسة والدولة ، وأخيراً وفي عام 1122 أعلن ميثاق ورمس في أروع اجتماع من الاجتماعات الكنسية في ذلك القرن ، حيث تقرر إجراء التسوية العظيمة ، بوضع مشكلة تنصيب الأساقفة على الرف ، وطبقاً لبنود هذا الاتفاق عدل هنري وحلفاؤه عن المطالبة بحق تنصيب الأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، ولكن احتفظوا بحق عدم الموافقة على انتخاب مرشحي البابا الذين لا يروقون لهم ، وهكذا انتهى ذلك النضال المرير الذي سيطر على الأحداث خلال العصور الوسطى .

وتوفي كاليكستوس عام 1134 بعد إصابته بالحمى الرومانية قبيل عيد الميلاد ، في ذلك العام ، وقد مات قرير العين لعلمه أنه قد حل الخلاف الذي كان مستحكماً بين البابا والإمبراطور ، فالسلم الجديد لم يكن مؤسساً على المعادلة الغريغورية القديمة ، وهي سيادة البابوية ، إذ لم يعد لهذه النظرية أي مسوغ ، فكلا القوتين : قوة البابا وقوة الإمبراطور قد أصبحت أمراً واقعاً يجب الاعتراف به فعلاً ، فلم تعد القضية قضية منع متبادل ، بل احترام

متبادل، وقد تمت هذه القضية في مدينة ورمس، وهي من مدن الراين، وفي الكنيسة الرومانسيكية التي كان قد تم بناؤها قبل بضع سنوات، ورافق البابا لحضور ذلك المجمع بطرس ليونيس، ولربما مَرَّ بكنيس الجماعة اليهودية القديمة في المدينة، وهو المبني على الطراز الرومانسيكي والذي أضيف له معبد صغير على الطراز القوطي، أفلم يتوقف يا ترى ليتذكر أنه على بعد قليل من هذا المكان، وفي كولون حيث كان سلفه يوحنا جراتيان بيرليوني البابا غريغوري السادس قد قضى سنتين في المنفى بصحبة قريبه هيلد براند، ألم يلاحظ يا ترى قبور أولئك اليهود الذي ذبحوا دونما شفقة أو رحمة أثناء الحروب الصليبية، قبل حوالي ربع قرن؟ فأقرباء الضحايا كانوا لا يزالون على قيد الحياة، لكن من المحتمل أنهم لم يعرفوا الكثير ولم يهتموا اهتماماً جدياً بآل بيرليوني الذين أداروا ظهورهم لشعبهم، وفضلوا استلام مقاليد الحكم، على تحمل الآلام والعذاب.

الفصل الرابع

أناكلت الثاني
وأبيلارد
وبرنارد أسقف كليرفو

كان لبطرس ليونيس تسعة أبناء لم يَقُم واحد منهم بدور أعظم من دور بطرس الذي قُدر له أن يصبح البابا أناكلت الثاني، ولقد تدرب بطرس هذا تدريباً منتظماً ومبرمجاً على القيام بمهام منصبه القادم، منذ نعومة أظفاره، أما بالنسبة لمظهره فقد كان شكله بيرليونياً صرفاً (ذكرت عدة تقارير معاصرة له أن ملامح وجهه وأساريره كانت ملامح يهودية)، ولكن عاداته وسلوكه كانت أشبه بنبيل روماني من نبلاء القرن الثاني عشر، فهو ابن عصره، وامتاز بحضور البديهة وسعة الإطلاع، وتفتح الذهن، مع ميول فلسفية عقلانية.

وما دام الأمر كذلك فلا عجب أن نرى هذا الرجل ينجذب إلى بطرس أبيلارد، ذاك الأستاذ الفرنسي المولع بالجدل والمناظرة، والذي كان يُعلم في كلية القديسة جنيفيف في باريس، وكانت قاعة محاضراته تغص على رحبها بالطلاب الآتين من فرنسا، ومن الأقطار المجاورة، والذين أصغوا بشغف وانتباه لذلك الرجل، الذي كان يمثل وجدان عصره، ويتحف مستمعيه ليس بتحريك نسمة من نسمات الحياة فيهم فحسب، بل بعاصفة قوية أكيدة من الهواء الطلق تهب على تلك الصفوف المدرسية التي طالما عاشت راكدة بسماعها الآراء التقليدية المألوفة، وعلم اللاهوت المبتذل، ويسجل المؤرخون أن بين تلاميذه كان بابا المستقبل بطرس بيرليوني الشاب الذي لم تفته محاضرة واحدة من محاضرات أستاذه أبيلارد، وكانت روح أبيلارد شديدة الشبه بروح بطرس هذا، حتى أن

بطرس بدا كأنه تجسيد لعقل أبيلارد المتوقد اليقظ ، وفوق ذلك فقد سحر أسلوب حياة أبيلارد بما هو عليه من عدم التقيد بقواعد السلوك المبتذلة صاحبه بطرس وفتنه بقدر ما فتنته فلسفته الجديدة الثورية ، والحقيقة أنه لم تحظ أية شخصية من شخصيات العصر الوسيط بالإعجاب حتى العبادة ، وبالوقت نفسه بالكراهية والمقت كما حظيت شخصية أبيلارد ، فقد بدا وكأنه لم يكن لديه موقف وسط ، بل تحدى جميع المعتقدات المقدسة ، ولم يحترم أية بديهية من بديهيات اللاهوت الواسعة الانتشار في زمنه ، إذ لم تكن آراؤه مجرد تحد للأفكار بل محاربة لجميع المؤسسات اللاهوتية الدينية ، لا بل حتى وجود الكنيسة ككل ، وكان يسأل ويجيب عن كل ما يخطر على البال بالنسبة للشكوك والأسئلة التي كان يرددها شباب الجيل الجديد ، أو على الأقل جعل الشباب يشعرون أن هذه الأسئلة لا بأس بها ، وهي قانونية ومسموح بإبدائها لدرجة أنه جعلها في مستوى الشكوك الخلاقة ، هذا وقد بلغت به الجرأة أن عرف وناقش علناً ، وبصراحة ، ودون خوف أو وجل كل قضايا العصر ، وكل ما كان يعد في الماضي كفراً وإلحاداً ، وكأنه يخطب فوق أحدث المنابر العلمية الشهيرة في أوروبا في الوقت الحاضر ، ولقد وجد بطرس بيرليوني صدى لما كان يخالج نفسه من شكوك ، وهذا ما زاد فرحه وغبطته خصوصاً وأنه لقي من يحترم هذه الشكوك ، هذا وأصبح بطرس في منصب كهنوتي رفيع في ذلك الوقت ، لكن لم يكن قد رقي بعد لمنصب الكاردينال ، ومن المشكوك به أن يكون بطرس آنذاك وهو في باريس قد شارك أسرته في أفكارها وخططها الطموحة بالنسبة إليه ، إنما لا شك أنه قد بلغ به الذكاء مبلغاً أدرك به أنه لأمر محفوف بالخطر المميت ، لبابا المستقبل ، أن يتحمس لآراء أبيلارد بصراحة ، فالبابوية هي قمة المؤسسة اللاهوتية ، ورمزها ، وأما أبيلارد وتعاليمه المتطرفة ، فلم تكن لتتفق مع المعتقدات الرسمية لهذه المؤسسة بحيث لم تكن لتقدم لبطرس أي استعداد أو رغبة بذلك المنصب الرفيع ، ومع ذلك فقد بقي بطرس في باريس عدة سنوات ، وهو غير قادر على أن ينسلخ عن صحبة أستاذه المحبوب ، الذي سرعان ما تورط في قضية حب مخزية ، لم يكن

لها مثيل في ذلك الزمن، ومع أن تلك القضية واجهت موجة من الغضب والاشمئزاز في صفوف رجال الدين، والسلطات الدينية، إلا أنها بدت جذابة ومحببة إلى نفوس تلاميذه الشباب، الذين عدوه مثلهم الأعلى، وأصبح كل خرق يقوم به للطهارة والعفة التقليدية ما هو إلاّ نتيجة منطقية لتعاليمه التي لم تكن تتقيد بالقواعد المألوفة المبتذلة، وأما بالنسبة لتأثير هذه القضية على حياة بطرس بيرليوني فقد استهجنتها الأسرة وأرسلت الرسول تلو الرسول لاستدعاء بطرس من باريس ليعيش في جو أكثر صحية من ذلك الجو، وهكذا خضع بطرس لمشيئة أسرته، وذهب إلى دير كلوني حيث قضى عدة سنوات كانت كافية لتلطيف أوضاعه وآرائه، وهو في مجتمع الإخوة في الدير الجديد، وبالنسبة لحياته في المستقبل، فدير كلوني كان لاشك الترياق أو الدواء الوحيد الشافي من انحرافات أبيلارد عن التقاليد المرعية، والمكان الصحي المناسب لشخص قد أهله قومه، ودربوه ليصبح راعي المسيحية جمعاء.

كان بطرس يحرص على حسن هندامه فيرتدي أفخر الملابس، وبعناية فائقة شأن سليل أية أسرة ثرية متفوقة، وإن معظم ما لدينا من المعلومات عن هذا الرجل، قد وصل إلينا عن طريق تلك الأقلام المسمومة التي استعملها خصومه، ولكن بعض هذه المعلومات يبدو جديراً بالتصديق، فهو يطابق الخلفية الملونة لهذا البيرليوني، ونحن لا نستطيع تصديق تلك الافتراءات التي أطلقت لتشويه سمعته، فيقولون أنه عندما كان يسافر إلى إنكلترا بصفته مبعوثاً للبابا، كان يصطحب معه فتاة شابة مع بطانته تلبس ملابس الرجال، وقد قيل عنه أيضاً أنه عندما كان في أكسفورد قضى معظم وقته في بيوت الفسق والدعارة في المدينة، حيث كان كيس نقوده المملوء ذهباً يجلب له كل أنواع المسرات والرعاية، والحظوة التي يبغيها، فمثل هذه التهم تبدو غاية في المبالغة والتضخيم، واستعملت خصيصاً في تلك المعركة المريرة التي تبعت تنصيبه حبراً أعظم، ومع هذا لا دخان بلا نار.

إن القرن الثاني عشر هو أروع قرون العصور الوسطى وأفخمها وقد دعي بحق عصر النهضة، فهو عصر الانتقال من القرون المظلمة والوحشية، ومن التعصب الديني والغموض إلى مفهوم مجتمع حر متفتح، كان يروق لأولئك الذين رحبوا به، وكان بطرس يصلح لهذا العصر ولهذا المجتمع، وهذا النوع الجديد من الاكليروس، ولو أفسح له المجال لأصبح نوعاً فريداً قائماً بذاته من البابوات، فقد كان يميل إلى الاستقلال المادي، والثقافة العالية، كما كان خبيراً باختيار المآكل والخمور والحكم عليها، مع حب شديد للحياة، ولكن للأسف الشديد لم يستطع أن يسير في هذا المضمار شوطاً بعيداً، فالقوى الرجعية الرهيبة كانت لا تزال في أوج قوتها، وخصوصاً في الكنيسة، وقد استهدفت هذه القوى بطرس بيرليوني بالذات ليكون ضحيتها وهدفها، وفي المعركة الدرامية الشرسة التي دارت بين بطرس أبيلارد وهو رمز التفتح في هذه الآونة وبين برنارد راعي دير كليرفو الرجل المتقشف الزاهد، الذي كان يدعى «الطبيب الحلو اللسان» أو «ذو الكلام المعسول»، وهو أقوى شخصية كنسية في زمنه، لم يكن بوسع بطرس بيرليوني إلا أن يخضع ويستسلم.

ومع أن الاستيقاظ والتفتح الذي حدث في القرن الثاني عشر، بدا فجائياً إلاّ أن مقدماته كانت واضحة، فالحروب الصليبية التي كان ينظر إليها كظاهرة دينية صرفة، قد ساعدت على احتكاك أوربا بعالم المشرق، الأمر الذي رفع أوربا من حالة الريفية وضيق الأفق، وقد عاد الفرسان الفرنسيون ومعهم رفاقهم في السلاح بعد سنوات من المغامرات بين ثقافات غريبة عليهم، غير مألوفة لديهم أمدتهم بها أمم جديدة، الأمر الذي وفر لهم اكتساب مفاهيم جديدة، ونظرات جديدة في الحياة، ولم يكن كل ما جلبوه معهم من المنتوجات من هذا العالم الرائع كالدمستق الشرقي والموسلين، والحرير والسجاد العجمي ليفرشوا به قلاعهم، والتوابل والبهارات ووصفات طهو الأطعمة لمطابخهم والزينات الخيالية الجميلة لدروعهم، بل إضافة إليه تلك المادة الجديدة للكتابة

وهي الورق الذي انتشرت صناعته عند العرب في إسبانيا، إنما أكثر أهمية من كل هذا هو الروح الجديدة العالمية التي سادت أوروبا نتيجة للحروب الصليبية، فالشعوب التي كادت تمزقها الاختلافات القومية تعلمت كيف تحترم بعضها بعضاً، فالرجال الذين كانوا من طبقات مختلفة، وحاربوا معاً، أصبحوا يتعايشون معاً الآن، ولدى عودتهم إلى أوطانهم بدأت مرحلة من الفراغ والوفرة وبحبوحة العيش، فالاتصالات الثقافية بين أراضي المشرق وإسبانيا الإسلامية، من جهة، وبقية أوروبا من جهة أخرى، أمدتهم بأبعاد جديدة في حياتهم اليومية، إن عالم العصور الوسطى الذي انقسم به المجتمع إلى فئتين: الأولى فئة الكنيسة والبابا، والثانية فئة الإمبراطورية والملك، قد أضيفت إليه الآن مجموعة مستقلة قوية، وهي عالم الجامعات، وهذه الكلمة بحد ذاتها تعبر عن الثورة، فكلمة جامعة لا تعني المجال الشامل للتعليم والعلوم فحسب، بل الشخصية العالمية الشاملة للأساتذة والطلاب، فقد تجمع هؤلاء وأتوا من عدة أقطار، ومن عدة أمم ومن كل حدب وصوب، إذ لم يعد التعليم محصوراً بأبناء النبلاء فقط، ففي طليطلة كان العرب واليهود واليونانيون يعملون جنباً إلى جنب مع الأسبان والألمان والفرنسيين والإنكليز والبلقانيين، وفي سالرنو تخصصت الجامعة بالطب تحت إشراف أشخاص يهود، والمؤلفات التي درست هناك كانت من أصول قديمة، ولم تكن النهضة التي حدثت في القرن الثاني عشر، لتتم لولا الدور الفعال لليهود كمترجمين وشارحين للأدب العلمي والفلسفي القديم[1].

فقد استطاع العالم الغربي أن يطلع على أعمال أرسطوطاليس من خلال الفلاسفة العرب وابن رشد وابن سينا من العرب، ولقد أصبح أرسطو الأساس الذي اعتمد عليه التعليم الجامعي، والتفكير العقلي، والتأملات في ذلك العصر، وقد جمع بعضهم

---

(1) مكنت طبيعة التلون والازدواجية عدداً من اليهود من شغل دور النَّقلة والعمل في أكثر من بلاط وبلد، وينبغي التنبه إلى أن اليهود الذين قاموا بدور النقلة تخرجوا من الوسط الأندلسي العربي، وترجموا عن العربية، يضاف إلى هذا حقيقة أخرى هي أن الذين أسسوا الجامعات في أوربا خاصة في جنوب فرنسا هم من عرب الأندلس.

الطب مع الفلسفة، ومارس ابن ميمون الطب في إسبانيا ومصر، وكتب فلسفته اليهودية، في كتاب دلالة الحائرين باللغة العربية[1]، وكانت النصوص اللاتينية والإغريقية تترجم من العربية والعبرية، وكان أرسطو رمز العقلانية الجديدة التي بدأت تنمو في العصور الوسطى، وعدّ (أي أرسطو) في أيام توماس الأكويني معصوماً عن الخطأ، (وقد مهد هذا الوضع الجديد السبيل لظهور مارتن لوثر وديكارت، لا بل حتى اندلاع الثورة الفرنسية نفسها).

أما الكنيسة، فمع أنها كانت لا تزال تهيمن على الحياة الدينية، إلاّ أنها لم تعد وحدة متراصة فقط وظهرت عدة طوائف ونحَل جديدة على الرغم من المحاكمات والعقوبات الشديدة ضد الملحدين والمارقين، ولم يعد التفكير والنقاش مقصوراً على المواضيع اللاهوتية، فالهدف الجديد كان التوفيق بين المبادئ الدينية والأفكار الفلسفية، وكان منهج الدراسة في الجامعات يشمل قواعد اللغة والبلاغة والمناظرة والمنطق، وفي مناهج أخرى: الحساب والهندسة والموسيقى وعلم الفلك، وأما العلوم فكانت تدرس في مدارس منفصلة عن الجامعات، وكانت أول جامعة أحاطت بجميع المناهج هي جامعة باريس، في مدرسة كاتدرائية نوتردام، التي اشتهرت من خلال أبيلارد، وقد بدأ الألوف من الطلاب من أبناء النبلاء والفلاحين دراستهم في سن الرابعة عشرة، واستمروا في الدراسة ستة عشر عاماً، وقد غصت بهم مهاجع الجامعات، والبيوت التي تقدم الطعام للطلاب، وقد بدأت معالم الجامعات الحالية منذ ذلك الحين: الحرم الجامعي، والمهاجع، والشهادات الجامعية: البكالوريوس والماجستير والدكتوراه ومبادئ الدراسات الإنسانية كلها تأسست منذ القرن الثاني عشر، وعندما ظهر روبرت

---

(1) يشير هنا إلى موسى بن ميمون بن يوسف بن اسحق، أبو عمران القرطبي (529 ـ 601 هـ/ 1135 ـ 1204 م) طبيب فيلسوف يهودي، ولد وتعلم في قرطبة، وتنقل مع أبيه في مدن الأندلس، وتظاهر بالإسلام، فحفظ القرآن وتفقه بالمالكية، ودخل مصر فعاد فيها إلى يهوديته، وأقام في القاهرة / 37/ سنة كان فيها رئيساً روحياً لليهود، وعمل بعض الأحيان طبيباً في البلاط الأيوبي، له تصانيف كثيرة بالعربية والعبرية – أعلام الزركلي.

دي سوربون بعد حوالي مئة عام، وأضاف كليته الشهيرة والتي لا تزال تسمى باسمه، استطاع أن ينجح في هذا العمل، لأنه كان يبني على أسس راسخة تمثلها المدارس القديمة، وفي عام 1500 كان في باريس حوالي ستون كلية، وبالإضافة إلى جامعة سالرنو، وجامعة باريس، كان هنالك جامعة بولونا، وجامعة اكسفورد والجامعات الأخرى الكثيرة في الوطن العربي مما كان يؤلف إمبراطورية حقيقية مهمة للعلم والعلوم، ولم تعد مبادئ الكنيسة مقبولة دونما تمحيص وتحليل، وقد سادت روح جديدة من العقلانية، لا بل حتى من الشك، على الرغم من معارضة الكنيسة الشديدة، وقد بدت مدارس الرهبنات والتنسك والزهد عاجزة عن اللحاق بموكب العصر، وتطورت أشكال جديدة عقلية واجتماعية في مراكز المدن، (مع أنها لم تصل إلى روما) وبدأت النشاطات الموسيقية والإبداع الأدبي التي كانت الكنيسة تعدها ملكاً لها، بدأت هذه الإبداعات تزدهر، وقد أصبحت الأماكن النائية مثل ايسلانده (حيث ظهر حكماء الشمال) مراكز للعلم والأدب، وفي جنوب فرنسا وهي أرض التردبادور والمنشدين بدأت تظهر الأغاني الجديدة البذيئة، التي تتكلم عن الخمر والنساء، والأغاني في أوزان شعرية جديدة لا تخلو من جرأة، وبذلك تأسس ذلك التقليد الذي أنتج بعد حوالي مئة عام منشداً باسم فيلون، وقد كتبت أيضاً مجموعات من القصائد والقصص تعالج مواضيع جديدة جددت شباب القصة في العصور الوسطى وكذلك الرواية والثقافة الشعبية، مثل: قصص الملك آرثر والمائدة المستديرة وبارسيغال، وكانت الكنائس المقدسة كلها تنشد وتدل على الشجاعة المتناهية التي لا إحجام ولا رجوع فيها، وعلى القدر والإخلاص، وقد قدمت ذلك العالم المكتشف حديثاً، وهو عالم قصص الجنيات، والقصص البطولية إلى الجماهير المتعددة الألوان والصفات، والتي كانت تتجمع في الساحات، وكلها شغف وشوق لسماع رسالة القرن الجديد، هذا وقد أصبح الشعر الذي كان مقصوراً على الأغنياء والنبلاء، يسمع بالعامية وباللغات

الوطنية، ولم يكن بعضه يخلو من الابتذال والفحش والدعارة، وقد رحب عامة الشعب بتلك المادة الوسيطة التي تخاطبهم بلغتهم الوطنية، ولهذا أصبحت الأشعار الجديدة تتردد وتنشد في الشوارع.

وبدأت القلاع الإقطاعية، التي كانت تحتفظ بالمظهر العسكري البحت، بالتغيير، وأصبحت تتخذ مظهر القصور، وقد سمح مجتمع الذكور من الفرسان للسيدات في الغرب أن يقمن بدور رئيس في عالم المنشدين ورواة القصص، وبدأت حفلات الشراب تحتل مركزاً مرموقاً في الصور والنقوش النافرة واللوحات الزيتية، وبدأت سلسلة جديدة كاملة من حياة جديدة تجد لها طريقاً وأسلوباً للتعبير وهي أساليب صالونات الحب، وقد بدأت الروايات التمثيلية تمثل في مجتمع الثروة والبذخ، وأوقات الفراغ، ومع أنه لم تكن التنانير المنتفخة القاسية القماش قد ظهرت، ولا الشعر المستعار، إلا أنه يجوز لنا أن نقرن هذا المجتمع بمجتمع القرن الثامن عشر، حينما عرضت مسرحية «زواج فيجارو» وعزفت موسيقى الحجرة، وعلى كل حال فقد تراجعت وانهارت الموسيقى الرتيبة للعصور الوسطى، ليحل محلها تفرع الأصوات والنغمات التي اخترعها عباقرة نوتردام.

وحالما بدأ المجتمع الجديد يتحرر من جموده، نمت فيه صفة الانتقاد، وبدأ اللغط بكلمات جريئة ضد الاكليروس، فالهجاء الذي نشأ كشكل جديد من أشكال النقد الأدبي لم يوفر الكنيسة ولا الدين، فقد أعلن رامبور الأورانجي بصراحة دون خوف أو وجل: «أن ابتسامة فتاتي تجلب لي متعة وسروراً أكثر من ابتسامة أربعمائة ملاك»، لا بل حتى الكتاب المقدس لم يسلم من الهجاء الساخر اللاذع، وشاعت بصورة خاصة المحاكاة التهكمية اللاذعة التي تمثل جشع الاكليروس، وتسمى «الإنجيل طبقاً لمرقس الفضي»، وفيها مقطع جريء غير مهذب يسخر من موعظة الجبل إذ يقول: «حقاً، حقاً إنك سوف لن تدخل في ملكوت الرب حتى تصرف آخر فلس في جيبك لأجل الكنيسة» وأصبحت هذه الجرأة، التي كانت مستحيلة تقريباً قبل بضعة عقود من السنوات، الآن مقبولة لأنها

تمثل روح العصر، ولاشك أن بعض علماء اللاهوت الجديين بدأوا يعبرون عن شكهم تجاه بعض الأعراف والعادات المعترف بها، والمقبولة من قبل وقد أعلن ويبرت التنجوني عن شكه بقدرة الآثار والبقايا المقدسة، التي كانت مقدسة، واشتهر عنها أنها تفعل الأعاجيب، كما أنكر أبيلارد فاعلية المعجزات قاطبة.

وقد نمّت العقلانية الجديدة التي تفسر التفكير النقدي، وتدافع عنه، والتي جمعت شمل الكثيرين من ذوي الخلفيات المتعددة حول هذا التفكير، روحاً جديدة من التسامح، إذن من الممتع أن نقول أن الحكاية ذات المغزى الأخلاقي عن الخواتم الثلاثة التي استشهد بها جوثولد افرايم ليسنغ في قصيدته الدرامية الشهيرة «ناتان الحكيم» والتي تعد كمقدمة لتحرير اليهود في القرن الثامن عشر، هذه الحكاية ذات المغزى الأخلاقي، قد كتبت في القرن الثاني عشر، وتقول هذه الحكاية أن أباً أعطى كل ابن من أبنائه الثلاثة خاتماً، ولم يكن بين هذه الخواتم الثلاثة إلا خاتم واحد من الذهب الحقيقي الخالص، ولكن لم يكن أحد يعرفه، وهذا هو الحال مع الحقائق الدينية، إذ من يعرف من هو الدين الصحيح من الأديان الثلاثة الموجودة: هل هو الدين اليهودي، أم الدين المسيحي، أم الدين الإسلامي يا ترى؟ ونرى من هذه المقارنات أن روح التسامح لم تطبق على العلاقات بين المسيحيين وغير المسيحيين، فحسب بل على العلاقات بين أفراد المجتمع المسيحي نفسه، فالنبلاء كان عليهم أن يعترفوا بهذا السيل الجارف الذي لا ينقطع من جماعات من أصول وضيعة غير نبيلة من المجتمع، وأخص منهم بالذكر أرستقراطية المتحولين الجدد، الذين ظهروا من أصول وضيعة، وكذلك ظهرت أمم جديدة كالنورمان، الذين لم يكن بإمكانهم الادعاء بانتمائهم إلى أصول نبيلة قديمة، ومع هذا أصبح هؤلاء النورمان يمثلون طبقة أرستقراطية عالية، صارت جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الأوروبي، دونما أية جلبة أو جعجعة، وكان لهذه الارستقراطية الحديثة ما يقابلها ويوازيها في الاكليروس، فلم يكن يُسمح إلاّ للنبلاء بحيازة المناصب الاكليروسية العالية، ولكن الآن تغير الوضع فأصبح يحق لأصغر فلاح أن

يحتل أرفع المناصب الكنسية، وكما كان من الصعب التمييز بين الاكليروس وعامة الشعب في العادات والأمور الدنيوية، هكذا وجدت عملية مساواة في الكنيسة ذاتها، وقد كتب فردريك هير يقول: «كانت الكنيسة المفتوحة في أوروبا القديمة اتحاداً حياً لضدين هائلين: السماء والأرض، أو المادة والروح، أو الأحياء والأموات، أو الجسم والروح، أو بين الماضي والحاضر والمستقبل، فالحقيقة المجردة كانت مندمجة غير منفصلة، فلم يكن هنالك أي شرخ أو شق يفصل بين المخلوقات العادية والبشرية التي فداها المسيح، فالجميع من أصل واحد ومن دم واحد من أول إنسان إلى آخر البشرية، وكانت هذه الكنيسة الصريحة المفتوحة تحت رعاية وخدمة الأساقفة، والاكليروس الذين كانوا يعيشون حياة صاخبة مشرقة، ويقبلون الدموع والضحك من رعاياهم، وكانوا يمتلكون صفات مميزة حيوية، ولم يتوقف هذا الوضع من التسامح ورفع الكلفة إلاّ عندما اكتشفت الكنيسة أنها محاطة بالهراطقة والإلحاد بشكل يجعل الكنيسة بأجمعها عرضة للنسف، ولهذا انكمشت الكنيسة على نفسها، وفضلت أن تتصف بالصلابة، وعدم المساومة أو اللين».

وإذا قدرنا كمية المعارف الهائلة التي جمعها الإغريق واليهود والعرب، والتي تعرف إليها الغرب الآن، نجد أن لا غرابة أن قال برنهارد أسقف كارتر: «نحن أقزام نقف على أكتاف عملاق» ولقد قيل بأن لاهوت كارتر تحول إلى الرياضيات والهندسة و «لفلسفة أدوات اللاهوت» وصارت الرياضيات والهندسة النماذج العلمية وخاصة الأعداد بمثابة مفتاح لكشف أسرار العالم، وليس من الصدفة بمكان أن يصبح علم الأعداد السرية اليهودي، أي القبالة، أكثر من شيء من الماضي بالنسبة للتلاميذ المتفتحين.

ويعتقد البعض أن هذا الاهتمام بالمنطق والنظام والأرقام، ما هو إلاّ المسؤول المباشر عن ذلك الأسلوب المعماري الجديد، الذي سماه الإيطاليون بازدراء «الأسلوب القوطي» لأنهم عدّوه بربرياً، ومن السهل أن يتزامن استعمال هذا الأسلوب المعماري مع استيقاظ الروح المعنوية التي وجدت أن الكنيسة الرومانسيكية صغيرة وقاسية، لا بل حتى ظالمة،

وفي هذه الأيام ننتقل من كنيسة إلى أخرى في المواطن الكلاسيكية للفن الرومانسيكي، في جنوب فرنسا مثلاً لنجد كنائس: ريمس، وآرليس، وأورانج، ومويساك، بجمالها الطاغي الباهر، وذلك فقط بفضل بساطتها الملكية، وإيمانها الراسخ والفن الرفيع البادي في نحت تماثيلها، ولكن في القرن الثاني عشر عدت معتمة كئيبة، فهي لم تتخل عن جلالها وعظمتها، ولكن كانت كلمات العبادة تدعو للرهبة والخشوع، وكذلك الأبراج المستدقة، والسقوف المقببة، والزجاج الملون للنوافذ، الذي حل محل الموزاييك والفسيفساء صور الفريسكو المصنوعة من الجص على الجدران، والتي كانت من مميزات الفن الرومانسيكي، وقد تقدم علم الهندسة في تلك الأيام حتى استطاع أن يقدم لنا كاتدرائيات عظيمة مثل كاتدرائية تشارترز، وباريس، وريمس، وكانتربري، على سبيل المثال لا على سبيل التعميم، فالتماثيل الكبيرة التي تقف على أبواب كاتدرائيات: تشارترز، ونورمبورج، وستراسبورغ، وبامبرغ لم تعد مجرد زينات، بل أصبحت تعبّر عن قصص لأشخاص مذكورين في العهد القديم والعهد الجديد من التوراة بأشكال إنسانية مؤثرة، وأمام بوابتي كاتدرائيتي ستراسبورغ، وبامبرغ يقف تمثالان كبيران يمثل أحدهما كنيسة مسيحية، والثاني كنيساً يهودياً، فالكنيسة عبارة عن ملكة تلبس تاجاً على رأسها، وتعلو شفتها ابتسامة النصر العريضة، وتقف كما لو أنها قد ملكت العالم، وتنظر بتحد وبظفر إلى الكنيس اليهودي، الذي صور بشكل امرأة شابة، تحمل رمحاً مكسوراً، ولا تستطيع أن تنظر إلى الكنيسة الملكة، لأن عينيها معصوبتان وكتاب الشرائع يتساقط من بين يديها، ومع أن الكنيسة تظهر منتصرة، والكنيس مغلوباً على أمره، إلاّ أننا لا نجد أية محاولة للازدراء، أو للرسم الكاريكاتوري، فكلاهما سيدتان عظيمتان، على الرغم من أن الكنيس يجب أن يكون هو الأم، لأنه أقدم زمنياً، ولكنه يظهر كأنه الأب الأصغر، والأنحف قواماً، والأكثر جاذبية وحسناً، وربما كان هذا التمثال الشاهد المعبر الوحيد على مكانة اليهود واليهودية في القرن الثاني عشر، ولو قدر للروح العلمانية في الجامعات والبحث والتنقيب

الذي استيقظ أمره حديثاً للاستفسار العقلاني، أن يسود وينتصر لاختلفت قصة اليهود في العالم الغربي، وأصبحت ذات طابع أكثر احتراماً، لا بل حتى أكثر تبجيلاً مما كانت عليه، ولكن للأسف، كان على أوروبا أن تنتظر مجيء النهضة الإيطالية والفلسفة العقلية الفرنسية لتستأنف تلك النشاطات التي أجهضت، فالمرحلة المتوسطة هذه ظلت عدة قرون وهي تتسم بضيق الأفق، والإيمان التعصبي الأعمى، دون تعقل، فلم تتغلب روح أبيلارد، ولا روح القديسة جينفيف اللتان سادتا مؤقتاً ولكن أطفئت جذوتاهما من خلال مدارس الرهبنات بزعامة برنارد كليرفو، تلك المدارس التقشفية البندكتية، وبدأ التنكر والعقاب لليهود، وللهراطقة والملحدين يسود الموقف، وظهر أن الأمل بإيجاد عالم يسوده التفاهم والتعاطف، والرحمة قد تأجل إلى حين.

إن المعركة التي استعر أوارها دونما رحمة أو هوادة، والتي اشتبك بها بطرس أبيلارد، وبرنارد كليرفو، كانت ترمز إلى الحالة الفوضوية المضطربة في التفكير الأوروبي، فلقد توقفت تلك المعركة القديمة بين البابا والإمبراطور وكأنها لم تكن، فقد عدّ اتفاق ورمس، مع أنه لم يكن مرضياً بشكل كاف، عدّ معاهدة سلم، لا بل هدنة، فالمعركة التي نشبت الآن كانت داخل الكنيسة نفسها، فهل هنالك ميل لولادة روح مسكونية جديدة يا ترى؟ تتحمل وتتسامح مع الآخرين وبكلمة أخرى كاثوليكية بالمعنى الصحيح؟ أم هل كانت القسوة والصرامة، وعدم التسامح هي السبيل الوحيد للتغلب على تلك المشاكل التي أوجدها ذلك العدد الضخم من الطوائف، والنحل المسيحية الهرطقية، والتي لم ترغب أن تتماشى وتتفق مع المذاهب الرسمية للكنيسة؟ وهل ستستطيع الكنيسة أن تتجاوز هذه الأزمة وتستمر في الحياة، بعد كل هذه الحركات التشككية الانتقادية؟ أم هل كان (الاحتفال بفعل الإيمان)[1] والإحراق مربوطاً إلى عمود هو الجواب الوحيد يا ترى؟ ولكن

(1) الاحتفال بفعل الإيمان هو الاحتفال الذي رافق إصدار الحكم بالموت من قبل محكمة من محاكم التفتيش على امرئ متهم بالهرطقة والذي يتبعه تنفيذ الحكم على يد السلطات الزمنية، وتوسعاً معناه إحراق المتهم بالهرطقة.

يظهر أن التاريخ اختار الواجب الوحيد هذا، وانتصر برنارد كليرفو أخيراً وعدّ من الأبرار الذين سينعمون بالخلود والسعادة السرمدية، وقاست الحرية وأشياعها أقسى المحن من الحرمان الديني والاجتماعي، فأحرقت الكتب ونبذت اللقيات والاكتشافات العلمية النفيسة، وحكمت أوروبا تلك النزعة العسكرية الكنسية، وظلت مسيطرة حتى انتصرت الإنسانية أخيراً على يد الفلاسفة الإنسانيين الجدد الذين أكدوا وثبتوا المقدرة العقلية البشرية، التي بشر بها ديكارت كمعيار ومحك للتجربة الإنسانية، ولم تجبر الكنيسة على التسليم بالعقيدة الجديدة إلاّ في قرننا الحالي، حين حدث حمام من الدم وتغييرات جذرية، وأجبرت الكنيسة على تبني المسلمة الجديدة التي تتبعها الآن في ممارسة الروح المسكونية الجديدة.

ولكن هذه الحقائق كانت متعذرة الرؤية بالنسبة لأبيلارد وبرنارد، وذلك أثناء التهاب نار معركتيهما الجبارة في قاعات المحاضرات في باريس، وأقبية الأديرة التابعة للإخوانيات البندكية، هذا وقد قدم البابا أناسولت - الذي كان يدعى اليهودي على عرش الرسول بطرس - إسهاماته للقرن الجديد، وفي النهاية أصبح ضحية هذا القرن، وذلك لأنه كان أحد تلاميذ أبيلارد اللامعين، لذلك أصبح من المحتم أن يكون البطل في تلك المأساة، ما دام أن هذا الوضع جعله مع الفريق الخاسر في العصر الجديد، فلو سادت الروح الجديدة وانتصرت لعد عهده كبابا أول محاولة تقوم بها الكاثوليكية في العصور الوسطى للتكيف مع الثورة الفكرية الجديدة، التي قام بها الشباب الأوروبيون الذين استبد بهم الغضب ولعدت محاولة للتطابق والتماثل مع آمالهم وطموحاتهم، فإلى زمن أبيلارد كان العالم يعدّ عالم الرجال الناضجين المسنين، أما الآن فأصبح العالم عالم الشباب، وكان بطرس بيرليوني واحداً من هؤلاء الشباب ولكن أستاذه المحبوب (كان محبوباً فقط وليس محترماً) قد قضى نهاية حياته وهو محكوم ومُدان، فلم يكن انتصار برنارد محطماً لآمال أبيلارد فحسب، بل كان هلاكاً بالنسبة لأناكلت، ولكي نفهم طبيعة نضال الانشقاق عن

الكنيسة الذي حدث عام 1130م: وهي المعركة بين الأذهان المتوقدة وبين الإيمان الأعمى المتعصب، بين حب الحياة وإنكار قيمها من قِبل الرهبان، لكي نفهم هذا علينا أولاً أن نتفهم طبيعة رجل باريس، ورجل كليرفو، هذا وقد اعتقد أبيلارد أنه إذا كان على المسيحية أن تستمر في الحياة في هذا العالم الجديد الذي يقف على عتبة عصر جديد، عصر العقل والتفكير، عندها يجب إعادة تفسير الإيمان والعقيدة، وأما بالنسبة لبرنارد فقد كان يعتقد أنه لا يمكن للإنسان أن يحيا حياة مسيحية حقيقية، بالمعنى الصحيح، وهو مشغول بأي نوع من مشاغل الحياة العادية، فالرهبنة والحياة الرهبانية هي الحل الوحيد، أي الرهبنة الصارمة التي لا تلين قناتها.

وليس هناك من شخصية في العصور الوسطى تروق للرجل المعاصر مثل شخصية أبيلارد، ويدعي أعداؤه أنه «ابن رجل يهودي، وأم مصرية» وقد افتروا على الكثيرين بمثل هذه الأصول والأنساب، فقد قالوا عن واكيم فلورا أنه ابن شاهد أو كاتب بالعدل، أو أنه فلاح غير حُر (قن) أو يهودي، وكل من هذه الأصول تسبب له شيئاً من العار، ولكن الحقيقة أن كل ما قيل عنه عبارة عن إشاعات سخيفة، انتشر الكثير منها في العصور الوسطى، فأبيلارد كان ابن أحد النبلاء من بريتاني، وهي مقاطعة تقع في شمالي فرنسا، خرج منها كثير من الرجال المشهورين، وغير العاديين، وتعد بريتاني مقاطعة غريبة، لم تتغير حتى وقتنا الحاضر، وهي موطن شعب غريب الأطوار فريد، احتفظ بأصله الكلتي، ولغته حتى هذه الأيام، وهنالك على الساحل العاصفي حول فينستري يصبغون أقمشة الكتان المصنوعة محلياً بصباغ يستخرج من جراد البحر، ويلبسون الأحذية الخشبية، ويخافون الساحرات والشياطين، كما كان آباؤهم في العصور القديمة، فالكنائس التي صنعت سقوفها من القش (كما هي الحالة في البيوت) هذه الكنائس مهملة لأن هؤلاء البريتانيين لا يقبلون الديانة المسيحية بشكل تام، وعلى مذابح الكنائس البسيطة، يستطيع المرء أن يرى أقدام الأرانب التي وضعها المؤمنون المخلصون كهدايا وقرابين للآلهة التي

أصبح لها الآن أسماء مسيحية، ولكنها بالحقيقة هي الآلهة الوثنية في الحقبة التي تقدمت على العصور المسيحية، وقد عمد جوجين والرسامون الآخرون الذين رسموا بعض اللوحات في القرن التاسع عشر إلى تسجيل شيء من الروح المتوحشة في بريتاني، فالنساء كن جميلات على الرغم من وضعهن الشرائط على أغطية رؤوسهن، وعندما يلبس الرجال ملابس الزينة المبهرجة، يظهرون كشخصيات مسرحية قدمت في غير زمنها المحدد، وكان هذا الشعب مستقلاً يصعب حكمه، وإن غاباتها التي تعود إلى ما قبل العصور التاريخية، هي من النوع السليم الذي لم يتعرض للقطع بالفؤوس، وأما المقابر الحجرية القديمة فهي لا تقف منعزلة كنظائرها في إنكلترا، بل على العكس تظهر متصلة عضوياً ليس بالمناظر الأرضية فحسب، بل بحياة البريتانيين الشديدة القاسية، فكثير من الرجال يخرجون كل يوم عند الفجر لصيد السردين، ولا يعودون إلا في المساء حينما تلمع غنائمهم من الأسماك تحت أشعة الشمس الغاربة، شأن أمتعتهم التي يتوارثونها جيلاً بعد جيل في أكواخهم الخشبية.

من هؤلاء الأقوام أتى بطرس أبيلارد، ومع أنه نفسه كان نبيلاً وغنياً، نبذ الأمن والطمأنينة في بيته الذي كان مملوءاً بالمشوقات، وكما فعل «ديلان توماس» أو «برندان بيهان» أخذ يطوف في هذا العالم ليكون صورة وانطباعاً يروق له، والحقيقة أنه قد تكوّن دافع لا يقاوم في حياة هذا الرجل وفي أطواره، مما جعله يتفوه دائماً بالحقيقة المرة، التي ظهرت في كتاب دون به سيرة حياته، تلك السيرة التي تخلو من أي جمال أو سهولة أو سلاسة، وسمى هذا الكتاب: «تاريخ المصائب»، وسجل به الكوارث والمصائب والمعارك غير المتكافئة والمآسي التي تعرض لها مراراً وتكراراً، فقد بدأت ممارساته للحياة العملية وهو في العشرين، وانتهت وهو في الثالثة والستين، ومن الغريب استمرار ودوام هذه الحياة المملوءة بالمصائب طيلة هذا الزمن، فقد كان من المفروض أن يستهلك عقله وحيويته قبل هذا الوقت بكثير، ولكن من المحتمل أن تكون قواه العقلية قد استنفدت، إذ أن جسمه الذي حمل تلك الروح

الوثابة انهار أخيراً بسبب الإرهاق الشديد، عام 1142، هذا ولم يصدف أن سجل أي كاتب روائي مثل تلك القصص الحافلة بالرذائل والفضائل التي سجلها أبيلارد، فهناك في منتصف القرن الثاني عشر، وهي حقبة الهياج والقلق في أوروبا، عاش ذلك الإنسان ذو الروح الوثابة القلقة الذي ساهم عقله القلق في جعله فيلسوفاً متجولاً عنيفاً، في آرائه وحماسته البالغة، وساهم جسمه الضعيف الهش في جعله راهباً، ولم يصدف أن ظهر مثل هذا الرجل الذي احتوى صفات الألمعية والطيش، والإهمال والعبث، والشوق المضني للوصول إلى الحقيقة، الأمر الذي جعله يلحق الخزي والعار بأساتذته الذين احتقرهم، هذا الرجل الذي أنزل الأفكار والتفاهات المألوفة المبتذلة من على عروشها، ونصب ذلك السؤال المحرج بديلاً لها وهو «نعم و لا» تلك المقولة التي طبقها على جميع العقائد والمعتقدات السائدة في زمنه، والتي قبلها الناس دونما جدل، وكان يضع علامة استفهام على كل عقيدة لم يستطع أن يجد لها برهاناً، أو إثباتاً جذرياً يرضي العقل النيّر الخصب، وفي الوقت الذي كان فيه كبار القوم يرتجفون هلعاً عندما يعتريهم بعض الشك في مجال الإيمان، ويعدون أنفسهم متهورين طائشين عندما يخطر على بالهم ذلك القول الشهير: «أنا أؤمن، لأن هذا منافٍ للعقل، وهذا يعني أنه أمر مستحيل لا محال»، وكان يبحث عن ما دعاه الفيلسوف اليهودي الألماني هيرمان كوهين فيما بعد «الدين ضمن حدود العقل»، وكانت معالجته للموضوع شبيهة بأسلوب «كانت» تقريباً، فقد طبق فلسفة أرسطو على مجال الإيمان اللاعقلاني، اللامنطقي، عند ذلك بدأ الشباب يتقاطرون حوله ويضجون بالهتاف استحساناً وموافقة له ولأفكاره، وهكذا وأخيراً بدأت مرحلة التمرد العظيم، فحيثما ذهب أبيلارد وأينما علّم وحاضَر سواء أكان ذلك في كنيسة القديسة جينيفيف قرب باريس أم في مدرسة نوتردام في «آيل دي فرانس» أو حتى في الأرض العراء، كان الألوف من تلاميذه يحيطون به، فقد ظهر مؤسس وقديس تلك الطائفة الجديدة التي تعتمد على العقلانية، التي لم ير العالم لها مثيلاً لا من قبل ولا من بعد.

وكان بين تلاميذه فتاة في السابعة عشر من العمر، تنتمي إلى أسرة عريقة، ولم تكن تتمتع بالجمال فحسب بل كانت ذكية ومثقفة أجادت اللغتين اليونانية والعبرية، ولم تكن تقل جمالاً وأنساً عن «بوتيسيلي فلورا»، ولكنها تعلقت بتعاليم أبيلارد الفلسفية اللاهوتية الجديدة وكرست نفسها لدراستها، وفي أول الأمر جلست عند قدميه إجلالاً له وتعظيماً، ولكن بمرور الزمن وجد الحب إلى نفسيهما سبيلاً قادهما أخيراً إلى فراش أبيلارد، هذه الفتاة هي «هيلويسي»، التي أصبح حبها الصافي المشحون بالمعاناة نموذجاً للاندماج الخالي من أية أنانية في صميم كيان الرجل، وعندما أنجب هذا الحب العارم ولداً، إذا بعمها، الذي كان قسيساً يدعى فولبيرت يفاجئ أبيلارد في مخدع نومه ويخصيه كعقاب له على تجاوز الشريعة والتقاليد والفضائل المسيحية، وكان أن تزوج أبيلارد في لحظة من لحظات ميله للتكيف من هيلويسي رسمياً لأن حياتهما الزوجية قد أصابها الخزي والعار، وذلك لم يكن ليهم أبيلارد أبداً، ولم يفكر بهذا العار مطلقاً، ولا شك أنها كانت تشارك أبيلارد في أفكاره عندما قال: «إنه من الأفضل لها أن تدعى خليلتي حتى تكون رابطة الحب هي التي تربطني بها، وليس أية رابطة زوجية أخرى، وإذا ما افترقنا مدة من الزمن فإن متعتنا وسرورنا عند اللقاء ستكون أعظم بكثير، وذلك لندرتها وقلتها» والحقيقة أن لقاءهما أصبح نادراً، فقد أصبح هو راهباً، وأصبحت هي راهبة، ولم يعد هو رجلاً بالمعنى الصحيح، وأما هي فقد تعلمت أن تصعّد حبها وانفعالاتها الجسدية لتصبح عواطف راقية ممزوجة بالرحمة، والحب الروحاني، وقد كانت راهبة من نوع ممتاز ليس لها مثيل، فقد أحبها الأساقفة كابنة لهم، وأحبتها الراهبات كأخت لهن، وأحبها العلمانيون كأم لهم، وكان الجميع معجبين بتقاها وبورعها وحكمتها وصبرها ولطفها في معاملة الناس، ولم يرها أحد إلاّ لماماً، وذلك لأنها قصدت تكريس نفسها للعبادة والتأمل في حجرتها، ولكن مع ذلك فقد أصر الجميع على قصدها لتسدي لهم النصح المنشود.

لم يذكر التاريخ حباً تم التعبير عنه بتلك العاطفة، وذلك الحنان الذي اشتملت عليه رسالة أرسلتها هذه المرأة لأبيلارد، ومع أنها قد لبست مسوح الراهبات إلاّ أنها عبرت بها عن حب لم نسمع به من أحد قبلها أو بعدها، ولا يسعني إلاّ أن اقتبس فقرة من تلك الرسالة التي تعد وثيقة كتبت قبل أكثر من سبعمائة عام، وقد مضت الرسالة تقول:

«إنني قد رضيت أن أحطم نفسي مرضاة لأمرك، لا بل وأكثر من ذلك: إن حبي لك قد تحول إلى جنون، وقد قضيت على ذلك الأمل الذي يبغيه ويشتهيه كل إنسان، عندما بدلت نمط حياتي عن طيبة خاطر، وتحول قلبي أيضاً ليبرهن لك أنك أنت المالك الوحيد لجسدي فضلاً عن روحي، والله وحده يعلم أنني لم أكن أحبك إلاّ لشخصك، ولم أكن أرغب إلاّ فيك، وليس في أي شيء آخر تمتلكه، ولم أطلب أي صك للزواج، ولم أتطلع إلى أي مهر، ولم أجاهد لأجل إرضاء رغباتي، ولا لفرض إرادتي، بل كنت أجاهد لتنفيذ رغباتك وإرادتك، وإذا كان اسم الزوجة أكثر قداسة وديمومة، فإن كلمة الخليلة أحب إلي وأجمل وقعاً في نفسي، وإذا كنت لا تغضب مني قلت محظية، أو حتى مومساً، لأنني أشعر أنه كلما خفضت نفسي أمامك للحصول على عطفك، كنت أكثر أملاً وحظاً بنيل ذلك العطف، وبهذا يقل احتمال إيذائك، والتعرض لكرامتك وسمعتك، وإني أشهد الله أيضاً لو طلب مني الإمبراطور أغسطس سيد العالم أن أتشرف بالزواج منه، وأن أكون شريكته في الحكم لكنت أعد أن وجودي كخليلة لك أفضل وأكرم عندي من أن أصبح إمبراطورة».

إن مثل هذا الحب لا يستحقه أي إنسان، ولكن أبيلارد اللامع الواضح الأصيل المبدع، والأستاذ العظيم، والرجل الجذاب كان هو أيضاً مزهواً، ومختالاً وأنانياً، فلم يكن حبه مركزاً على إنكار الذات والعاطفة المشبوبة، وقد توفي قبل محبوبته هيلويس بنحو عشرين عاماً، ولذلك واحتراماً لحبهما العارم دفنا معاً في قبر واحد في بيري لاشيز في باريس.

عن قضية حب أبيلارد هذه، وهي أعظم وأضخم فضيحة تميز بها ذلك العصر، هذه القضية لم تبتعد كثيراً عن قصة بطرس بيرليوني، الذي درس على أبيلارد في كنيسة القديسة جينيفيف، وفي باريس، وإذا ما عددنا أن حياة هذا الأستاذ الخاصة كانت قذرة دنيئة، لذلك عدت تعاليمه وفلسفته كذلك بالنسبة للكنيسة وتعاليمها، وهكذا نشأ الخلاف العظيم بينه وبين القديس برنارد، ذلك الخلاف الذي شمل أناكلت أيضاً، ولم يكن هذا الخلاف ناشئاً عن تغير وشرح العقيدة المسيحية بقدر ما كان ناشئاً عن سلوك أبيلارد الشخصي أيضاً، وهكذا لم تكن المعركة المأساوية ضد أناكلت البرليوني مؤسسة على القانون الكنسي، أو حتى على العقيدة المسيحية بل على نتيجة تقويم حياته الشخصية، وأخلاقه، وبالنسبة لبرنارد ووجهة نظره: إن أي شخص له أي ارتباط أو تماس بالمذنب والخاطئ الأكبر أبيلارد، يعدّ فاسداً، وأنه قد لوث نفسه.

وبما أن بطرس بيرليوني كان قد جلس عند قدمي مثل هذا الأستاذ، لذا تكفي هذه التهمة لإدانته، وبما أن أسلوب أبيلارد الذي قبله توماس الاكويني وغيره فيما بعد، كان محاولة لفلسفة علم اللاهوت، أي رفع الفلسفة إلى منزلة العلم المسيطر الموثوق بصحته، أصبح علم اللاهوت والحالة هذه ثانوياً خادماً للعقل، بدلاً من كونه ملكاً مسيطراً على الإيمان، وبدلاً من الإذعان للتقاليد الدينية المقدسة المبجلة وقبولها، عمد أبيلارد إلى قبول إمكانية التشكك بقوله: «هذا ممكن» وأحياناً بقوله «لا» بدلاً من «نعم»، وهكذا عدّ أبيلارد مذنباً مرتكباً الخطيئة، وبغض النظر عن تعاليم الكنيسة، نرى أن أبيلارد بدأ يعلّم، ويقول أنه لا يمكن التمييز بين الخير والشر بواسطة فعل الإنسان، بل بواسطة نيته، وإن مثل هذه الحالة الأخلاقية التابعة للمذهب النسبي[1] من الممكن أن تقودنا للبحث في نفسية الآثم الشرير، بدلاً من الشر نفسه، ولكن ألم يكن الإنسان مكبلاً بخطيئة آدم، وهي الخطيئة الكبرى التي ليس منها مهرب؟ وهنا أيضاً نرى أبيلارد يرفض التقاليد ويقول إن الذي ورثناه عن آدم ليس الخطيئة بحد ذاتها، بل «العقاب» ولكن طبقاً للنظام اللاهوتي القديم المؤسس على الاعتراف

---

(1) المذهب النسبي: نظرية تقول أن الحقيقة نسبية أو بأن الحقائق الأخلاقية تتفاوت تبعاً للفرد والزمان والظروف.

بالخطيئة، والذي بشَّر به النظام الكنسي، قدمت فكرة الخطيئة لعالم من الآثمين الخاطئين المتلهفين للعفو، والغفران ليس للتخلص من آثامهم فحسب، بل من تلك الخطيئة الموروثة، وهي خطيئة آدم، وذلك العالم الذي لم يحصل على الخلاص ولا الفداء إلا بواسطة دم المسيح، ولهذا فإن هذا العالم يرفض رفضاً باتاً تلك التعاليم التي قدمها أبيلارد، بل عدّها مجرد هرطقة وكفر وإلحاد، ولكن أبيلارد لم يكتف بهذا، بل قال إن الإلهام الإلهي ليس مقصوراً على علماء اللاهوت فحسب، بل يشترك به الفلاسفة أيضاً، فكيف يستطيع وهو الرجل ذو الضمير الحي أن يستثني ويبعد أفلاطون وأرسطو عن النعمة الإلهية؟ ولكن نجد الكنيسة هنا من جهة أخرى تميز المؤمنين المخلصين عن الوثنيين، واليهود الخونة الغادرين، والمسلمين، لذلك لا تستطيع أن تهب مثل هذه النعمة للفلاسفة الذين لا يخرجون عن كونهم مجرد وثنيين وخطاة مذنبين؟ أليس هذا غُنم لا يستحقونه؟

وهكذا عد أبيلارد المحطم للتماثيل الدينية، والمحطم للتقاليد القديمة، هذا وقد راقت أغانيه الشعبية التي كتبها باللغة العامية الشعبية لجماهير الشعب، في شوارع باريس، وقد وصلت به وقاحته إلى محاولة الجدل مع أساتذته، ولما كان أذكى منهم وألمع، فقد أنزل منزلتهم أمام طلابهم، وقد استلم شهادة الماجستير في العلوم من مدرسة القديسة جينيفيف الشهيرة، وهو في الثانية والعشرين، وعندما حُرم وأدين وأجبر على حرق كتابه عن الثالوث المقدس، انسحب من الحياة العامة وذهب إلى نوجنت سورسين، وهو مكان مهجور مقفر، ولكنه وجد أن جميع طلابه قد تبعوه إلى ذلك المكان، وبنوا مهاجعهم البسيطة حول ذلك المكان، وهنالك أقاموا محاضرات تسمى «باراكلت» حيث استمر يحاضر ويعلم بذكاء وفطنة مع الازدراء والاحتقار لجميع الأفكار المعاصرة المبجلة، وكان مطارداً من مكان لآخر، ومع أنه كان راهباً، إلاّ أنه لم يسمح له بممارسة القداس والاقتراب من مذبح الرب، لكونه أصبح مخصياً أي أنه كان مشوهاً جسدياً، ومنكسراً معنوياً وقد قضى أواخر أيامه في دير كلوني حيث وجد هناك أشخاصاً يحترمونه ويفهمون أصالته واستقامته، وسلامة عقله وكماله.

أما برنارد راعي دير كليرفو (الراهب الأبيض) الذي تسبب في نفي أبيلارد وتعاسته، فقد قيل أنه هرع إلى دير كلوني حيث أبيلارد وجلس إليه عند سرير مرضه، وقد لاحظ بطرس المبجل أنه رأى الرجلين يتعانقان في قبلات الحب والسلام، ولكن وا أسفاه! لقد حدث هذا بعد فوات الأوان، إلا أن برنارد ظل يلاحق أبيلارد منذ أول يوم بدأ فيه هذا بالتعليم، وكان يراقبه بقلق، وغضب التقى والدين، وباشمئزاز خصوصاً عندما انتشر نفوذه خلال باريس وما وراءها، فقد كان أبيلارد يمثل كل ما كان يقاتل ضده بحماسة ومرارة.

لقد التحق برنارد، وهو النبيل البيرغندي السالف، بالرهبنات السستراشانية «الرهبان البيض» Cistercians، الذين لم يكونوا على وفاق أو على ما يرام مع دير كلوني، حيث كانت الفنون والعلوم تحترم وترعى وتشجع، أما أديرة السسترشيان فقد كانت فقيرة ومهلهلة، وكان الرهبان يقتاتون أطعمة فقيرة غير مغذية تعتمد على الخبز والحشائش المسلوقة، هذا وقد صُدم برنارد الذي كان معتاداً على المآكل الدسمة في قصر والده، وأصابه الاشمئزاز، والغثيان أولاً عندما رأى ذلك الطعام البائس، ولكنه عاد فتناوله بشكل بطولي، وقد كان قصده أن يعيش ليتغلب على الإغراءات الجسدية، وأحياناً كان يغمس جسمه بالماء المثلج للتغلب على هذه الإغراءات الجسدية، وكان محياه الشاحب الذي أصابه النحول بسبب الإرهاق والصيام، يبدو وكأنه أثيري القوام، ولذا أصبح تأثيره المعنوي عظيماً لهذا السبب، حتى أن مجرد النظر إليه كان كافياً لإقناع سامعيه قبل أن يفتح فاه، هكذا قال عنه ويبولد رئيس دير ستافيلوت: بأنه قد كان في الثانية والعشرين من العمر، عندما ترك ضيعة والده ليصبح راهباً، كله غيرة وحماس، وعدم صبر وتهور في إرضاء رغباته الجسدية، ولكن تلك القوة وذلك الحماس والدم الفائر كالخمرة المسكرة، لم يسمح له بالراحة أو الاستكانة أو الاسترخاء، وفي دير كليرفو كان الرهبان ينامون في مهاجع تشبه توابيت الموتى، وكان رئيسهم برنارد ينام على لوح قاس

من الخشب تحت بيت الدرج ، وكان الجمال محرماً بالنسبة لقواعده وقوانينه التقشفية الصارمة ، هذا وقد قال في إحدى العظات التي قدمها يصف الأسلوب القوطي الجديد في الكنائس : «إن العلو الهائل في أبنية الكنائس ، والطول غير العادي فيها ، واتساع صحن الكنيسة بشكل لا لزوم له ، والأحجار اللامعة المقصَّبة المكلفة ، والرسوم واللوحات التي تلفت النظر ، يا لها من تفاهة التفاهات ، لا بل هي أسوأ من التفاهات ، فنحن نرى جدران الكنيسة تشع وتلمع ولكن فقراءها يسيرون عراة الأجسام ، وهي تزين أحجارها ، ولكن أبناءها يسيرون عراة» .

ولقد كان برنارد مريضاً دائماً ، ومع ذلك فقد كان يسافر تحت أسوأ الظروف ، ويقطع جبال الألب على ظهور الخيل قاصداً روما ، لا بل حتى صقلية تسوقه الرغبة العارمة بتعصب وإصرار لمحق نفسه وإبادتها في سبيل خدمة الكنيسة ، فالكنيسة هي أمه الرؤوم ، مع أنه كان يقدس مريم العذراء ، وكان أول شخص دعاها سيدتنا وقد رفض أن يدعو أية امرأة أمّاً ما عدا الكنيسة ، وإن أعماله العظيمة هذه تعدّ تعليقاً لاذعاً على نشيد الإنشاد ، وهو الكتاب الذي يصف علاقة الحب بين الرجل والمرأة ، ويمكننا عدّ هذه التعليقات مفتاحاً لنفسية هذا الرجل الضخم ، الفارس الشهم الخادم للمسيح ، لقد كان أمراً طبيعياً أن تتولد الكراهية بين مثل هذا الرجل وبين أبيلارد ، إذ أن قضية هيلويسي سببت له الاشمئزاز ، فقد كان أدرى الناس بالإغراءات التي استطاع التغلب عليها واجتثاثها من نفسه ، فقد كان لديه كراهية عميقة واحتقار للمرأة لأنه كان يخشى أن يقع في الحب ، ووصل به الأمر أن عدّ زهو وخيلاء الاكليروس نوعاً من الغرور الأنثوي ، وذلك عندما قال لهم «لماذا تتزينون كالنساء ، ما دمتم لا ترغبون أن ينتقدكم الناس ! فالشهرة تكون بالعمل ، وليس بالقبعات المصنوعة من الفراء والزينة ، هل تظنون أن علي أن أقفل فمي ما دام أنه لا يجوز لراهب بسيط أن ينتقد الأساقفة ؟ وأتمنى لو أقفلتم عيني أيضاً ، ولكن لنفرض أني بقيت صامتاً فلاشك أن الآخرين سوف يتكلمون ، وسوف يهبُّ أولئك الفقراء

العـراة الجيـاع ويصرخـون: إن رفـاهيتكم تفـترس حياتنـا، وأن تفـاهتكم تسـاهم فـي سرقة ضرورياتنـا»، هـذه هـي الصفـات التي تحلى بـها برنـارد، والتـي جعلـت منه أقـوى شخصية كنسية في العصر دون منـازع، تلـك الصفـات التـي تنحصر بالحمـاس والإحسـان والحيوية التي لا تقبل مسـاومة ولا تنـازلاً فـي شـؤون الإيمـان العميـق والتكريـس، تكريـس النفس للقضية، وهكذا فإن صدامه مع أبيلارد لـم يكـن صدامـاً شـخصياً فحسـب بـل كـان صداماً صادراً عن إيمان عميق.

وقد وجه كلاماً لأبيلارد الذي كان يدعو لاستخدام الفلسفة فـي فحـص واسـتقصاء وانتقاد التعاليم اللاهوتية: «ماذا يهمني من الفلسفة، والرسل هـم المعلمـون الذيـن أعـترف بـهم، فـهؤلاء لـم يعلمونـي أن أقـرأ أفلاطـون، أو أحـل ألغـاز ومكنونـات أفكـار أرسـطو، ولكنهم علمونا كيف نعيش، وصدقني أن هذا العلم ليس علماً بسيطاً».

لم يكن هنالك مجال للتفاهم بين الرجلين، فكـان الإيمـان مسـلطاً بشـكل لا يقبـل المساومة ضد العقل، وعندما اجتمع الرجلان في سنس عام 1141م، وضح أنه لـم يكـن هنالك أساس عام أو نقاط تصلح للمناقشة بينـهما، فقـد كـان برنـارد لا يعـترف بسـيطرة العقل الذي ليس له أي تقدير بالنسبة للإيمان، وعدّ التفكـير نوعـاً مـن الثـورة والتمـرد إذ كيف تستطيع روح الإنسان الضعيفة العاجزة الملتوية أن تتجرأ على فحص وانتقاد شـؤون الإيمان يا ترى؟ فالإيمان ليس لـه عينـان، وليـس لـه أذنـان، ولا عقـل لـه، «وأن تؤمـن، معناها أن تؤمن، وتقبل ذلك وتعيش»، ثـم قـال: «إن بطـرس أبيـلارد يحـاول أن يعبـث بفضائل الإيمان المسيحي عندما يظن أن لديه القدرة أو أن العقل البشري لديه القدرة علـى تفهم الماهية الإلهية كلياً، فهو يرتفع إلـى السـماء، ولكنـه ينحـدر إلـى الهاويـة ولا شـيء يمكن أن يحجبه عن الانحدار إلى أعماق الجحيم، أو عـن الصعـود إلـى الأعـالي، فـهذا الرجل عظيم ولكن بتقديره الشخصي فهو يبـدو فخمـاً فـي جلالـه الفـارغ، وهـو خـلاق البدع، والضلال والكفر».

بالحقيقة أننا نظاهر أبيلارد، فهو قد كان رجل المستقبل، أما برنارد فقد كان رجل الرجعية والماضي، ولكن في القرن الثاني عشر كان برنارد رجل الحاضر، إذ كان رجال أبيلارد أقلية لا قيمة لهم ولا أمل، وعندما حضر برنارد للقيام بالتبشير في كنيسة القديسة جينيفيف، إذ بعشرين رجلاً من أتباع أبيلارد يتبعونه ويهجرون أستاذهم، ويذهبون إلى حياة البؤس في واحد من الأديرة السسترشانية يدعى فالد أبسنزي، فلقد كان برنارد مبشراً غزير الإنتاج، فقد نشر حوالي ثلاثمائة واثنتين وثلاثين عظة، وأربعة عشر كتيباً، وقد وصل لنا حوالي خمسمائة من رسائله النارية الغاضبة، الدالة على اتساع أفق معرفته وعلمه.

لقد كان برنارد أولاً وآخراً راهباً، فقد كانت الطاعة العمياء لقواعد نكران الذات، والقسوة، والتزمُت والعفة والفقر، كلها تلتقي مع ميوله الشخصية، وإيمانه العميق، وقد ادعى أن ليس لديه إرادة لذاته، بل كان الخضوع التام والامتثال لإرادة الله هي إرادته، ومع أنه كان يؤمن بالإله الرب، إلا أن اتحاده الديني كان بالابن، وكان يرهب سامعيه بما يورده من الأوصاف الدقيقة لآلام المسيح على الصليب، وكان يؤكد حالة التطور بالإنسان لما يدعوه الإنسان الإله، ولقد كانت حتى أقمطة المسيح وهو طفل رضيع لها دلالتها الخاصة بالنسبة إليه، وكانت حماسته الملتهبة مؤهلة لجعله مبشراً ناجحاً، ومع أنه قال: «إني أشعل ناري على لهيب التأمل»، إلا أن هذا التأمل كان تأملاً ملتهباً، ولكنه كان لامعاً أيضاً، وذلك لأن ضمير المسيحية لم يكن متأملاً ولا ضعيفاً ولا ذليلاً، وفي خطابه ضد أرنولد صاحب برسكيا - وكان واحداً من تلاميذ أبيلارد اللامعين - استعمل هذه الكلمات: «إن أرنولد يمتلك قدرة كلامية حلوة كالعسل، ولكن تعاليمه هي السم الزعاف، فرأسه حمامة، ولكن ذنبه ذنب عقرب، فكل ما يجتره برسكيا تنبذه روما وتنفر منه فرنسا، وتمقته ألمانيا، ولا تستسيغه إيطاليا»، والحقيقة أن هذه ليست لغة راهب متفرغ للعقل والتعقل، وللصبر كالقديسين، إنما هي لغة رجل مستعد للتمزيق والتخريب، ولا عجب أن يقول نقاده أنه حتى بوجهه الهزيل استطاع السيطرة على الناس والتأثير عليهم،

وتلك المقدرة التي كانت تساعده بشكل لا نظير له عند مناظراته في القضايا الكنسية وعند انغماسه في السياسة العالمية والتفاوض مع الملوك والأمراء، وكان يُتمُّ كل ذلك لمرضاة الكنيسة ولم يكن مستعداً للمساومة أو التسوية أو التساهل، ولم يفرط بمقدار ذرة من اعتقاداته، ومع ذلك فإن تحول راهب كليرفو إلى حاكم حقيقي فعلي للكنيسة (فقد كان أقوى بكثير من البابا) هذا التحول كان إحدى النقاط الحاسمة ليس في حياته الشخصية فحسب بل في حياة الكنيسة برمتها.

وكان السبب المباشر لهذا التغيير الذي حدث في سلطة الكنيسة وبنيتها، هو تولي بطرس بيرليوني شؤون البابوية، إذ لا مندوحة لنا عن تفهم الخلفية الملونة للحوادث التي أدت إلى انتخاب بطرس، وبالتالي إلى الانقسام العظيم في الكنيسة عام 1130م، إذ أنه بعد وفاة كاليكسيوس الثاني عام 1124م انتخب لامبرت أسقف اوستيا خليفة له بسرعة، وبشكل لا يتفق مع القوانين الكنسية المرعية، وتم ذلك بمساعدة آل فرانجيباني، تلك الأسرة التي كانت قد تحالفت مع آل بيرليوني إلى حين، ولكنها أصبحت الآن مستعدة للعمل لحسابها الخاص، إذ ثبت لها أن العمل مع آل بيرليوني لا فائدة منه، ولذا أصر آل فرانجيباني على انتخاب مرشحهم، وبمساعدتهم نُصِّب لامبرت حبراً أعظم باسم هونوريوس الثاني (1124 – 1130م)، وقد ضرب بعرض الحائط بمراسيم الانتخابات التي أصدرها نقولا الثاني، والتي حددت إجراءات الانتخابات البابوية، ولكن انتخاب هونوريوس قد ثبت فعلاً، وهكذا ربح آل فرانجيباني أول نصر لهم على حلفائهم الماضين.

أصبح بطرس ليونيس زعيم آل بيرليوني الآن رجلاً مسناً، مريضاً وليست لديه القدرة الكافية على المقاومة، ولقد قدم للعالم اسم ابنه بطرس ولكنه – أي الأب – كان منبوذاً، وبعد أربع سنوات وفي الثاني من حزيران عام 1128، لفظ أنفاسه الأخيرة، فقد توفي صديق هيلد براند الحميم القديم وصديق أوربان الثاني أيضاً، وقد دفن باحتفال مهيب في كنيسة القديس بولس خارج أسوار روما، وقد كان ناووسه فخماً مزيناً، وهو

القبر البيرليوني الوحيد الذي لا يزال ماثلاً حتى اليوم، وهو واقع قرب مذبح الكنيسة، وهذا تشريف عظيم لرجل أقل ما يقال عنه أنه كان نبيلاً بارزاً وقنصلاً رومانياً، ولكنه كان لا يزال يذكر (كرجل مرتبط أصلاً بالجماعة اليهودية)، وبعد احتراق الكنيسة عام 1823 نقل ناووسه إلى موقعه في الرواق المعمد المسقوف والواقع حول الكنيسة، حيث يظهر بجلاء كأكبر نصب من الأنصاب الكثيرة الموجودة حوله، وقد بقي سالماً لم يمس تقريباً، (الزاوية الصغيرة على الجانب الأعلى مخلخلة قليلاً) وعليه نقش هذا النص:

«فليحفظك الرسولان بطرس وبولس يا بطرس ليونيس، وليعطياك الروح السماوية التي أحببتها، وأخلصت لها، وهكذا ليكن معك نور المجد السماوي إلى الأبد».

لقد مات بطرس وحوله أبناؤه التسعة، وابنته، وأفراد من الأسر النبيلة في روما، وأفراد من الاكليروس، وقد أطبق الكاردينال بطرس عيني والده، تينك العينين اللتين كانتا تذوبان شوقاً لرؤية ولده، يجلس على عرش البابوية، ومع أنه كان أمراً طبيعياً بالنسبة لأي كاردينال في الكنيسة المسيحية أن يعدّ نفسه مرشحاً مرتقباً للبابوية، إلاّ أن القلائل، وكما رأينا، كان لديهم الاستعداد الكافي لتولي هذا المنصب، كما كان بطرس، فقد أعطت هذه الأسرة عدداً من رجالاتها للكنيسة، ومنهم يوحنا جراتيان، الذي حكم باسم غريغوري السادس، وثبت أن حكمه قد أجهض، لكنه على أي حال قد خلص البابوية من ذلك الرجل اللاأخلاقي، ووضع قدر الكنيسة في كف دير كلوني ورجاله المخلصين المصلحين والمطهرين للكنيسة والذين رحبوا به بسرور كواحد من أفرادهم، وحقيقة كونه بيرليونياً وسليل أسرة يهودية أباً وأماً لم يكن له تأثير يذكر، فقد أصبح كاثوليكياً مخلصاً، ولم يشك في إخلاصه أحد من الناس، هذا وقد تبعه هيلد براند باسم غريغوري السابع، وأدخل هذا تلك الأسرة المتحولة إلى الديانة المسيحية، في صميم الشؤون الكنسية، فلم تعد تلك الأسرة تعد مجرد ممولة للبابوية، بل أصبحت حامية للبابوات، وأخلص المخلصين لحزب البابوية العتيد، وأصبح حكام تراستفيري دون منازع أصحاب معاقل

روما الحصينة، وكان هيلد براند يمت إلى هذه الأسرة برابطة الزواج والمصاهرة على الأقل، وهكذا فهو سليل غير مباشر لباروخ اليهودي، وأما بطرس هذا فكان من أحفاده المباشرين، فهو حفيد باروخ، وهو حفيد ليو، وهو ابن بطرس كما رأينا، وكانت تجري في عروقه دماء الأسرة اليهودية المتحولة، وقد ثبتت به هذه الصفة، والتصقت به أكثر من التصاقها بأي بيرليوني آخر، وصرح بذلك الصديق والعدو، إذ أن مظهره كان مظهراً يهودياً بيرليونياً صرفاً، ومع أنه كان معمداً وحفيد جدّ أعلى متحول إلى المسيحية، وواحد من أفراد عائلة قامت بدور رائع في تاريخ البابوية، إلاّ أنه كان يعدّ دوماً يهودياً، وكان يذكر بتلك الحقيقة طيلة حياته.

في الوقت الذي مات به بطرس ليونيس، كانت روما قد بعدت عن المجاري الرئيسة للحركات الثقافية والعلمية في أوروبا، فقد كرس هنوريوس الذي كان لا يزال حبراً أعظم جهوده للقضايا السياسية في جنوب إيطاليا وصقلية، ولم يكن هذا البابا عظيماً، كما أنه لم يكن سيئاً، فقد أظهر قليلاً من الإبداع الروحاني، الذي لم تكن روما بحاجة إليه، فلقد كانت روما أقل مركز استفاد من النهضة الأوروبية في القرن الثاني عشر، إذ أن الجامعات العظيمة تمركزت في أماكن أخرى غير روما، وكانت المناظرات والمعارك الأخلاقية والدينية تجري خارج روما، بين دير كلوني ودير كليرفو، لا بل حتى فن المعمار الحديث لم يصل إلى روما، وهذا شاهد على أنه لم يكن هنالك أية كنيسة مبنية على النظام القوطي في ذلك الزمن في روما، بل كان هنالك كنائس رومانسيكية ضئيلة القيمة، وبذا فقد تجاوز هذه المدينة الخالدة التي كانت تتصل بالعالم الكاثوليكي الخارجي وتعد قلبه النابض، إلاّ أن روما كانت تعيش حياة عزلة وانفصال عن العالم الخارجي، فقد كانت المراسيم البابوية والقوانين تصدر، والمجامع المسكونية تعقد، والملوك يتوجون، والحجاج يغدون ويروحون، وفلوس بطرس تصل إلى الخزانة البابوية، ورسل البابا وممثلوه وموفدوه يطوفون في جميع أنحاء العالم، لكن روما نفسها كانت تسير في حياتها الخاصة تسيطر عليها عصابات النبلاء

الذين كانت تتألف منهم المجامع الكنسية، ومنهم يأتي البابوات وينتخبون، وبعد اتفاقية ورمس لم يعد للملك أي صوت في انتخاب البابوات، ومع أنه كان للنبلاء حق في التصويت، إلاّ أنهم لم يكونوا أحراراً أو غير مقيدين في أعمالهم، فقد كانت القوانين الخاصة بانتخاب البابوات قد صدرت، ولكن هؤلاء النبلاء قاموا بدور مركزي في المستقبل خلال النزاع بين أسرتي فرانجيباني وبيرليوني، ذلك النزاع الذي أدى إلى حوادث درامية خلال الاحتفال بقداس عيد الميلاد عام 1129، فقد أصيب البابا هونوريوس الثاني بمرض وأغمي عليه، وحالما حملوه إلى حجرة نومه البابوية، تبين أن القضية لم تكن مجرد إنهاك وتعب شديد، لأنه كان قد تعرض لذلك المرض الكثير الحدوث في القرون الوسطى، وهو الحمى الرومانية الناتجة عن المياه الملوثة، وكانت مرضاً خبيثاً يخشاه الجميع، لأنه كان مميتاً على العموم، وهكذا عد البابا في حالة خطر من اليوم الأول لإصابته، وكانت تصيبه حالات من الإغماء من وقت لآخر، تستمر عدم أيام، ولقد ظهرت الحاجة الملحة لتعيين شخص ينوب عنه في إدارة شؤون الكوريا، ووقع الاختيار طبعاً على هيميرك الذي كان يخدم البابا كيلاكستوس كمستشار، واستمر في ذلك المنصب زمن هونوريوس، وكان هذا رجلاً ذا ذكاء ودهاء، كان مرتاحاً تماماً لملء منصب مستشار لبابا ضعيف، كما فعل هيلد براند، حين شغل المنصب نفسه عدة سنوات تحت إشراف بابوات ضعفاء كانوا أقل مقدرة منه، وهكذا كان هيميرك يعتقد أن الحل والربط هو بيد المستشار وليس بيد البابا.

وعلى كل حال فقد كانت أيام هونوريوس معدودة، وبدأ الجميع يفكرون بجدية بالبديل، وانتخاب خلف له، وتعقدت الأمور في روما مرة ثانية، وأصبح الوضع متوتراً، إذ مع أن الانقسامات السالفة بين أحزاب إمبراطورية، وغير إمبراطورية قد ذهب ريحها بعد اتفاقية ورمس، ومع أن نفوذ دير كلوني قد تضاءل أيضاً بعد أن هبت رياح الإصلاح في البابوية، إذ طفا على السطح الآن ذلك النزاع بين القوى الثالثة، وهي قوى النبلاء للسيطرة على الشؤون السياسية والاقتصادية في المدينة نفسها، وكان النزاع شديداً وكانت

المعركة حامية الوطيس بين الأسر النبيلة القوية، أخص منها بالذكر أسرتي الفرانجيياني والبيرليوني، ووضح منذ البداية أن أسرة البيرليوني هي الأقوى، وذلك بسبب كثرة مشايعيها الذين كانت أكثريتهم تمت إليها بروابط القربى والمصاهرة أو بروابط المساعدات المادية والمبادلات المالية والاقتصادية، التي كانت موارد الأسرة التي لا تنضب قمينة بتأمينها، فقد كان جشع الرومان وحبهم للمال بشكل أسطوري لا يتيح للأغنياء أن يشتروا تأييد عامة الشعب فحسب، بل يتيح لهم تأمين قسم الولاء للبابا الجديد أيضاً، وقد أصبح من الأمور المألوفة والبديهية في ذلك الزمن أن مبلغ / 18.000 / مثقال من الذهب كانت تكفي لإجلاس بابا جديد، وكانت رشوة رجال الاكليروس الكبار منهم والصغار قضية مقبولة وطبيعية، فكل من يدفع أكثر يحصل على خلع أكبر، وأصبحت المنافسة بين آل فرانجيياني وآل بيرليوني، التي كانت تدور حول القضايا السياسية، وحول الإمبراطور الألماني، ما هي إلا قضية أموال ومادة، فقد أمن آل بيرليوني قضية تعيين حكام روما حتى أصبح من الغباء توقع تغييرات جديدة، وكانت قوتهم وسلطتهم ملموسة في المدينة، فلم يكونوا يملكون أقوى الأبراج المحصنة الخمسمائة في روما في القرن الثاني عشر بما فيه حصن سانت انجيلو ومسرح مارسيلوس فحسب، بل كانوا يملكون أحياء برمتها وبصورة خاصة حي تراستنفيري وضفة نهر التيبر اليسرى، التي كانت تحتلها المليشيا المسلحة، التي أصبحت أكثر قوة باقتناء الآلات الجديدة، الصالحة لاقتحام تحصينات العدو، وهكذا أصبح من الواضح أنه إذا انتخب خليفة هونوريوس من آل بيرليوني عند ذلك يجتمع الدين والدنيا في هذه الأسرة، وتصبح هذه الأسرة حاكمة روما دون منازع سواء في الكنيسة أو في المدينة.

ومع ذلك فقد كانت هنالك بعض العوامل التي كانت تتحدى آل بيرليوني، وأحدها أن هيمرك أراد أن يؤمن مرشحاً ذا أخلاق جيدة، وفي الوقت نفسه ضعيفاً يستطيع السيطرة عليه، لذلك تحالف مع آل فرانجيباني، ولكن العوامل والمعايير النفسية كانت أكثر أهمية، فعلى الرغم من أن آل بيرلوني كان باستطاعتهم شراء الناخبين، إلاّ أنهم لم يمتلكوا شعبية

كبيرة في المدينة، فقد كان النبلاء الآخرون لا يثقون بهم لأنهم عدّوهم من حديثي النعمة، وكرههم الشعب لأنهم كانوا يودون استعباده، ثم إن الإجماع على كرههم كان بسبب أصلهم اليهودي، فلم ينس أحد بعد أنهم متحولون يهود، ومن الغريب أنهم لم يحصلوا على الغفران بعد، وقد شعر خصوم آل بيرليوني بالخطر المحدق بهم، وشعروا أن عليهم أن يبادروا إلى العمل الفعال السريع، وخصوصاً لأن هذه الأسرة كان لديها مرشحها الطبيعي، بطرس الكاردينال، وكانت الأموال الكافية قد وزعت على الشعب لتأمين ترشيحه وانتخابه، وجعل ذلك أكيداً بل أكثر من أكيد، لهذا فلم يكن الوقت وقت الدبلوماسية، ولا زمن التفاصيل الإجرائية، بل كان من الواجب الآن اللجوء إلى الدهاء للتغلب على العدو، وبالنسبة لهيميرك فقد كان العدو هو بطرس بيرليوني.

ولكن الزمن لم يكن مواتياً، فها قد أطل شهر كانون الثاني، ومضى وهونوريوس لا يزال طريح الفراش منذ عيد الميلاد، وكان يعالج سكرات الموت، ولكنه لم يمت بعد، هذا وكانت قوانين الانتخابات التي وضعها نيقولا الثاني، والتي ما زالت سارية المفعول - ولو جزئياً - تتطلب عقد مجمع عند إشراف البابا على الموت لمناقشة أمر اختيار بابا جديد خليفة للبابا المريض، وكان من الواجب أن يحضر هذا المجمع الكرادلة وعدد من أعضاء الاكليروس الروماني، وممثلون عن الأسر النبيلة، وعند وفاة البابا كان على المجمع أن يقرر زمن ومكان الجنازة، وكان من النادر أن يدفن البابا في اليوم نفسه الذي يموت فيه، وكان الوقت الذي يمضي بين الموت والدفن ثلاثة أيام تقريباً، وفي الأحوال العادية يتم الانتخاب في الكنيسة التي يدفن فيها البابا الراحل، ولكن أثناء مرحلة الخصومات بين الأسر النبيلة المختلفة أصبح الانتخاب يتم في كنيسة محصنة قريبة من قلاع وتحصينات العائلة التي تسيطر على الموقف وترعى البابا، وتصبح قضية تسمية المرشح معقدة عندما لا يعين البابا له خليفة معروفاً، وفي بعض الأحيان عين عدة مرشحين في وقت واحد، وفي أثناء جلسة الانتخاب الرسمية التي تسمى «التحري» كان الكرادلة والاكليروس يتناقشون في فضائل

كل مرشح ومزاياه، وعندها يطلب عدد من الكرادلة المتخصصين بهذه الأمور طرح الأسماء للتصويت، وكان عدد الذين يجوز لهم التصويت في عام 1103م خمسين عضواً، وفي أول الأمر كان انتخاب المرشح محصوراً في الأساقفة الرئيسيين فقط، ولكن أنقصت سلطتهم في القرن الثاني عشر، واشترك الشمامسة ورؤساء الأديرة والقساوسة في الانتخاب، ومع ذلك فقد كانت الصفات والوزن اللاهوتي كالسن والخبرة والسمعة الطيبة للمرشح، لها تأثيرها الإيجابي، أو السلبي على انتخابه، وكثيراً ما كانت المؤثرات الخارجية والقوى المسلحة تداهم المجتمعين، وتتدخل الأسر النبيلة، ولكن في النهاية وبعد الجلسات الصاخبة، يتم انتخاب واحد من المرشحين، ويعمد هذا بعد ذلك إلى اختيار اسم جديد له، ويتم الاحتفال المهيب بارتداء البابا الجديد أثواب الحبر الأعظم وشاراته، ويتبع ذلك مراسيم الاحترام والتوقير التي يقوم بها الاكليروس والنبلاء، الذين كانوا يركعون أمام البابا، ويقبلون الخاتم البابوي، وهكذا يتوج البابا رسمياً، ولا يعد حبراً أعظم رسمياً إلاّ بعد هذه المراسيم، وفي بداية شهر شباط وقع البابا في غيبوبة تامة، وانتظر الجميع النهاية السريعة، المرتقبة، ولهذا أصبحت حيازة جسم البابا قضية ذات أهمية ما دام انتخاب خلفه لا يمكن أن يتم دون إتمام عملية الدفن، وكان من الواضح أنه إذا استطاع آل بيرليوني أن يختطفوا البابا، فإنهم سوف يفوزون بالسيطرة على الموقف، ونتيجة لذلك نُقل هونوريوس بسرعة من اللاتيران إلى دير القديس أندراوس الواقع قرب البرج الذي كان باستطاعة آل فرانجيباني أن يرسلوا المرتزقة منه في حالة الخطر، ولكن عندما انتقل البابا المريض وحوله الأساقفة الذين كانوا يحرسونه لاحظهم عامة الشعب - إذ كان لا يمكن لأي حادث مهما كان تافهاً أن يمر دون أن يلاحظ في روما، تلك المدينة التي تذاع بها الأقاويل وتنتشر بها الإشاعات كانتشار النار في الهشيم - وسرعان ما بدأ الناس يجتمعون أمام الدير يراقبون وينتظرون أي خبر، ولم يكد البابا يصل إلى مخدع نومه الجديد حتى دعا هيميرك إلى اجتماع للاكليروس لتسمية خلف له، ولكن الكرادلة توقفوا وأحبطوا مسعاه، فقد كان

هنالك بعض الكرادلة مثل بيتروس أسقف بورتو الذي بقي مستقلاً ومحايداً، ولهذا عارض بشدة مثل هذا الخرق الفاضح لقوانين الانتخابات، التي تنص على عدم جواز تسمية الخلف قبل أن يسلم البابا الروح، ولكنه أخيراً خضع لرأي الأغلبية، ولكن عامة الشعب والرعاع لم يكونوا ليتركوا أي شيء للصدف، ولهذا قرر هيميرك أن يسلك سبيلاً آخر، فذهب إلى سرير البابا المحتضر لإقناعه بتسمية خلف له، إذ أن هذه الخطوة تسهل الأمور كثيراً، لأن رغبات البابا يجب أن تنفذ، وقد وصلت به الأمور إلى أن بدأ يقترح على البابا بعض الأسماء، ولكن البابا بلغ من الضعف كل مبلغ، فلم يستجب لأية دعوة أو أي اقتراح، وعندها عقد اجتماع آخر لمناقشة الوضع، ولكن الألوف المؤلفة من الشعب أفسدت الاجتماع عند المساء، وكانوا يحيطون بكنيسة القديس أندراوس، فقد سرت الإشاعات أن البابا قد توفي، وبدأ الشعب يطلب تعيين تاريخ الجنازة، وعندها شوهد منظر غريب عجيب فقد دب الذعر في قلب هيميرك، إذ كان عليه أن يثبت للرعاع الهائجين أن البابا لا يزال حياً، فحمل الأساقفة سرير البابا ووضعوه على النافذة، لكي يتمكن الشعب الهائج المترقب أن يراه، وأُدنيت المشاعل المضاءة من السرير من جميع جوانبه، وكان هونوريوس لا يكاد يعي ما يحدث حوله، وكانت عيناه المرهفتان نصف مغلقتين، ولكن الجلبة والضوء ساعدتا على فتحهما قليلاً، وقد حدق البابا بما حوله وهو مأخوذ بما يراه، ويشعر به من النشاط غير العادي، فنظر حوله بارتباك، فعمد هيميرك إلى ترتيب الوسائد حوله، وجلبت وسائد أخرى وضعت خلف ظهر البابا حتى أصبح الآن في وضع الجالس، وكان وجهه شاحباً واشتد شحوبة في ضوء المشاعل، قال هيميرك: «باركهم يا أبانا، إن الشعب يطلب بركاتك الرسولية»، فما استطاع البابا إلاّ أن يحرك شفتيه، فقد كان أضعف من أن يحرك ذراعيه، عندها عمد اثنان من الأساقفة إلى رفع ذراعيه إلى الأعلى، وهاهو البابا قد أصبح ألعوبة! رُفع الذراعان ثلاث مرات حتى يراهما الشعب الصاخب ويعلم أن هذه هي بركات البابا، وأن البابا لا يزال على قيد الحياة، وقد

استمر صخب الشعب مدة طويلة بعد أن أرجع البابا إلى مخدع نومه، وكانت هذه المحنة الشديدة كافية لتقصير أجله، لأنه أصبح أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، فسقط في غيبوبة دامت نحو أسبوع، ثم لم يستيقظ بعد ذلك.

أصبحت كنيسة القديس أندراوس مسرحاً لنشاطات محمومة، فقد كان مجمع الكرادلة منقسماً على نفسه بشكل لا يدعو للأمل، وأما هيميرك فقد قرر وهو متأثر بطموحاته الشخصية وبإيعازات آل فرانجيباني، أن ينتخب مرشحه وهو غريغوريو باباريسكي، الذي كان الشماس الأكبر لكنيسة سانت أنجيلو، وكان رجلاً له شخصية قوية، وأخلاق قويمة، وكان قد خدم الكوريا عدة سنوات، كما كان واحداً من الذين اشتركوا في صياغة اتفاقية ورمس، وخدم كممثل للبابا ومندوب عنه في فرنسا، حيث اشترك في العمل مع الكاردينال بطرس بيرليوني الذي قُدر له أن يكون خصمه، ولم تكن هنالك أية شائبة أو شك في أخلاق باباريسكي الممتازة، وكان ينتمي لأسرة رومانية قديمة عريقة، ولم يكن رجلاً قوياً جداً ولا ملوناً، بل كان مستقيماً في أخلاقه، وكان هيميرك حريصاً على إتمام انتخاب هذا البابا قبل موت هونوريوس، وقد عُينت لجنة مؤلفة من ثمانية كرادلة ولكن سرعان ما تبين أن الأكثرية سوف تصوت لبطرس، وهكذا استمرت معركة «تاج البابا المثلث»، وقد نشبت هذه المعركة بمرارة وضراوة، فقد حاول كل فريق أن ينتصر، ولم يتورع عن استخدام أي خدعة ممكنة، ولم يتقيد أن يفكر بالوسائل المشروعة في سبيل إحراز النصر، وقد أدرك هيميرك أن مرشحه سوف ينتصر إذا تصرف أصدقاؤه وأنصاره بالسرعة الكلية، ودونما شفقة، أو تهيب، وأخيراً وعندما توفي هونوريوس أثناء الليلة الثالثة عشرة من شهر شباط، عندها اندفع هيميرك بسرعة إلى سريره، وأمر بنقل الجثة من جناح المعيشة في الدير، إلى كنيسة القديس أندراوس، وعمد إلى العمل بالسرعة التامة، وبالسرعة الكلية، ولما كانت قوانين الانتخاب تقضي بأنه يجب أن يدفن البابا قبل أن يُختار خلفه، لذلك حُضر قبر مؤقت بسرعة في الباحة قرب الكنيسة، وبعد تلاوة بعض

الصلوات السريعة ، ووري الجسم الثرى ، وبالوقت نفسه أقفلت أبواب الدير بإحكام ، لمنع أي شخص من الخروج أو الدخول .

وأخفي نبأ وفاة هونوريوس قدر الإمكان ، وعندما حاول بطرس بيرليوني ، وصديقه الحميم الكاردينال جوناثاس أن يدخلا وينضما إلى اللجنة الثمانية التي كانا من أعضائها ، مُنعا من الدخول إلى حيث كان من المفروض أن تعقد اللجنة جلساتها ، وهكذا انتخب باباريسكي على يد أقلية من الهيئة المقدسة ، وسمي هذا البابا إنوسنت الثاني ، وتم الانتخاب في بهيم الليل ، ولم يجرؤ أحد على التشكك أو فحص شرعية هذه الإجراءات ، خوفاً من أن يُعلن بطلانها ، وأثناء الأعوام الثمانية الصاخبة التي تلت حدثت مجادلات ومناقشات طويلة ، لم يستطع حتى هيميرك أن يدعي أنه تصرف وفقاً للقوانين ، ولكن آل فرانجيباني حاولوا أن يضفوا على انتخاب إنوسنت بعض سمات الشرعية ، فجمعوا عدداً من المرتزقة لديهم في الصباح الباكر ، ووضعت جثة هونوريوس على عربة موتى ، ونقلت إلى البازليكا في اللاتيران ، وكتب برناردي : «لقد بزغ ضوء النهار الآن ، وجهز آل فرانجيباني - الذين كان هيميرك على تمام الاتصال بهم ، والاتفاق معهم - هؤلاء القوم ، وحفروا القبر بسرعة ، وجروا البابا ودفنوه فيه ، وهكذا أصبحوا الآن مستعدين للالتزام بالمراسيم التي تحيط عادة بانتخاب البابا ، فلم يكن اللاتيران بعيداً عن كنيسة القديس أندراوس ، ولهذا عمدوا إلى إعداده لهذه الغاية ، فقاموا بنبش الجثة من القبر الجديد ، وحملوها إلى اللاتيران ، يتبعها البابا الجديد ، وناخبوه من آل فرانجيباني ، وبعض أفراد الشعب الذين تجمعوا بسرعة ، ودخل البابا المتوفى والبابا الحي الكنيسة بالوقت نفسه ، وأنزل هونوريوس إلى القبر بسرعة عظيمة ، بينما ألبس إنوسنت الأثواب البابوية ، وسُلم الشارات المعتادة ، ثم دخل في الحركات الاحتفالية المعهودة والمعتادة ، إلى البازليكا ، ثم إلى القصر ، وهكذا أصبح هو البابا» .

بينما كانت هذه الأمور لم تتضح بعد ، وقفت غالبية الاكليروس ينتظرون في كنيسة القديس ماركوس ، ولم يكن لديهم أي علم بوفاة البابا ، أو بانتخاب إنوسنت ، والحقيقة

أن كل تلك الأمور تمت خلسة، وبشكل مكتوم، وكانت قلة من الاكليروس الكبار في حاشية هيميرك، لذلك لم يلاحظ أحد تغيبهم، وكان هنالك عدد كبير من الاكليروس في روما في ذلك الوقت، فكان هنالك ستة أساقفة كرادلة، وتسعة عشر أسقفاً، وأربعة عشر شماساً كبيراً، أي تسعة وثلاثون بمجموعهم، وكان معظمهم في كنيسة القديس مرقس عندما وصل إليهم نبأ انتخاب إنوسنت، فافتتحوا جلستهم الرسمية عند الظهر، وقد ساءتهم تصرفات هيميرك المخزية بتجاوزه القانون الكنسي، وبعدم مراعاته لأحكام الانتخاب، وقرروا انتخاب بابا جديد حسب القوانين المرعية، ولكن الغريب في الأمر أنهم نسوا أهم نقطة قانونية في القضية، فلم يلغوا ولم يبطلوا رسمياً انتخاب إنوسنت، مع أنه كانت لديهم السلطة والأصوات الكافية لتنفيذ هذا الإلغاء، ولكنهم تغاضوا عن هذا الموضوع، ولو قاموا بهذا العمل لأصبح أناكلت البابا الحقيقي، دون منازع ولاجتنبوا ذلك الانقسام الذي نتج، وتلا تلك الأحداث، ولكن بدلاً من ذلك باشروا بالانتخاب، وكان أول من وقف هو الكاردينال بطرس بيرليوني الذي اقترح مرشحاً جديداً هو أسقف بورتو، ولاشك أن هذا كان أمراً مدبراً لإضفاء الشرعية والاحترام على الإجراءات المتخذة، فقد كان هذا المرشح طاعناً في السن، ورفض الترشيح كما كان منتظراً، ولكن هذه المناورة سببت ميل الاكليروس المحافظين إلى جانب انتخاب بطرس بيرليوني، إذ أن هذا الأسقف نفسه الذي ظل مخلصاً لأناكلت حتى تلك النهاية المريرة، اقترح هذا الأسقف اسم بطرس بيرليوني، فنال بطرس إجماع تسعة وعشرين فرداً من أفراد الاكليروس يتسلسلون في المراتب من كبار الكرادلة وكبار الشمامسة إلى كبار القساوسة، وعندها اتخذ بطرس اسمه الجديد وهو أناكلت الثاني، وألبس باحتفال مهيب الرداء الأرجواني (ولكن وا أسفاه، لقد كان الخاتم والصليب بحوزة إنوسنت ولذا استعملت أدوات بديلة).

ومن نافلة القول أن نذكر أن مراسيم انتخاب كلا البابوين إنوسنت وأناكلت كانت بسيطة دون تلك الأبهة المعتادة، والحقيقة أنه لم يكن لأي من المعسكرين سبب لإبداء فرحة

وغبطة، فمثلاً إنوسنت، الذي تقدم زمنياً في التنصيب، كان انتخابه غير شرعي، لذا لم يكن وضعه سليماً أبداً، فقد كانت معظم طبقات الشعب في روما ضده، فلم يحضر مراسيم التنصيب إلاّ آل فرانجيباني وأصدقاؤهم المخلصين مع عائلة إنوسنت، ولم تقم أية وليمة بتلك المناسبة، ولم تجر أية احتفالات في المدينة، وقد نصحهم إنوسنت نفسه بالتريث، وأخذ جانب الحذر تحت تلك الظروف، وبعد أن أجلس على العرش البابوي، أخذ إلى دير بلاديوم في ظل قلعة من قلاع آل فرانجيباني، حيث شعر بالأمان أكثر من وجوده في روما نفسها، وكان دفن البابا المتوفى بتلك السرعة، وتلك الإهانات التي تعرضت لها جثته في عملية الدفن الثانية، والسرعة التي اتخذت في الاحتفال في اللاتيران، كل هذه الإجراءات كبلت ضمائر كل الذين اشتركوا في تنصيب البابا إنوسنت، وهو ضحية دهاء تفكير هيميرك، ويتفق الكثيرون في القول أن إنوسنت لم يكن ذا قامة مهيبة، ولكن لا ينكر أي إنسان أنه كان شخصاً له كرامته الشخصية، وأن انسحابه إلى دير محصن دليل كافٍ على وجود تلك الضمائر الفاسدة، وحتى أعداء أناكلت اعترفوا بالشوائب التي علقت بانتخاب إنوسنت: «إذا قارنا الانتخابات التي جرت في دير القديس أندراوس بتلك التي جرت في كنيسة القديس مرقس (أي انتخاب أناكلت) لا يسعنا إلاّ أن نعترف أن انتخاب ذلك الحقير بطرس ليونيس كانت أقرب إلى القانون الكنسي من رفع ذلك الشماس الكبير إلى سدة البابوية في كنيسة القديس أنجيلو (أي إنوسنت)، فالاكليروس الذين انتخبوا أناكلت كانوا من أكبر الاكليروس سناً وتجربة، ومن الرجال المجربين الذين خدموا الكرسي البابوي المقدس».

وبينما نرى اختلافاً قليلاً بالنسبة لأخلاق إنوسنت وشخصيته، إلاّ أننا نلاحظ أن الأفكار والآراء حول أناكلت تختلف اختلافاً بيّناً وعظيماً، فقليل من الناس يذكرونه دون نوبة انفعال أو غضب شديد لأنه كان يعدّ منذ نعومة أظفاره شخصية مثيرة للخلاف والجدل، وقد كنا ذكرنا قبلاً عن ملامح وجهه وأساريره اليهودية، وكان يبدو أسمر اللون مع شيء من الشحوب كان الجميع يستاءون ويمتعضون من مظهره اليهودي، وهو لم يزل

طالباً في باريس، وبعد أن أصبح مندوباً بابوياً في فرنسا وإنكلترا، لا بل حتى في ذلك الوقت كانوا يدعونه «عدو المسيح»، وهذا تعبير مسيحي مهذب يقصد به «ذلك اليهودي الملعون»، وكتب غريغوري: «لقد تذكر العالم فجأة باحتقار وازدراء أصل آل بيرليوني اليهودي فالسحنة اليهودية لأي بابا لا يجوز أن تعدّ شيئاً مؤذياً أو ضاراً، خصوصاً إذا تذكرنا أن الرسول بطرس، ويسوع نفسه لابد وأنهم كانوا أشبه باليهود من أناكلت هذا».

لم تقتصر تلك الانتقادات على هيئة ومظهر أناكلت فحسب بل تعدت إلى أخلاقه أيضاً، فألصقت به كل تهمة وكل جريمة اقترفت تحت الشمس، فقد كره كل الكراهية لأنه كان أولاً سليل أسرة يهودية، على الرغم من أن هذه الأسرة قد تحولت إلى المسيحية، وعرفت بالتقوى، ولكنها عرفت أيضاً بمقدرتها المادية، وقوتها المعنوية، ومن جهة أخرى عدّ أنه لم يكن يَمُتّ إلى الرهبنة بأية صلة، ذلك لأن إقامته القصيرة في دير كلوني، كانت نوعاً من التَّنفجيَّة[1]، ولم تكن دلالة على تقبله الخالص للقواعد والقوانين الخاصة بالرهبنة، فقد كان دير كلوني هو «ايتون»[2] القرون الوسطى، فقد استطاع آل بيرليوني بما لهم من قدرة مالية أن يرسلوا ولدهم ليتثقف في بلاط ملك فرنسا، وفي قاعات الدراسة التي كان يعلّم فيها أبيلارد، فضلاً عن الجو الروحاني الأرستقراطي المتوفر في دير كلوني، ومجمل القول أنه لم يكن زاهداً ولا متنسكاً، «والحقيقة أن أناكلت كان رجلاً رائعاً بارزاً (إذا قورن بانوسنت) فقد تعلّم في باريس وكان شديد الطموح، فصيحاً، ذكياً سريع البديهة فكهاً، ورغم تلقنه العلم ونشأته الأولى في دير كلوني، لم يكن يخلو من تذوق للرفاهية، وذلك بسبب الثروة التي أحرزها أجداده وأسلافه الأذكياء، وكان يمثل نموذج البابا الأرستقراطي»، ولكن هذا التقويم تقويم حديث، فلم يكن معاصروه كرماء ليصفوه بمثل هذه الأوصاف، فقد دعاه هوبرت لوكا: «الجشع الطموح»، ووصفه (بطرس البيزوتي) بقوله: «ذلك الطائر آكل الجيف الذي أتخمه أو أغرقه الجسد»، وذهب أسقف مانتو إلى أبعد من ذلك فاتهمه

---

(1) التنفجية هي سلوك المقلد لمن يعدهم أرقى منه، والمعجب بهم بتملك أو الساعي إلى صحبتهم، وكذلك المتكبر على من يعدّهم أدنى منه ويسمى الواحد من هؤلاء نفاجاً.

(2) كلية ايتون في إنكلترا لا ينتسب إليها إلا أبناء اللوردات الأغنياء.

باستعمال «العنف في التصدي للنساء، لا بل حتى الراهبات، وتلك الشهوانية الجسدية التي أوصلته إلى غشيان المحارم». أما هيميرك فدعاه «بالرجل المولع بالجشع والمحب للتمثيليات الهزلية والممثلين، وسارق الكنيسة، والظالم لرجال الكنيسة الذي لا يرحم، ولا يتقي الله»، أما برنارد كليرفو زعيم الحركة النضالية ضده، فقد كان معتدلاً في أول الأمر عندما تقيد بهذا التعليق: «إن أناكلت هو الخراب المقيت، والعار الذي يتربع على المكان المقدس، وقد أشعل النار وأحرق مقدسات الرب في سبيل الوصول إلى غايته»، وطبقاً لما قاله القديس برنارد: «إذا كان ما يقوله الناس عنه حقاً، فهو لا يستحق أن يكون أصغر قسيس في أصغر قرية، وإذا لم يكن ما يقولوه صحيحاً فيجب علينا أن نُصِر بألا يكون رأس الكنيسة رجلاً لا عيب ولا شائبة فيه، بل يجب أن يتمتع بسمعة طيبة لا غبار عليها»، وكان هذا التعليق غريباً حقاً: فلو كانت سمعته مؤسسة على الإشاعات، وتشويه الحقائق وتحريفها، فقد كان واجب رجال الكنيسة أن يكشفوا الحقائق، ولكن نقاط الجدل ضد أناكلت كانت عبارة عن ستار دخاني، وكانت هنالك «نقطة واحدة لم تذع بشكل علني»، وهذا رأي برنارد الذي عدّ هذه النقطة عائقاً ومانعاً ألا وهي «أصله اليهودي».

ما من أحد يعلم إذا كان أي من هذه الادعاءات الأخلاقية قد حملت على محمل الجد والحق، لأننا لا نجد أي مؤرخ معاصر قد سجل تلك الحوادث، دونما انحياز أو تحامل، فبعد انقسام عام 1130م غدا العالم المسيحي منقسماً بشكلٍ مزرٍ، فأصبح في كل مكان في العالم المسيحي أسقفان ورئيسا شمامسة، ورئيسا دير، واحد يمثل إنوسنت والآخر يمثل أناكلت، ولم يسبق أن حدث مثيل لهذه الحالة، ولكن تبقى الحقيقة الراهنة وهي أن أناكلت لم ينتخب انتخاباً صحيحاً للسدة البابوية، فبالنسبة لعدوه اللدود برنارد، كان هذا الانتخاب الذي حدث عند الظهر يذكره «بخيانة اليهود الذين في تلك الساعة نفسها دقوا المسامير في جسم يسوع المسيح وصلبوه» فالتعريض والفخر في هذه الملاحظة واضح جداً فسوف تعاد وتكرر تلك الملاحظات المعادية لليهود والموجهة ضد أناكلت طيلة السنوات المريرة القادمة.

ولما كانت معظم الكنائس الرومانية تحت سيطرة آل فرانجيباني، لذلك كان على آل بيرليوني أن يستولوا عليها بالقوة، وإلاّ فلا، وقد قام إخوة أناكلت وهم: ليو، وجوردان، ويوحنا، وجايدو الذين دبروا أمر الانتخابات بعناية تامة، بتوزيع النقود حين اللزوم، والمفاوضات حين اللزوم، وقطع الوعود والعهود لمصلحة أخيهم، كما وضع هؤلاء القوة العسكرية التي امتلكتها عائلة بيرليوني بأكملها تحت تصرف أناكلت، وهكذا استولوا على كنيسة القديس بطرس (بعضهم يقول بعد خسارة عدة أرواح)، وكذلك اللاتيران، وقد كان أناكلت مصراً أن يحدث تتويجه في كنيسة القديس بطرس، وأما الاحتفالات الأخرى فتجرى في اللاتيران طبقاً للعادات والتقاليد والقانون الكنسي، وقد علم أن تتويج إنوسنت في كنيسة ماريا نوفا لم يكن يمثل إلاّ مراسيم تولي المنصب في أسقفية روما، بينما التتويج في كنيسة القديس بطرس تمثل تولي المناصب والولاية على البابوية المسكونية.

وبما أن الكنائس اللازمة لتنصيب البابوات قد استولي عليها بالقوة، لذلك نرى برنارد كليرفو يقول فيما بعد: «إنه لم يستطع أن يحصل على منصبه، ولقبه الرفيع بواسطة حياته الطيبة، أو فضائله، بل إنه اغتصب المنصب اغتصاباً بالقوة أحياناً، أو بالنار أو بالرشوات»، ولكن يمكننا أن نكيل التهم نفسها ضد الكثير من البابوات الآخرين، الذين لم نرَ بينهم إلاّ القلائل من الذين كانوا يكرهون استعمال القوة في أوائل العصور الوسطى، وقد اعتمد بعض كبار البابوات استعمال القوة والقسر، لا بل حتى المعارك الدموية، وهكذا أصبح هؤلاء البابوات أكثر شبهاً بالقادة العسكريين الحقيقيين الذين يركبون أمام الجيوش المسلحة المصطفة استعداداً للمعركة، فبينما نرى أناكلت يترك كل هذه الأمور لآله، لذلك فمن الصعب أن ندافع عن أعماله هذه بالمقاييس الحديثة المألوفة في هذه الأيام، ومع ذلك فيبدو أنه ليس من الإنصاف مهاجمته، بل إن ذلك يبدو نوعاً من الرياء والتظاهر بالغيرة على الدين، ما دمنا نرى خصمه إنوسنت مختبئاً يحميه ويحرسه جنود آل فرانجيباني المرتزقة، هذا وقد قيل أن أناكلت دعي لرؤية بعض الخرائب والأطلال في

فيزلاي وبيرغندي في إحدى سفراته عندما كان مندوباً عن البابا ، وأنه عبّر حينها عن ميله وولعه برؤية الخرائب والأطلال ، ويقال أنه تفوه بهذه الكلمات : «إنني أرغب في رؤية هذه الخرائب لأنني أبتهج بتخريب أي شيء عظيم ، فلقد تنبأ لي بعضهم أنني سأكون سبباً في تخريب هذا العالم» ، ولكن يظهر أن هذه الأفكار ملفقة ومشكوك بصحتها ، والحقيقة أن الملاحظة الوحيدة السليمة التي قيلت دون تحيز أو تحامل ، قد قالها الأسقف الحكيم العجوز بورتو ، الذي حذر الاكليروس من التحريف بقوله : «لقد عاش كل من أناكلت وإنوسنت في حاضري وحاضركم ، وحاضر الكنيسة ، وقد كانت حياتهما تتسم بالحكمة والشرف ، وقد أنجزا واجباتهما بشق الأنفس ، فلا يليق بكم أن تذكروهما وتتكلموا عنهما كلاماً كريهاً مشوباً بالتأنيب ، لأن ما قيل عنهما مبني على الإشاعات ، والكفر» .

تعين يوم الاحتفال بتتويج أناكلت وتوليه العرش البابوي في اليوم الثالث والعشرين من شهر شباط ، وقد كان هذا اليوم يوماً مشهوداً من أيام المدينة ، عمت به البهجة أرجاءها ، ولم تتزين روما منذ عهد بعيد كما تزينت في ذلك اليوم ، إذ أنها كانت مناسبة لإظهار أعظم انتصار وتفوق حققه آل بيرليوني فقد وصلوا إلى ما كانوا يحلمون به ، وتابعوه في الخفاء بإصرار وعناد ، فها هو أحد أحفاد باروخ اليهودي ، ومن نسله المباشر ، والذي يحكم آل بيرليوني ، ذلك الكردينال الذي ركع إلى جانب سرير والده المحتضر ، واستلم بركته وبركة إبراهيم وإسحق ويعقوب ، هاهو بطرس نفسه الذي كان يُدعى : (الرجل الآتي من الغيتو اليهودي) ، يتبوأ عرش البابوية ، لقد ملأت مظاهر الزينة والفرح كل مكان ، ووزعت الخمور والأموال والأطعمة بكرم وسخاء على الفقراء والمحتاجين ، وقد اصطف الاكليروس من ذوي المراتب الرفيعة بشكل جذاب ، وانتدب أسقف بورتو العجوز الذي كان قد رشح وسمى بطرس في منصب الحبر الأعظم في تلك الجلسة الدرامية للمجمع الكنسي قبل بضعة أسابيع للقيام بإدارة مراسم تنصيب البابا الجديد ، وذلك بمساعدة أساقفة أتوا من عدة أماكن من البلاد ، ولم يكن هنالك أي شك بشرعية هذا العمل ، وهذا الاحتفال ، فقد حُسب حساب جميع التفاصيل بتدقيق وبوحي من

الضمائر، وقد كانت التراتيل الدينية والأناشيد تتلى طيلة الوقت، ولدى وصول الركب إلى الكنيسة، رفع بطرس بيرليوني إلى عرش البابوية، ووضع التاج المثلث الذهبي فوق رأسه، بينما كان هتاف الجمهور وتصفيقه يشق عنان السماء، وقد تليت جميع الصلوات حسب المراسيم والعادات القديمة المتبعة بكل دقة وإتقان، وهكذا نصب أناكلت رسمياً، وكما يجب، واستعد الموكب للسير في تلك المسيرة الطويلة إلى اللاتيران حيث يستلم البابا الكنيسة البابوية، والقصر العظيم، وقد تجمهرت جماهير الشعب بشكل صفوف طويلة في الشوارع، ووقفت جماعات المثقفين والعلماء والمتنورين في أماكن محددة لأداء فروض الاحترام والخضوع المعتادة للبابا الجديد، ومن الممتع أن نعلم ماذا كان يدور بخلد المندوبين اليهود وهم ينتظرون في أماكنهم المخصصة لهم لكي يقدموا ملف التوراة لذلك البابا الذي خرج من الحي اليهودي، ولقد خطر لغريغوري أن يورد هذا الكلام: «وحالما حيت الجماهير الهادرة البابا الجديد، نظرنا إلى المندوبين اليهود، الذين كانوا ينتظرون قرب قصر كروماتيوس الفخم، يقودهم الرباني، وهم يحملون ملف التوراة، وكنا نتصور كم كان سرورهم عظيماً في هذه المناسبة، فلم يصدف في أي تاريخ من تاريخهم أن حيَّوا، واحتفلوا بأي بابا آخر بأناشيد مخلصة صادرة من القلب، كما احتفلوا في ذلك اليوم ولكن ذلك الحب كان مؤذياً على أي حال».

وفي اللاتيران أقيمت الاحتفالات العادية المألوفة: قسم تولي المنصب، وتوزيع النقود على الشعب كتثبيت لقسم الفقر، (إذا صدرت هذه الكلمات عن شخص من آل بيرليوني فهي كلمات جوفاء)، ثم الجلوس الرمزي التقليدي على عرش الرخام السماقي اللون، والصلاة الصامتة في قدس الأقداس، وحفلة الولاء المهيبة التي يشترك بها الاكليروس والنبلاء في تقديم فروض الطاعة للبابا الجديد، وكان بين الرجال الذين ركعوا أمام الباب إخوته الأربعة الذين عملوا الكثير لتحقيق حلم آل بيرليوني القديم، وأخيراً وليس آخراً أتت الوليمة التي كانت أروع ما تكون عليه وليمة في مثل هذه المناسبة، ولكن احتفظ بالعادات القديمة، فقد جلس أناكلت وحده على مائدة العيد الفخمة في عزلة تامة،

بينما قام بخدمته النبلاء، وقدم له كل واحد منهم لوناً من ألوان الطعام، وقد شارك إخوته أيضاً في هذا العمل.

ومع ذلك فلم يكن بالإمكان إخفاء الحقيقة المرة وهي أن هناك بابوين قد انتخبا في روما على الرغم من سحر وروعة المناسبة والاحتفالات، فقد كان إنوسنت لا يزال في روما آل فرانجيباني، الذين اضطروا بأن يعترفوا بأناكلت بعد شهرين، ولكنه رحل إلى بيزا عندما تحقق أنه لا يستطيع فعل شيء، وهو رهن الحفظ والحماية، ولكن لم يكن رحيله عن روما يعني أنه تنازل عن منصبه، بل على العكس كان ذلك إيذاناً ببداية العمل، وقد كان أناكلت ذكياً فلم يستخف بالمصاعب الكثيرة الآتية، ولاشك أنه توقع أن يصادف في السنوات القادمة كل ما كانت تحدثه به نفسه، من موجبات الخشية والخوف، بعد اتفاقية ورمس أصبح الاعتراف بالبابا المنتخب من قبل السلطة الزمنية أمراً طبيعياً، ولكن انقسام عام 1130م سبب وقوع مشكلة معقدة، فأي من البابوين هو البابا الحقيقي، الذي يجب أن يعترف به الملوك والحكام، وكذلك المسيحية بأسرها يا ترى؟ فقد نشط إنوسنت وسافر من بيزا إلى فرنسا، حيث كان يأمل أن يربح التأييد المعنوي الروحي لدير كلوني، وكذلك تأييد ملك فرنسا، أما أناكلت فبدأ يراسل الملوك والاكليروس ويوجه لهم كتباً مستعجلة، وفي كتابه إلى الملك الألماني لوثر وصف انتخابه بهذه الكلمات: «إن إخواننا الكرادلة الذين حرموا من حنان وعطف راعٍ لأبرشيتهم، بعد وفاة هونوريوس قد انتخبونا كحبر أعظم بإجماع منقطع النظير، من قِبل الاكليروس، وعامة الشعب»، كانت معظم الرسائل الثماني والثلاثين التي كتبها أناكلت تعالج قضية الانقسام، فلم يكن لديه متسع من الوقت لمعالجة المسائل الأخرى، ولم يتخذ أية قرارات كنسية هامة، ولم يصدر أية أوامر بابوية رسمية، ولم يدع لاجتماع أي مجمع مسكوني، وهكذا فقد حرم هذا الانقسام الكنيسة من خدمات حبر أعظم كان مستعداً للقيام بالواجبات الملقاة على عاتقه، ذلك الحبر الذي تتلمذ على أعظم علماء اللاهوت والفلاسفة، كان مضطراً أن يكرس جهوده خلال سنوات حكمه الثمانية للمشاكل السياسية، لا بل حتى العسكرية في محاولة يائسة

لإقناع العالم المسيحي أنه هو البابا الرسمي الوحيد المنتخب، ولكن الحكام لم يستجيبوا لا لكتبه التي أرسلها لهم، ولا لتدخلات المبعوثين البابويين، فقد سادت مؤامرة من الصمت عملت على وضع أناكلت في عزلة تامة منذ البداية، ولكن روما كانت معه، وهذا أمر لاشك فيه، وهكذا كانت بقية إيطاليا، وأما ميلانو فقد عمل على استرضائها، وذلك بتثبيت امتيازاتها وتفوقها المميز، وهكذا ظلت هذه المدينة القوية مع جميع الاكليروس فيها وفية موالية له حتى النهاية، وفي فرنسا حيث كان إنوسنت متفوقاً، وجد أناكلت له أصدقاء يعتمد عليهم مثل هيلد بيرت رئيس أساقفة تور، وكذلك جيرارد صاحب أنجوليم، وهو واحد من الشخصيات الروحانية في ذلك الزمن، وقد كان مقتنعاً أن أناكلت هو البابا الحقيقي، وقد عمل ممثلاً له بحماس وحكمة في وضع ميؤوس منه، وأما الحكام الزمنيون الذين أيدوا أناكلت فكان منهم وليم صاحب أكويتانيا، وروجر دوق صقلية الذي كان يطمح أن يكون أول ملك لصقلية، والذي سوف يصبح من أقوى حماة أناكلت، ثم هنالك الكنائس الشرقية، فقد كتب أناكلت عام 1130م يقول: «إن جميع الكنائس الشرقية بما فيها كنيسة القدس، وكنيسة أنطاكية، والقسطنطينية كلها معنا، ولها علاقات متبادلة ودية معنا».

ولكن كان من الواضح أن القرار الحاسم لم يكن بيد الكنائس الشرقية، بل بيد فرنسا، إذ أن ملكها لويس السادس أرسل مندوبين ملكيين لاستقبال إنوسنت عند وصوله إلى آرلس، ولكنه امتنع عن الاعتراف به رسمياً، والأمر الذي أزعج بل أوجع أناكلت هو زيارة إنوسنت لدير كلوني، حيث رحب به بطرس رئيس الدير بحرارة، فقد نسي هذا أن أناكلت كان تلميذاً من قبل في هذا الدير فضلاً عن أنه كان راهباً فيه، وصديقاً حميماً للاكليروس هناك، ولكن الحقيقة أن دير كلوني لم يعد هو مركز الثقل، ولم تعد له تلك القوة التي تؤهله ليحتل المركز الحاسم في القضايا الروحية، إذ أن القوة الفعلية قد انتقلت إلى دير كليرفو حيث رئيسه برنارد الراهب الأبيض الذي كان قابعاً في عزلته وتزمته وتقشفه وصرامته، لقد كان برنارد وحده هو القادر على أن يقرر مصير البابوية، فكان

قراره مقبولاً لدى الملوك والاكليروس معاً، وما دام أنه لم يتكلم بعد، لـذا لـن يجبره أحـد أن يتحيز لأي من البابوين.

إن خروج هذا الزاهد المتنسك من عزلته إلى عالم الشؤون الدنيوية كان حدثاً مرموقاً فوق العادة، فقبل حدوث الانقسام كان برنـارد يعـدّ راهبـاً محترمـاً، مؤمنـاً، لا يسـاوم ولا يهادن في المثل الرهبانية العليا في التزام الفقر، وإنكار الذات، فهو اللاهوتي المستقيم الذي ينكر على العقل أن يكون لـه دور فـي إقليـم الإيمـان، وكـان مبشـراً متحمساً يعتقـد أن هـذا العالم ليس عالمه لأن هذا العالم ليس مؤمناً، وكان يعتقد أنـه لا يجـوز للمسيحية أن تفـرط بذرة واحدة من التعاليم القديمة، ابتـداء مـن موعظـة الجبـل إلـى لاهـوت القديـس بولـص، وعندما كان ينظر حوله ليرى العالم المسـيحي المعـاصر لـه، لـم يجـد سـوى الخيانـة والتنكـر لمبادئ الإيمان فالخونة موجودون ضمن الاكليروس سواء ذوي المناصب العليـا أم الدنيـا، كمـا أنهم موجودون في البابوية نفسها، لا بل حتى في الأديرة، وكان كل شيء ينظـر إليـه يبـدو انحرافاً عن المثل العليا المسيحية النقية الخالصة، ويبدو كريهاً بغيضاً بالنسبة إليه، وحتى دير كلوني نفسه لم يعد ملبياً لمقاييسه العليا المميزة، فالبابوية قد اختارت الحرير والديباج، بـدلاً من ملابس بطرس وبولص البسيطة، واختارت التاج المثلث الذهبي بـدلاً مـن قبعـة الأحبـار البسيطة، والبابا نفسه أصبح حاكماً تحيـط بـه تلـك البطانـة مـن الـوزراء، ورجـال البـلاط، والمبعوثين البابويين، وجميع أجهزة الملوك الدبلوماسية، وهـذه خيانـة أخـرى، فقـد تناسـى البابوات العادات الرسولية القديمة، فلم يعد البابا راعي القطيع الذي يحمل عصاه للحفـاظ على قطيعه، ليكون مثلاً وقدوة في التقى والورع، كلا، إن هذا العالم بأجمعه سـواء أكـان دينياً أم دنيوياً، ليس هو عالم برنارد.

ومع ذلك فقد شعر برنارد وهو في هذا الوضع من العزلة والتزمت، وحتى البؤس، أنه هو ضمير المسيحية الحقيقية الصحيحة، فهو المقياس المعتمد الـذي يقـاس ويقـدر بموجبـه الجميـع، فكلمـا تعرضـت الأسـس الجوهريـة للمعتقـدات المسيحية للخطـر نـراه مسـتعداً لحمايتها، فها هو الشيطان نفسه قـد ظـهر فـي بـاريس بشـخص بطـرس أبيـلارد الـذي هـرع

الألوف من الطلاب للانضمام إليه ، إذ كان هذا عـاملاً مـن عوامـل التحـدي لبرنـارد الـذي وجد أن من واجبه أن يهزم هذا الشيطان ، وها قد مضى عام 1130م ولـم ينجـح ، بـل كـان عليه أن يناضل عقداً من السنين حتى أسكته وأخضعه ، وهكذا فقد ظـل أبيـلارد خطـراً فـي هذا العالم الجديد الذي بدأ به استيقاظ العقل والشكوك ، فانقسام عـام 1130م لـم يكـن إلاّ مظهراً من مظاهر المعركة التي خاضها برنارد ضـد أبيـلارد ، فأنـاكلت ، هـو تلميـذ أبيـلارد ، وكان يشبهه تمام الشبه حيث كان مثله متوقد الذهن ، مستنفراً دائماً ، بارعـاً ، سـريع الخـاطر إلى درجة العبث والطيش والاستهتار ، متحيزاً للحكمة والأقـوال المـأثورة ، كثـير الملـل مـن السـذاجة والمقـدرة الضئيلـة ، لا يصـبر علـى الفظاظـة أو الغبـاء ، متكـبراً ، متغطرسـاً مولعـاً بالكماليات والرفاهية ، التي كانت بمتناول يده ، نظراً للثروة التي ورثها من أبيه ، أمـا برنـارد فكان يكره كل هذه الصفات إطلاقاً ، فقد كان هو نفسه نبيلاً مولداً ومحتداً ، إذ كـان يعيـش أولاً في قصر والده ولكنه بدأ يحرم نفسه عمـداً وبشـكل مؤلـم مـن جميـع مظـاهر الرفاهيـة التي امتازت بها الحياة الارسـتقراطية ، فلـم يكـن نموذجـاً أو عينـة لصفـة واحـدة ، وهـذا مـا جعله أكثر انفعالية واتقاداً ، وسرعة غضب إذ كان يناضل في جبهتين ، يناضل الشيطان فـي الخـارج ، وأيضـاً يناضلـه داخـل نفسـه ، فقـد أصبحـت الـثروة بالنسـبة إليـه خطيئـة ، وهــذا أناكلت أمامه ثري كبير ، وقد قيل أن إنوسنت قد أثر على برنـارد تـأثيراً عميقـاً لـدى زيارتـه لدير كليرفو ، عندما وصف له ثروة آل بيرليوني ، وتوزيعهم الذهب علـى الشـعب ، وعلـى الاكليروس ، وتلك الثروات التي كان مصدرها تعامل اليهود بالربا الفـاحش ، وهكـذا فقـد ولج أناكلت باب البابوية من خلال الرشوة ، ومع أنه لم يشتر هذا المنصـب بشـكل مباشـر ، إلاّ أن آل بيرليوني قـد دفعـوا ثمـن البابويـة للمئـات مـن النـاس مـن مؤيديـهم ، وكمـا أن آل بيرليوني هؤلاء قد حصلوا علـى أموالـهم بطـرق غـير مشـروعة ، لذلـك يمكننـا أن نقـول أن أنـاكلت قـد حصـل علـى البابويـة بطريـق غـير مشـروع أيضـاً ، فالقضيـة تتعلـق بالشــخص المنتخب أكثر مما تتعلق بالانتخابات نفسها ، والحقيقة أنه حتى الأشخاص الذين لـم يعـترفوا رسمياً أن انتخـاب أنـاكلت كـان أكـثر شـرعية مـن انتخـاب إنوسـنت ، هـؤلاء يعــترفون أن

شرعية هذا الانتخاب مساوية على الأقل لانتخاب إنوسنت، ولم يكن هنالك أي نقطة قانونية للخلاف، فقد كان اهتمام برنارد ليس في شرعية العمل بل في أخلاقيته، فقد أكد إنوسنت في كل رسالة كتبها هو وأنصاره اتهام أناكلت بأبشع الجرائم وأشنعها، بينما كان أناكلت من جهة أخرى يتكلم عن خصمه بلهجة مؤدبة محترمة، ولم يهاجمه شخصياً أبداً، إذ لم يكن هنالك أية حاجة لهذا العمل، ولا مندوحة لنا عن القول إنصافاً لهذا الرجل أناكلت أنه لم يتبع أبداً أسلوب إنوسنت ولم يرد عليه بلغته في حملة الذم، وتشويه السمعة التي تعرض لها، أما برنارد فكان همه مقاومة عالم الخطيئة وكان ميدان معركته هو هذا العالم، لذلك أصغى باهتمام لما يسردونه من جرائم أناكلت المزعومة، هذا ولم يتورع إنوسنت عن اتهام خصمه بتدبير مؤامرة لاغتياله أيضاً.

ولكن انعدام الأخلاقية، ثم التبعية لأبيلارد، ثم الثروة، لم تكن كل هذه الأمور هي الاتهامات الحقيقية الموجهة لأناكلت ففي عدة وثائق نجد برنارد يشير بصراحة إلى الجريمة الكبرى، وهي أصل أناكلت اليهودي، ففي اجتماع عُقد في سالرنو التفت برنارد إلى بطرس أسقف بيزا، وتفوه بهذه الملاحظات: «إني أعلم أنك رجل عاقل، وعالم يا بطرس، أتمنى لو كثر عدد الفئات من الناس الأفاضل والعقلاء الذين ينالهم قسط من خدماتك، وأتمنى لو أن قضية أكثر عدلاً وإسعاداً قد نالت تأييدك ودفاعك، عندها والحق يقال، لن يستطيع أي فصيح أن يصمد أمام جدالك وآرائك المعقولة، ولكننا نرى اليوم أن المحبة تجبرنا أن نتكلم، وذلك لأن رداء الرب الذي لم يستطع أي يهودي، أو أي كافر أن يمزقه، نرى الآن هذا الرداء يتعرض للتمزق، إرباً إرباً، على يد بطرس ليونيس، بموافقة سيده اليهودي، واعلم يا أخي أن هنالك إيمان واحد، ورب واحد، ومعمودية واحدة، فلا يُعلم عن وجود ربين، ولا إيمانين، ولا معموديتين، وإذا رجعنا إلى التاريخ القديم، إلى أيام الطوفان، فقد كان هنالك فلْكٌ واحد، وفي هذا الفُلك نجت ثمانية أرواح من الطوفان، وأما الباقون فقد هلكوا وليس هنالك من شك أن هذا الفُلك هو رمز للكنيسة، ولكن حدث بعد ذلك أن بنى الناس فُلكاً آخر، فأصبح هنالك فُلكان أحدهما فُلك مزيف

قدر له أن يتحطم ويبتلعه البحر»، وكتب ويليامس: «إنه بالنسبة لبرنارد كان أناكلت هو يهوذا الذي خان سيده، وكان هو يهوذا لأنه من أصل يهودي»، وبعد وفاة أناكلت كتب برنارد وهو لا يخفي شماتته وفرحته إلى بطرس المبجل: «ها قد مضى وانقضى فصل الشتاء، وقد توقفت الأمطار وظهرت الأزهار في بلدنا، إن ذلك الرجل الشرير أعني الرجل الذي بدأ في تنفيذ خطايا إسرائيل، هاهو قد طواه الثرى، ومات حتف أنفه، لقد هدأت عاصفة الأسد (أي بطرس ليونيس)، ولقد انتهى أمر الشر وأصبحت الكنيسة في سلام وأمان»، والحقيقة أن هذا الفرح الذي أظهره برنارد لموت البابا لا يليق به كرجل ديني ولاهوتي مسيحي، ولكن كراهية برنارد المؤججة لعدوه لا تحتاج لتسويغ لاهوتي.

إن أعنف ملاحظة ضد أناكلت وأصله اليهودي نجدها قد وردت في رسالة كتبها برنارد إلى الملك لوثر، وذلك عندما توج روجر ملكاً على صقلية، وظهر لوثر في روما على رأس جيش صغير، وهنا طلب برنارد الراهب عملاً حربياً أكثر جدوى وتأثيراً منه ضد روجر، وتكلم عن أناكلت بلهجة موجهة ضد اليهود، وهو يشير إلى حادثة تتويج لوثر في روما: «لقد وصلت إلى ذروة الجلال والنبل والسمو الإمبراطوري، ولقد حصلت على هذا السمو دون استعمال أية قوة مادية دنيوية، وهذا ما يُظهر رجاحة عقلك وعظيم إيمانك، ولكن ما دام أن الأرض قد ارتجفت أمام جيش صغير كجيشك، فكم هو الفزع الذي نتوقع أن يصيب أفئدة أعدائك، لو أنك قصدت ضربهم بيد من حديد، ولكني لا أود أن أثير الفتنة إلاّ أنني على يقين أن من واجب كل مدافع ومؤيد للكنيسة أن يَرد، ويتفادى نقمة أولئك المنقسمين الذين يهاجمون الكنيسة، وكما أنها لإهانة كبرى للمسيح أن يعمد واحد من بذور وجراثيم اليهود، إلى اغتصاب عرش بطرس الرسول، كذلك لاشك أن رجلاً يجعل نفسه ملكاً لصقلية سيكون مُلحقاً الأذى نفسه بالإمبراطور»، وعندما عدل برنارد عن عزلته وإقامته في دير كليرفو وبدأ بالانفتاح والتجوال، قضى ثماني سنوات طويلة دون انقطاع متجولاً بين فرنسا، وألمانيا، وإيطاليا في خدمة حملة صليبية شخصية ضد أناكلت اليهودي، الذي اغتصب عرش بطرس الرسول، الذي دنست أسرته

اليهودية الكنيسة، تلك الأسرة التي يخدم أفرادها أغراض أبيلارد الهرطقية، لتعزيز تمجيد التعاليم الشيطانية، تحت سمع الحبر الأعظم وبصره.

وبدأت الأحداث الدرامية تتعاقب بسرعة، فقد اجتمع الملك الفرنسي مع الاكليروس في إيتامبي، وهي مدينة تقع بين باريس وأورليانس، حيث ظهر برنارد لأول مرة إلى جانب إنوسنت الذي عده برنارد البابا الوحيد الشرعي، ولم يحاول أحد أن يشكك في شرعية الانتخاب، وقد تُلي في الاجتماع تقرير عدّ الأشخاص الذين انتخبوا إنوسنت أرجح عقلاً، وأنضج تفكيراً من أولئك الذين انتخبوا أناكلت ومع أن هذا العمل يعد حيلة أو ذريعة أكثر منه تقويماً، نجد أن برنارد لا يوافق على هذا العمل فحسب، بل بدأ بالإدعاء أن ناخبي إنوسنت كانوا أكثر عدداً، ويشكلون أغلبية ساحقة، ولكن لم يكن هذا صحيحاً، إنما لم يناقضه أحد في هذا القول، فقد قررت فرنسا نهائياً أن تكون ضد أناكلت، وهكذا فضل كل أولئك الذين يشكون في صحة وعدالة هذا القرار أن يلتزموا جانب الصمت، وأصبح برنارد صديق إنوسنت الحميم الملازم له، الذي لا يكل ولا يمل في العمل لأجله ولمصلحته، وقد ذهبا معاً إلى دير كليرمونت حيث أعلن أول نداء لإيقاد نار الحملات الصليبية، وحيث عقد مجمع كنسي في شهر تشرين الثاني، وبناء على وصايا برنارد ونفوذه، تقرر منع رجال الاكليروس من دراسة القانون والطب، وكان هذا القرار في جوهره نكاية بأبيلارد وموجهاً ضده، كما كانت قرارات المجمع موجهة ضد أناكلت تلميذ أبيلارد المخلص.

وبعدها دعا لوثر الملك الألماني إلى اجتماع عقد في لييج في ربيع عام 1131م، حاول فيه لوثر إلغاء مقررات اتفاقية ورمس، على أن يعترف هو بإنوسنت، ولكن دير كليرفو لم يستسغ هذه المحاولة، ولم يوافق عليها، وأخيراً خضع لوثر وسحب اقتراحه، وهذا ما حدث في إنكلترا حيث كان لأناكلت بعض النفوذ والتأثير، منذ كان مندوباً بابوياً هناك، ولهذا حدث بعض التردد في الاعتراف بإنوسنت، ولكن أخيراً تبدد هذا التردد وانقشع الوضع وخسر أناكلت، وهكذا أصبح هذا منعزلاً، ولقد كان أناكلت يفهم ويدرك ذلك قبل أن تعقد كل هذه الاجتماعات، ومع ذلك فقد ظل مركزه في روما، وفي إيطاليا قوياً كما كان.

بدأ أناكلت يبحث حوله ليجد حليفاً عسكرياً وسياسياً بعد أن تخلت ألمانيا وفرنسا عنه، وأخيراً وجد ضالته المنشودة في روجر النورماندي دوق صقلية، ففي عام 1130م وافق أناكلت على تنصيب روجر ملكاً على صقلية، وفي عشية عيد الميلاد من السنة نفسها حصلت حفلة التتويج المهيبة بحضور ممثل عن البابا، ولم يحضر أناكلت حفلة التتويج شخصياً، بل حضرها عدة من إخوته من آل بيرليوني (وقد قيل أن روجر تزوج من أخت أناكلت، ولكن ليس هنالك أية وثيقة رسمية تثبت هذا القول)، وقد كانت السنوات العشر التالية حروباً بين روجر وقوات لوثر ولويس، يدعمها أولئك الإيطاليون الذين كانوا يخشون تسلط النورمان، وقد خسر روجر بعض المعارك ولكنه أثبت مقدرته في النهاية فانتصر، واعترف به حتى إنوسنت ملكاً لصقلية وقسم كبير من جنوب إيطاليا، وقد أثبت أنه واحد من حكام أوروبا الأقوياء، ومؤسس مملكة صقلية التي أصبحت أعظم قوة بحرية في البحر الأبيض المتوسط.

إنه من نافلة القول أن نذكر أن البابا إنوسنت استطاع أن يصل إلى روما لحضور حفلة تتويج الملك لوثر المرتقبة، تحيط به هالة من الاحتفالات لا تخلو من التقدير والاحترام، ولم يكن حضور الملك لوثر على رأس جيش أقل أهمية، فلقد أصبح أناكلت البابا الوحيد في روما على الرغم من أنه قد حُرم مرتين، وعدّ بابا غير شرعي، خسر نفوذه وسلطته في معظم أقطار أوروبا الغربية المسيحية، فقد كان يرقب عن كثب الغزوات العسكرية وهو قابع في معاقل أسرته القديمة في سانت أنجيلو ومسرح مارسيلوس، ولكن لم تكن تهمه سلامته الشخصية قدر تأكده من إخلاص روما وشعبها ورجال الدين فيها، فقد كان يحكم ذلك الجزء من العالم المسيحي الذي اعترف به أعني روما، وإيطاليا والكنائس الشرقية.

وفي شهر كانون الأول عام 1137م توفي الملك لوثر في كوخ صغير في جبال الألب التيرولية، وهنا تولى روجر الثاني الدور الذي كان لوثر قد رفض القيام به، وهو البت في قضية الانقسام المؤسس على الوثائق والمجادلات القانونية، فقد قابل برنارد في سالرنو،

وأصغى ملياً لمَا أورده كلا الطرفين، ولكنه لم يتخذ قراراً معيناً، وفي 28 كانون الثاني عام 1138م توفي أناكلت، ولم تتوفر لدينا أية معلومات أو وثائق تذكر الظروف التي أحاطت بموته، فقد حدث في زمنه ما فيه الكفاية من الحزن والخيبة وانكسار القلوب في تلك الأعوام الثمانية التي دام بها حكمه، كآخر بابا من الغيتو اليهودي تلك الأعوام التي تقصم ظهر أقوى الأقوياء.

هذا وقد توفي أيضاً بطرس بيرليوني وهو حفيد حفيد باروخ ذلك المرابي الذي اتخذ اسم بندكتوس كريستانوس عام 1030م، وكان بطرس هذا هو الأمل الحي لتلك الأسرة الأرستقراطية المالية، ولم نسمع أي خبر عن جنازته فقد قررت العائلة دفنه في كنيسة سانتا ماريا في تراستفيري، تلك الكنيسة التي شهدت تحول أجداده إلى الديانة المسيحية، والتي خدم بها بطرس نفسه كرئيس للشمامسة، وهنالك من المفترض أن يكونوا قد نصبوا له شاهداً على قبره يحمل اسم أناكلت الثاني الحبر الأعظم للكنيسة الكاثوليكية من عام 1130 – 1138م، وسرعان ما دخل إنوسنت الثاني روما بعد وفاة أناكلت بصفته البابا الوحيد، وقد قدم له أهالي روما بما فيهم إخوة أناكلت فروض الطاعة، وعندها أصدر أمراً بهدم كنيسة سانتا ماريا في تراستفيري حيث كان قد دُفن عدوه أناكلت وأن تشاد كنيسة جديدة في مكانها في الغيتو القديم في روما في ساحة القديس فرانسكوس وهكذا اختفى قبر أناكلت مع اختفاء الكنيسة القديمة، وحيث دُفن أناكلت تجد الآن قبر إنوسنت الثاني.

وفي أثناء حكم أناكلت بني كنيس جديد في الغيتو في ساحة ديلا اتليتا حيث يمكن أن يرى في هذه الأيام.

فهل من الممكن يا ترى أن نجد اليهود أنفسهم الذين حيوه بحماس يوم تتويجه في قصر كرماتيوس ينشدون له أناشيد الصلاة القديمة وهي «إلميل رخاميم Elmale Rachamim» تلك الصلاة اليهودية المختصة بالأموات.

شجرة نسب البابوات البيرليونيين اليهود

يرجع الفضل في اكتشاف نسب البابا غريغوري السادس وغريغوري السابع إلى كتاب ألفه بيتر فيديل وهو «أسرة البيرليوني».

وهو الذي وضع الأسس العلمية لمناقشة نسب الغريغوريين وأناكلت الثاني.

إن انتساب أناكلت إلى آل بيرليوني لا يتطرق إليه الشك أبداً، فهنالك وثائق تعود إلى ذلك الزمن تبرهن على صحة قرابته بشكل لاشك فيه مطلقاً، وأما فيديل فقد أخذ على عاتقه تزويدنا بوثائق لاتينية معاصرة لإثبات قرابة هذه العائلة للبابوين الآخرين، وقد كان من المنتظر أن تقابل هذه الادعاءات بشيء من المقاومة، إذ قد ادعى الألماني ماكس تانجل الذي أرّخ للعصور الوسطى في مقاله المطول عن غريغوري السابع أن من دواعي غضبه أنه لم يصادف أي رأي يقول أن هيلد براند العظيم من أصل يهودي، فقوله هذا تكمن به بعض الآراء اللاسامية، ولكننا يجب أن ننظر إليه بعين التقدير، فالمؤرخ الإيطالي للعصور الوسطى المدعو ج. ب. بورنيو في كتابه:

L'elezione, e, la Disposizione di Gregorio VI

قد اشترك في حلبة هذا النزاع وكان مناصراً لفيديل بينما نجد المؤرخ بيكوتا في كتابه Della supposta parentela ebraica di Gregrio VI e Gregorio VII [1942] لا يتفق معهم في الرأي ويخالفه بشكل عنيف.

أما (ريجنالدين بول) الإنجليزي فقد لخص ما استجد له من المواقف بما يلي:

نجد أن :

1 – هنالك تصريح حديث يذكر أن جراتيان (غريغوري السادس) هو بطرس ليونيس .

2 – هنالك مخطوطة ومن المحتمل أن تكون حديثة أيضاً تؤكد أنه هو عم بطرس .

3 – ثروته العظيمة التي تدل على أنه ينتمي إلى أسرة من الرأسماليين .

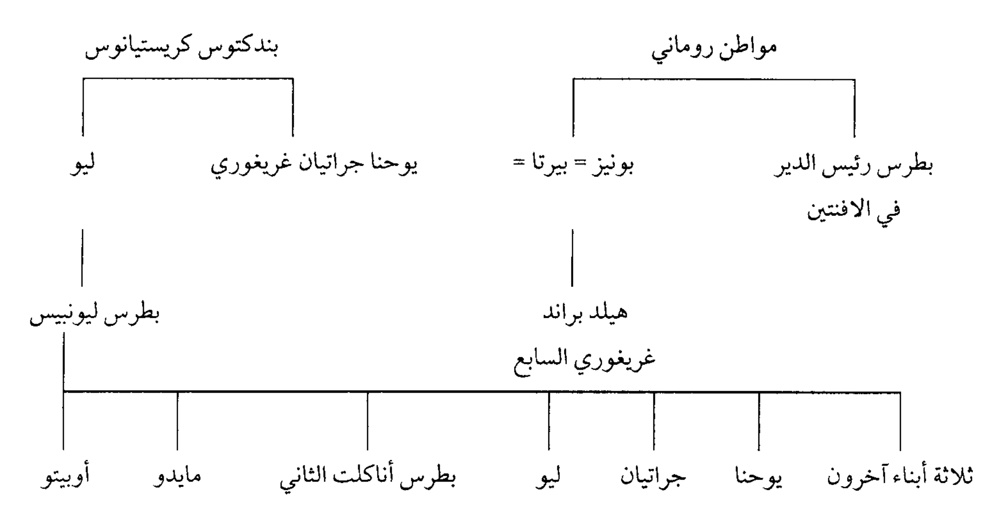
4 – صلته الوثيقة بهلدبراند (غريغوري السابع) الذي جعله وريثه فيما بعد .

5 – إن هيلدبراند قد اشتهر عنه فيما بعد أنه يتصل من جهة الأم ببطرس ليونيس .

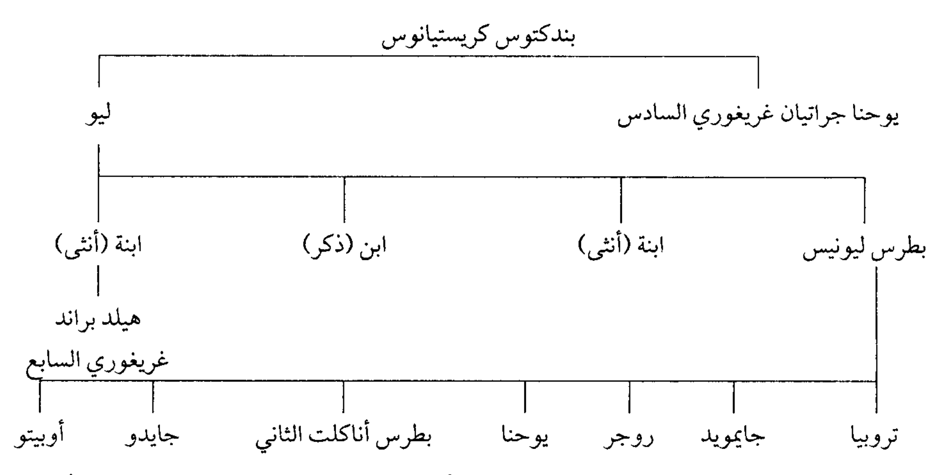
6 – كان متصلاً بجراتيان بشكل يوحي بوجود قرابة بينهما .

7 – يقال عنه أنه كان لديه علاقات عمل مع بطرس ليونيس .

8 – عندما نشط في إيجاد العلاقات ذات الطابع اللاهوتي تمتع بالدعم والتأييد الثابت على يد بطرس ليونيس .



ومع أن هذا المخطط يعترف بالقرابة الدموية في حالتي غريغوري السادس وأناكلت الثاني ، إلا أن بول لا يشك أن هنالك اختلاطات دموية لثلاثتهم ، إلاّ أن شجرة النسب التي يقدمها بول تختلف عن شجرة النسب التي اقترحها فيديل وهي تظهر فيما يلي :



ولهذا فمن المتفق عليه بصورة عامة الآن أن البابوات الثلاثة كانت تربطهم أواصر النسب بأسرة بيرليوني وهي عائلة يهودية متحولة إلى المسيحية.

ونجد أنه حتى تاريخ كمبردج للعصور الوسطى المحافظ يقبل بهذا الرأي، ونجد أن القائمة الرسمية للقديسين الكاثوليك تشير إلى الأصل اليهودي لغريغوري السابع، إنني وبصراحة، لا أهتم كثيراً بالنقاء العنصري، ولا أهتم بقدر الأرطال من الدم اليهودي التي يحملها أي إنسان في عروقه.

فإذا قررنا أن أناكلت الثاني كان حفيد حفيد رجل يهودي، وأنه ابن والدين مختلطين، عندها تصبح القضية برمتها تدعو إلى السخرية، ولكن أناكلت الثاني كان يهودياً بنظر معاصريه وقد هوجم بسبب ذلك، ونحن هنا لا نعالج قضية الحقائق أو التخيلات، إنما نعالج قضية أسرة معروفة، وعلاقة هذه الأسرة ببابوات ثلاثة، فليس هنالك أي مصادر يهودية عن روما في القرن الحادي عشر، وأن الكتاب اليهود الذين يوردون تاريخ اليهود في روما وخصوصاً ريجر، وفوجلستاين اللذين يعالجان قضايا أسرة بيرليوني في كتابهما الشهير، يأسفون لهذه العلاقة، ويلاحظ بول بمرارة وسخرية، أن هؤلاء الكتاب لا يهتمون باليهود المتحولين ولكن هذا بمجمله ليس من العدل في شيء، فهنالك كثير من المصادر الوسيطة اللاتينية، وإن أولئك المهتمون بوجهات النظر العلمية يمكنهم أن يجدوا هذه الحقائق مدونة في تاريخ غريغوري، وهو الكتاب النموذجي الفذ الذي يصف روما في العصور الوسطى (المجلد الرابع) فضلاً عن الكتب الأخرى التي تبحث عن آل بيرليوني والتي تجدها في ثبت المراجع فيما يلي:

جريدة المصادر والمراجع

1 - اميلينو ، أبه ا . ، القديس برنارد وانشقاق أناكلت الثاني :
مجلة المسائل التاريخية .
2 - ارميلنج ، ماريانو :
كنائس روما من القرن الرابع حتى التاسع عشر روما ، 1941 .
3 - بارون ، سالوو . :
تاريخ اليهود الاجتماعي والديني ، المجلد الثالث والرابع .
4 - بارون ، سالوو . :
العامل (التأثير) اليهودي في حضارة العصور الوسطى : محاضر جلسات الأكاديمية الأمريكية للبحث اليهودي 1942 (12) مجلد .
5 - بارك ، و .ك . :
أصول عالم العصر الوسيط ، 1958 .
6 - باكسمان ، ر . :
سياسة البابوات ، البرفلد ، 1879 .
7 - بيلوف ، جورج فون :
مقالة اليهود في موسوعة العلوم الجرمانية القديمة 1915 ، المجلد الثاني ، ص617 .
8 - بن يحزقل ، موردكال :
سفر معاسيوط 1958 .
9 - برناردي فيلهلم :
لوتار من سوبلنبرج ، لايبزيغ ، 1879 .
10 - بلوخ ، هربوت :
انشقاق أناكلت وتزويرات جلانفوي لبطرس رئيس دير مونت كازينو ، ترابينيو 1952 ، المجلد الثامن .
11 - بلومنكرانز ، برنارد :
اليهود والمسيحيون في العالم الغربي : عام (430 - 1096) ، باريس 1960 .
12 - بورينو ، ج .ب :
انتخاب وتنصيب البابا غريغوري السادس ، أرشيف الجمعية الملكية في روما للتاريخ البابوي ، المجلد 39 .
13 - بروفه ، بيتر (من الآباء اليسوعيين) :
التبشير اليهودي في العصور الوسطى ، روما 1943 .
14 - بروفه ، بيتر (من الآباء اليسوعيين) :
التشريع الكنسي حول اليهود المعمدين .

أرشيف الحق الكنسي الكاثوليكي 1941 ص121 .
15 – تاريخ كمبردج الاقتصادي لأوروبا :
كمبردج 1952 ، مجلدان .
16 – تاريخ كمبردج للعصور الوسطى :
كمبردج 1929 ، 5 مجلدات .
17 – ككينون ، وليام ر . :
تاريخ المسيحية في العصور الوسطى ، نيويورك 1960 .
18 – كارو ، جورج :
التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لليهود في العصور الوسطى والعصر الحديث ، لايبزيغ 1908 ، المجلد الأول ص204 وما يليها .
19 – كاروس – ويلسون ، ا . :
المغامرات التجارية في العصور الوسطى ، لندن 1955 .
20 – كاسبر ، اريش :
روجر الثاني وتأسيس المملكة الرومانية الصقلية ، 1904 .
21 – كومايري ، غابريل :
أبيلارد وتأسيس الجامعات وتاريخها الباكر ، 1893 .
22 – مراسلات البابا غريغوري السابع :
نيويورك 1932 .
23 – كوريتس ، ادموند :
روجر الصقلي والنورمانديون في إيطاليا السفلى ، لندن ونيويورك 1912 .
24 – دانيل – روبس هـ . :
الكاتدرائية والحملة الصليبية . دراسات عن الكنيسة في العصور الوسطى ، لندن 1956 .
25 – دو ، ك :
ضريبة القديس بطرس ، باريس 1907 .
26 – ديلار ، وا . :
القديس غريغوري السابع : السنوات الأخيرة لبابويته .
مجلة المسائل التاريخية 1885 المجلد 38 .
27 – دويتش ، س .م . :
بطرس أبيلارد – عالم لاهوت مفكر في القرن الثاني عشر ، 1883 .
28 – دوبش ، الفونس :
الأسس الاقتصادية والاجتماعية للحضارة الأوربية ، لندن 1937 .
29 – ايلس ، س .ي :
القديس برنارد رئيس دير كليرفو 1890 .

30 – ايرنبرغ ، ريشارد :
دور البنوك في الاقتصاد الوطني في القرون 11 – 17 في موسوعة العلوم الدولية 1925 .
31 – فابر ، ب :
أبحاث عن ضريبة القديس بطرس في إنجلترا في العصر الوسيط ، روما 1892 .
32 – فابر ، ب :
أبحاث حول تاريخ ضريبة القديس بطرس في القرون (11 – 15) في مجلة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي 1896 المجلد الرابع .
33 – جرستبرغ ، اوتو :
دراسات عن تاريخ طبقة النبلاء في روما في نهاية القرن العاشر في مجلة دريسدن التاريخية 1936 – 37 .
34 – جيريك ، اوتو :
النظريات السياسية في العصور الوسطى كمبرج 1958 .
35 – جيسيبريشت ، فيلهلم فون :
تاريخ العصر القيصري الألماني 1869 .
36 – جيتمان ، فليكس :
دعاوى البابوات الانتخابية حتى نهاية حقبة افينيون ماربورغ 1931 .
37 – جوتز ، فالتر :
نشأة الكومونة الإيطالية في العصر الوسيط الباكر ، ميونيخ 1944 .
38 – جوتين ، س .د . :
من البحر المتوسط حتى الهند ، مجلة سبيكولوم 1954 المجلد 29 .
39 – جولد شميت ، ل . :
التاريخ العالمي للحق التجاري ، شتوتغارت 1891 .
40 – جونتارد ، فريدريش :
البابوات والمجامع المقدسة ، ميونيخ 1963 .
41 – بن جوريون ، م .ي :
يوداس النبع ، برلين 1934 .
42 – غريغوري ، فرديناند :
تاريخ مدينة روما في العصور الوسطى ، المجلد الرابع .
43 – جرينار ، هارتمان :
تاريخ روما والبابوات في العصور الوسطى ، لندن ، 1912 ، 3 مجلدات .
44 – جودمان ، م . :

تاريخ التربية والثقافة عند اليهود الغربيين خلال العصور الوسطى والحديثة، 1880 – 1888.
45 – جوتمان، فليكس:
دعاوى البابوات الانتخابية حتى نهاية حقبة افينيون ماربورغ 1931 (أنظر رقم 36).
46 – هامبى، كارل:
قمة العصر الوسيط الأوروبي في تاريخ بروبولين، برلين 1932.
47 – هاوك، البرت:
التاريخ الكنسي لألمانيا، 1896.
48 – هير، فريدريش:
عالم العصور الوسطى في أوروبا 1100 – 1350 كليفلاند ونيويورك 1962.
49 – هندرسون، ارنست:
وثائق تاريخية مختارة عن العصور الوسطى، لندن 1925.
50 – هوفمان، م.:
تجارة اليهود النقدية في العصر الوسيط 1912.
51 – هومو، ميون:
روما العصر الوسيط من 476 – 1420 باريس 1956.
52 – باكوبس، جوسف:
المساهمة اليهودية في الحضارة، فيلادلفيا 1919.
53 – يلنيك، ا.:
بيت هاميدراش، القدس 1938 المجلدان 5 و 6.
54 – يوردان، كارل:
حول السياسة المالية البابوية في القرنين 11 و 12 مصادر وأبحاث مستقاة من المحفوظات والمكتبات الإيطالية 1933 – 1934 المجلد 25.
55 – كير، ب.:
الاقطاعات التي منحها البابوات للأمراء النورمان في جنوب إيطاليا من عام 1059 – 1192 برلين 1934 أكاديمية العلوم البروسية، قسم اللغات والتاريخ.
56 – كر، ب:
صك الأرجوان للملك روجر الثاني الممنوح من بيت بيرليوني. أرشيف الجمعية الملكية الرومانية لتاريخ البابوات المجلد 24.
57 – كولمل، ف.:
روما والدولة الكنسية في القرنين العاشر والحادي عشر. في أبحاث حول التاريخ الوسيط والحديث جزء 78 برلين – غروفالد 1935 ص135.

58 – لاجارد ، اندريه :

الكنيسة اللاتينية في العصور الوسطى ، ادنبره 1915 .

59 – لوفور ، جرترودفون :

البابا من الغيتو ، برلين 1934 .

60 – ليمان ، يوليوس :

الموسوعة المصرفية والتجارية للعلوم الاجتماعية لندن 1930 المجلد الثاني .

61 – ليون ، هاري :

اليهود في روما القديمة 1960 .

62 – لويس ، أرشيبالد :

القوة البحرية والتجارة في البحر المتوسط من 500 – 1100 برنستون 1951 .

63 – ليبه ، جورج :

اليهود .

شتوتغارت 1902 .

64 – لوب ، ايسيدور :

تأملات عن اليهود ، مجلة الدراسات اليهودية 1894 المجلد 28 .

65 – لوبيز ، ر .س . :

أرستقراطية المال في العصور الوسطى الباكرة ، مجلة سبيكولوم المجلد 28 .

66 – لوبيز ، ر .س . :

مشكلة فاصلة .

في المجلة التاريخية 1947 .

67 – لوبيز ، ر .س . :

بعض مدن القرن العاشر (منشورات عن العصر الوسيط والنهضة) 1955 المجلد 8 .

68 – لوبيز وريموند :

التجارة في العصور الوسطى . المجلة الفصلية اليهودية مجلد 35 .

69 – لوز ، بيير دي :

تاريخ البابوات ، باريس 1960 .

70 – مان ، هوراس ك . :

حياة البابوات في العصور الوسطى الباكرة ، لندن 1925 .

71 – ماثيو ، ا .هـ . :

حياة زمن هيلد براند – البابا غريغوري السابع ، لندن 1901 .

72 – ميلانو ، أتيليو :

الغيتو في روما ، روما 1964 .

73 – مول باخر ، ا . :

انتخاب البابا في عام 1130 المختلف فيه، اينسبروك 1876 .
74 - نيلسون ، ب .ن . :
فكرة الربا، برنستون 1949 .
75 - نيومان ، :
التأثير اليهودي على حركات الإصلاح للمسيحية. نيويورك 1925 .
76 - نونان ، جون ت . (الابن) :
التحليل العقلاني للربا، كمبرج 1957 .
77 - نوبلينغ ، اويجن :
الجاليات اليهودية في العصور الوسطى، اولم 1896 .
78 - اولسنر ، توني :
مكانة اليهود في التاريخ الاقتصادي - الكتاب السنوي لمعهد ليوبيك، لندن 1962 .
79 - اوفرمان ، ا . :
الكونتيسة ماتيلدا التوسكانية وعلاقاتها. اينسبروك 1895 .
80 - بالمبو ، ب .ف . :
انشقاق عام 1130، روما 1942 .
81 - بانينبورغ ، ا . :
دراسات عن تاريخ الدوقة ماتيلدا أميرة كانوسا، 1872 .
82 - باركس ، جيمس :
اليهودي في مجتمع العصور الوسطى، 1938 .
83 - بيرشرون ، رينيه :
الطرق الرومانية، باريس 1950 .
84 - بيكوتا ، ج .ب :
حول القرابة العبرية المفترضة لغريغوري السادس وغريغوري السابع. الأرشيف التاريخي الإيطالي 1942 .
85 - بيرين ، هنري :
مدن العصور الوسطى برنستون 1949 .
86 - بولازو ، ترزو انطونيو :
من حصن سانت انجلو إلى بازيليكا القديس بطرس روما 1948 .
87 - بول ، ريجينالد لين :
بندكت التاسع وغريغوري السادس جلسات الأكاديمية البريطانية 1917 - 1918 .
88 - بول ، ريجينالد لين :

أسماء وأرقـام البـابوات في العصـر الوسـيط المجلـة التاريخيـة الإنكليزيـة ، العـدد 32 ، 1917 .

89 – بول ، ريجينالد لين :

الكرونولوجيا البابوية في القرن الحادي عشر المجلـة التاريخيـة الإنكليزيـة ، العـدد 32 ، 1917 .

90 – راشدال ، هاستينغ :

الجامعات في العصور الوسطى 3 مجلدات 1936 .

91 – رنوارد ، ي . :

الوسطاء الإيطاليون في العصر الوسيط ، باريس 1949 .

92 – روريك ، فريتز :

المدينة الأوروبية في العصر الوسيط ، غوتنكن 1955 .

93 – روت ، سيسيل :

تأهيل الأطباء اليهود في العصور الوسطى ، سبيكولوم 1953 .

94 – روفيه ، ريموند دي :

المال والصيرفة والقروض في مدينـة بـروج فـي العصـر الوسـيط ، ماساشوسـتس 1948 .

95 – رنسيمان ، ستيفن :

تاريخ الحروب الصليبية ، كمبردج 1953 ، 3 مجلدات .

96 – شاوبه ، ا . :

التاريخ التجاري للشعوب الرومانية ، ميونيخ 1906 .

97 – ماله ، ف .ي . :

دراسات عن انشقاق عام 1130 م ، 1961 .

98 – شيبر ، أيجناتز :

بدايات الرأسمالية عند اليهود الغربيين ، فيينا 1907 .

99 – شولته ، الويس :

تاريخ التجارة والمواصلات في العصور الوسطى ، لايبزيغ 1900 .

100 – سايدليمر ، ميكائيل :

تيارات التفكير الوسيط ، اوكسفورد 1960 .

101 – سوليرو ، سيلفيو :

تاريخ البابوات (بابوات العصر الوسيط) ، تورينو 1938 المجلد الثاني .

102 – سوتيرن ، ر .و . :

تشكل العصور الوسطى ، لندن 1953 .

103 – شتاين دورف ، ا . :

حولية الإمبراطورية الألمانية خلال حكم هينريش الثالث. لايبزيغ 1881 المجلدات الأول والثاني.

104 – **ستورس ، ر.س. :**

برنارد صاحب كليرفو: الأزمنة، الرجل وأعماله. نيويورك 1893.

105 – **تانجل ، م. :**

غريغوري السابع ، هل هو من أصل يهودي؟

الأرشيف الجديد العدد 31، 1906.

106 – **تايلر ، هنري اوسبورن :**

الفكر في العصر الوسيط. كمبردج 1959 مجلدان.

107 – **تومبسون ، وستفال :**

التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعصور الوسطى، نيويورك 1928.

108 – **فاكندارد ، الأب 1. :**

القديس برنارد وانشقاق أناكلت في فرنسا. مجلة المسائل التاريخية العدد 43.

109 – **فاكندارد ، الأب ا. :**

حياة القديس برنارد، راهب كليرفو، باريس 1895.

110 – **فوجل شتاين ، هرمان :**

يهود روما، فيلادلفيا 1940.

111 – **فوجل شتاين ، ريجر ، باول :**

تاريخ اليهود في روما، برلين 1896.

112 – **فولكر – فيللي ستون :**

تاريخ الكنيسة المسيحية، نيويورك 1919.

113 – **وينت ، سيغفريد :**

المصارف فقرة 2 (العصر الوسيط) في موسوعة العلوم الاجتماعية 1956.

114 – **ويليامس ، ووتكين :**

القديس برنارد راعي دير كليرفو، وست منستر 1952.

115 – **ويلي ، كورنيليوس :**

بدايات إصلاح الكنيسة في القرن الحادي عشر، ماربورغ 1859 و 1863.

116 – **زازيرا :**

حول الأشراف في إيطاليا، ميلانو 1621.

117 – **زيما ، د. :**

آل توسكانا وآل بيرليوني في أزمة روما في القرن الحادي عشر.

تراديتيو 11، 1944.

118 – **زوبفل ، ريتشارد :**

انتخابات البابا، الانتخاب الثنائي لعام 1130، غوتنكن 1871.

المحتوى

الموضوع	الصفحة
تقديم	5
تمهيد	13
أسطورة البابا اليهودي	16
الفصل الأول :	
الانبثاق من الغيتو اليهودي	21
الفصل الثاني :	
غريغوري السادس والسنوات الألف الأولى	57
الفصل الثالث :	
غريغوري السابع وهنري الرابع والصراع على التتويج	137
الفصل الرابع :	
أناكلت الثاني وأبيلارد وبرنارد أسقف كليرفو	223
شجرة نسب البابوات البيرليونيين اليهود	273
جريدة المصادر والمراجع	277

يحتاج موضوع البابوات لأكثر من كتاب و ذلك لأهمية المنصب البابوي الذي تنافس عليه الكثيرون.

و تمكن أكثر من أربعين رجلاً من الحصول على هذا المنصب عن طريق الشراء.

يعرض الكتاب حكاية أسرة يهودية تجارية ، كانت من أبرز أسر روما استطاعت أن تستحوذ على العرش البابوي لوقت طويل بعدما تظاهرت بالتحول إلى المسيحية ، لأن اليهودي عندما يتعمّد ، أو يعلن عن دخوله بديانة أخرى ، يقوم بتجديد إيمانه بيهوديته حيث إن اليهودي هو الأقدر على التكيف و إبطان ما لا يظهره .

يعرض المؤلف واكيم برنز (الذي كان حاخاماً لدينة نيويورك) من خلال الكتاب معلومات مهمة و ثمينة جداً تثير إشكاليات كبيرة.



